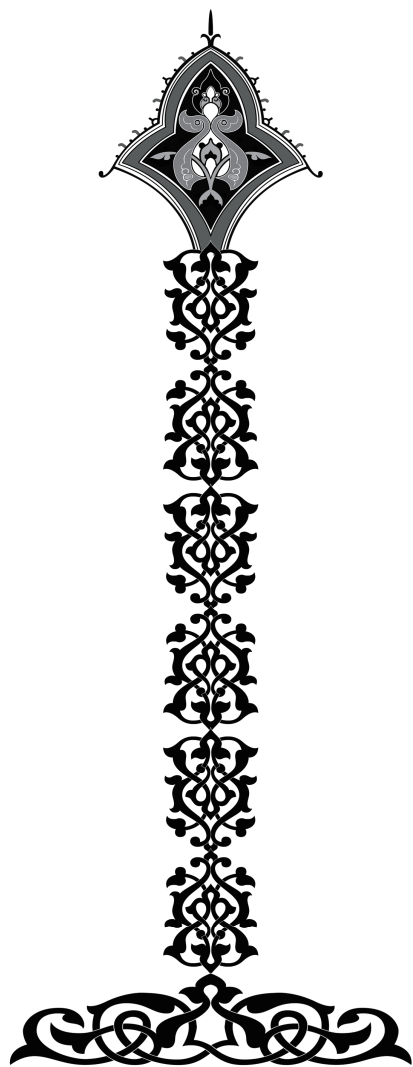




العلامة الشَّيْخ

صَيَّادٌ وَحَبِيبٌ كَرِيمٌ
مَلِكٌ أَلِيمٌ

حَيَاتُهُ - عِلْمُهُ - شِعْرُهُ



دار الرواد للنشر

PIONEERS PUBLISHING HOUSE

سوريا - دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي

هاتف : 2227189 - 2228261 - 2215123 (+963-11)

فاكس : 2228380 (+963-11) - ص.ب : 4943

e-mail: rowad@aloola.sy

العلامة الشيخ

صائد وحبيبكم الميرزا انبي

حياته - علمه - شعره

بقلم تلميذه

الدكتور أحمد محمد سعيد السعدى



الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ

٢٠٠٩ م

يُمنعُ شرعاً وقانوناً الاقتباسُ والنسخُ والتخزينُ أو استعمالُ أي جزء من هذا الكتاب أو حفظ المعلومات واسترجاعها بالوسائل العادية أو الإلكترونية أو التسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من صاحب الحقوق.

ISBN (ردمك): ٩٧٨-٩٩٣٣-٤٠١-٠١-٦

العنوان: الشيخ صادق حبنكة الميداني

(حياته - علمه - شعره)

المؤلف: د. أحمد محمد سعيد السعدي

الموضوع: دراسات إسلامية (التراجم والسيرة)

عدد الصفحات: ٤٦٤ صفحة

قياس الصفحات: ٢٤ × ١٧

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان

المحتويات

الإهداء.....	١٧
أبيات في رثاء الشيخ.....	١٨
خلاصة عن حياة العلامة الرَّاحل الشيخ صادق حَبَّكة الميداني.....	١٩
قالوا في الشيخ.....	٢١
مقدمة.....	٢٣

الفصل الأول

الولادة والنشأة.....	٣٩
الحيُّ الذي ولد فيه :	٤٢
عائلة الشيخ:.....	٤٢
صلاح والديه:.....	٤٣
الجوُّ العلميُّ الذي وُلِدَ فِيهِ الشيخ:.....	٤٧
فضل العلامة الشيخ حسن حَبَّكة على أخيه الشيخ صادق تَغَمَّدَهُمَا اللهُ بِرَحْمَتِهِ: ..	٤٩

الفصل الثاني

حياته الخاصة.....	٥٣
زوجتا الشيخ وأولاده:.....	٥٥
أعمال الشيخ وموارد رزقه:.....	٦٧

الفصل الثالث

- الحياة العلميّة ٧١
- طلب الشيخ للعلم ومنهجه في تلقّيه: ٧٣
- دروس الشيخ ومنهجه في تعليم العلم: ٨١
- طبقات طلابه: ٩٨
- منهج الشيخ رحمه الله في الفتيا: ١٠٦
- نماذج من دروس الشيخ وخطبه ومواعظه ١١٢
- أولاً - في الخطبة ١١٢
- ثانياً - في الموعظة ١١٤
- ثالثاً - في التدريس ١٢٠

الفصل الرابع

- شخصيّة الشيخ العامّة - سماته الخلقية ١٢٧
- صفات الشيخ الخلقية والنفسية: ١٢٩
- صفاته الخلقية: ١٣٢
- سلوكه في الإدارة والتعامل مع الرؤوسين: ١٣٣
- علاقته بالناس وأسلوب تعامله مع مختلف شرائحهم: ١٣٦

الفصل الخامس

- أدب الشيخ وشعره ١٥٣
- تميّز الشيخ في الأدب واللغة: ١٥٥
- موقف الشيخ من الشعر: ١٥٩
- وقفة سريعة مع شعر الشيخ من حيث المذهب والصورة والإبداع إجمالاً: .. ١٦٤

الفصل الأخير

الرَّحِيل الأخير..... ١٧٧

الوداع الأخير:..... ١٧٩

مختارات من كلمات التأين في أيام التعزية

طرف من تأين سماحة مفتي الجمهورية الشيخ بدر الدين حسون:..... ١٨٣

جانب من خطبة شيخ القراء الشيخ كريم راجح..... ١٨٥

كلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي..... ١٨٧

طرف من خطبة الشيخ أسامة الرفاعي..... ١٩٠

طرف من خطبة الشيخ سارية الرفاعي..... ١٩٢

جانب من كلمة الشيخ الدّاعية أحمد معاذ الخطيب..... ١٩٣

جانب من كلمة الدكتور رمضان عبد الله شلح..... ١٩٥

جانب من كلمة السيد عدنان الموسوي..... ١٩٦

جانب من خطبتي في اليوم الثالث للتعزية..... ١٩٧

طرف من محاضرة الشيخ كريم راجح " الشيخ صادق حبنكة كما عرفته "..... ١٩٨

مختارات من قصائد الرثاء للشيخ الراحل

قصيدة للأديب الإسلامي الكبير الأستاذ مصطفى عكرمة في رثاء الشيخ:..... ٢٠٣

قصيدة للأستاذ محمد جمال راجح نجل شيخ القراء في رثاء الشيخ:..... ٢٠٦

قصيدة للأستاذ الشيخ عبد القادر الخطيب الحسني..... ٢٠٩

قصيدة للأستاذ الشيخ النّسيب محمد أبو الهدى اليعقوبي في رثاء الشيخ:..... ٢١١

قصيدة للشيخ شهاب الدين ابن العلامة الشيخ صالح فرفور..... ٢١٣

ملحق الشعر

حرف الهمزة

- ١ - من مُوجِرٌ نفسي ٢١٧
- ٢ - فؤادك يا صفا ٢١٨
- ٣ - إنسان عيني غريق ٢١٩
- ٤ - رثاء قاسم حرزالله ٢٢١
- ٥ - قدوة الصلحاء ٢٢٣
- ٦ - يا رب ٢٢٦

حرف الباء

- ٧ - قضت نحبها ٢٢٧
- ٨ - يا سالكاً درب الغواية ٢٢٩
- ٩ - ذَرِّبْنِي غَادِقِي ٢٣٢
- ١٠ - أرادوا غِلابَ الشيخ ٢٣٤
- ١١ - أيا حسناً ٢٣٥
- ١٢ - أسموه بالإلهام طفلاً صالحاً ٢٣٦
- ١٤ - لا يبتغي المدح ٢٣٨
- ١٥ - أفنيت شرخ شبابي ٢٣٩
- ١٦ - فلا تخفى الحقيقة ٢٤٠
- ١٧ - خل ذكرى الأحباب ٢٤٣
- ١٨ - كيف نعصي الإله ؟ ٢٤٤
- ١٩ - يا من مررت بجنبي ٢٤٧
- ٢٠ - طارق الباب ٢٤٧

حرف التاء

- ٢١- يا يوسف الحسن ٢٤٨
- ٢٢- وعظمتني فاتعظت ٢٤٩
- ٢٣- تبارك الله ٢٥٠
- ٢٤- رَمَضانُ يا شَهَرَ العِبادَةِ ٢٥١
- ٢٥- يا عذولي ٢٥٣
- ٢٦- على الطائر الميمون ٢٥٤
- ٢٧- ما كنت آمل ٢٥٦
- ٢٨- أديمي وصالي ٢٥٨
- ٢٩- أَلمتني ذكرياتي ٢٥٩
- ٣٠- آمال الهوى قدي ٢٦٠
- ٣١- أنا المغبون وحدي ٢٦١
- ٣٢- عاد شهر الصيام ٢٦٣
- ٣٣- عافت النفس سائر اللذات ٢٦٤
- ٣٤- فرص قد أضعتها ٢٦٥
- ٣٥- قد أظلم القلب مني ٢٦٦
- ٣٦- هناك العرس يا أصفى البنات ٢٦٧

حرف الثاء

- ٣٧- أشكو إلى مولاي ٢٦٩

حرف الجيم

- ٣٨- عرج على حرم الرسول ٢٧٠
- ٣٩- سلمى ولبنى ٢٧١

حرف الحاء

- ٤٠ - يا إلهي ٢٧٢
٤١ - أيها الكيس ٢٧٣
٤٢ - زار وقت الصباح ٢٧٤

حرف الدال

- ٤٣ - هذا عبيدك يا مهيمن ٢٧٥
٤٤ - لم توف عهدي ٢٧٦
٤٥ - ضيعوني وأي خل أضاعوا ٢٧٦
٤٦ - تشطير طرقت باب الرجا ٢٧٨
٤٧ - كيف أنسى ؟ ٢٧٩
٤٨ - مياسة القد ٢٨١
٤٩ - في أهل الغبابة ٢٨٣
٥٠ - قلل أخي من المزاح ٢٨٤
٥١ - إذا فسد الزمان ٢٨٤
٥٢ - برّح الوجد فؤادي ٢٨٥
٥٣ - تألبوا حولي يا أحفادي ٢٨٧
٥٤ - خلّ دمعي بطني لميب فؤادي ٢٨٨
٥٥ - خلني يا خلي أخلو بخلي ٢٨٩
٥٦ - دع الصب يا خالي ٢٨٩
٥٧ - دعني أفكر فيها ٢٩٠
٥٨ - علاء يا حفيدي ٢٩١
٥٩ - في سبيل الهوى ٢٩٣

- ٦٠ - هذا ضريح الذي أفنى مواهبه ٢٩٤
- ٦١ - أحسن ختامي ٢٩٥

حرف الرَّاء

- ٦٢ - رعاك الله يا ابن أخي ٢٩٦
- ٦٣ - ولن ننساك يا ابن أخي ٢٩٨
- ٦٤ - يا من تلفت يمنة ويسارا ٣٠١
- ٦٥ - مرضت فعافاني الإله ٣٠٣
- ٦٦ - في الأحلام ٣٠٥
- ٦٧ - لذة الكرى ٣٠٧
- ٦٨ - عهدتك عبد الله أتقى ٣٠٩
- ٦٩ - شهر الربيع ٣١١
- ٧٠ - جاء وقت الصباح ٣١٢
- ٧١ - يا باغي الخير ٣١٣
- ٧٢ - أيها القمر ٣١٤
- ٧٣ - تخميس أراك عصي الدَّمع ٣١٥
- ٧٤ - هو الدهر سيباه الخيانة ٣١٧
- ٧٥ - هي الدنيا متاع الغرور ٣٢١
- ٧٦ - أطلَّ عليَّ ٣٢٣
- ٧٧ - أطلت على العشاق ٣٢٣
- ٧٨ - أعلن الحب ٣٢٥
- ٧٩ - إليك سلمت أمري ٣٢٥
- ٨٠ - بعد طول الجفا ٣٢٦

- ٨١ - أبا أيمن أبشر ٣٢٨
٨٢ - ماتت شريكة عمري ٣٢٩
٨٣ - اختر لنفسك ٣٣٣

حرف السين

- ٨٤ - إلهي عافني من شر نفسي ٣٣٥
٨٥ - راحة القلب في خلاف النفوس ٣٣٧
٨٦ - لئن أدميت أصبوعي ٣٣٨

حرف العين

- ٨٧ - وداعاً زهرة الدنيا وداعاً ٣٤٠

حرف الغين

- ٨٨ - لله در أبي فراس ٣٤١

حرف الفاء

- ٨٩ - يا رب رَحْمَاكَ ٣٤٣
٩٠ - عَج بالركاب ٣٤٤
٩١ - دمع عيني سخيناً وكفا ٣٤٦
٩٢ - دين المساواة ٣٤٧
٩٣ - قريضي ٣٤٨
٩٤ - بمولد خير الخلق ٣٥٠

حرف القاف

- ٩٥ - لم يُعد للصبر طاقة ٣٥١
٩٦ - سبل الحقيقة ٣٥٣

- ٩٧ - سلام على المحبوب ٣٥٤
- ٩٨ - تنعم أيها الصب المشوق ٣٥٥
- ٩٩ - قد صار بدري هلالاً ٣٥٦
- ١٠٠ - من مجيري ٣٥٧

حرف الكاف

- ١٠١ - اترك أحاديث السوى ٣٥٨
- ١٠٢ - يا غصنة البان ٣٥٩

حرف اللام

- ١٠٣ - جاعني في الدجى ٣٦١
- ١٠٤ - يا من تكبر في الورى ٣٦٢
- ١٠٥ - جاء وقت الأصيل ٣٦٤
- ١٠٦ - عودوا إلى الدين ٣٦٧
- ١٠٧ - أجل بساعات اللقاء ٣٦٨
- ١٠٨ - أتذكر حين همت بحب ليلي ٣٧٠
- ١٠٩ - أيها القمر المطل ٣٧٣
- ١١٠ - على مولاي أتكل ٣٧٤
- ١١١ - لا تنس لحدك أيها المتغافل ٣٧٧
- ١١٢ - سيح إلهك أيها المتأمل ٣٧٨
- ١١٣ - يا خليلي ٣٧٩
- ١١٤ - شرع الغرام ٣٨١
- ١١٥ - أيا عمّار ٣٨٣
- ١١٦ - أجدي ٣٩١

٣٩٢	١١٧ - ذبلت زهرة الحياة
٣٩٣	١١٨ - بَرَح الوجد بكلي
٣٩٥	١١٩ - خلني يا خلي
٣٩٥	١٢٠ - دعاني أسفح العبرات
٣٩٦	١٢١ - لأمر الله قد فوضت أمري
٣٩٧	١٢٢ - لداتي قد قضوا
٣٩٩	١٢٣ - نهنه النفس

حرف الميم

٤٠٠	١٢٤ - عشت الحياة مربيا
٤٠١	١٢٥ - أيا إلف الصفا
٤٠٤	١٢٦ - على أبيات الشافعي
٤٠٤	تسديس أبيات الشافعي
٤٠٥	تشطير أول لأبيات الشافعي
٤٠٥	تشطير ثانٍ لأبيات الشافعي
٤٠٦	تشطير ثالث لأبيات الشافعي
٤٠٦	تسبيع أبيات الشافعي
٤٠٧	تذييل لأبيات الشافعي
٤٠٨	١٢٧ - إن الفراق أليم
٤١١	١٢٨ - مدح أولي الإحسان
٤١٣	١٢٩ - أيا غيداء
٤١٤	١٣٠ - محمد أنت أصفى من زلال
٤١٦	١٣١ - أوصيتكم

- ١٣٢ - هَيَّا لِنَتْلُوَ آيَ الذِّكْرِ ٤١٦
- ١٣٣ - سَبَى عَقْلِي ٤١٩
- ١٣٤ - عَاذِلِي كُفَّ مَلَامِي ٤٢١
- ١٣٥ - سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا ٤٢٣
- ١٣٦ - تَثْمِين لِبَيْتِي الْبُرْدَةِ الْأَوَّلِينَ ٤٢٣
- ١٣٧ - يَا رَبِّ أَحْسِن خَتَامِي ٤٢٤
- ١٣٨ - لَا تَنْسَ لِحَدِّكَ مَغْتَرًّا ٤٢٥
- ١٣٩ - اللَّهُ دُرُّكَ صَالِحًا ٤٢٦
- ١٤٠ - يَا سَلُوتِي عَنْ هُمُومِي ٤٢٧

حرف النون

- ١٤١ - تَأَهَّبْ لِلرَّحِيلِ ٤٢٨
- ١٤٢ - جَفَّ رَيْقُ الْيَرَاعِ ٤٣٠
- ١٤٣ - أَلْقَى اللَّثَامَ وَحَيَّانَا ٤٣١
- ١٤٤ - فِي ذِمَّةِ الرَّحْمَنِ ٤٣٢
- ١٤٥ - ذَكَرَى الْمَوْلِدَ ٤٣٤
- ١٤٦ - يَا إِلَهِي ٤٣٥
- ١٤٧ - زِنِ الدِّينَ بِالْحِجَا ٤٣٦
- ١٤٨ - أَثْيَا الْبَادِؤُونَ بِالْعِشْقِ ٤٣٩
- ١٤٩ - أَثْيَا الصَّبْرُ وَالرِّضَا سَاعِدَانِي ٤٤٣
- ١٥٠ - أَمْسَيْتَ نَهَبَ الْغَوَانِي ٤٤٥
- ١٥١ - حَبِي الْأَسْوَدَ ٤٤٧
- ١٥٢ - سَمِّيَ لَا تَكُنْ مِثْلِي ٤٤٧

- ١٥٣ - عافت الغمض جفوني ٤٤٩
- ١٥٤ - وليلى ما كفهاها الهجر (تخميس) ٤٥٠
- هيا تعالوا إلى النادي ٤٥١
- ١٥٦ - يا خليلي في الغرام ٤٥٣

حرف الهاء

- ١٥٧ - إذا ما كنت في كرب ٤٥٤
- ١٥٨ - ما أطول الليل ٤٥٤
- ١٥٩ - يا حسن أغصان ٤٥٦
- ١٦٠ - طوى الدهر أحبابي ٤٥٨
- ١٦١ - يا الله ٤٥٩
- ١٦٢ - يا قابِلَ التَّوْبِ ٤٦٠

حرف الواو

- ١٦٣ - كأس النوى ٤٦١
- ١٦٤ - سلّم فؤادك ٤٦٢

حرف الياء

- ١٦٥ - أذرفت عيني عليها ٤٦٣
- ١٦٦ - أشرقت شمس المحيّا ٤٦٤

الإهداء

إلى صاحب الترجمة، فضيلة شيخني وموجهي، وأبي بعد والدي، العلامة
الشيخ صادق حبنكة الميداني.

إلى والدي الكريم، الذي بذل حياته في تربيتي وتربية إخواني، ووضعتني على
طريق العلم، وحشني على سلوك الخير بقاله وحاله وصبره وتفانيه، مَنْ كان
شيخنا يثني على صلاحه وتقواه وأدبه، المرحوم الحاج محمد سعيد بن سعد
الدين السعدي.

إلى صاحبة الأفضال التي لا تُحصى، مَنْ بذلت ثمرات لبها في سبيل تربيتي
وإنشائي على طريق ترتضيه، حتى حَكَمَ فيها قضاء الله الذي لا رادَّ له، رضينا به
وبحكمه، راجياً أن يكونَ ذلك رفعا في درجاتها، والدي التي أعتزُّ بتربيتها،
وأفتخرُ بانتسابي لها.

أهدي هذا الكتاب

مَا آذِنُ الشَّامَ دَوَّتْ فِي ضُحَى شَحْبِ

غَابَتْ شُمُوسُ الْهَدَى وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ

يَا صَادِقَ الْمَوْتِ غَابَ الْيَوْمَ صَادِقُنَا

أَنْبَى لَنَا مَلَجَأً مِنْ شَرِّهِ الْكَذِبِ

كَانَ الْحَيَاةَ وَأَخْلَقَ الْحَيَاةَ لَنَا

وَرَحْمَةً اللَّهُ يَحْكِي الْوَدْقَ فِي الشُّحْبِ

فِي هَمَّةٍ وَضِيَاءِ الْعِلْمِ يَرْفَعُهُ

كَأَنَّهُ الْبَأْسُ وَالْإِشْرَاقُ فِي الشُّهْبِ

غَيَّبَتْهُ وَبِلَادُ الشَّامِ تَرْمُقُهُ

كَانَ النَّجَاةَ لَهَا فِي أَحْلَاكِ الْكُرْبِ

أحمد السعدي

خلاصة عن حياة العلامة الراحل الشيخ صادق حبنكة الميداني

١. ولد الشيخ في العام الذي دخل فيه الملك فيصل سورياً - كما كان الشيخ ينقل عن والده - وهو عام ١٩١٨ م في حيّ الميدان المجاهد بمدينة دمشق، وكانت دمشق آنذاك موطن العلماء الكبار، وعلى رأسهم: محدث الشام الأكبر: الشيخ بدر الدين الحسني.
٢. حضر مع أخيه دروساً لبعض مشايخه، كالشيخ بدر الدين، والشيخ محمود العطار، وغيرهما، إلا أنه - كما كان يكرّر دائماً - انقطع لتلقّي العلم من أخيه سلطان العلماء في بلاد الشام، فضيلة العلامة المرحوم الشيخ حسن حبنكة الميداني، وتربّى على يديه وتخرّج عليه.
٣. درس على الشيخ وتلمذ عليه معظم الذين وفدوا على الشيخ حسن، ومنهم: الشيخ كريم راجح شيخ قراء الشام، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور مصطفى البغا، وغيرهم كثير. كما انقطع إليه الجيل الثاني من طلاب الشيخ حسن ومنهم: الشيخ محمد شقير، والشيخ قاسم النوري، والشيخ رشدي قلم، وغيرهم كثير. كما درس عليه بعد وفاة أخيه الكثير من الطُّلاب في دروسه في جامع منجك، وفي بيته، ومنهم: نجله الأستاذ الشيخ أنس حبنكة، والأستاذ أنور السعدي، والدكتور أحمد السعدي، وغيرهم كثير.
٤. امتاز الشيخ بذكاء حادّ، وفطنة قلّ نظيرها، وحكمة هادئة وورع وإخلاص وتواضع، يشهد بذلك كلُّ من عرفه وخالطه، مع شجاعة نادرة، وجرأة في نقد الظلم، ومظاهر الخطأ الاجتماعيّة.
٥. أدار معهد التوجيه الإسلامي من افتتاحه مدرسةً رسميّة، وحتى إغلاقه سنة ١٩٦٧ م، وقد تخرّج من هذا المعهد كثير من علماء الشام والأردن وتركيا، وغيرها من البلاد الإسلاميّة.

٦. اهتمَّ في مطالعته - إلى جانب العلوم الشرعيَّة المختلفة - باللغة، فكان حُجَّةً فيها، نحواً وصرفاً وبلاغة وأدباً، وقد أكرمه الله بسليقة شعريَّة وأدبيَّة رفيعة، فكان شاعر علماء بلاد الشام، وله صور مبتكرة، وأعمال إبداعية رائعة، إلا أن تواضعه - رحمه الله - كان يحملُّه على الاحتفاظ بذلك وعدم نشره، مع كثرة إلحاح من حوله على ذلك، وقد جمع آخر حياته بعضاً من مشورات شعره، لكنَّه لم يرض أن ينشرها.

٧. خطب قديماً في جامع باب مصلى الكبير، وقد كان من أشهر وأوسع مساجد دمشق، ثمَّ خطب بعد وفاة أخيه في جامع منجك، ثم بقي خطيباً في جامع الحسن إلى قبيل وفاته حيث أقعده المرض. وكان للشيخ إلى آخر حياته دروس في بيته، وفي جامع منجك، استفاد منها طلاب العلم الشرعي من مختلف الجنسيات.

٨. تزوَّج الشيخ مرَّتين، وقد توفيت زوجته الأولى بعد سبعة عشر عاماً من زواجهما دون أن يمتنَّ الله عليهما بولد، ثم تزوَّج من الثانية فأنجبت له أربعة أبناء، وأربع بنات، توفيت إحداهنَّ قبيل وفاته، وقد رثاها بقصيدة مطلعها:

لَبَّتْ نَدَاءَ إلهِهَا وَجَدَانُ

فَاسْتَحَكَمَتْ مِنْ بَعْدِهَا الْأَحْزَانُ

٩. توفِّي - رحمه الله - فجر يوم الثلاثاء، الواقع في ٢٧ / شَوَّال / ١٤٢٨ هـ ، الموافق ٦ / تشرين الثاني / ٢٠٠٧ م، عن عُمُرٍ يُناهزُ التسعين ، قضاه في العلم والدعوة والتعليم والتوجيه والجهاد في سبيل الله^١.

١ هذه الترجمة الموجزة كتبها بعيدَ وفاة الشيخ، وكانت بعض وسائل الإعلام طلبت من أهله خلاصةً عن حياته، وهم في همِّ الرحيل والحادثِ الجلل، فكلفوني بكتابتها، ثم نشرتها في موقع "دربنا" مع خبر وفاة الشيخ رحمه الله، ثُمَّ ضَمَّنَ فقراتٍ عدَّة منها الأخ الكبير الأستاذ أنس نجل شيخنا في محاضرته عنه في جامع التوبة.

قالوا في الشيخ

١. كان ولا يزال مديرَ معهدِ التوجيهِ الإسلاميِّ، كان أستاذنا الشيخ صادق حَبْنَكَة، أخو الأستاذ، وكنت أنضوي تحت لوائه، وما زلت أنضوي تحت لوائه، ولا أتقدّم عليه، اعتبره أستاذي، وكونوا عليّ شهداء، فهو بِمِثَابَةِ أخيه الرَّاحِل، الأستاذ الشيخ حسن حَبْنَكَة رحمة الله عليه..... وهل لي كلمة، والأستاذ الشيخ صادق موجود؟!!

شيخ قراء الشام حسين خطّاب

٢. عمي الجليل، عرفناك قلباً كبيراً، وعقلاً وفيراً، ووفاءً منقطع النظير، وقليلٌ في الناس هذه الصفات. بيد أني محروم من أن أكون لائذاً بكنفكم، سابحاً بغامر عطفكم، عرشي وفرشي في بعض زوايا صرحكم، تابعاً بطاعة، على قدر الاستطاعة، أجلس خلفكم في المجالس، غير مزاحم ولا منافس.

الشيخ عبد الرحمن حَبْنَكَة الميداني

ولله شهم صادق في فعاله

وأقواله نعم الفتى رائع الفكر

وقور حليم شاعر ومعلم

خلأقه بحر الدار بلا حصر

شيخ القراء كريم راجح

أنا تتلمذت على الشيخ الجليل رحمه الله... ست
سنوات في درس بعد أذان الفجر من يوم السبت.
والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت قلباً أكبر من قلبه،
ولا حكمة أجلاً من حكمته..... هو شيخ الشام بل
شيخ العالم العربي.

الداعية الإسلامي: د. راتب النابلسي

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي أنار الأرض بأنجم أهل العلم، وجملها لعباده بزينة أصحاب الصدق، وحلاها لأوليائه بصحبة أقران الوفاء، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وصاحب الفضل الأول بين البشر، سيدهم محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فَقَصَّيْ مع العلامة الرَّاحِل، الفقيه الكبير، الشَّاعِرِ الأديب، الوفيِّ الصَّادِق، قِصَّةً تَمْتَدُّ لأكْثَرِ مِنْ رُبْعِ قرن، على حادثةٍ سِنِّي، صحيحٌ أَنَّنِي لا أَذكرُ تفاصيلَ بداياتِها، رُبَّمَا أواخرَ السبعينيات من القرن الماضي، أو أوائل الثمانينيات، غير أَنِّي أَذكرُ عناوين تلك البدايات، فمن ذلِكَ أَنَّنِي أَذكرُ تقبيلي ليد أخيه الشيخ حسن رحمه الله أواخرَ حياتِهِ، ودُعَاءَهُ لي، يوم اصطحبني والذي معه في مناسبةٍ ومكانٍ لَسْتُ أَذكرُهُما، للسلام على الشيخ، ودافعتُ مَنْ حولي من الكبارِ بمساعدتِهِ رَحِمَهُ اللهُ حتَّى حظيتُ بمُنِيَّتِي، وكان الشيخُ حسن رحمه الله يسْكُنُ في حارتنا، يمرُّ من جانب بيتنا صباح مساء. وأذكرُ منها أَنَّنِي صَلَّيْتُ الجُمُعَةَ والترَاوِيحَ خَلْفَ شيخنا الشيخ صادق قبل مرضِهِ الذي منعه الخطابة مُدَّةً من الزمن، وأظُنُّ ذلِكَ مطلعَ الثمانينيات، بُعيدَ وفاة الشيخ حسن رحمهما اللهُ تعالى.

أَمَّا مَا أَذْكُرُهُ تَمَاماً فَهُوَ حَضُورِي لِدُرُوسِ الشَّيْخِ صَادِقِ أَوَاسِطَ الثَّمَانِيَّاتِ، وَبِالتَّحْدِيدِ دَرْسِي الْجُمُعَةِ صَبَاحاً فِي بَيْتِ الشَّيْخِ حَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ الْكِتَابُ الَّذِي يَقْرَأُ فِيهِ الشَّيْخُ هُوَ صِفَةُ الصَّفْوَةِ لِابْنِ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالْاِثْنَيْنِ الَّذِي كَانَ يُدْرَسُ فِيهِ كِتَابُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ لِلْإِمَامِ السِّيُوطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ أَوَّلَ حَدِيثٍ حَضَرْتُ شَرْحَهُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ هُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَحِلَّ الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ لِأَنَاثِ أُمَّتِي، وَحُرِّمَ عَلَى ذُكُورِهَا" وَهُوَ الْحَدِيثُ الثَّانِي وَالسَّبْعُونَ بَعْدَ الْمِئَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَحَادِيثِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ^١، وَلَا تَنَبَّهْتُ إِلَى ذَلِكَ مُبَكَّرًا، فَقَدْ وَجَدْتُ بَدْءَ كِتَابَةِ التَّارِيخِ عَلَى كِتَابِي "الْجَامِعِ الصَّغِيرِ" بَعْدَ نَحْوِ أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِينَ حَدِيثًا، وَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ يَشْرَحُ غَالِبًا حَدِيثًا كُلَّ أُسْبُوعٍ، وَكَانَ بَدْءُ تَأْرِيخِي لِحَضُورِ الدُّرُوسِ بِـ ٥ رَمَضَانَ ١٤٠٦ هـ، الْمُوَافِقَ ١٣ / ٥ / ١٩٨٦ م، وَذَلِكَ عِنْدَ شَرْحِ الشَّيْخِ لِحَدِيثٍ: "أَخْلَصْ دِينَكَ، يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ"^٢، وَأَمَّا أَقْرَبُ تَارِيخٍ عَثَرْتُ عَلَيْهِ لِحَضُورِ دَرْسِ الْجُمُعَةِ فَهُوَ ٢٧ / ٣ / ١٩٨٧ م، وَكَانَ الشَّيْخُ يَشْرَحُ فِيهِ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنْ كُنُوزِ الْبِرِّ كِتْمَانُ الْمَصَائِبِ"^٣، وَبَقِيْتُ مُوَظِّبًا عَلَى حَضُورِ هَذَيْنِ الدَّرْسَيْنِ إِلَى أَوَاخِرِ الثَّمَانِيَّاتِ حَيْثُ نَشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّيْخِ عَلَى صِغَرِ سِنِّي عِلَاقَةٌ عِلْمِيَّةٌ، كُنْتُ فِيهَا طَالِبًا مُحِبًّا، وَكَانَ الشَّيْخُ فِيهَا شَيْخًا مُتَوَاضِعًا حَنُونًا عَطُوفًا.

١ طبعة مكتبة الحلبوني، مكتبة الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ الشَّيْخُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَى طِبَاعَتِهِ، وَالْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ أَحْمَدَ وَالتَّسَانِي عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَشَارَ السِّيُوطِيُّ لِصِحَّتِهِ.

٢ الْحَدِيثُ رَقْمُ ٢٩٨ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، وَقَدْ ذَكَرَ السِّيُوطِيُّ أَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا وَالْحَاكِمِ عَنْ مَعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣ أَخْرَجَهُ الدِّيْلَمِي فِي مُسْنَدِ الْفِرْدُوسِ ٤ / ٣٠١.

ولا أودُّ أن أستعرض في هذه المقدمة تفاصيل تلك الفترة التي أعتزُّ بها وأطربُ لذكرها ؛ لأنَّ ذلك وإن كان يُلذُّ لي تكرارُهُ وتفصيلُهُ، ليس هذا مكان الإطالة فيه، وأنا أنتقلُ من تلك الحقبة إلى مطلع التسعينات^١، بعد أن صرْتُ أتردد على بيت الشيخ يومياً، أقرأ على الشيخ، وأساعدهُ في بعض ما كان يُعدهُ للطباعة في مكتبته، والتي عملتُ فيها بعد لسنواتٍ عدَّة.

أذكرُ تماماً أنَّ الشيخَ طلبَ مني أن أدرسَ البكالوريا في غرفته في المسجد، بعد أن أعطاني مفتاحها، ومفتاح المسجد ؛ لأدخل إليه حيث أحتاج، وخرَّجتِ النتائج ولم تكن درجاتي كما كان يؤمِّلُ الشيخ، واستدعاني رحمه الله لجلسةٍ خاصَّةٍ لتقويم النتيجة، وكان اللقاء في عُرفته في المسجد، ودارَ حوارٍ بيننا أخبرتُ الشيخَ فيه عن عدم رغبتِي في دراسة الهندسة التي كان يرغبُ أن أعيد السنة لتحصيلها، وعرضَ عليَّ كُلَّ مساعدةٍ لدراسة أيِّ اختصاصٍ أودُّ متابعته، وكان من العروض - بطبيعة الحال - أن أدرسَ في كليَّة الشريعة، وهو الأمر الذي كان متعذِّراً في تلك السنة بسببِ حجب طلابِ الثانويات العلميَّة عن

١ كنت مطلع التسعينات محافظاً على عدد من الدروس الخاصَّة والعامة للشيخ، وأذكرُ أنَّ بعض الإخوة في ذلك الوقت رأى مكاني من الشيخ، فأغراني بأن أطلب منه تزكيةً لنفسِي، وعندما فعلت لم يتردد الشيخ في ذلك، وكان مما كتبه (دمشق في ٢٠ رجب ١٤١٠، و ١٥ شباط ١٩٩٠): إن.... أحمد بن محمد سعيد السعدي هو من حفظة كتاب الله المشابرين على مجالس العلوم الشرعيَّة العامَّة والخاصَّة، وهو شديد المحافظة على صلاة الجماعة..... حسن السيرة، طيب السريرة، عرفناه من أسرةٍ صالحَةٍ، وما اطلعنا منه على فترةٍ إلا إلى رشادٍ وسنةٍ، وما شهدنا إلا بما علمنا، نرجو له التوفيق والاستقامة.... وتوسَّمُ فيه النفع العام، والمستقبل الزَّاهر... وكانت - ولا تزال - هذه التزكية أهمُّ وثيقةٍ أحملها، وكان الشيخ قد حَسَّنَ الظنَّ ورجا خيراً، وأرجو الله أن يُحقِّقَ فاله، وأن يغيِّرَ لي سابقاً ولاحقاً.

الدراسة في كلية الشريعة تلك السنة، وهو أمر لم يسبق أن حصل، ولم يحصل فيما بعد، والمهم أنني أبدتُ رغبةً في دراسة الشريعة والتخصص لها في الجامعة، وكان الأمر متاح لي لذلك أن أعيد الدراسة لكن في الفرع الأدبي هذه المرة، واشترط عليَّ الشيخ لذلك شرطاً، بعد أن بذل جهداً كبيراً في إلحاقني تلك السنة بالكلية، وأنا أوجز الحديث في هذا وذاك.

أمّا جهودُ الشيخ فتتمثل في أمرين: الأول أنه كَلَّم أستاذين كبيرين من كلية الشريعة ليسعيا في إلحاقني بها تلك السنة إن كان لذلك مجال قانوني، والأستاذان هما: الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، وأذكر أن شيخنا حدّثني عن حماسٍ شديد لدى أستاذنا الدكتور وهبة لتلبية رغبة الشيخ في تسجيلي رغم إغلاق الباب - كما ذكرت - في وجه دارسي الثانوية العلمية تلك السنة، إلا أن الأمر لم يتم، فسعى الشيخ في الطريق الثاني، وهو الطلبُ الرسمي من وزير التعليم العالي أن يلحقني استثناءً ذلك العام، وكان الشيخ رحمه الله يوصيني دائماً بالدراسة والتحضير للثانوية الأدبية حتّى إذا لم يتيسّر الأمر الاستثنائي عدنا إلى الطريق النظامي.

أسرد هذا لما أظنُّ أنه يُصوّر جانباً من طبيعة الشيخ النفسية والسلوكية، كان الطالبُ محورَ اهتمامه، ولم يكن التعليم غايته مجردةً عن التربية والتوجيه والمساعدة والمتابعة، بل كان يجمعُ في علاقته بتلميذه بين هذه الأمور كلّها، باذلاً في سبيل ذلك ماله وجهه ووقته وعلمه وراحته.

وتأكيداً لذلك فقد أوكل الشيخ إليَّ إمامة مسجدٍ صغيرٍ في الحي، وكان هذا المسجد قد جُدّد بإشراف الجمعية التي يرأسها الشيخ، وأبى الشيخ أن

أكتفي بأجر اتقاضه من الجمعية، قائلاً: يا أحمد أنا لست خالداً، الوظيفة أوثق، وكان أن أرسلني إلى بعض طلابه في مديرية الأوقاف لأسجل رسمياً بأبي وظيفة تغنيني عن حاجة الناس مقابل قيامي بالإمامة في ذلك المسجد.

و إلى جانب هذا وذاك سعى الشيخ في تسجيلي في الثانوية الشرعية مستمعاً وكلم في ذلك الشيخ عبد الفتاح البزم، وكان آنذاك مديراً للثانوية الشرعية بدمشق، فوافق على ذلك، إلا أن ابن الشيخ قال له بأن المواد الشرعية قد تكون حملاً إضافياً على الطالب في أخذ الشهادة، فعَدَلَ الشيخ عن فكرته.

وفي هذه الأثناء شعرت بوجود فراغٍ يمكنني العمل فيه، فأرشدني الشيخ إلى أكثر من جهةٍ لأعمل فيها.

هذا بعض ما قدّمه لي الشيخ من مساعدةٍ للدخول في كلية الشريعة، فإذا اشترط عليّ في المقابل ؟

لقد قال لي: يا أحمد، نحن لا نريد شهادة الليسانس، إن أردت الدراسة في كلية الشريعة فعِدني أن لا تترك ذلك حتّى تصل إلى الدكتوراه، لا أَرْضَى بأقل من ذلك^١. وقلت له: أبذل جهدي إن شاء الله. وحينما أكرمني الله بالحصول على الشهادة جئتُ الشيخ مبشراً عالماً أن ذلك ممّا يُسعدُه، فقد كان يفرح لي كما

١ حصلت معي قصة لا أنساها، فقد سألتني الشيخ مرة عن أي حاجة تعرض لي، وكانت حالتي المادية في ذلك الوقت على غير ما يرام، وفكرتُ أن أترك الدراسة، فلم يكن معي ثمن الكتب فضلاً عن مصروفي، وكنا نمر في ذلك الحين بظرفٍ خاصٍّ خجلتُ معه أن أسأل أهلي العون، وكدت أنفد ما فكرتُ به، وإذا بالشيخ يُصر على سؤالي على غير العادة، ولمَحْتُ له بالأمر دون أن أصرح لما أصر عليّ من طلب حاجةٍ في نفسي، وأخرج الشيخ ما لا ثم قال لي: هناك عملٌ يطلبه مني بعض الناس، افعله وهذه أجرته، أمّا ثمن الكتب فذلك هدية مني، وأخرج لي مبلغاً آخر من المال.

يفرح لأولادِهِ، وأذكر أن رجلاً سأله عن عدد أولادِهِ فقال له - رحمه الله - : هم أربعة، وأحمد الخامس. جئْتُهُ رحمه الله بعد نحو خمسة عشر عاماً من الوعد، وكنت أظنُّ أَنَّهُ نسي ذلك، فالتفتَ لابنه الشيخ أنس وقال له: لقد قلت لأحمد كذا وكذا منذ سنين بعيدة، وهاهو قد أنجز ما وعد.

وقد درست في عقد التسعينياتِ عِدَّةَ كتب على الشيخ، بعضها مع إخواني، والقليل منها وحدي، لكنَّ الذي خَصَّنِي بِهِ الشيخ هو رغبته بتعليمي الأدب، وقد جعلني أقرأ بين يديه مختاراتٍ من كتب الأدب لنختار واحداً منها أراه مناسباً لأقرأه عليه، وذلك رغبة منه - رحمه الله - في أن أختار كتاباً يتناسبُ ومستواي من جهة، ورغبتي من جهةٍ أخرى، إيماناً منه بأنَّ هذا أجدى نفعاً وأنفع جدوى، ثم إِنَّهُ - رحمه الله - صار يكتب لي شطر بيتٍ ويطلب مني إتمامه، ويعطيني بعضَ أبياتٍ ويطلبُ مني النسج على منوالها في موضوعها وقافيتها، لكنَّهُ لما أَحسَّ تركيزي على ذلك وصرفي للوقت في سبيله خاف عليَّ وقال لي: لا يجوز لطالب العلم أن يطيل الانشغال بهذا، ثم صار يكتبني بأن يقرأ عليَّ بعض ما كتب من الشعر، ولربَّما أراد جبرَ خاطري فكتب لي قصيدة تشجيعيةً جاء فيها:

يَا خَلِيلِي وَأَنْتَ أَحْمَدُ خَلِّ

لَكَ رُوحِي وَذَاكَ جَهْدُ الْمُقَلِّ

لَكَ بِالْعِلْمِ لَا بِإِمَالٍ وَلُؤُغُ

لَسْتُ تَرْضَى مَعَ الثَّرَاءِ بِجَهْلٍ

كَيْفَ أَحْوَيْكَ فِي فُؤَادٍ مُعْنَى
 مَا عَسَانِي أُعْطِيَ لِمَا لَكَ كُلِّي
 لِي فِي وَدِّكَ النَّزِيهِ غَنَاءٌ
 فِي بَقَايَا الْحَيَاةِ عَنْ كُلِّ خِلٍّ
 مَا شَعُورِي بِأَنْتَ عَنِّي غَرِيبٌ
 بَلْ شَعُورِي بِأَنْتَ أَقْرَبُ أَهْلِي
 بِيَدَ أَنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ شَهْمًا
 تَرْضِي كُلَّ مَا أُرِيدُ لِأَجْلِي
 دَأْبُكَ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ دَوَامًا
 لَا تُقْضِي الْفِرَاقَ مِنْ غَيْرِ شُغْلٍ
 هَزَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْكَ لِحْدًا
 مِنْ جَدِيدٍ وَقُلْتُ أَجْدَرُ مِثْلِي

وَ فِي آخِرِ حَيَاةِ الشَّيْخِ أَنَابَنِي مَرَّاتٍ عَنْهُ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ فِي جَامِعِ الْحَسَنِ،
 ثُمَّ كَلَّمَ وَزِيرَ الْأَوْقَافِ بِأَنْ يَجْعَلَنِي خُطِيبًا فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ، وَتَابَعَ ذَلِكَ بِاهْتِمَامٍ،
 وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَلَ وَقَدْ تَجَهَّزْتُ لِسَفَرٍ قَسْرِي، وَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ لِي: سَتَمُضِي
 هَذِهِ الْحَالُ، لَا تَهْتَمِّ لِلْأَمْرِ كَثِيرًا.

رَحِمَ اللَّهُ الشَّيْخَ وَأَسْكَنَهُ فُسَيْحَ جَنَانِهِ.

* * *

هذا طَرَفٌ من علاقتي بالشيخ، وإنَّما هو جانبٌ من جوانبِ هذه العلاقة، قدَّمتهُ لأمرٍ يتعلَّقُ بطريقةِ افتتاحِ كُتُبِ الأعلامِ الخاصَّةِ، وأنا أترك الجوانبَ الأخرى ليتابعها الأخُ القارئُ من قراءةِ البحث، ولعلَّ من المناسبِ هنا أن أتحدَّثَ قليلاً عن منهجِ البحثِ وخطتهِ ومصادره ومصاعبه، وذلك من عادةِ الباحثين اليوم، وفيه خيرٌ بلا شك ؛ لأنَّ القارئَ يستعدُّ بذلك للاستفادة من البحث، ويضعُ تصوُّره الذهني المُسبق الذي قد يرسِّخُ بعضُ الجوانبِ التي ينشدها أكثر، فتكون الفائدة من القراءة أقرب. وعلى العموم فقد اعتمدتُ في كتابة البحث على الأمور الثلاثة التالية مرتَّبةً في الأهميَّة:

الأمرُ الأوَّل: ما رأيته بنفسِي، وعاشته قرابة ربع قرنٍ من الزمان، كنت فيها تلميذاً يتردد على الشيخ بشكل شبه يومي، في بعض فترات هذه العلاقة الطيِّبة، وفي الأغلب ما كان يمر يوم أو يومان لا أرى فيهما الشيخ إلا أن أكون مسافراً. ولقد كتبت طرفاً ممَّا حدث معي، وآخر ممَّا رأيته، وثالثاً ممَّا سمعته من الشيخ. فمصدر الكتاب الأوَّل هو العلاقة الخاصَّة التي أشرت إليها والتي أكرمني الشيخ بها، فكان هذا البحث ممثلاً لمعرفتي الخاصَّة بالشيخ، وعاكساً لتلك العلاقة، برؤيةٍ فيها بعضُ من الذات، أقصد أنَّ ما كتبتُ كان من منظاري، ولعلَّ الآخرين رأوا ما رأيتُ لكنَّهم نظروا إليه بمنظارٍ مختلف، والناس مذاهب، لكن حسبي أنني كنتُ أميناً في التصوير، صادقاً في النُّقل، ولك أن تقول إنَّ البحث بالدرجة الأولى كان حديثاً عن الشيخ كما عرفته.

الأمر الثاني: ما أخبرني به بعض من كان أكثر به التصاقاً، وأكثر له ملازمةً، من أهله وطلابه، وأنت واجدٌ فيه كلام أساتذتنا عنه، وروايتهم لأشياء فيها من العبرة والفائدة، وسدّ الثغرات التي أحدثها غيابي عن الشطر الأهم من حياة الشيخ. غير أنّ أبرز من استفدت منهم في تغطية الجوانب الخاصّة من حياته - رحمه الله - هو ابنه الشيخ أنس حفظه الله تعالى، وعلاقتي بالشيخ أنس قديمة قدم علاقتي بالشيخ، وقد كان من أقرب أولاده له في الطبع والسلوك والتفكير، وكان الشيخ يرغب دائماً في توثيق علاقتي به، ولذا جعل لنا درساً في النحو نقرأ فيه معاً، واستمرّ هذا الدرس أكثر من خمسة عشر عاماً، ومن مظاهر رغبته هذه رحمه الله، رغبته في أن أدرس أبناء الشيخ أنس، وأحفظهم القرآن، وأذكر أنّه استمع لسورة النبأ من حفيده عمّار، ووجهني لطريقة تحفيظه ومتابعته، وكان الأخ عمّار لا يعرف قراءة ولا كتابة، لصغر سنّه. ومن مظاهرها أيضاً طلبه مني حضور أهلي لبعض مناسبات الشيخ أنس الخاصّة، والأكثر أثراً من بين ذلك كلّ عملي مع الشيخ أنس في مكتبة الشيخ لسنوات، وقد أثمرت هذه العلاقة الطيّبة توثيقاً للعلاقة الأصليّة، ولعلّ هذا من سياسة الشيخ التربويّة لما يعلم من فارق السنّ بيني وبينه، والذي قد يكون حائلاً عن كمال الاستفادة، فكانت علاقتي بابنه مخفّفةً من تلك الفجوة. على كلّ فقد كان الشيخ أنس أهمّ مصادر البحث فيما لا نصّ فيه، أعني فيما لم يكن لديّ فيه معرفة حقيقيّة، وقد أكرمني الأخ الكبير الشيخ أنس بمراجعة أصول الكتاب، وكتب لي ملاحظات مفيدة على بعض أبحاثه، وقد ترددت إليه مراراً بعد وفاة الشيخ، وجلستُ إليه ساعات، لأفيد من علاقته المميّزة مع الشيخ، كونه رافقه آخر حياته في صحوه ونومه وذهابه وإقامته، وكان الشيخ أنس

مرجعي الأول في تواريخ العائلة ومواقيت الأحداث المهمة من حياة الشيخ والتي لم أحفظ تاريخها.

الأمر الثالث: ما كُتِبَ عن الشيخ، وهو على قَلْبِهِ مفيدٌ جدًّا، وأخصُّ من ذلك ما كتبه العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن أخيه الشيخ حسن رحمهم الله جميعاً، في كتابه الذي ترجم فيه أباه، وقد أفدتُ منه كثيراً، خاصَّةً في جانبين: جانب علاقة الشيخ بأخيه، وجانب علاقة الشيخ بتلامذة أبيه، إلى جانب ما ضَمَّنَهُ من حديثٍ عن أدب شيخنا وشعره وتميزه في اللغة والنحو.

واهتممتُ عموماً بالأخبار التي تخدمُ فكرة الكتاب، وليس القصد من كتب التَّراجم التَّسليّة، إنّما كما قال محمَّد بن يونس، كما ينقل عنه ابن الجوزي في مطلع كتابه (صفة الصفوة): "ما رأيتُ للقلبِ أنفعَ من ذكرِ الصالحين" ^١ ولذا اهتممتُ بما فيه العبرة والفائدة المنهجية، ومن ثمَّ تجد الأمثلة خادمةً للاستنباطات التربوية والمنهجية، ولو أردتُ سرِّد ما أعرف، وما سمعت عن حياة الشيخ لكتبتُ في ذلك ما يربو أضعافاً، وهذه الناحية من هذا المنهج اقتصرت في المراثي على ما يخدمُ الفكرة، ويقدمُ جديداً لم أعرِّض له.

وقد قسَّمتُ الكتابَ إلى قسمين: القسم الذي تكلَّمتُ فيه عن حياة الشيخ، والقسم الذي جمعتُ فيه شعرَ الشيخ.

١ صفة الصفوة لابن الجوزي، ١ / ١٨، طبعة دار الحديث.

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ، فقد بدأتُ فيه بالحديث عن ولادة الشيخ ونشأته، مُعَرِّجاً على الحديث عن حيّه وعائلته الكريمة، والجوِّ العلمي الذي نشأ فيه، خاصّةً علاقته العلميّة بأخيه سلطان العلماء في عصره، فضيلة الشيخ حسن رحمه الله تعالى.

ثمّ انتقلتُ في الفصل الثاني للحديث عن أسرته التي أنشأها وربّأها على خطى العائلة الكريمة. مُتحدّثاً في هذا الفصل عن الجانب الدُّنيويّ في حياته وبالأخصّ أعماله وموارد رزقه، لأصل في آخر هذا الفصل إلى صفاته التي تُشكّل ملامح شخصيّته الخاصّة.

وفي الفصل الثالث كان الحديث عن الجوانب الأساسيّة في تحصيله العلميّ، دراسةً ومطالعة، بالإضافة للحديث عن منهجه في التعليم، وأبرز الكتب التي كان يحبُّ تدريسها للطلاب، مُعَرِّجاً في هذا الفصل على طبقات طّالابه، وعلى بعض آرائه الخاصّة في الفقه الإسلاميّ، وختمتُ الفصلَ بنماذجٍ من خطبه ودروسه.

أَمَّا الْفَصْلُ الرَّابِعُ فقد كان مَعْقُوداً للحديث عن منهج الشيخ رحمه الله في الحياة بشكل موجزٍ ومكثّف، يظهرُ فيه الوجه الأبرز من حياة الشيخ، وهو سلوكه العام وسمات شخصيّته، بدءاً من الحديث عن صفاته الخلقية، وانتهاءً بالحديث عن منهجه بالتعامل مع الآخرين، ومروراً بذكر أخلاقه وصفاته السلوكيّة.

وفي الفصل الخامس، كان الحديث عن بعض جوانب تميز الشيخ في الأدب والشعر. متضمناً اهتمامه الإجمالي باللغة والشعر، وموقفه العام من أنواع الشعر، كما تطرق للحديث عن شاعريته وجمال أخيلته، على نحو موجز ومجمل، أملاً أن يُتاح لي المجال للحديث التفصيلي عن ذلك في دراسة مستقبلية.

والفصل الأخير عُقد للحديث عن الرحيل الأخير، وقد ضمّنته مختارات من مراثيات نثرية وشعرية كانت في تأبين الشيخ، قدّمت لها بالحديث عن رحيله، ثم أتبعْتُ ذلك بمختارات متنوعة وغير طويلة، من خطب التأيين التي تتحدّث عن مزايا الشيخ، وخصائصه العلمية والنفسية، مثلثاً بذكر بعض قصائد رثائه رحمه الله، خاصّة تلك التي قيلت في اليوم الأخير من التعزية.

أمّا القسم الثاني، فقد كان مُحصّصاً لديوان الشيخ، جمعتُ فيه نسبة كبيرة ممّا عثرتُ عليه من شعره رحمه الله، مُرتّباً على القوافي، وكانت مصادري فيه بشكل رئيسي أربعة مصادر:

المصدر الأوّل: ما أطلعني عليه الشيخ من شعره، وأجازني بنقله، وأخبر الثمانينيات من القرن الماضي، حيث كنت أتردد عليه بشكل شبه يومي، وقد جمعتُ ذلك في دفترين ما زلتُ أحتفظُ بهما، يبدأ الدفتر الأول بقصيدته التي كتبها لابن ابنه عمّار في نحو مئة بيت، وينتهي بقصيدة خاصّة كتبها لبعض أولي الأمر في بعض المناسبات. أمّا الدفتر الثاني فيبدأ بتخمينه لقصيدة "جسد تمكّن

حُبُّ طه فيه"، وينتهي على ما أذكر^١ بقصيدة "سلام على المحبوب والوجه مُشرق"، وقد أضفتُ إليه فيما بعد عدَّة قصائد زوَّدني الشيخُ بها، وآخرها قصيدتهُ التي رثى بها المحسنَ المعروف السيد أكرم العجة "أخاطبُ من أرثي..". ومجموع ما كُتِبَ في الدفترين يزيد على مئة قصيدة.

المصدر الثاني: دفترُ جمع فيه الشيخُ آخرَ حياته ما حضره ممَّا تناثر من شعره، بدأه بقصيدةٍ يمتدِّح فيها المحاررين القدماء، بمصطلحنا الخاص، ومطلَّعها: "حَيَّي الأُسُودَ أباة الضيم.."، وآخره قصائدُ قالها آخرَ حياته، ألحقها ابنه الشيخ أنس، لما عاجلت المنيةُ الشيخَ فلم يُتَح له تبييضُها من مسودَّاتها، وآخرها القصيدة التي كتبها رحمه الله لأحفاده، ومطلَّعها: "تألَّبوا حولي يا أحفادي"، وكان الشيخُ قد قرأ عليَّ هذه القصيدة قبل أشهرٍ قليلةٍ من وفاته مسوَّدةً وعليها تصحيحاتٌ هنا وهناك، وكان مطلَّعها غريباً؛ لأنَّ التألَّب غير مشهورٍ بمعنى التجمُّع الإيجابي، وكانَّ الشيخَ لمَح في وجهي هذا الاستغراب، فقال لي: التألَّب لا يستخدم عادةً كما أردتُ به هنا، ثمَّ تابع القراءة^٢. وعدد قصائد هذا الدفتر ثمانٍ وثمانين قصيدة، قسمٌ غيرٌ قليلٍ منها موجودٌ في المصدر الأول، وقد أكرمني نجل الشيخ، الأستاذ أنس، بتصوير هذا الدفتر، وقد كان

١ ذلك أني أضفت لقصائد هذا الدفتر قصائد ممَّا أعطانيه الشيخُ فيما بعد.

٢ للشيخ استعمالات للكلمات العربيَّة يخالفُ الشيوخ، لكنَّه في صميم الفصاحة والصَّحَّة، أذكر من ذلك على سبيل المثال بالإضافة لما ذكرتهُ هنا، أنني استغربتُ تركيماً ذكره في مقدِّمة كتبها لكتاب شقيقي الأستاذ أنور "أنس المحبين"، وذلك في مطلَّعها: "وبعد، فإنَّ كتابَ رياضِ الصالحين للإمام أبي زكريَّا يحيى النووي رياضٌ للصالحين، وهو نسيجٌ وخِده." هكذا بالإضافة، بخلاف الشائع "نسيجٌ وخِده".

ذلك مهمًّا للغاية ؛ لأنَّ القصائد الموجودة فيه، وإنَّ كان الكثيرُ منها عندي، شيءٌ من القصائد القديمة، وشيءٌ ممَّا تناثر عندي ممَّا كان يزودني به الشيخُ بينَ الفينة والأخرى، إلا أنَّ الشيخَ كان دائمَ التعديل والتصحيح، وهذا الدفتر كتبه بيده آخرَ حياته، فهو الأقربُ لما اطمأنت إليه نفسه آخرًا، هذا من جانب، ومن جانبٍ ثانٍ فقد ضبط الشيخُ بالشكل بعضَ قصائدِ هذا الدفتر، ضبطاً تفصيلياً - إن صحَّ التعبير -، أضفَّ إلى هذا وذاك أمراً في غاية الأهمية، وهو أنَّه كان يفتح القصيدة بمناسبتها، ممَّا كنتُ أجهل بعضه، ولا شكَّ أنَّ هذه الأمور الثلاثة مُهمَّةٌ جداً في التوثيق من جهة، وفي فهم القصائد من جهةٍ أخرى^١.

المصدر الثالث: دفتر آخر جمع فيه الشيخ بعضاً من قصائده القديمة والجديدة، أوَّلها أبياتٌ كتبها لتُجعلَ على قبر زوجة أخيه الشيخ، ومطلعُها: "نظمت عقود حياتها نظميه"، وآخرها ممَّا أثبتته قوله: "جاء وقت الصباح يبغي الزيارة"، وترتيب القصيدة في الدفتر ٦٣، وهي في الصفحة ٩٣.

وهذا الدفتر كشأن سابقه يحتوي على قصائد موجودة في المصدر الأول، كما فيه قصائد ممَّا كتب الشيخ في المصدر الثاني، وعدد القصائد التي انفرد بها، والتي أثبتتها، عددٌ غير كثير.

المصدر الرابع: قصائد متفرقة، بعضها كان الشيخُ قد أعطانيها في أوقاتٍ متفرقة، وبعضها وجدته فيما تناثر من أوراقه، والتي زودني بها مشكوراً ابنُ

١ الدفتر هو عبارة عن مفكرة، وقد وضع الشيخ آخرها فهرساً تفصيلياً لكلِّ القصائد التي احتوتها.

الشيخ، أخي الكبير الأستاذ أنس، بارك الله في حياته، وعدد المثبت منها أكثر من ثلاثين قصيدة.

وقد تسأل بعد هذا عن السبب الذي لأجله لم أثبت جميع قصائد الشيخ التي بحوزتي، والحقيقة أن ما أثبتته - باعتقادي - هو كافٍ في بيان منهج الشيخ الشعري، وهو أكثر ما وقّعت عليه يدي من شعره رحمه الله، ويمكن أن تكون نسبته فوق الثمانين بالمئة، والباقي لم أثبت لأسباب متعدّدة، منها أن بعض هذه القصائد قد تكررت معانيها في قصائد مثبتة عدّة، ومنها أن بعض القصائد لم تتضح لديّ مناسبتها، وبالتالي كان فهمها بالنسبة للمتلقّي غير ممكن، وغدت لذلك غير ذات أهمية، ولعلّ من أهم هذه الأسباب أن بعض القصائد كتبها الشيخ بمناسبةٍ خاصّةٍ جدّاً، وهي بذلك لا تصلح للنشر العام، وأظن أن الشيخ لو علّم بنشرها لما سرّه ذلك.

و أودّ في ختام هذه المقدّمة أن أذكر أموراً ثلاثة:

الأوّل: أن الشيخ، ومع الإلحاح الشديد من كثير من النّاس، لم يرَضَ بنشر شعره في حياته، ولكنه ألح إليّ بالإذن بالنشر أواخر حياته رحمه الله.

الثاني: أن الشيخ لم يكن له تأليف خاصّ في علم أو فن، كانت لديه بعض مشروعاتٍ للتأليف لم يرد الله إتمامها، فكان - كما قال لي بعض طلابه - كأبي حنيفة، يؤلّف الرجال ولا يؤلّف الكتب.

الثالث: أنني بذلت في هذا الكتاب جهداً كبيراً جدّاً، لعلني لم أبذل نظيره في كتابٍ آخر - حاشا رسالة الدكتوراه -، ولو سألتني عن السبب لعجزت عن

الإجابة، ربّما كان الأمرُ كما قلت لبعضِ أصحابي: أبى العظيمُ إلا أن يكون عظيمًا، وإن كان من أهمِّ أسباب ذلك ما بذلّتهُ في سبيل تحقيقِ شعره، لكثرة المتفرّقات، وكثرة تكرار وجود القصائد، مع تصحيحاتٍ وتغييراتٍ بحاجة لتتبع تطورها عند الشيخ، مع الإكثار من المقابلة، والتحرّي في الضبط، ورغبة محبي الشيخ بإخراج شعره على خير حال مُمكنة. وأسأل الله أن أكون قد وفّقت فيما كتبتُ عن الشيخ، وما جمعتُه من شعره، وأن يعفو عن تقصيري فيه وفي غيره، إنَّه سبحانه سميع الدعاء.

و آخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أحمد محمد سعيد السعدي

دمشق - ٢٥ جمادى الأولى / ١٤٣٠ هـ

الموافق ١٩ أيار ٢٠٠٩ م





الفصل الأول

الولادة والنشأة

وُلِدَ العلامةُ الشيخُ صادق بن مرزوق^١ بن عرابي^٢ بن غنيم حَبْنَكَة في حي الميدان بدمشق سنة ١٩١٨م. وهي السنة التي دخل بها الملك فيصل إلى سوريا^٣، وكان الشيخ رحمه الله ينقل ذلك عن أبيه كثيراً، ويُدَلِّل على ذلك بأحداثٍ عِدَّة، منها أنَّه كان صَبِيًّا إِبَّانَ الثَّوْرَةِ السُّورِيَّةِ عام ١٩٢٥م، ومنها أنَّه كان يافعاً شاباً يوم مات الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله المتوفى سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م. وقد رأيت أشعاراً كتبها الشيخ مؤرَّخة بهذه السنة، إضافة لما كان يعلمُ مَنْ فارق السنَّ بينه وبين أخيه سلطان العلماء الشيخ حسن حَبْنَكَة الميداني، والمولود سنة ١٣٢٦هـ الموافق سنة ١٩٠٨م، وبينه وبين الشيخ نحو من عشر سنين. وهذا يعني أن الشيخ صادقاً رحمه الله تعالى ولد نحو ١٣٣٧هـ الموافق سنة ١٩١٨م^٤.

١ توفي الشيخ مرزوق في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ.

٢ توفي في ٢٢ محرم ١٣٢٥هـ.

٣ كان والدُ الشيخ يخبره أنَّه وُلِدَ في السنة التي دخل فيها الملك فيصل إلى سورياً، قائداً لقوات الشريف، والملك فيصل هو فيصل بن الشريف حسين بن الشريف علي الهاشمي (١٨٨٣ - ١٩٣٣م)، وهو الابن الثالث لشريف مكَّة، كان لفترة قصيرة ملكاً لسورياً في عام ١٩٢٠م، وقد دخل الأمير فيصل سوريا قائداً لجيش الشريف الشمالي سنة ١٩١٨م بعد جلاء الأتراك عنها. ينظر: الملك فيصل الأول، د. عبد المجيد كامل، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١م.

٤ وجدت مكتوباً بخط الشيخ رحمه الله: (الاسم واللقب صادق بن مرزوق حَبْنَكَة الشهير بالميداني، المولد والتاريخ في دمشق - حي الميدان - عام ١٩٢٥م حسب الهوية، ١٩١٨ حسب الواقع).

الحيُّ الذي ولد فيه :

والحيُّ الذي نشأ فيه الشيخ كان يُعرف بميدان الحصى، وهو حيٌّ خارج سور دمشق جنوب باب الجابية، وقد رجَّح الدكتور الشيخ عبد الرحمن حبنكة نجل الشيخ حسن رحمهما الله تعالى أنَّ هذا الحيَّ كان منزل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلوا في الشام^١.

وحيُّ الميدان أو ميدان الحصى - كما كان يُعرف - حيٌّ عريقٌ مُحَفِظٌ، يُعَرِّفُ أهْلُهُ بالغيرة على الدِّينِ، والتَّمسُّكِ بالأخلاق العربيَّة الأصيلة، ومنه انطلق الشيخ محمد الأشمري في جهاده ضد الفرنسيين، وما زال هذا الحيُّ، والذي كان حيُّ الشيخ حياته كلَّها، حيًّا محافظاً معروفاً بالتدبُّنِ والخُلُقِ.

عائلة الشيخ:

أمَّا والد الشيخ فهو الحاج مرزوق بن عرابي (ت ١٣٩٥ هـ)، وقد كان جدُّ الشيخ: عرابي (المتوفى سنة ١٣٢٥ هـ) من العاملين بالرعي والتجارة في ميدان الحصى، وأصلُهُ من حماة، من عرب بني خالد، وهي من قبائل العرب المعروفة، ولها منازل في بادية حماة من أرض الشام^٢.

وعائلة الشيخ معروفة بلقب حبنكة، ثمَّ اشتهر أخوه الأكبر فضيلة العلامة الرَّاحل الشيخ حسن رحمه الله بلقب الميداني، وقد رأيت على بعض الصحف القديمة جدًّا، والمهداة إلى الشيخ حسن رحمه الله، اسم حسن الميداني، وكأنَّ شهرة الميداني في وقت من حياة الشيخ كانت أشهر من لقب عائلته (حبنكة)

١ الوالد الداعية المربي، الدكتور عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص ٣٣.

٢ المرجع السابق، ص ٣٥.

ثم إنَّ هذا اللقبُ ثُبِّتَ في دائرة النفوس لعائلة الشيخ كلّها، ومنهم شيخنا رحمه الله حيث كان مسجلاً في دائرة النفوس صادق حبنكة الشهير بالميداني.

أمَّا والدته الشيخ فهي خديجة المصري، وكانت من قرية جنوب دمشق اسمها (الكسوة)، وكانت حصيفة صالحةً كزوجها، أنجبت عشرة أولاد عاش منهم ستّة: أربعة ذكور، وأكبرهم فضيلة العلامة الشيخ حسن رحمه الله، وثانيهم فضيلة شيخنا الشيخ صادق رحمه الله، وبتان، إحداهما أكبر من شيخنا، والثانية أصغر منه، والعائلة كلّها عُرِفَت بالمحافظة على الدين والتخلُّق بأخلاق السلف، وذلك من صلاح الأبوين. غير أنَّ من اشتغل بالعلم والتعليم منهم كان فضيلة العلامة الشيخ حسن - وقد كان سرَّ نهضة الشَّام في قرنِها الماضي - ووزيره الأول فضيلة شيخنا الرَّاحل رحمهما الله تعالى.

صلاح والديه:

وكان شيخنا رحمه الله كثيراً ما يحدث عن صلاح والده، وقد قال لي في أكثر من مناسبة أنَّ عدداً من علماء الشَّام الكبار كان يعتقدون فيه الولاية، ويجرِّصون على زيارته، وكان هو - الشيخ مرزوق - صاحب دُعابةٍ، فيما زعمهم ويسرِّي عنهم، فكانوا يحجُّون إليه كلّما ضاقت عليهم الدُّنيا.

وينقل الشيخ عبد العزيز الخطيب في غرر الشَّام عن شيخنا رحمه الله قوله: (عاش والدي ١١٥ سنة بوعيه الكامل لم يختلَّ له عضو، وكان رجلاً صالحاً مواظباً على دروس العلم مع الشيخ إسماعيل الغنيمي، والشيخ أمين سويد، وآخرين كانوا يحضرون الدَّرس في جامع منجك بالميدان، كما حضر دروس الشيخ زين التَّونسي، وكان يصوم صيام داود لمُدَّة ٣٥ سنة لم يدر به أحد حتى زوجته؛ لأنَّه

يغادر صباحاً ولا يعود إلا عشاء فيأمرهم بوضع الطعام، وعرفوا ذلك قبيل وفاته)¹.

وقد حدَّثني الشيخ رحمه الله عن صيام والده هذا، وأَنَّهُ أخبره بذلك قبيل وفاته حين عجز عن الصيام، فقال له الشيخ: وما كنَّا نعلم بذلك، فقال له: أمُّك لا تعلم، فكيف بك أنت؟! وقد كان الشيخ يحدِّثني عن مواظبة والده على صلاة الجماعة، وحرصه عليها، بالإضافة إلى حضوره مجلس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان إذا أذن المؤذن ترك كلَّ شيءٍ في يده وهرع إلى الصلاة، حتَّى إنَّه يعتذر للزبون الذي يبايعه عن إتمام الصفقة، ويقول له: إن شئت انتظرنِي حتَّى أرجع من الصلاة. وقد بقي - رحمه الله - سنوات يصلي إماماً في مسجد منجك²، وممَّا يُذكر من محاسن أخلاقه وتديُّنه، أَنَّهُ ما حلفَ بالله قط، وكان يقول لمُستحلفه: إن شئت صدَّق، وإن أبيت فذلك شأنك. وقد حجَّ الشيخُ مرزوق - رحمه الله - في سنة ١٩٤٥ م، وكان للشيخ صادق رحمه الله سبعة وعشرون عاماً إذ ذاك، كما أخبرني ابنُ الشيخ. أمَّا والدته فقد كان حجُّها قبل ذلك بعشر سنين، وكان الشيخ قد كتبَ مَرَّجاً بِقُدُوم والدته من الحج:

غَبِيتْ عَنْ عَيْنِي وَلَكِن

أَنْتِ رَسْمٌ فِي فُؤَادِي

فَإِهْنِي فُرَّتْ بِحَجِّ

زُرْتُ طَهَ خَيْرَ هَادِي

١ غُرر الشَّام، عبد العزيز الخطيب، ص ٧٢٨.

٢ لم يكن الشيخ مرزوق - رحمه الله - إماماً راتباً، بل كان يُصلي حُسْبَةً لغياب الإمام الراتب.

زادتِ الأشُّواقُ لَمَّا

قد قضى الله بَعَادِي

أظَلَّ الْجُودَ بَعِينِي

ونأى عَنِّي رُقَادِي

فأدام الله أَمِّي

لي لأحظى في مُرَادِي

وعلى المُخْتَارِ صَلِّي

مَعِ سَلامٍ بِازْدِيَادِ

وقد أَرَحَهَا الشَّيْخُ - رحمه الله - بيوم الأحد ٢٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٤ هـ. وكانت كتابتها على أمل لقائه بها - رحمه الله -، لَكِنَّهَا حِينَ أَكْرَمَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأن حَجَّتْ مع ولدها الأكبر فضيلة الشيخ حسن رحمه الله، كتب الله وفاتها في طريق عودتها من الحج، كما كان يقصُّ علينا شيخنا رحمه الله. فقد مرضت وهي في الباخرة في طريق عودتها إلى الشام، واشتدَّ مرضها وخشي الشيخ حسن رحمه الله عليها كثيراً، وفي العشية ظهر على الوالدة الرَّاحلة رحمه الله علاماتٌ للتحسن والاتجاه إلى الشفاء، وفرح بذلك الشيخ كثيراً، إلا أنَّ الصَّبَاحَ آذَنَ بِرَحِيلِهَا عَنِ الدَّارِ الدُّنْيَا، ولم يكن هناك وسيلة إلا أن توضع رحمه الله بين خشبتين، ويوضع عليها ثقلٌ وتلقى في البحر. إذ كان الحال كذلك في تلك الأيام. وقد نظم العلامة الراحل الشيخ حسن رحمه الله أبياتاً في رثائها يحكي طرفاً من هذه القصة:

قَدْ ذُقْتُ فِي شَرِّعِ الْهَوَى أَلَمَ النَّوَى
 وَطَوَيْتُ ذِكْرِي الظَّاعِنِينَ فَمَا انطوى
 عَلَلْتُ نَفْسِي بِالرَّجَاءِ عَشِيَّةً
 فَإِذَا الصَّبَاحُ بِنَارِ يَأْسٍ قَدْ كَوَى
 سَمَّمَ الْفَوَازِ مِنْ الْحَيَاةِ وَبُؤْسِهَا
 وَالْجِسْمُ مِنْ مَسِّ الْمَصَائِبِ قَدْ خَوَى
 نَفِدَ التَّصَبُّرُ بَعْدَ طَوِيلِ تَحْرِيقِ
 فَفَزَعْتُ لِلْقُرْآنِ أَلْتَمَسُ الدَّوَا
 فَوَجَدْتُهُ يَشْفِي الصُّدُورَ فَمَنْ يَرِدِ
 آيَاتِهِ يَصُدِّرْ بِأَوْفَرِ مَا نَوَى

وهذا يعني أَنَّ والدَةَ الشيخ قد توفيت سنة ١٣٥٤ هـ ١، الموافق سنة ١٩٣٥ م، والله أعلم.

١ كتبتُ هذا في البداية مُعْتَمِداً على ما وجدته مكتوباً بخطَّ الشيخ - رحمه الله -، وإن كان يُخَالِفُ ما ذكره الشيخ عبد الرحمن مِنْ أَنَّ وفاتها كانت في عام ١٣٥١ هـ، وقَوَّى ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّ أَوَّلَ مَا كَتَبَ الشَّيْخُ شَيْئاً مِنَ الشَّعْرِ كَانَ سَنَةَ ١٣٥٢ هـ كما وجدته بقلمه، وأبياته في استقبَالِ والدَتِهِ الْمُؤَمَّلِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ ابْنَ الشَّيْخِ فَضِيلَةَ الْأَسْتَاذِ أُنْسَ أَكَّدَ لِي وَفَاةَ جَدَّتِهِ بِتَارِيخِ ١٩٣٥ م، اعْتِمَاداً عَلَى خَبَرِ عَمِّهِ الْمَوْلُودِ سَنَةَ ١٩٢٩ م، وَالَّذِي كَانَ عَمْرُهُ عِنْدَ وَفَاةِ والدَتِهِ سِتَّ سَنَوَاتٍ، وَقَدْ أَشَارَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: " ثُمَّ أَحْمَدُ، وَقَدْ نَشَأَ يَتِيمَ الْأُمِّ، إِذْ تَوَفَّيْتُ والدَتَهُ.. وهو ابن ست سنين في عودتها من الحج "..... وينظر: الوالد الداعية المري، ٤٢.

الجو العلمي الذي وُلِدَ فِيهِ الشَّيْخُ:

تقدّم أن الشَّيْخَ - رحمه الله - ولد في الرُّبْعِ الأوَّل من القرن العشرين، أي بُعيد سقوط الخلافة العثمانية وأوائل زمن الاستعمار الأوروبي للبلاد الإسلامية. ومعلومٌ أنَّ الحالة العامة للمسلمين آنذاك كانت الجهل العام، وقد كانت الدولة العثمانية أواخر حياتها قد ابتعدت عن العلم والتعليم إلا ما كان من جهود عالم هنا أو مصلحٍ هناك.

غير أنَّ البشائر بعودة العلم كانت بفضل ما يقيِّضه الله في كلِّ عصر لهذه الأمة من وارث نبويٍّ، يجدد عهداً بدينها، ويقوم أعوجاجها، ويحيي في النفس نوازع الخير، وكوامن الفطرة، وكان من فضل الله على بلاد الشام أن ساق إليها في القرن الثاني عشر عالماً مغربيَّ الأصل مصريَّ الولادة، وهو الشَّيْخ يوسف المغربيّ (ت ١٢٧٩) رحمه الله تعالى، وقد هيأ الله لأهل الشام من ابنه البار معجزة عصره مجدداً يُدعى بالشَّيْخ بدر الدِّين الحسني رحمه الله تعالى (ت ١٣٥٤ هـ) وهو صاحب النهضة العلميَّة الحديثة في بلاد الشَّام.

وُلِدَ الشَّيْخُ بدر الدِّين الحسني رحمه الله في دمشق سنة ١٢٦٧ هـ = ١٨٥١ م في دارٍ والِدِهِ قرب مدرسة دار الحديث الأشرافية، وتوفي والده وهو ابن اثني عشر عاماً فدرس في دار الحديث: الحديث، ثم درس على الشَّيْخ أبي الخير الخطيب بالمدرسة القلبقيَّة بسوق الحرير قرب سوق الحميدية بدمشق الشام، وقد حفظ القرآن ومتون العلم المختلفة وكتب الحديث الستة وغيرها وهو حَدَّث، وكان آية في الحفظ والرواية. ثمَّ إنه اعتزل النَّاسَ لما كثر حُسادُه، وقد بقي في عزلته سبعة عشر عاماً، درس فيها مختلف العلوم الشرعيَّة لا

سيما علم الحديث، فأقبل النَّاسُ عليه يقصدونه من كلِّ حَدَبٍ وصوب^١، وكان من تلامذة هذا العالم الكبير عددٌ من العلماء ورثوا منه العلم وتصدُّوا لتعليم النَّاس وإرشادهم، وكان من أشهرهم الشيخ علي الدَّقر الذي كان واعظاً مؤثراً في جماهير أهل دمشق على اختلاف رتبهم. وكان قد نزل قحط في حوران وما يليها من بلاد الشام جنوب سوريا، ولجأ شباب تلك المنطقة إلى دمشق، ورأى الشيخ عليُّ الدَّقر رحمه الله أن يعلم هؤلاء النازحين علوم الإسلام، فنهضت جمعيةُ العرَّاء بإشرافه بتعليم هؤلاء الشَّبَّان أمور دينهم، وقد أنشئت لاحقاً مدرستان تابعتان لهذه الجمعية هما: وقاية الأبناء، وسعادة الأبناء^٢.

وقد أدرك الشيخ صادق أواخر حياة الشيخ بدر الدِّين رحمهما الله، كما حضر بعض دروسه منذ نعومة أظفاره^٣، وكان شيخ أخيه، وشيخ شيخه الشيخ محمود العطار رحمهم الله جميعاً، وقد كان للشيخ حسن رحمه الله مكانة عظيمة عند الشيخ بدر الدِّين كما عند غيره من شيوخه كالشيخ أمين سويد رحمه الله تعالى. وكان هؤلاء الشيوخ قد قامت على أكتافهم بوادٍ النهضة التي كان للشيخ حسن حنكة رحمه الله فضل كبير في توسيعها في حيِّ الميدان وغيره من أحياء دمشق العريقة. وهكذا كان شيخنا نتاج هذه المدرسة العلميَّة التي

١ المحدث الأكبر كما عرفته، للشيخ صالح الفرفور، ٣٣ - ٣٨.

٢ غرر الشَّام، عبد العزيز الخطيب، ص ٧٢٩.

٣ وجدت مكتوباً بخطَّ الشيخ: (وأواظب على درس الشيخ بدر الدِّين الحسني وحيد عصره في داره بعد المغرب، وحضرت بعض مجالس الشيخ أمين سويد والشيخ محمود العطار والشيخ عبد القادر القصاب).

أرست معالم النهضة في بلاد الشام بدءاً بالمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسيني ووالده من قبله ومروراً بالشيخ أمين سويد والشيخ محمود العطار والشيخ علي الدقر ووصولاً إلى سلطان العلماء في بلاد الشام فضيلة العلامة المرحوم الشيخ حسن حنكة الميداني عليهم رحمت الله.

فضل العلامة الشيخ حسن حنكة على أخيه الشيخ صادق

تغمدهما الله برحمته:

إذا كان الله قد اختص أهل الشام بمحدثيها فضيلة الشيخ بدر الدين، فإن الشيخ حسن قد جمع الفضل من نواحيه حيث درس على الشيخ بدر الدين بعد أن درس على تلامذته، كما درس على علماء آخرين معروفين بالحفظ والإتقان والفهم والتدقيق كالشيخ عطا الكسم والشيخ أحمد العطار والشيخ عبد القادر الإسكندراني وغيرهم من كبار علماء عصره. ثم توجه إلى جامع منجك في وسط حي الميدان لينشر من هناك العلم إلى كل أصقاع الدنيا.

ولد الشيخ حسن صنو شيخنا في دمشق سنة ١٣٢٦ هـ، وكان متوقفاً الذكاء طموحاً محباً للعلم والفضيلة والمجد، فتعلم في الكتاب القراءة والكتابة والقرآن، ودرس على الشيخ طالب هيكل ولازمه حيناً، ثم درس على الشيخ عبد القادر الأشهب قبل أن يدرس على شيخه الشيخ محمود العطار رحمهم الله جميعاً، وقد مال الشيخ حسن رحمه الله مطلع حياته لحلقات الذكر وأخذ الطريقة، ثم تولى شطر العلم وترك ذاك الاتجاه كما حدثني شيخنا مراراً عنه، غير أنه بقي مجللاً لشيخه في الطريقة إلى آخر حياته.

وقد أقام الشيخ حسن رحمه الله نهضةً كبيرةً في حيِّ الميدان، قادها طلابه في جامع منجك، وكان على رأسهم ثلَّةٌ من كبار علماء دمشق الذين انقطعوا إلى الشيخ وأفنوا حياتهم في العلم، ومنهم فضيلة الشيخ صادق حبنكة وإخوانه كالشيخ خيرو ياسين والشيخ حسين خطَّاب شيخ قرَّاء الشَّام، والشيخ نعيم شقير، وغيرهم كثير.

وقد بدأ الشيخ صادق تحصيله العلمي منذ نعومة أظفاره على أخيه. وكان أخوه يحبه ويحلُّه لما امتاز به شيخنا من هدوء وحلم وذكاء ونباهة وعلمٍ وأدب، وهي خصال قلَّ أن تجتمع في رجلٍ واحدٍ. وعلى الرُّغم من أنَّ شيخنا - رحمه الله - قد حضر بعض مجالس العلم عند بعض علماء عصره^١، كما درس في بعض المدارس الشرعيَّة، إلا أنَّه كان يكرِّر كثيراً: كان شيخي الوحيد الذي انقطعت إليه هو أخي، وكان أخي قد درس على شيوخ كثير، غير أنَّني ارتضيته شيخاً ومربياً وأستاذاً وموجَّهاً طيلة حياتي.

وهكذا كان للشيخ حسن رحمه الله الفضل الأكبر في صنع علم شيخنا، وقد كان رحمه الله يحضر كلَّ دروسه خاصَّة وعامَّة، ويكون دائماً في خدمة الطلاب وضيافتهم كما أخبرني مراراً بذلك .

يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة النجل الأكبر للشيخ حسن رحمه الله:

١ وجدت مكتوباً بخطَّ الشيخ ضمن ترجمة مختصرة كتبها لبعض من طلب: (وكنت أتردد على دروس الشيخ علي الدقر العامة، وأواظب على درس الشيخ بدر الدين الحسني وحيد عصره في داره بعد المغرب، وحضرت بعض مجالس الشيخ أمين سويد والشيخ محمود العطار والشيخ عبد القادر القصاب.) .

(كان عمِّي الشيخ صادق حَبْنَكَة الشهير بالميداني شقيقُ أبي، هو النَّوَّاةُ الأولى في مؤسسته بجامع منجك، فنال بذلك أكبر نصيب من المصاحبة والمشاركة في العمل، مع برِّ به، وإخلاص، وصبرٍ وجَلَد، وحكمةٍ ورشد، وحُسنِ رأيٍ وتدبير، وقوة دفاع، وقدرة على الصمود والصمت، وتضحيةٍ وسهرٍ وخدمةٍ للشيخ، وخدمةٍ منقطعة النظير لطلاب معهده الذي كان مديره المباشر فيما بعد.....، وصار عضد أبي الأيمن في كلِّ مشاريعه ومؤسساته وأعماله ونشاطاته الاجتماعية، ونصيره في كلِّ شؤونه) ١ .

١ الوالد الداعية المربي، ص ١٠٩ .

الفصل الثاني

حياته الخاصة

تقدّم في الفصل الأوّل ذِكرُ عائلة الشيخ التي خرج من بينها، وأثر هذه العائلة الكريمة في تكوينه العلمي والفكري والأدبي والأخلاقي، وإذا كان شيخنا رحمه الله أثراً لهذه العائلة العريقة، فلا شكّ قد أثّر هو من جانبه في أسرته التي أنشأها وربّأها على خطى العائلة الكريمة. وبين تأثيره وتأثيره نستطيع تلمّس خصائصه الشّخصيّة رحمه الله تعالى، معرّجين في حديثنا في هذا الفصل على الجانب الدُّنيوي في شخصيّته وبالأخصّ أعماله وموارد رزقه، لتكتمل لدينا ملامح الشّخصيّة من جوانبها كافّة، وسأبدأ بالحديث عن أسرته التي أنشأها، ثمّ عن أعماله الخاصّة وسعيه في ابتغاء الرّزق لإعالتها، لأصلّ في آخر هذا الفصل إلى صفاته التي تُشكّل ملامح شخصيّته الخاصّة. ولنا حديث إن شاء الله في فصل قادم عن سمات شخصيّته العامّة، التي تعامل الشيخ من خلالها مع جميع مَنْ حَوَّلَهُ خارج نطاق أسرته وعلاقاته الخاصّة بها، ممّا هو موضوع هذا الفصل.

زوجتا الشيخ وأولاده:

تزوَّج الشيخ رحمه الله مرّتين، الأولى من امرأة عُرِفَ والدها بالتّقوى والمنزلة الاجتماعية الفاضلة، من عائلة دمشقية معروفة هي عائلة الصّبّاغ، وذلك سنة ١٩٣٨ ميلادية حسب تقديري، استنباطاً من أبيات كتبها رحمه الله عنها، وسأتي على ذكرها بعد قليل، والثّانية من زوجة فاضلة هي أمّ أولاده، إذ لم تنجب الأولى له ولداً قط، وذلك سنة ١٩٥٨ م، كما يظهر من شعره، وكما أفادني به أولاده حفظهم الله. وكلتا الزوجتين عُرِفَت بالصلاح والتّقوى، وقد أثنى عليهما الشيخ حين قال:

وَاخْتَارَ لِي زَوْجاً حَكَتْ بِصَلاَحِهَا
مَنْ فَارَقْتَنِي قَبْلَهَا بِمَاسَاتٍ
قَدْ أَشْبَهَتْهَا فِي جَمِيلِ صِفَاتِهَا
وَعَفَافِهَا وَخُلَائِقِي وَسِمَاتِ
فَكَأَنَّهَا عَادَتْ إِلَيَّ بِوَضْفِهَا
وَتَبَسَّ دَلَّتْ ذَاتُ بِمُشْتَبِهِ ذَاتِ

وكان بين وفاة الأولى وزواجه بالثانية ثلاث سنوات، كان الشيخ خلالها راغباً في ترك الزواج، حزناً على الأولى من جهة، وخوفاً من أن يترك وراءه زوجاً ثكلى وأولاداً أيتاماً من جهة أخرى، وقد أخبرني غير مرة عن اعتذاره من الزواج يومئذ ظاناً بأن سؤر العمر قصير، وأن ما تبقى يُمكن أن يستدرك فيه ما فاته من طاعة وعبادة وتحصيل علم شرعي. وقد أشار لهذا المعنى في قصيدته السابقة حين قال:

وَبَقِيْتُ وَخُدِي أَيَّامُ مُسْتَغْنِيَا
مُقَدَّارَ فَوْقِ ثَلَاثَةِ سَنَوَاتِ
مَا خَلَّفْتَ وَلَدًا وَأَصْبَحَ فَارِغًا
قَلْبِي مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ
وَنَوَيْتُ أَنْ أَبْقَى فَرِيدًا عَابِدًا
مُتَفَرِّغًا لِلْعِلْمِ وَالطَّاعَاتِ

وَصَبَرْتُ حَتَّى لَا أُخَلِّفَ زَوْجَةً

ولهـا يتـامى أبـسـلـوا لـشـتاتٍ

أمَّا الزَّوْجَةُ الأولى فهي السيدة نعيمة بنت عارف ياسين الصَّبَاغ، عاشت مع الشيخ سبعة عشر عاماً، كانت خلالها نعم الزَّوْجَة، وفيَّةً لزوجها، وصابرة على أحواله التي تقلَّبت أَيَّامَ زواجها، وقد مرَّ على الشيخ وقتٌ ضاقت فيه ذات يده، فكانت أقدر منه على الصبر، ولم ير منها إعراضاً أو انزعاجاً، بل كانت ترضى بقضاء الله على متقلِّب الأحوال، وابتلاها الله عزَّ وجل سنتين بمرضٍ شديدٍ لم يُعرَف ما هو، وانقطع الشيخ لرعايتها حيناً من الزَّمن، فترك أعماله وارتباطاته المختلفة، وتفرَّغ للإشراف على علاجها ومداواتها، وقد نقل لي عن بعض الأطباء قولهم: ما رأينا أكثر منك وفاءً ولا أكثر منك ودّاً لزوجك. وقد كانت عاقراً لا تنجب، حاول الشيخ تطبيبها لأجل ذلك، وكانت راغبةً بشدَّةٍ في أن تلبي رغبتَه في الإنجاب، غير أنَّه حينما علم أنَّ الأمر بسببٍ منها تظاهر بعدم الرَّغبة في الولد، وكان يقول لها: إنَّنا في سعادةٍ لا نريد تنغيصها بتشويش الأولاد ومشاكلهم، وشاء الله عزَّ وجلَّ أن تغادر الدُّنيا دون أن تنجب ولداً، وذلك أواخر سنة ١٩٥٤ م^١، قبل موسم الحج ذلك العام، وحجَّ الشيخ رحمه الله بعد وفاتها، كما استأجر من حجَّ عنها في العام نفسه، وقد أشار الشيخ لجملة

١ أرخ الشيخ قصيدةً قالها بعيد وفاتها، وكان أخوها قد صوَّرها فأمسك الشيخ صورتها وخاطبها بقوله:

كَلِّمْنِي يَا دَمِيَّتِي وَسَلْبَنِي كيف حالي من بعد ما صرت فرداً

أقول: أرخ الشيخ هذه القصيدة بتاريخ ٥ / ١٢ / ١٩٥٤ م.

من هذه المعاني في قصيدته السَّابِقة، وهي قصيدة كتبها بمناسبة زفاف بعض أولاده، ومطلَّعُها:

مَا كُنْتُ أَمْلُ أَنْ أَعِيشَ وَأُحْتَفَى

بِزَفَافِ ابْنَائِي وَعُزْسِ بَنَاتِي

وفيها يقول - رحمه الله -:

كَانَتْ مَعِيَ زَوْجٌ أَعِيشُ بِوَدِّهَا

وَبِحُسْنِ مَا جَمَعْتُ مِنَ الْحَسَنَاتِ

وَبِعَفَّةٍ وَبِخَفَّةٍ فِي ظِلِّهَا

وَرَشَاقَةٍ فِي الدَّلِّ وَالْحَرَكَاتِ

وَبِهَاءٍ طَلَعَتْهَا وَرَوْنَقِ شَكْلِهَا

وَبِطَيِّبِ الْقَسَمَاتِ وَالْبَسَمَاتِ

صَاحِبْتُهَا عَشْرًا وَخَمْسًا كُنْتُ فِي

أَثْنَائِهَا فِي أَطْيَبِ الْحَالَاتِ

ثُمَّ انْقَضَى سِتَانِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ

مَشْغُولَةٌ بِالذِّكْرِ وَالِدَعَوَاتِ

وَتَحَمَّلْتُ وَتَجَمَّلْتُ وَتَعَسَّلْتُ

وَمَضَتْ تَشْمُ رَوَائِحَ الْجَنَّاتِ

بَرَدَتْ وَتَوَحَّيْتُ إِلَاهِ وَذِكْرُهُ

حَسَبَ الْإِطَاقَةِ آخِرَ الْكَلِمَاتِ

وَقَصَدْتُ مِنْ فُورِي الْحِجَازَ مُيَمَّمًا
 أَرْضَ الْبَقِيعِ وَمِنْ عَلَى عَرَفَاتٍ
 وَحَجَجْتُ عَنْ نَفْسِي كَمَا اسْتَأْجَرْتُ مَنْ
 قَدْ حَجَّ عَنْهَا صَافِي النِّيَّاتِ
 نَفَذْتُ مَا أَوْصَتْ بِهِ مُسْتَمْطِرًا
 لِسَحَابِ الْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَاتِ

أَمَّا الزَّوْجَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ السَّيِّدَةُ نُورَةُ بِنْتُ الْحَاجِّ نُورِ الدِّينِ الْخَطِيبِ
 الْكِسْوَاني، تزوّجها الشيخ سنة ١٩٥٨ م، وهي أم أيمن، أم أولاده، وقد عاش
 معها ستّاً وثلاثين سنة، مرضت آخر حياتها، فرعاها الشيخ كما رعى سابقتها،
 إلى أن وافتها المنية في ٢١ رمضان ١٤١٤ هـ الموافق ٣ آذار ١٩٩٤ م^١، وكانت
 بينه وبينها مودة ورضا، كانت تُحِلُّهُ جَدًّا، وترى أَنَّ الله تعالى فضّل عليها به
 بأفضل نعمة، وكان الشيخ يحفظ لها ذلك، لا سيما وقد صبرت على بعده
 عنها، مع صِغَرِ أولادها، إِبَّانَ كان في غياهِبِ السَّجْنِ، وقد كان رحمه الله
 يوصيها من داخل السَّجْنِ بالصَّبْرِ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ بالله سبحانه، والأمل بالفرج بعد
 الشَّدَّةِ، من ذلك قوله - رحمه الله - يُخَاطِبُهَا^٢:

-
- ١ وحزنَ الشيخ لوفاتها حُزْنًا شديدًا، حتَّى إِنَّه رثاها بأكثرَ من عشر قصائد، ولو قرأتَ بعضَ ما
 رثى به زوجته، لرأيتَه يعتصر الماءَ على تجلُّده رحمه الله، وكنتم ما في نفسه.
- ٢ يقول الشيخ في بعض ما سجَّل: ودخل معي السَّجْنُ في غرفتي فبات عندي ليلةً شابًّا، فسألته:
 هل يعرفُ مكتبةَ الحلُبوني؟ فقال: نعم، فكتبْتُ هذه الأبيات وأوصيتهُ أن يُعطيها لِمَنْ كان يعمل في
 مكتبتَي، أردتُ أن تصل لزوجتي.

لَكَ اللَّهُ يَا أُمَّ الْبَنِيْنَ تَصَبَّرِي

فَإِنَّ سَبِيلَ الصَّيْرِ أَهْدَى وَأَجْدَرُ

وَلَا تَجْزَعِي إِنَّ فَرَقَ السَّجْنِ بَيْنَنَا

فَمَنْ لَجَّ فِي كَرْبٍ سَيْشَقِي وَيُؤْزَرُ

خُذِي عِزَّةً مِنْ أُمِّ مُوسَى وَطِفْلِهَا

وَمَا صَابِرٌ إِلَّا سَيَنْجُو وَيُظْفَرُ

وعلى العكس من الأولى، كانت رحمها الله ولوداً، أنجبت له ثمانية أولاد،
بعدد أبواب الجنة، كما قال رحمه الله:

وَأَرَادَهَا رَبِّي وَلُوداً أَنْجَبَت

تتري ثلاثة صبيّة وولادة

إلى أن قال:

أَعْدَادَ أَبْوَابِ الْجَنَانِ جَمِيعُهُمْ

فَأُلَّ لِإِسْعَادِي وَمَحْمُودِ هُنَاتِي

وأولاده الثمانية هم:

١ - ابنه البكر محمد أيمن: ولد سنة ١٩٥٩م، وكان سرّ تسميته أن الشيخ كان يقرأ مع زوجته حين كانت حاملاً به سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وجاء ذكر حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم بركة الحبشية، أم أيمن، رضي الله عنها، فقال لها: أنتِ سميتها، اخترت لك كُنية أم أيمن، وكان قد تزوّج السيد أيمن بإعانة والده وإشرافه، حيث اشترى له بيتاً وساهم في إصلاحه بيده رحمه الله، على كِبَر سنّه، كما زوّج إخوته أيضاً بخالص ماله وجهده، وقد كان ديدن الشيخ رعاية أولاده حتى بعد زواجهم، ومساعدتهم في شتى الوسائل الممكنة. وقد أنجب أيمن بنين وبنات، سمّى كبيرهم على اسم جدّه: صادقاً.

٢ - الابن الثاني: الشيخ محمد أنس، ولد سنة ١٩٦٠م، وقد حصل على شهادة الحقوق من جامعة دمشق، وكان درس قبلها في الثانويّة الشرعيّة، وقد لازم والده حتّى آخر حياته، وكان له عند الشيخ مكانة خاصة، لا سيما بعد أن التزم دروسه العامّة والخاصّة، ثمّ اختاره خطيباً في جامع منجك، ولا يزال كذلك إلى يومه هذا. وقد ولد له أيضاً بنين وبنات، أوّلهم عمّار، وهو الَّذي خصّه الشيخ بقصيدةٍ من مئة بيت، وهي من روائع شعره من حيث المضمون، حيث ضمّنها الشيخ خلاصة عبّر حياته، بعد أن تجاوز السّتين من العمر، وقد سجّلها الشيخ بصوته، وقدّم لها بمقدّمة قال فيها:

سألنني - رعاك الله - عن أبيات نظمتمها بمناسبة ميلاد أوّل حفيد لي، بعد يأسٍ مديد، وذلك أنّني كنت في شرح شبابي، وقبل أن أتزوّج، ألاحظ ميوعة في تربية

بعض الأولاد، ناشئة عن كثرة الدلال بدافع العاطفة لا بمقتضى المصلحة، فكان يدور في خَلْدي، أَنِّي سأُهج في تربية أولادي منهجاً مثالياً عندما أتزوَّج وأُرزُق الأولاد، ورسمت لذلك خطةً مُزْمَعاً تطبيقها في حينها. ولقد كتب لي الزَّواج، ووفَّقت به، فكانت زوجي مُسْتَكْمَلَة الأوصاف المرغوبة، وخصوصاً الدِّين والخلق، ولكنَّها ودودٌ غير ولود، مكثتُ معها سبعة عشر عاماً^١ على أهنأ عيش ثم مرضت سنتان^٢، وتوفيت رحمها الله، ولم تخلف لي ذرية، وبقيت بعدها ثلاث سنوات لا أرغب في الزواج، ثم قدَّر الله لي الزواج، فكانت الثانية شبيهة بالأولى في محاسنها، وجاءت بأول غلام في السنة الأولى، ثم الثاني في السنة الثانية، وهكذا توالى الأولاد: أربعة ذكور، وأربع إناث، ولما بلغ الأوَّلان سن الزواج زوجتهما معا، فولدَ للثاني - ولدي أنس - وَلَدٌ ذَكَرٌ، واختار له اسم عمار، فكان أوَّلَ حفيد لي على كبر سني - أي أَنِّي بلغت الرابعة والستين ذلك الوقت - فالتفت إلى ورائي من الحياة التي قضيتها، وتمخضت أفكاري من تلك المشاهد فكان من بناتها هذه الأبيات التي تشبه السبحة في عددها وبينها - يزيد على عددها - بيت مُتَبَنَّى وليس بابنٍ لها، فها هي تمشي إليكم على استحياء، وفي مشيتها قَزَل^٣، وهيها أن يبلغ الضالع شأوَ الضليع،.....، خاطبت فيها حفيدي عَمَّار^٤ قائلاً له:

أوا عمارُ جِئْتَ وصرْتُ شيخاً

أُعِدُّ الزَّادَ للسَّفرِ الطَّوِيلِ

١ متضمنة سنتي المرض.

٢ لعلها سنتين.

٣ القَزَل: العَرَج الشديد.

٤ لعلها عماراً.

فَأَنْتَ بِمَقْدَمٍ - هُنْتُ عَيْشًا -

وَجَدُّكَ فِي مَهْمَاتِ الرَّحِيلِ^١

٣ - الولد الثالث: محمد معاذ، ولد سنة ١٩٦٢م، وهؤلاء الثلاثة جاؤوا متتابعين، ثم جاءت بنتان، ليتّم الذكور الولد الرابع محمد، كما سيأتي، وقد أسماهم الشيخ جميعاً بأسماء مركبة، عدا الأخير، ليكون لهم البركة باسم المصطفى صلى الله عليه وسلم، راجياً شفاعته:

الْكُلُّ قَدْ سَمَّيْتُهُمْ بِمُحَمَّدٍ

أَرْجُو شَفَاعَةَ سَيِّدِ السَّادَاتِ

وقد تزوّج معاذ، ووُلِدَ لَهُ، وكان الشيخ قد زوّجه قاطعاً عليه سفر غربّة كان يتابع فيه التّخصّص في الطّبّ المخبريّ، إذ كان الشيخ رحمه الله يكره السفر والغربة، وبعد أن اغتربت ابنته الكبرى آلى على نفسه ألا يعيد الكرّة فاستقدم معاذاً من سفره، وزوّجه رغبةً منه في إبعاده عن فكرة الدّراسة في الغرب. وامتاز معاذ من إخوانه بجمال خطّه وقد كان الشيخ يحبّ منه ذلك، كما قرأ على الشيخ دروساً خاصة وحضر دروس الشيخ العامّة لا سيما في أخريات حياته.

١ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ الَّذِي سَجَّلَهُ عَلَى شَرِيطٍ أَهْدَاهُ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَطِيبِ بِنَاءً عَلَى طَلَبِهِ، وَكَانَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَهْدَانِي نَسْخَةً مِنْ هَذَا الشَّرِيطِ، وَكَتَبَ لِي عَلَيْهِ إِهْدَاءً وَذَكَرَنِي.

٤ - الولد الرابع: البنت الكبرى: سُمِّيَتْ، وقد سَمَّاهَا على اسم أوَّل شهيدة في الإسلام، ولدت سنة ١٩٦٤م، وكان الشيخ يُحِبُّهَا جَدًّا، ويرى لها مزيد عناية في تذوُّق الأدب والشعر، فكان يرسلها بعباراتٍ أدبيَّة يعلم سرورها بها، وقد زَوَّجها من تلميذه الأستاذ أسامة خليفة. وسافر بها إلى الفجيرة مع عدم رغبةٍ من الشيخ في هذا السفر، وأنجبت بنين وبنات، وقد كان ولدها الذَّكَر الأكبر رياض ممن التزموا بدروس الشيخ آخر حياته، وكان الشيخ يسرُّ من توجَّه بعض ذريَّتِهِ إلى العلم، ويحرص على تثبيتهم وتشجيعهم. كما كنت أرى مواظبة صهره أسامة في كل صيف يزور به دمشق على دروس الشيخ، ثم صار يحضر خطبته ودروسه المختلفة بعد استقراره في دمشق، وقد كان الشيخ يُعْجِبُهُ من أصهاره عموماً، ومن الأستاذ أسامة خصوصاً، الأدب الجمُّ، والاحترام لأهل العلم والفضل، وقد كان يرسل صهره - إِبْنان سفره - بقصائد يمتدحه فيها، كما يثني فيها على ابنته سُمِّيَتْ، من ذلك قوله رحمه الله:

تَقَبَّلْ يَا أُسَامَةَ مِنْ كَحَاتِكَ

سَلاماً طَيِّباً يَنْكِحِي صِفَاتِكَ

خَلَائِقُكَ التَّوَّاضُعُ والتَّفَنُّانِي

وَعُنْوَانُ السَّامَةِ مِنْ سِمَاتِكَ

عَرَفْتُكَ ذَا وَفَاءٍ وَاضْطِيارٍ

هَذَا أَجْزَلَ المَوْلى هِبَاتِكَ

سَأَلْتُ اللَّهَ يَحْفَظُكُمْ دَواماً

وزوجَتَكَ التَّقِيَّةَ مَعَ بناتِكَ

وله أيضاً قوله:

على الطَّائِرِ المِئْمُونِ وَاَفَتِ سُمَيَّتِي
فَقُلْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ كَامِلَ أُسْرَتِي
تَمَنَّتْ عَلَى ظَنِّي اللِّقَا فِي فُجَيْرَةٍ
وَكَانَ اللِّقَا فِي الشَّامِ غَايَةً مُنَيَّتِي
أَسَامَةٌ يَرْعَاهَا، وَرَبِّي حَفِظُهَا
وَيَحْفَظُ بَنَتَيْهَا صَفَاءَ الطَّوَيَّةِ
هُمَا هِبَةُ الْمُؤَلَّى وَبِالشُّكْرِ سَوْفَ لَا
يَنَالُهُمَا بِاللُّطْفِ أَيُّ أَذْيَةٍ^١

٥ - الولد الخامس: بنته الثانية نائلة، ولدت سنة ١٩٦٦م،
وتزوجها السيد محمد منير حمّامي، أبو عدنان، وكانت تسكن في البناء الذي
يسكن فيه الشيخ، لذلك كانت أقرب للوصال معه.

٦ - الولد السادس: الولد الذّكر الأخير - محمّد، ولد سنة ١٩٦٨م،
ودرس الأدب الإنكليزي، وكان مدللاً عند والده، تزوّج ووُلِدَ له، وكان مع
والده وإخوته وأمهم في حج الشيخ الأخير سنة إحدى وتسعين وتسع مئة
وألف ميلادية. وهو كسائر أبناء الشيخ محبٌ للدين وأهله، محترمٌ لأهل العلم

^١ يُشِيرُ إِلَى ابْنَتَيْهَا: صَفَاء وَهَبَةَ.

والفضل، وله مطالعات في الثقافة والعلم الشرعيين، وإن لم يتخصص لذلك.

٧ - الولد السابع: بنته وجدان، وهي التي كتب الله وفاتها بعد والدتها وقبل وفاة الشيخ، ولدت سنة ١٩٧٠م، وتوفيت رحمها الله سنة ٢٠٠٦م، وقد رثاها الشيخ في قصيدة قال فيها:

لَبَّتْ نِدَاءَ إِلَهْهَا وَجُدَانُ
فَاسْتَحْكَمَتْ مِنْ بَعْدِهَا الْأَحْزَانُ
كُنَّا نَعْلُلُ نَفْسَنَا بِشِفَائِهَا
فَاخْتَارَهَا لِجِوَارِهِ الرَّحْمَنُ
إِنَّا نَقُولُ مَوْدَّعِينَ مَعَ الْأَسَى
فِي ذِمَّةِ الرَّحْمَنِ يَا وَجُدَانُ

وكانت قد تزوجت من السيد محمّد خير الشيخ سالم - أبو سليم - وهو شاب حريص على صحبة أهل العلم، شديد الاحترام للعلماء، حجّ واعتمر أكثر من مرّة، وهو ودودٌ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ، جَزِيلُ الْعَوْنِ هُمْ.

٨ - الولد الثامن: بنته ندى - آخر العنقود - ولدت سنة ١٩٧٨م، وتزوجها السيد خالد شقيق الحاج محمّد خير الشيخ سالم، وسكنت مع أختها في بيت واحد، وقد تزوّجت صغيرةً، ووُلِدَ لها.

أعمال الشيخ وموارد رزقه:

كان الشيخ رحمه الله عصامياً، شديد العفة، صاحب مروءة وقناعة، لذا كان حريصاً على تحصيل الرزق بجهده وكسب يده، في الوقت الذي يرضى فيه بالكفاف. وقد كان الزهد عنواناً لحياته، لكنّه لم يرض أن ينظر الناس إليه نظرة من يحتاج لدنياهم، لذلك عمِلَ مبكراً في بعض المهن التي تكفيه وعياله، فجاءته الدنيا صاغرة، مع عدم حرصه عليها، وعلى الرغم من عدم اتساع الدنيا في يده، كان رحمه الله جواداً كريماً لا يمنع ولداً شيئاً أحبه مما هو من استطاعة أمثاله، وقد اشترى بيته من تحصيله كما اشترى بيوتاً لأولاده الذكور، وكان يعطي مما آتاه الله للفقراء خاصة من طلبة العلم، لا سيما في رمضان، وقد كنت أشهد عطاءه وجوده في أيام الشهر الفضيل. وذلك كله مع حرصٍ على تحصيل ما يحتاجه من الدنيا بجهده وعمله واجتهاده في العمل، وكان يوصينا كثيراً بالسعي للرزق الحلال، مع تشجيعه على عدم التفريط في تحصيل العلم، وتكراره دائماً (أبى الله أن يرزق طالب العلم إلا من حيث لا يحتسب)¹.

فجمع بموقفه المبدئي هذا، بين الدعوة للسعي، وبين تقديم طلب العلم والاهتمام به، وكان كثيراً ما يعلّل الدعوة للسعي باستقلال طالب العلم المادي عن الناس، فيكون أكثر جرأة في نقد الخطأ، وأكثر حرية في سلوكه ومنهجه في حياته. هذا المبدأ - الذي كان الشيخ يؤمن به ويدعو طلبية العلم له - من حرصٍ على عدم انشغال الطالب عن طلب العلم بالاستكثار من الدنيا، مع

¹ ليس بحديث، ولكن الواقع يصدّقه، وينظر كشف الخفاء ١ / ٣٤ وتعليقه على حديث شديد الضعف: أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم.

حرصه على تحصيله ما يكفيه وعياله، ليكون أكثر استقلالية في دعوته وسلوكه، كان له منهجاً وطريقاً منذ شرح شبابه، فقد عمِلَ رحمه الله في إصلاح المؤقتات، وهي مهنة أهل الحديث من المعاصرين كما هو مشهور. وقد برع الشيخ رحمه الله في هذه المهنة، وكان أصحاب المحلّات الكبرى في هذا يسألونه النصيحة في ذلك، وحصل الشيخ من وراء هذه المهنة مالاً شجّع على العمل بالتجارة، فعمل في بيع الكتب وشرائها، لا سيما القديمة منها، ووسّع عمله ففتح مكتبة منجك في حي الميدان في شارع الجزماتية. ثم انتقل منها إلى مكتبة أخرى سمّاها المكتبة الأزهرية، وقد وسّع أعماله فيها فكان يجلّد الكتب ويصوّر الملخصات الجامعية ويتاجر ببيع الكتب، وكان منها مكتبة الحلبوني، التي كان لها شهرة كبيرة طبع فيها المصاحف بالقياسات والأشكال المختلفة، كما طبع كتباً علمية عدة من أشهرها كتاب الجامع الصغير للإمام السيوطي رحمه الله، وقد أشرف الشيخ رحمه الله شخصياً على طباعته والعناية بترقيمه وتصحيحه، وكتاب مختصر رياض الصالحين، وشرح نهاية التدريب لشقيقه العلامة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، واتجه الشيخ لتصغير حجم المعاجم ليسهل حملها والرجوع إليها، فطبع مختار الصحاح في قياس الجيب، ثم طبع مختار القاموس للزواوي في قريب من حجم مختار الصحاح، وكان يرغب رحمه الله في طباعة القاموس كاملاً في هذا الحجم الصغير لكن حال دون ذلك كِبَرُ سنّه، وبعض إشكالات فنية ظهرت أثناء تحضيره لطباعته. ثم انتقل الشيخ إلى مكتبة في وسط شارع مسلّم البارودي في شارع انتشرت فيه فيما بعد مكتبات طلاب العلم سمّاها دار خدمات القرآن، وقد طبعت هذه المكتبة عدّة طبعات لكتاب الله عزّ وجلّ،

وكان لي شرف العمل بها والإشراف على بعض ما طبعته بتوجيهه وإشرافه رحمه الله تعالى.

وإلى جانب هذه الأعمال الخاصة، كان رحمه الله موظفًا لدى وزارة الأوقاف عُيِّن قديماً إماماً لجامع منجك، كما كان له فيما بعد وظيفة لدى الوزارة تُعرَف بوظيفة التدريس لدى دائرة الفتوى، وقد استمر في هذه الوظيفة حتى انتقاله للرَّفِيق الأعلى.

هذا كُلُّه إلى جانب إدارته لمعهد التوجيه الإسلامي مُدَّة بقاء المعهد، وتدرسه فيه، بالإضافة إلى أَنَّهُ درَّسَ حيناً في الكليَّة الشرعية والتي كانت نواة كلية الشريعة مما ستتحدث عنه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

ولو نظرنا في عموم أعماله في غضون سعيه لكسب الرزق، لوجدنا أَنَّهُ كان يحاول - إجمالاً - الجمع بين تحقيق الكفاية المادية، وتقديم الخدمات في مجال خدمة الشرع والقيام على نشره وبيانه، فحقَّق بذلك الواجب الاجتماعي، وهو واجب شرعي بطبيعة الحال، والواجب الشرعي بتبليغ الأمانة ونشر العلم وبيان الدين كما تعلَّم وحصَّل من توجيهات الشريعة الغراء. ومن ثَمَّ نستطيع إجمال سياسته رحمه الله في هذا المجال في النقاط التالية:

١ - كان رحمه الله رجلاً عصامياً، صاحب مروءة ونفسٍ أبيَّة، يكتفي من العيش بالكفاف، ويأبى أن يحتاج الناس ولو لعود كبريت.

٢ - كان رحمه الله زاهداً، مترفعاً عن الدنيا، قليل الاهتمام بمتاعها، قليل الحرص على تحصيلها.

٣ - كان رحمه الله كريماً جواداً، يبذل من ماله بنفسٍ سخية، ويصرف على عياله من كسب يده، دون منٍّ أو تأفف.

٤ - كان رحمه الله يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة في مختلف أعماله، ويقدم المصلحة الحقيقية على العواطف العارضة في سعيه وإدارته، وهذا ولّد لديه الحرص على النوع وتقديمه على الكم إجمالاً، وفي نتاجه في العمل بشكل خاص.

٥ - كان التوكل عنوان حياته رحمه الله، يبذل جهده، ويسعى في الخير ما استطاع، لكنّه لا يندم على شيءٍ فاته بعد أن بذل جهده في تحصيله، مؤمناً إيماناً حقيقياً وعملياً أنّ السَّعي لا يزيد الرِّزق، وإنّما هو واجب على الإنسان استجابةً لأمرِ الله، ومن الله النتائج.

٦ - وأخيراً: كان رحمه الله يسخر كل ما يستطيع في خدمة رسالته، فكان إنجابه للأولاد، وسعيه في الرزق، جزءاً من خطته العامّة في الحياة، ورؤيته لوظيفته فيها، استجابة لأمر الله في إعمار الأرض، ونشر الخير في أرجائها.

هذا طرف من سمات شخصية الشيخ الخاصة، والنفس مائلة للتوسّع في هذا لما له من أثرٍ وفائدةٍ للناس الذين يرون الاقتداء بالأكابر، غير أنّي التزمت في ذلك الخطّة العامة في الاختصار وذكر رؤوس المسائل وأهم الحوادث، وفيها إن شاء الله من الخير ما يغني عن الإطالة. والله أعلم.

الفصل الثالث

الحياة العلمية

تقدّم معنا في الفصل الأول الحديث عن الجوّ العلمي الذي ولد فيه الشيخ ونشأ، وعن بداية تحصيله للعلم، وأثر شقيقه في تكوينه العلمي، ولعلّ هذا الفصل يتابعُ الجوانبَ الأساسية في تحصيله العلميّ، دراسةً ومطالعةً، لتكتمل صورة بناء شخصيته العلمية في التلقي والتعلّم، ثمّ يتلو ذلك الحديث عن منهجه في التعليم وأبرز الكتب التي كان يحبُّ تدريسها للطلاب، وسيعرّج هذا الفصل على طبقات طلابه، وعلى بعض آرائه الخاصة في الفقه الإسلاميّ.

طلب الشيخ للعلم ومنهجه في تلقيه:

فتح الشيخ عينيه على الدُّنيا والظروف المحيطة به تساعد على التوجه صوب العلم الشرعيّ لما تقدّم من حالة عائلته ومكان أخيه وحبّه للعلم وتمسّك العائلة عموماً بالدين. هذا الجوّ دفعه للتعلّق منذ صغره بالعلم ومظاهر العلماء، وقد حدّثني كيف وضع العمامة وهو صغير دون أن يكثرث لعدم إتقان صنعها، فقد كان همّه أن يضعها على رأسه. وكان في عهد الشيخ رحمه الله أسلوب للتعليم في مكاتب خاصّة تسمّى الكتاتيب، وقد درس رحمه الله وهو بعد صغيراً جداً بمكتب الشيخ أحمد وسليم اللبني قبل سنة ١٩٢٥م، ثم انتسب للمدرسة التجارية التي كان يديرها الشيخ محمود العقّاد رحمه الله تعالى وقد كان الشيخ محمود شديداً وكان أسلوبه في التعليم قاسياً، فانتقل الشيخ منه إلى مكتب الشيخ محمد المصري في الميدان.

ثم انتقل الشيخ للدراسة في المدارس، فدرس في مدارس الجمعية الغراء التي كان يديرها أخوه الشيخ حسن رحمهما الله تعالى، حيث درس في المدرسة الرّيحانيّة وغيرها، وقد تخرّج رحمه الله من هذه المدارس ليمارس التعليم في مدرسة وقاية الأبناء التي أنشأها الشيخ علي الدّقر رحمه الله، وهي من مدارس الجمعية الغراء، وقد أشرت إلى هذا عند الحديث عن الجوّ العلميّ الذي ولد فيه الشيخ ١.

إذن فقد بدأ الشيخ دراسته منذ نعومة أظفاره في المدارس الشرعيّة، ولاحظ شيوخه ثم نبوغه وتقدّمه في العلم والتّحصيل، فانتدبوه للتّدريس مبكّراً. وقد نقل الشيخ عبد العزيز الخطيب عن الشيخ رحمه الله أنه بدأ بالتّدريس العام في سنّ الثالثة عشر عند غياب أخيه عن الدرس في جامع منجك الذي غدا خطيباً له فيما بعد ٢.

ورغم استفادته رحمه الله من أساتذته وشيوخه في الكتاتيب والمدارس الشرعية التي تعلّم بها، وحضوره بعض مجالس العلم لكبار علماء عصره كما تقدّم في الحديث عن الجوّ العلميّ الذي ولد فيه الشيخ ٣، إلا أنّه انقطع بعد ذلك

١ ينظر: غرر الشام، عبد العزيز الخطيب، ص ٧٢٨، ٧٢٩.

٢ المرجع السابق ص ٧٢٩. ومما يؤكد تدريسه مبكّراً في المدارس ما وجدته بخطّه مؤرخاً بـ: ٢ ذي القعدة ١٣٥٣هـ، وفيه وظيفة إعراب لبعض التّلاميذ، وهي أبيات ثلاثة يقول فيها رحمه الله:

كَلَّ الْخَلَائِقُ إِن تَسْلَهُمْ يَبْخُلُوا	لَا تَطْلُبْنَ مِنْ رِفْقَةٍ وَإِخْوَةٍ
إِنَّ الْعَطَاءَ عَطَاءُ رَبِّ قَابِلٍ	لِلْعَبْدِ لَوْ يَأْتِي بِأَسْوَأَ حَالَةٍ
شُحُّ الْعِبَادِ لِضَعْفِهِمْ وَلِجَبْنِهِمْ	كَرَمُ الْإِلَهِ لِقُدْرَةِ وَإِرَادَةٍ

٣ نقلت ثم قول الشيخ في حضوره لدروس عدد من المشايخ منهم الشيخ بدر الدّين الحسنيّ والشيخ علي الدّقر والشيخ أمين سويد وغيرهم.

للاخذ عن أخيه حتّى شاع عنه ما كان يكرّره من أنّه لم يعدّد الشيوخ كما كان حال أخيه، بل التزم شيخه وأخاه طيلة تحصيله، وقد رأى أنّ التدريس في مطلع عمره سيؤثر على تحصيله فتركه مفضّلاً ملازمة أخيه حيث حلّ أو ارتحل. وبذلك كان الشيخ صادق رحمه الله تعالى - كما وصفه ابن أخيه - نواة مؤسسة الشيخ حسن العلمية، وفي الطبقة الأولى من طلابه الكبار، بل إنه كان أستاذاً لمختلف الأجيال التي وردت لتلك المؤسسة العلميّة العريقة، حتى أولئك الذين صاروا فيما بعد زملاء له من الطبقة الأولى من تلاميذ الشيخ حسن رحمهم الله جميعاً^١.

لقد أدرك الشيخ رحمه الله عدداً من أساتذة وشيوخ أخيه^٢، واستفاد منهم كما استفاد من شيوخ المدارس التي أنشأتها الجمعية الغراء، غير أنّ تكوينه العلميّ الأساسي كان حكرّاً على تحصيله من أخيه منذ صغره وحتى وفاة أخيه^٣، إذ قرأ عليه عدداً كبيراً من الكتب العلميّة منها تفسير القرطبي، والمجموع للإمام النووي، والشفّا للقاضي عياض، وسيرة ابن هشام، ومغني اللبيب في النحو لابن هشام، والكامل للمبرد في الأدب، وغيرها كثير^٤.

١ ينظر ما كتبه في هذا الشيخ عبد الرحمن حبنكة في كتابه (الوالد الداعية المربي ص ١٠٩ فما بعد)، وانظر ما سيأتي عند الحديث عن طبقات طلابه.

٢ في الترجمة المختصرة التي كتبها الشيخ عن نفسه: (الذين انتفعت بهم كثيرون، شيوخي في المجالس الخاصة والعامة والمحاضرات والمدارس الأولية جزاهم الله عني خيراً).

٣ وفي الترجمة المشار إليها آنفاً يقول الشيخ: (أما دراستي الخاصة لما قسم لي من العلوم المعقولة والمنقولة، فكانت على شقيقي المرحوم العلامة الشيخ حسن حبنكة الذي أخذ علمه عن كبار من عاصروهم من العلماء العرب وغيرهم).

٤ غرر الشام، ص ٧٣٠.

وقد كان للشيخ منهج خاص في التلقي، كما كان له منهجه في التعليم، وقد استفدت بعض معالم هذا المنهج من حديثه رحمه الله عن ملازمة أخيه، غير أنه لم يكن من معالم هذا المنهج الانقطاع لشيخ واحد كما قد يُظن، فبالإضافة لما أشرت إليه من استفادة الشيخ من علماء غير أخيه، هناك ما كان يوصي به - رحمه الله - من وجوب حرص طالب العلم على الاستفادة من المشارب المختلفة بشرط كونها من معين واحد، فالتزامه رحمه الله لأخيه وانقطاعه له هو نتيجة ظروف معروفة وواضحة، فهو أخوه، يساكنه ويذهب ويرجع معه بطبيعة الحال، غير أن الشيخ صادقاً رحمه الله ما كان يدعو للانقطاع البتة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ما كان يجب أن يعدد الطالب من المدارس والاتجاهات الفكرية المختلفة كما يدعو إليه بعض المربين، فهو كان يخص طلاب العلم على تعدد الشيوخ كما كان حال السلف، لكن الشيوخ الذين ينبغي الأخذ عنهم هم من اشتهر فضلهم وصدقهم ودينهم وعلمهم بين الناس عامة وطلاب العلم خاصة، أما المشايخ الذين يفارقون الجماعة، أو لهم اتجاهات فكرية مخالفة للسواد الأعظم من علماء الشرع، فكان ينصح بعدم التحصيل على أيديهم، وكان يكرّر رحمه الله: (لا تمكّن زائع القلب من أذنك، لا تعلم ما يعلّقك من ذلك) كما ورد في بعض الآثار. ولعلّ هذا هو المَعْلَمُ الأوّل من معالم منهجه رحمه الله في التلقي ممارسةً وتوجيهاً، وخلاصته وجوب البحث عن العلم حيثما كان ومهما صعب طريقه، ولو كان المَعْلَمُ أقلّ رتبةً اجتماعيّةً أو علميّةً من طبقة شيوخه، بشرط أن يكون هذا المَعْلَمُ موثقاً في علمه ودينه واستقامته. وقد كان يكرّر رحمه الله أن قيمة العلم محفوظة، وهو درّةٌ عصماء، والدّرّة لا تنقص قيمتها بنقص الغواص الذي استخرجها.

إذن لا بأس بِتَعَدُّدِ الشيوخ بشرط استقامتهم على المنهج، ولا ينقص من قدر طالب العلم إن كان شيخه مغموراً بين الناس، بشرط أن لا يكون شاذاً في علمه أو دعوته.

المَعْلَمُ الثاني من معالم منهجه في التلقي المواظبة والدأب والمتابعة والاجتهاد وطول التحصيل. وقد أخبرني الشيخ رحمه الله عن بقاءه فترة غير قصيرة من الزمن معرضاً عن أي نشاط اجتماعي أو اقتصادي، مكباً على كتب العلم الشرعي، ملازماً لكل دروس أخيه الشيخ حسن الخاصة والعامة.

وقد أخبرني غير مرّة أنّه كان حريصاً على حضور دروس أخيه الشيخ العامة كحِرْصِهِ على دروسِهِ الخاصة مع تلامذة الشيخ، فلا يترك درساً في بيت الشيخ أوفي المسجد إلا ويحضره باهتمام ومتابعة، وكان يكره الاعتذار بالأعذار، وقد استأذنته مرّة في الغياب عن الدّرس لأجل الامتحانات الجامعيّة فقال لي: كما تريد، غير أنّ المواظبة على الدرس ولو في فترة الامتحانات أفضل للطالب؛ لأنها تدخل عاملاً في تنظيم الوقت، ولربما ترك الطالب درس العلم لأجل المذاكرة فيفتر عن هذه وتلك، لأنّ الدّرس قاطعٌ لرتابة المطالعة، وهذا يسهم في زيادة الحرص على الوقت، وفي تنظيم مواعيد المذاكرة والدّراسة.

وكان الشيخ رحمه الله إجمالاً يكره الانقطاع إلا بعذرٍ قاهر، ويُكرّر دائماً قول الشاعر:

أخي لن تنال العلم إلا بسِتّة
سأُنبئك عن نَفْصِـيْلِها بيّانٍ

ذَكَاءٍ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ وَبُلْغَةٍ

وإرشادٍ أستاذٍ وطُولٍ زَمَانٍ

وقد صدّق فيه - رحمه الله - قولُ ابنه يَصَوِّرُ حِرْصَهُ على العلم: (كان يعتبر الدّرس اجتماعاً مقدّساً ومقدّماً على جميع المهام)^٢.

ومن معالم منهجه هذا ترك الجدال وإطالة النقاش فيما لا يعود على الطالب بكبير فائدة، مع حرص شديد على فهم العبارات وحل العضلات، والسؤال عمّا يُشكل.

وقد كان يُشجع طلاب العلم على اتباع منهجه في السؤال والإلحاح فيه دون حياءٍ فيما هو من صلب الدّين، وتتوقف عليه مصلحة حقيقيّة، ويشني عليهم إذا سألوا بآداب السؤال، وقد كنت ممن تكرر لهم معه - رحمه الله - هذا الموقف. غير أنه يكره المسألة فيما هو قليل الفائدة العلمية، وقد كان يكرر إجابة السلف عن كيفية تحصيل العلم (بلسان سؤال، وقلبٍ عقول) كما يكرر قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)^٣، ويذكر أن المعنيّ بالسؤال هنا هو ما يقصد به إطالة الحديث وضياع الوقت في النقاش غير المثمر. أمّا ما كان في العلم وله أثر عملي

١ من شعر الإمام الشافعي، وهي في ديوانه، ص ١٣٣، طبعة دار الخير، لكن الشطر الأخير في الديوان: وصحبة بدل إرشاد.

٢ من محاضرة ألقاها ابنه الشيخ أنس حبنكة تحدّث فيها عن الشيخ بعد وفاته، وذلك في جامع التّوبة بدمشق.

٣ الحديث رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، رقم ٦٧٤٤، ومسلم، واللفظ له، في الفضائل، باب توقيره وترك إكثار سؤاله، رقم ٤٣٤٨.

واضح فهو محلُّ ترحيبٍ شرعي، بل هو واجبٌ على السائل، وعلى المسؤول إن عَلِمَ الجواب.

وأخيراً كان الشيخ يحلُّ شيخه إجلالاً كبيراً، ويحترمه بل ويبالغ في الشناء عليه كلما ذكره، وقد كان رحمه الله معروفاً بخُلُقِ الوفاء، ومن ذلك وفاءؤه لشيوخه حتى لمن قَلَّتْ استفادته منهم، وكان يدعو لهم، ويذكر فضلهم، ولعل هذا هو المَعْلَمُ الرابع من معالم منهجه في التلقي، وهو مهمٌ جداً؛ لأنَّ أسوأ خُلُقٍ في طالب العلم قلة وفائه لشيوخه، وهي من الفوائد التي استفدتها من الشيخ رحمه الله، إذ كان يُعلي من قيمة الوفاء، يُمجِّدُ هذا الخلق، ويكثر القصص من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم مما يبرز أن الوفاء سيد الأخلاق.

ومن وفائه رحمه الله لشيخه وأخيه، أبيات متعددة كتبها في مناسبات مختلفة يذكر فضل أخيه وبعض مزاياه، منها قوله بمناسبة عودة شقيقه من الحج:

لِلّهِ مَا أَحْلَى التَّـدَانِي وَاللِّقَا
مِنْ بَعْدِ شَرْبِ الْمُرِّ مِنْ كَأْسِ النَّوَى
اللَّهُ أَذْرَى بِاللَّذِي أَكُنْتُ هُ
مِنْ حُبِّكُمْ وَلِكُلِّ صَبٍّ مَا نَوَى
لَمْ لَا أَحِبُّ وَفِي حَبِيبِي جُمَعْتُ
شَتَّى المحاسنِ فاحكموا أهلَ الهوى
جودٌ ذكاءٌ فطنةٌ ورجاحةٌ
جبلُ العلومِ وقلبُهُ وادي طوى

فَهُمْ ثَبَاتٌ نَجْدَةٌ وَسَاحَةٌ

فَلَنِعْمَ جَامِعُهَا وَنِعْمَتُ مُحْتَوَى

إِنْ قَامَ يَخْطُبُ فَهُوَ أَخْطَبُ قَائِلٍ

أَوْ رَاحَ يَنْقُلُ فَهُوَ أَصْدَقُ مَنْ رَوَى

أَوْ هَزَّ جَذَعَ الْقَوْلِ سَاقَطَ مُحْسِنًا

رَطْبًا جَنِيًّا عَابَهُ عَدَمُ النَّوَى

نَشَرَ الْمَعَارِفَ وَالْفَضِيلَةَ بَعْدَ أَنْ

كَادُوا يَقُولُونَ: الْهُدَى لَقَدْ انْطَوَى

هَذَا الْإِمَامُ الْفَذُّ فَارْعُوا وَدَّهْ

يَا سَعْدَ مَنْ هُدَى مُعَلِّمُهُ أَوَى

وذكر لي الشيخ رحمه الله، أنه كان جالساً في مجلس وداع أخيه قبل سفره إلى الحج، وكان ثمة من بالغ في إظهار حزنه على فراقه، وكان من طبع الشيخ صادق رحمه الله القدرة على ضبط الانفعال، وعدم المغالاة في إظهار العواطف، ولربما بدا بين الناس أقل حزنًا أو اهتماماً بالمناسبة، وخاف أن يظن الشيخ حسن ومن حوله أنه أقل تأثراً برحيل الشيخ فقال على البديهة:

بِرُوحِي مَنْ سَرَوَا نَحْوَ الْمَدِينَةِ

سَرَوَا فَبَدَتْ عَلَى جِسْمِي السَّكِينَةِ

قَدْ اخْتَلَفَتْ بِنَا الْأَحْوَالُ لَمَّا

سَرَتْ بَعْدِي ذَاتُهُمْ السَّكِينَةِ

فَمِنْ مُتَكَبِّرٍ لَمْ يُيَدِّ وَجْداً
وَمِنْ مُتَوَاجِدٍ أَبْدى حَيْنَه
فَوَاهِفِي إِلَى وَصْلِ قَرِيبِ
وَنَحْنُ الْيَوْمَ مُنْتَظِرُونَ حَيْنَه^١

دروس الشيخ ومنهجه في تعليم العلم:

يُمكن أن نقسم تعليم الشيخ إلى قسمين، تعليمٌ رسميٌّ، وتعليم عامٌّ.

وأقصد بالتعليم الرسمي تعليمه رحمه الله في المدارس والمعاهد الشرعية وهو جانب مهم جداً من مشواره التعليمي رحمه الله، فقد بدأ التدريس في المدارس الشرعية منذ مطلع حياته، حيث درّس في مدرسة وقاية الأبناء التابعة للجمعية الغراء، لكن لم يطل تدريسه ثم، إذ رغب في التحصيل والاستزادة قبل التصدي للتعليم، ولعلّ فترة تعليمه في معهد التوجيه الإسلامي هي الفترة الأطول والأهم في حياته التعليمية. فقد كان طلاب الشيخ حسن رحمه الله يدرسون في أروقة مسجد منجك، ثم بنيت لهم غرف متواضعة ليقوا في المسجد منقطعين لتحصيل العلم، ثم كان مشروع معهد التوجيه الإسلامي حيث بُني

١ بعد أن كتبتُ هذا وجدت في بعض رسائل الشيخ رسالةً إلى وزير الأوقاف الأسبق الأستاذ محمد الخطيب جاء فيها: " ذكرتُ بحالي معك حالي مع شقيقي المرحوم، فما كان مظهري معه مظهر المتملّفين، وكان يجديني حين لا يجد غيري، ويلقاني حيث أبقاني.... ولقد اجتمع الإخوان قبل حجّه مرّةً، وارتفعت أصواتهم بالصراخ والبكاء والنحيب... فكان قلبي ينكر حالهم، ويكره مقالهم، ولما استكتبني بعض أفراد الفوج اللاحق به تلجّج في محطّة الحجاز، ذيلتُ كتابي لأخي بهذه الأبيات..... "

فوق جامع منجك في منطقة الجزماتية بحي الميدان، ومنذ إعلانه معهداً رسمياً عُيِّن الشيخ صادق رحمه الله مديراً له، وبقي كذلك حتى إغلاقه سنة ١٩٦٧م وكان قد انتقل المعهد إلى بناءٍ جديدٍ واسعٍ، هو الثانوية الشرعية في الميدان حالياً، إلى جانب جامع الحسن، وأوقف التدريس في المعهد، وألحقته وزارة الأوقاف بأملأكها، ثُمَّ جُعِلَ ثانوية شرعية تابعة للوزارة.

وقد كان الشيخ مع قيامه بالإدارة يدرِّس في المعهد مواد مختلفة. وقد كان يتصدى رحمه الله للمواد الصعبة، وتلك التي يهرب منها بعض المعلمين لجفافها أو صعوبتها، من ذلك المنطق حيث كان هو مدرِّسه غالباً، والصرفُ، بل كان يدرِّس حتَّى المواد الكونيَّة لا سيما عند غياب أساتذتها الأصليين، فقد كان لديه - كما يقول نجله الشيخ أنس^١ -: (ملكةٌ على فهم وإفهام وتدريس أي كتاب قديم أو حديث، ولو لم يكن يعرف الكتاب من قبل). وهذا مما شهد به للشيخ جميع إخوانه وطلابه^٢.

وقد قال لي مرَّة - رحمه الله -: (إنَّه كان يدرِّس أي مادة، طالما أساسها فهم العبارة، إلا مادة اللغة الأجنبية)، حيث لم يدرسها رحمه الله تعالى.

وقد درس على يديه في هذا المعهد رحمه الله طلبته على اختلاف جنسياتهم، من الشام والأردن وتركيا وأثيوبيا وغيرها من البلاد الإسلامية. ومن مشاهير

١ في محاضرته في جامع التوبة.

٢ من ذلك ما قاله شيخ القراء في تعزيتة، في اليوم الثالث، ممَّا سيأتي ذكره في آخر الحديث عن حياة الشيخ.

العلماء من سوريا الذين درسوا فيه: فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور مصطفى البغا، وغيرهم كثير.

وإلى جانب تدريسه في مدرسة وقاية الأبناء، وفي معهد التوجيه الإسلامي، درّس - رحمه الله - مادة التفسير في الكلية الشرعية - التي غدت فيما بعد كلية الشريعة التابعة لجامعة دمشق - بتكليف من أخيه الشيخ حسن رحمهما الله تعالى، ومن أعيان الطلبة الذين درسوا بين يديه فيها فضيلة أستاذنا الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، العلامة الفقيه المعروف، صاحب الموسوعات الفقهية والأصولية والتفسيرية، وقد شهدت أستاذنا الدكتور وهبة يشني في مناسبات متعددة على جهود الشيخ صادق رحمه الله، وقد كان الشيخ يُعجّب بوفائه، مع كثرة إنكار الطلبة لفضل أساتذتهم، وكان يحبُّ من خُلِقَ التواضع، ويعجبه دأبه على العلم، وصبره على التحصيل^١.

هذا هو الجانب الأول من جانبي تعليمه رحمه الله تعالى.

أمّا الجانب الثاني فهو التعليم العام، أي الذي كان يجري في بيته أو في بيت أخيه أو في المسجد، ويُمكنُ أن يُجعل على قسمين أيضاً، قسم لطلاب العلم

١ وجدت بخط الشيخ فيما كتبه تقدماً لكتاب راجعه أستاذنا الدكتور وهبة ثناء شيخنا الشيخ صادق رحمه الله وإكباره له حيث كتب: "ولا أخفي بهذه المناسبة، أن الشيخ وهبة الزحيلي حفظه الله ورعاه وزاده بالشكر من خير ما أعطاه، له في قلبي مكانة مكيّة، ملكه إياها وهو أحق بها، تواضعه بلا مذلة، واستقامته بغير انحراف ودأبه على العلم الناصح والعمل الصالح وما عملت يده من الكتب المجيدة، في المواضيع المفيدة".

حيث كانت دروسه الخاصة في بيته وفي غرفته في المسجد، وقسم للعامة وقد كان قديماً يحرص على دروس الوعظ والتوجيه في بيت أخيه الشيخ حسن حيث كان يدرّس صفة الصفوة لابن الجوزي رحمه الله، وفي جامع منجك حيث كان يدرّس الجامع الصّغير للسيوطي رحمه الله. ثم رأى بعد شفائه من مرضٍ منعه التدريس حيناً من الزمن أن يغلب دروس العلم والفقه النظامية، فغدا برنامجه الأسبوعي حافلاً بدروس طلبة العلم كما سَأْبِيْنُ إن شاء الله.

أما الدُّروس الخاصة في بيته فما أدركته وعاشته، وقد جئته - رحمه الله - وقد كبرت سنه، وكثرت التزاماته، كما كان يكرّر في حديثه لي متأسِّفاً ويقول: لو جئتنِي في شبابي.... أقول: عرفت من دروسه في بيته درسين خاصين للطبقة الثانية من طُلابه^١، وهم الذين كانوا طُلاباً شاباً عند أخيه وشيخه الشيخ حسن حَبْنَكَة الميداني، منهم: الشيخ قاسم النوري، الشيخ عبد الحلیم أبو شعر، الشيخ رشدي قلم، الشيخ عمر السَّوَّاح، الشيخ رياض خطَّاب، الشيخ ضياء خطَّاب ولدا العلامَة المرحوم شيخ القراء الشيخ حسين خطَّاب رحمه الله تعالى.

ومن الكتب التي كان يقرؤها في هذين الدرسين: كتاب المنهاج للإمام النووي في الفقه، وغاية الوصول في الأصول، وشرح الأشموني على ألفية ابن

١ وهي التي تلي الطبقة الأولى بكلِّ فروعها، كما سنرى عند الحديث عن طبقاتِ طُلابِ الشيخ.

مالك في النحو. وقد نقل هذا الدرس رحمه الله إلى غرفته في المسجد ثم رجع به إلى البيت آخر حياته.

كما أعرف دروساً صباحيةً يوميةً كانت لطلاب علم عربٍ وأعاجم. وأدركت دروساً نهائيةً كان يقرؤها الدكتور راتب النابلسي الداعية الإسلامي المشهور مع بعض إخوانه^١.

ودروساً مساءً بعد العشاء، حضرت منها درساً في النحو بعد عشاء الثلاثاء مع نجل الشيخ فضيلة الشيخ أنس، قرأنا فيه على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً عدداً من كتب النحو^٢، بدءاً من كتاب منهج القطر لتوفيق الجرجاوي^٣، وهو كتابٌ كان يُحبُّه رحمه الله، فيه خلاصة من كتاب "قطر الندى وبلّ الصدى" لابن هشام مع إضافاتٍ من بعض الشروح والحواشي^٤. ومروراً بسلسلة ابن هشام: شرح قطر الندى^٥ - شرح شذور الذهب^٦ - أوضح المسالك^٧، بالإضافة إلى شرح ابن عقيل^٨، وانتهاءً بما كُنَّا قرأنا آخر

١ في اليوم الأول لتعزية الشيخ، قال الدكتور النابلسي: "أنا تتلمذتُ على الشيخ الجليل... ست سنوات، في درسٍ بعد أذانِ الفجر من يوم السبت....".

٢ حضر معنا لفترةٍ غير قصيرة الأخ الشيخ إياد البردان، كما مرّت أشهر تردّد فيها على الدرس بعض الإخوان.

٣ كانت قراءته بين السادس من الشهر العاشر سنة ١٩٩٢م، والثاني عشر من عاشر سنة ١٩٩٣م.

٤ طبع بتحقيقي، ونشرته دار الرواد بدمشق.

٥ انتهينا من قراءته في السادس والعشرين من ذي الحجة عام ١٤١٦ هـ، الموافق: ١٤ / ٦ / ١٩٩٦م.

٦ امتدت قراءته ما بين سنتي ١٩٩٦م، ٢٠٠٠م.

٧ وصلنا إلى فصل المستثنى بسوى، في التاسع والعشرين من الشهر الرابع سنة ٢٠٠٣م.

حياته - رحمه الله - لمراجعة القواعد النحويّة، حيث قرأنا كتاب محمد الهاشمي: (القواعد الأساسية) وأنهيّا قراءته يوم الثلاثاء ٣ / ٧ / ٢٠٠٧م، وكنتُ سألتُه أن نبدأ بكتاب جديد فأجل الأمر لأول مرّة على غير عادته، وقال لي: لقد اقتربَ رمضان وبعده العيد، لعلّ الله ييسر لنا بعد ذلك أمراً^٢.

ومنْ دروسه بعد العشاء درسان يومي الأحد والأربعاء كان يقرأ فيهما الشيخ محمد شقير، وولده الشيخ أنس مع بعض الإخوان كتباً في التفسير والفقه.

إذاً، أدركت الشيخ بعد كبر سنّه، وله برنامج ممتلئ بدروس العلم في بيته، يتمّمه دروسه في المسجد كما سنرى، فهناك دروس صباحيّة، وبعد الظُّهر، وبعد العصر، وبعد العشاء، بشكلٍ شبه يومي.

هذا آخر عهده - رحمه الله - بالدنيا، ومن قبل كان له في غرفته بالمسجد دروس بعد الظهر، وقد حضرت منها دروساً يوميّة في شرح مغني المحتاج للخطيب الشرييني على المنهاج للإمام النووي في الفقه، مع الشيخ علاء الدين

١ كنّا قرأنا نحواً من نصف الكتاب، حيث وصلنا إلى باب التّنازع، وذلك بين ٢ محرم ١٤١١ (٢٤ تموز ١٩٩٠ م)، و١٥ شعبان ١٤١٢ هـ.

٢ وقد حصل قريبٌ من هذا بالنسبة لسائر دروسه، فقد كان من عادة الشيخ أن يتوقّف عن الدّرس في رمضان، وتكون له استراحة بعدّه إلى العاشر من شوال، وقبل رمضان كان يجبرُ الطلابَ بيوم العودة وتاريخه، وفي رمضان الأخير حدّد الدّرس بعد العيد بعشرين يوماً، ولمّا قيلَ له: لعلّك سهوت، قال: لا، اتركوا الأمر كذلك. وبعد العيد توفي الشيخ رحمه الله قبيل موعدِ الدرس.

الحايك^١. وقبلها كان هناك دروس في الوقت نفسه لبعض إخواننا في الفقه والنحو، وكان يزوره في غرفته بعض طلبة العلم فيجلسون حيناً يسألونه في مختلف مناحي العلوم الشرعية، كما كان يأتي بعض العامة للاستفتاءات المختلفة أيضاً.

أمّا الدُّروس العامّة في المسجد، فقد كانت أيام السبت والاثنين والخميس بعد العشاء، وبعد طلوع شمس يوم الجمعة. ودرسُ الجمعة هذا توقّف آخر حياة الشيخ، وكان في الأصل درس أخيه الشيخ حسن حبنكة في بيته، وقد بقي الدرس في بيت الشيخ حسن سنواتٍ عدّة أتمّ فيها الشيخ كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي رحمه الله. أما درس يوم الاثنين فهو درس قديم كنت أحضره أول معرفتي بالشيخ وكنت بعدُ صبيّاً صغيراً. وقد استناب عنه في الدرس الشيخ إبراهيم طنّاطرة فترة مرضه. ثم عاد رحمه الله ليتابع في كتاب الجامع الصغير للإمام السيوطي رحمه الله، وقد انتقل الشيخ من كتاب الجامع الصغير - لما فيه من أحاديث ضعيفة - إلى كتاب مختصر البخاري لابن أبي جرة، وعندما انتهى من شرح الكتاب بدأ في تفسير القرآن الكريم من سورة الإسراء في تفسير الجلالين، وقد استمر يقرأ فيه إلى أواخر حياته. أما درسا السبت والخميس فأصلهما درسٌ كان يقرأ فيه شقيقي الأستاذ أنور - مدير الثانوية الشرعية للبنين بدمشق - مع بعض أصحابه كتاب عمدة السالك لابن النقيب في الفقه الشافعي، وقد كنت أحضره باذلاً جهدي في ألا أغيب، وذلك

١ ما بين ٢٧ / ٧ / ١٩٩١م، و١٩ / ١ / ١٩٩٢، وقد وصلنا إلى نصف الكتاب تقريباً (باب الصُّلح).

في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي^١. ثم انتقل الدرس إلى غرفة الشيخ في المسجد حيث صار يرتاده عدد من طلاب العلم انتقل بعدها إلى صحن المسجد بعد أن اختار الشيخ كتاب كفاية الأخيار للحصني^٢ ليكون الكتاب الذي يدرّسه يوم الخميس بعد العشاء، ويوم السبت يقرأ في المعاملات من الكتاب نفسه، ثم انتقل إلى فتح المعين للمليباري^٣، وبعدها انتقل إلى كتاب تحفة الطلاب^٤، ثم إلى كتاب الإقناع في شرح متن أبي شجاع للخطيب الشربيني، واستمر الدرسان إلى أواخر حياة الشيخ رحمه الله.

هذه الدروس العامة والخاصة إلى جانب التدريس الرسمي تشكّل رحلة الشيخ مع العلم تعليماً ونشراً، فلأن كان الشيخ كأبي حنيفة رحمه الله لا يكتب الكتب ولا يؤلف الموسوعات، فقد صنع الرجال الذين كتبوا وألّفوا، وكلُّ ما ألّف طلابه فهو في صحيفته إن شاء الله. والكثير منه من إنجاز هذا البرنامج الكثيف اليومي للتعليم والإرشاد، والذي وصفه ابنه بقوله: (كان للشيخ إلى آخر حياته دروسٌ في جامع منجك، وفي بيته، على مدار النهار، ببرنامج محدّد، وكأنّها مدرسة بدوامٍ كاملٍ)^٥.

١ كانت بداية القراءة في كتاب العُمدة في ١٨ / ٨ / ١٩٨٨ م.

٢ كانت بداية القراءة فيه بتاريخ ١٤ / ٦ / ١٩٩٠ م.

٣ يوم السبت، في حين كان يقرأ الخميس في كفاية الأخيار، وكانت بداية قراءته لفتح المعين أواخر سنة ١٩٩١ م.

٤ بدأ فيه في ٦ / ٥ / ١٩٩٩ م، وبقي فيه نحواً من أربع سنوات، حيث بدأ بعده بالإقناع وذلك بتاريخ ٢٧ / ٣ / ٢٠٠٣ م.

٥ من محاضرة الأستاذ الشيخ أنس حبنكة نجل الشيخ صادق في جامع التوبة بدمشق.

وإذا كنت قد بينت منهج التلقي لدى الشيخ رحمه الله، فلا بدّ من إيجاز النقاط المهمة في منهج تعليمه، كما أدركته من طلبه للعلم بين يديه، وممّا سمعته من طلاب الشيخ ممّن هم في طبقات مختلفة سآتي على ذكرها بعد بيان منهج التعليم إن شاء الله.

فمن معالم منهجه - رحمه الله - في التّعليم: التّخفيف والتّبسيط والتّكرار بما يخدم ترسيخ الفكرة وإيصالها إلى المتلقّي، وكان كثيراً ما يكرّر الأحاديث التي تدل على النهج النبويّ في التربية، ويلتزمه ويخصّ طلابه على التزامه في التّدرّيس، ومن أهمّ ما كان يؤكّد عليه من هذا المنهج النبويّ تكراره صلى الله عليه وسلّم للحديث ثلاث مرّات ليحفظ عنه^١.

ولذا كان يكرّر قراءة الحديث في الخطبة ثلاث مرّات، كما كان يشرح أحاديثه المنتقاة في صفة الصفوة والتي هي من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلّم حديثاً حديثاً، وعلى الرغم من أنّه يشرح في الدرس حديثاً واحداً، فقد كان يقرأ في مطلع كلّ درس جميع الأحاديث التي لم يشرحها من اختيارات ابن الجوزي، ثم يبدأ بشرح الحديث الأوّل وهكذا.

كما كان يؤكّد رحمه الله على التّخفيف والتّزام وقت لا يسبّب الملل للطلاب، وكان يكرّر قول ابن مسعود رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتخولّنا بالموعظة مخافة السّامة علينا)^٢.

١ كما روى البخاريّ عن أنس: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتّى تُفهم عنه..." وذلك في كتاب العلم من صحيحه، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليُفهم عنه، رقم ٩٣، ومواضع آخر.

٢ الحديث رواه البخاري بلفظ: "كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم يتخولّنا بالموعظة في الأيام كراهة السّامة علينا"، كتاب العلم، ما كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم يتخولّهم بالموعظة.. رقم ٦٦، ومواضع آخر، ورواه مُسلم، في صفة القيامة...، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم ٥٠٤٧.

أما التبسيط^١ بمعنى تقريب المعنى بكثرة الشرح والبيان فقد كان أبرز سمات منهجه رحمه الله، فقد كان يقرأ الجملة ويشرحها ثم يعيد قراءتها ثم يعلّق عليها حتّى إنه في بعض الدروس لا يكاد يتجاوز الأسطر القليلة في الشرح، خاصة إذا كانت مسألةً فقهية عويصة أو عبارة تحتاج إلى حلّ وتفصيل. وهذا يقودنا إلى سمة أخرى من سمات منهجه رحمه الله وهو الحرص على عبارة الكتاب وشرحها وتفصيلها على نحوٍ يدرّب الطالب على فهم العبارات وحلّ مشكلاتها وتوضيح غامضها ومعرفة تطبيقاتها، إذ كان همه الأكبر رحمه الله إفهام دلالات عبارات كتب القدماء، وحل معضلاتها وفك ما يعتاص من سبكها وبيانها. وكان الشيخ مشهوراً بفهم العبارات وإفهامها، مما كان يسمّيه العلماء قديماً العلم الحقيقي، إذ كانوا يقولون: (العلم فرق وجمع) أي جمع المشابهات ومعرفة الفروق المستفادة من دلالات العبارات. ومن أسس تعامله رحمه الله مع عبارات القدماء احترامها، ومحاولة فهمها دون تغيير في سياقها أو اجتهاد في تعديلها، وكان يبذل جهداً كبيراً في توجيه العبارات المشكلة ولا يكاد يحلّ خطأ الكتاب أو سهو الورّاقين مسؤولية عدم فهم العبارة، فالعبارة عنده صورة ثابتة وعليها الاحتيال لفهمها، وإن لم تُفهم العبارة فالمشكلة في عدم استيعابنا لها، لا من جهة خطأ المؤلف أو سهو النّسّاخ. ولا يعني هذا أنّ العبارة صنم مقدّس، بل كان ينبّه على احتمال خطأ العبارة من جهة النسخ أو الطباعة حيث لا يجد لها توجيهاً، لكنّ هذا الاحتمال كان احتمالاً أخيراً حتّى لا يكون شماعة يعلّق عليها

١ بسّط الشيء: نشره، واستخدمت حديثاً بمعنى جعله بسيطاً لا تعقيد فيه، وبين المعنيين علاقة واضحة.

الدارس أخطاءه في الفهم وضعفه في التحليل، خاصة إذا كان الكتاب مطبوعاً بمطبعة قديمة محترمة كمطبعة بولاق مثلاً التي كان يثق بها ثقة لا تهتز. وكانت عبارته المشهورة المعبرة عن هذا المبدأ الثابت لديه: (عدم فهم العبارة قُصُورٌ من القارئ، وهي لا تفتح أبوابها إلا بكثرة القرع، ومالا نفهمه الآن نفهمه لاحقاً).

ولا شكَّ أنَّ الحديث عن عبارات القدماء يسوقنا لمُعَلِّمٍ آخر من معالم منهجه رحمه الله في التعليم، وهو الحرص على تعليم الكتب القديمة، وبذل الجهد في إفهام عباراتها، وهو يرى أن الكتب المعاصرة ما هي إلا تكرار للقديم إن أحسن المؤلف فهمه، فلم نعود إلى الساقية، والنبع بين أيدينا. وهذا لا يعني أنَّه لا يدرِّس الكتب الجديدة والمعاصرة، فقد قرأت بين يديه كتاب كبرى اليقينيات الكونية لأستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من ألفه إلى يائه^١، وكان يُبدي إعجابه بِبَعْضِ الأفكار والمباحث بين الفَيْنَةِ والأخرى، وعندما انتهيت من قراءته أثنى عليه ومدح أسلوب مؤلفه وترتيبه، لكن مع ذلك كان يفضِّل كتب القدماء، ويقدمها على كلِّ جديد، دون تقديس وتحجُّر كما هو منهج بعض العلماء التقليديين، ودون ازدراء أو استخفاف، كما هو طريقة بعض المعاصرين.

إضافة لما تقدَّم، كان الشيخ يوجِّه بتقديم العلوم المهمة والعناية بِرُتَبِهَا^٢، وكان يذكر كثيراً قول الشاعر:

١ ما بين ٢ / ١٢ / ١٩٨٩م، و٢٧ / ٤ / ١٩٩١م مع أخي الأستاذ أنور.

٢ كان الشيخ رحمه الله بارِعاً في علوم كثيرة، وكان يُقرِّئ الطُّلَّابَ بعضَ كتبها المُشكِلة، غير أنَّه يوجِّه للاهتمام بالعلوم الأساسية، ومن العلوم التي تميَّز بها، سوى العلوم الأساسية، علم المنطق، وعلم الأنغام.

والعَمْرُ عَنْ تَحْصِيلِ كُلِّ عِلْمٍ

يَقْصُرُ فَاَبْدَأْ مِنْهُ بِالْأَهَمِّ

وبناء على ذلك كان يهتمُّ بعلومٍ ثلاثة على وجه التَّحديد: النَّحو وهو أهمُّ علوم الآلات، والفقه وهو علم الحلال والحرام، وهو ما يُسأل عنه طالب العلم غالباً، والتفسير ؛ لأنَّه العلم الذي يُفهمُّنا المصدر الرئيس لشريعتنا. ولذلك كان يغلب على دروسه هذه الفنون الثلاثة. وهذا لا يعني إقلاله من أهمية العلوم الأخرى، كعلم الحديث وأصول الفقه وأصول الدين، فقد حضرت له دروساً في كتب مختلفة في هذه العلوم، غير أنَّه كان يقدِّم تلك العلوم عليها من حيث إعطاؤها المزيد من الوقت والاهتمام.

وبهذه المناسبة - وهي الحديث عن العلوم المهمة - كان الشيخ يعتبر علم اللغة العلم الأس للعلوم الشرعية ، وقد برع في علوم اللغة حتى صار مرجع أهل الشام فيما اعتاص منها. ولنا حديث عن ذلك إن شاء الله في الفصل الأخير حيث الحديث عن أدبه وشعره رحمه الله.

لكن أريد أن أؤكد هنا على اهتمامه بالنحو، وهو اهتمام مجمع عليه من قبل علماء السلف توجيهاً وتطبيقاً ؛ لذا كان الشيخ يهتم بدقائق هذا العلم وكان يشرح لي ولغيري من طلاب العلم في درس النحو ما لا يشرحه في غيره من

الدروس، وكان يسأل ويختبر فهم الطالب بعد الشرح، وإن لم يكن ذلك من عاداته في الفنون الأخرى لما سأذكره في المعلم الأخير من معالم منهجه في التعليم. وكان يعلم الإعراب وما يُشكّل من إعراب المفسرين والنحويين بحيث يوجّهه أو يرجّح قولاً على قول، وإعراباً على إعراب، مجتهداً في النحو وقواعده دون ادعاء، بخلاف علم الفقه إذ كان - رحمه الله - هيباً للفتوى والاجتهاد.

إذاً كان له في تعليم النحو منهج خاص يقوم على التدقيق والتحقيق وزيادة العناية وكثرة الشرح والأمثلة، والإفاضة في بيان المستشكلات من مسائله. ومن ثم كان يختبر درجة إتقان الطالب للعلم بمعرفته لدقائق النحو ومسائل الإعراب، نظرياً وتطبيقياً، وكان يهتم بالتطبيق أكثر من المادة النظرية، وقد حضرت مجلساً عنده كان فيه طالب علم غير عربي يطلب منه شهادة تزكية طُلبت منه في بعض الجامعات، فاخبره الشيخ في مسألتين: الأولى نحوية حيث سأله عن إعراب كلمة (مجراها) في قول الشاعر:

صَبْنَتِ الْكَأْسَ عَنَّا أَمْ عَمْرُو

وكان الكأس مجراها اليمين^١

١ ويروى صددت، وهو من شعر عمرو بن كلثوم، في معلقته، وقيل هو لعمر بن عدي اللخمي، ومعنى البيت: صرفت الكأس عنا يا أم عمرو، وكان ينبغي أن تجري الكأس من جهة اليمين، لا من جهة اليسار كما فعلت (ينظر: شرح الزوزني للمعلقات، تحقيق محمد علي حمد الله، ص ٢٣٩) . قال ابن هشام في شرح الشذور (ت محيي الدين عبد الحميد، الشاهد رقم ١١١، ص ٢٣٣): يجوز كون مجراها مبتدأ، واليمين ظرف مخبر به، أي مجراها في اليمين، والجملة خبر كان، ويجوز كون مجراها بدلاً من الكأس بدّل اشتغال....

والثانية فقهية: حيث سأله عن حُكْم من تيمّم وعلى جسده نجاسة على المذهب الشافعي^١.

ومن خصوصيات تعامله مع علم النحو دعوته الدائمة لطلاب العلم بحفظ ألفية ابن مالك رحمه الله. وقد كان لديه في المسجد عددٌ من طلاب العلم هم من الطبقة الثانية من طلابه^٢، يُدرّسهم شرح الألفية دون كتاب، أي أنه رحمه الله كان يشرح أبيات الألفية ارتجالاً، وكان يطلب حفظ ما درسوه منها، ويكرر الأبيات حتى يغلب على الظن إتقان جميع من حضر لحفظها. ومن اهتمامه رحمه الله بعلوم اللغة إقراؤه للمعاجم، وقد أخبرني أن الشيخ قاسماً النوري قرأ عليه قديماً جانباً واسعاً من معجم مختار الصحاح وهو ما لا أعرفه عن غيره من الشيوخ المعاصرين.

ومع كثرة بذله رحمه الله في العلم، واستثمار طاقاته في تعليمه، كان رحمه الله رؤوفاً رحيماً بطلاب العلم، يراعي مشاعرهم، ويرفع من معنوياتهم، ويحضهم بلطف على الاستزادة، ويكره إحراجهم أو تكليفهم فوق طاقتهم. وانطلاقاً من اهتمامه بطلاب العلم ومراعاته لهم، كان يقدم لهم ما استطاع من جاهٍ أو مال، إضافةً لجهده في تعليمهم تكرمة لهم وعناية بهم وتفرغاً لهم من الشواغل التي

١ أما إعراب كلمة " مجراها "، فهو بدل، كما أجاب الشيخ رحمه الله، وهو أحد احتمالين كما رأيت، وأمّا حكم تيمّم من تنجّس جسده فغير صحيح ؛ لأنّه ينوي استباحة فرض الصلاة ولا تُستباح مع النجاسة، هذا جواب الشيخ، وهو المعتمد من مذهب الشافعية، فقد عدّوا من شروط التيمّم تقدّم إزالة النجاسة، وقالوا: " لو تيمّم قبل إزالة النجاسة لم يصحّ تيمّمه على المعتمد في المذهب، وجرى عليه الرمي، وقيل يصحّ، وجرى عليه ابن حجر..... " (ينظر: حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب ١ / ١٠٩، ط دار الفكر).

٢ منهم الحاج بديع ذو الغنى رحمه الله تعالى.

تلهيهم عن تحصيل العلم. وكان رحمه الله يفرح كثيراً إذا ساعد طالب علم في زواج، أو رأى طالبه وقد خرج من مشكلة أو ضائقة حتى كأنه وَلَدٌ من أولاده. ومن أبرز سمات تعامله مع طلبة العلم تواضعه لهم، ومباسطته لكبيرهم وصغيرهم على حد سواء.

وقد كان ينجلني كثيراً في مواقف متعددة من شدة تواضعه رحمه الله. ومما سمعته من شيخنا شيخ القراء الشيخ كريم راجح حفظه الله تعالى من قصص تواضع الشيخ ولين جانبه ورعايته لطلبته، أَنَّهُ رافق طالباً في المعهد بعد إسعافه إلى المستشفى، وبقي عنده طيلة الليل وقد لقِصت نفسه، واحتاج إلى التَّقيؤ، والتفت يميناً وشمالاً لا يعلم أين يصرف ما اضطر إلى إخراجه، ففتح الشيخ راحتيه جامعاً لهما ومقرّباً لراحتيه من فم المريض حتّى أفرغ ما فيه فيهما، حيث قام الشيخ إلى الحَمَام فنظّف يديه راضياً مطمئناً هادئ النفس^١.

وقد نتج عن هذه الطبيعة النفسية السّمحة الكريمة، والنادرة الوجود أن كان الشيخ ينجل من توجيه اللوم للطالب، أو تأنيبه أو القسوة في توجيهه، وما كان يسأل الطالب إذا غاب عن الدرس عن سبب غيابه، بل كان يحرص أن لا يسأله سؤالاً لا يعرف جوابه أو يخرج من الإجابة عنه، وهذا الخلق وإن كان يلازمه في علاقته مع مختلف شرائح المجتمع، إلا أنه كان ظاهراً وبارزاً في تعامله مع طلبة العلم أكثر.

١ كذا أذكرها، ثمّ إنني سمعتها منه حديثاً، ذاكرةً أنّ من كان مريضاً هو مُستخدَم (أذن) كان ينجدُم الطلاب في المعهد.

هذه بعض معالم منهجه - رحمه الله - في التعليم: التكرار وكثرة البيان والشرح، والحرص على إفهام عبارات القدماء وتوجيهها وعدم تخطئها ما أمكن، والاهتمام بالكتب القديمة وتقديمها على الكتب المعاصرة، والاهتمام بعلوم النحو والعربية إجمالاً، والزيادة في الاهتمام بتعليمها وتوضيح مشكلاتها، بالإضافة إلى تركيزه على علمي التفسير والفقه. هذا إلى جانب التخفيف ومراعاة الوقت والفروق الفردية بين الطلاب، وتوجيه الطلاب إلى الحرص على التحصيل دون إرهاق أو تأنيب.

يتَّوجَّه هذه المعالم أمران مهمَّان في منهجه رحمه الله:

الأوَّل: ربط الفكرة بالسلوك بحيث يكون في سلوكه قدوة لطلابه.

والثاني: ربط العلم بالتربية حيث كان حريصاً على الاستفادة من الفرص ضمن دروس العلم للتوجيه والنصيحة والتنبيه على الأخطاء الشرعية والاجتماعية.

وممَّا يَتَّصِلُ بهذا الموضوع بسببٍ متينٍ منهجه رحمه الله في خطبة الجمعة، وقد امتازت خطبه إجمالاً بالهدوء وعدم الإكثار من الضجيج، فكانت جُمْلُهُ مقطَّعةً، وألفاظه واضحة، وانتقاله من جملة إلى جملة انتقال هادئ^١، قد يظهر غضبه ويعلو قليلاً صوته عند نقده للأخطاء العامة، لكن السمة العامة لخطبه الهدوء وتقطيع الجمل وتوضيح الحروف داخل الكلمات ممَّا يُساعد عامَّة الناس على

١ تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لم يكن يسرد الحديث كسردكم" رواه البخاري مُعلِّقاً في الموضع الآتي، ورواه مسلم في فضائل الصَّحابة، من فضائل أبي هريرة الدوسي، رقم ٤٥٤٨. وروى البخاريُّ عنها، في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلَّم، رقم ٣٣٠٣: "أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم كان يحدث حديثاً لو عدَّه العاْد لأحصاه".

الفهم، ويقرب لهم المعنى، مع انتقالٍ منطقي بين جملة وأخرى، وحسن تخلص بين موضوع وآخر، ووضوح في طرح، وعمق في التحليل والشرح.

ومن أهم مميزات خطبته رحمه الله التدقيق اللغوي، واختيار الألفاظ، وجمال العبارة ورشاقة التعبير، مع دقة في انتقاء اللفظ، وجودة في استعمال ما يوصل إلى المعنى بأسلوب مختصر وكلام بليغ.

وإلى جانب هذا وذاك تجد الترتيب المنطقي للأفكار الرئيسة داخل الخطبة، مع تحقيقٍ علميٍّ قلما تخلو منه خطبة، وذلك في وقت لا يبعث طوله على الملل. إذ عهده لا تزيد خطبته في جامع الحسن على نصف ساعة، وربما كانت تزيد قبل ذلك في جامع منجك قليلاً.

ومما تميّز به الشيخ من بين أقرانه الجرأة في نقد الظلم، والشجاعة في بيان الخطأ أياً كان مصدره، دون محاباة في الحق لأحد، يشهد بذلك كل من كان يتابع خطبه، لا سيما في الأزمات حيث يضعف الناس وتخفت الأصوات.

وأخيراً رغم أن خطبته - رحمه الله - كانت قطعة فنية أدبية، غير أنه كان يكره قول الشعر وذكر النظم فيها، وكان يكرر: هذا منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لخطيب فوقه أن يقول الشعر. وكان إذا أراد الاستشهاد ببیت لم يقمه، بل يكسر وزنه كما كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم^١.

١ قال الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة يس عند قوله تعالى: "وما ينبغي له": أي ما هو في طبيعته فلا يُحسِنه ولا يُجِبُّه ولا تقتضيه جِبَلَّتُهُ، ولهذا ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه أو لم يُتمِّه. تفسير ابن كثير، ٣ / ٧٦٣. طبعة دار الفحاء.

طبقات طلابه:

ذكرت أنفأ أسماء عددٍ من طلابه، وليس ثمَّ مجالٌ لاستعراض جميع مَنْ دَرَسَ على يديه رحمه الله، فهم كُثُرٌ جدًّا، إنَّما الغاية من الحديث هنا تقسيم طلابه إلى ثلاث طبقات^١، وذكرُ بعضٍ مَنْ يُخَضِّرني اسمه ضَمَّنَ كُلَّ طبقة، وقد يكون مَنْ لم أذكر أكثر استفادةً والتزاماً لدروس الشيخ مِمَّنْ ذكرتُ، غير أنَّ المقصود هنا التمثيل لا الاستقصاء، والله أعلم بمن هو أعلم، ويحفظ لكلِّ ذي جهدٍ جُهدُهُ.

أما الطبقة الأولى فهم طلبة أخيه الذين درسوا عنده، والشيخ حسن رحمه الله حيٌّ، ولعلَّ جميع مَنْ دَرَسَ على الشيخ حسن رحمه الله لشيخنا عليه منَّةٌ، حتَّى الرِّعيل الأول الذين غدوا فيما بعد أتراباً لشيخنا وإخواناً له في العلم والتعليم - كما تقدَّم - .

يقول الشيخ عبد الرحمن، ابن أخ الشيخ، وهو يتحدثُ عن الرِّعيل الأوَّل من طلابِ الشيخ حسن، وقد بدأهم بالحديث عن الشيخ صادق - رحمه الله جميعاً - : " وتلمذَ عليه معظمُ الذين وفدوا بعده " ٢ .

وقد التقيتُ واحداً مِنْ أفرادِ الرِّعيلِ الأوَّل من طلابِ الشيخ حسن، لأتبيِّن حقيقةً وتفصيلاً هذه العبارة، وهو الشيخ علي منصور (القابوني)، الذي وفدَ على الشيخ حسن رحمه الله ضمنَ الدفعةِ الأولى من الطُّلابِ^٣، وهو

١ وفي كلِّ طبقةٍ فروعٌ متعدّدة، وعلى التحقيق يُمكنُ أن تصلَ الطبقاتُ إلى ثلاثين، غير أنَّني أثرتُ الإجمالَ، وضممتُ الفروعَ إلى الطبقات اختصاراً، وتسهيلاً للترتيب.

٢ الوالد الداعية المري، ١١٠ .

٣ كما أفادني الشيخ علي أطال الله في عمره وعافاه، فقد كان يسكن في غرفةٍ في جامعٍ منجك مع

أكبر من شيخنا^١، وقد أفادني خلاصةً مفادها أنَّ الشيخ حسن رحمه الله قد جعل أخاه الشيخ صادقاً عريفاً على حلقةٍ أنشأها من الرعيل الأول، بينهم الشيخ حسين خطَّاب والشيخ علي وآخرون، وكانت مهمة العريف أن يُقرِّئ الطلابَ الدرسَ قبل قراءته مع الشيخ، وكانت تلك سياسته رحمه الله قبل إنشاء المدرسة، فالعريف كما قال لي الشيخ علي: " زميلٌ وأستاذ " ٢.

ومن هنا فالدفعاتُ التي ذكرها الشيخ عبد الرحمن، من أعيانِ طلابِ أبيه، يمكن أن تكون فروعاً لهذه الطبقة من طلابِ الشيخ صادق رحمهم الله جميعاً^٣. ومن أبرز أعلام هذه الطبقة مَن يشهدون لشيخنا بالفضل والأستاذية، شيخنا الفاضل الشيخ كريم راجح، شيخ قراء الشام، وهو قد درس أولاً على الشيخ حسين خطَّاب رحمه الله، ثم أتى به الشيخ حسين إلى شيخه الشيخ حسن حبنكة حيث تخرَّج من مدرسته العلمية العريقة، التي كان من شيوخها الشيخ صادق رحمه الله تعالى.

الشيخ حسين خطَّاب، ولعلَّ الشيخ عبد الرحمن جعله من أعيانِ الدفعة الثانية لأنَّه لم يستمرَّ عند الشيخ إلى آخر الطريق.

١ من مواليد ١٩١٤م، فهو أكبر من الشيخ بأربع سنين.

٢ وجدتُ بخطَّ الشيخ علي، حفظه الله، على آخرِ كتابٍ " منهج القطر " هذه العبارة: " قد تمَّت قِراءة (كذا) هذا الكتاب بعونِ الله مع الشيخ صادق صباحاً: ١٢ صفر ١٣٥٤، يوم الأربعاء ". وقد كان الشيخ صادق رحمه الله في هذا التاريخ ابنَ سبعة عشر عاماً.

٣ وبعض أفرادِ هذه الطبقة، من المتقدِّمين، تتلمذَ على الشيخ بدروسٍ خاصَّةٍ لازمه فيها فترة من الزمن على علم أخيه ومباركته، منهم على سبيل المثال الأستاذ الشيخ محمود المارديني، وكان قريباً لأعيانِ الدفعة الأولى من طلابِ الشيخ حسن، حتى إنَّ الشيخ عبد الرحمن ذكر أنَّه تتلمذ عليه - أي على الشيخ المارديني -، ينظر: الوالد الداعية المربي، ص ١٢٤.

وقد كان الشيخ كريم يُجِلُّ الشيخ صادقاً كثيراً، ويُقدِّمه على سائر أصحابه وإخوانه، ويرى فيه خليفةً لشيخ الشام الشيخ حسن رحمهما الله تعالى. ويكثر من الثناء عليه، والاحترام له، وإجلاله والاعتراف بمرجعيته، والاعتماد عليه في معضلات المسائل ومشكلات العبارات^١.

ومنهم ابن أخيه، فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن حبنكة الميداني، المفكر والدَّاعية الإسلامي المشهور، صاحب التصانيف الشهيرة في العقيدة والفكر والأدب وغير ذلك. وقد كان يُجِلُّ الشيخ كثيراً، وكان الشيخ صادق يُحِبُّه ويراسلُه كثيراً بعد أن اغتربَ في بلاد الحرمين، ورسائلُه إليه قَطَعُ فَنِيَّةً رائعة، وقد ترجم الشيخ عبد الرحمن لعمِّه في كتابه الذي تحدَّث فيه عن أبيه، وأثنى على علمه وأدبه وأخلاقه ووفائه لشيخه، كما صرح فيه بتلمذته عليه حين قال: "وتتلمذتُ أيضاً على عمِّي الشيخ صادق حبنكة الميداني، فقرأتُ أنا وبعض أقراني عليه في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك تنكيساً من آخر الكتاب ؛ لأنَّ أواخر أبواب الكتب قلَّما يصلُّ إليها الدَّارسون، وكان من الذين درسوا عليه من أقراني الشيخ محمد سهيل البرِّي،....." ٢

١ انظر تفصيل حديث الشيخ كريم عن حياة الشيخ صادق وعلاقته به، في الفصل الأخير، حيث أُثبِتُ مقتطفات من خطابه في التعزية، ومحاضرته عن الشيخ في جامع الدَّقَّاق.

٢ الوالد الداعية المرِّي، ٩٨، هذا وقد جاء تصريحه بذلك في كثير من رسائله، ومنها هذه الرسالة التي وجدتها في أوراق الشيخ:

بسم الله الرحمن الرحيم، عمي الأجل حفظكم الله ورعاكم، وجزاكم عنا خيراً، وأرجو أن تعفو عن تقصيري الذي يتلاحق بغير نهاية، وبعض الحب يشفع عند أمثالكم، دمت لنا العقل المفكر، والقلب الكبير الرحيم، والسند المناصر عند الشدائد، المتغاضي عن الهفوات، والعفو مهما كثرت الزلات والتقصيرات بالواجبات، والمتحمل للمسؤوليات مهما عظمت.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وأسأل الله أن تكونوا على خير حالٍ تحبّون أنتم ومن تحبّون. وتحبّاتي العاطرة لجميع من في طرفكم من أهل وإخوان، وأخص بالذكر أسرتم الكريمة رعاها الله وحماها وصانها ووقاها ومن خيرى الدنيا والآخرة أجزل لها العطايا، وأعمامي الأفاضل وأهليهم، وعماتي وكل من يدلي بهن إلى سائر الأقربين.

انتهزت فرصة مقدم أخينا وأستاذنا الجليل الشيخ حسين، فرجوته أن يحمل إليكم هذه الرسالة ومعها قليل زهيد مما لكم علينا من ديون. أسأل الله أن يعيننا على تسديد الكثير الذي لكم علينا، وإن كنا لا نستطيعه كلّ.

عمي الأجل أكرموا ابن أخيك وتلميذكم بالدعوات الصالحات فقد كنتم له أكثر من أخ وشيخ وكنتم لأبيه أكثر من ابن وتلميذ مريد، ولكن لم نكن لكم كما يوجب الوفاء. هذا حال الناس، ومن عرف الناس عامل الله عن طريقهم ولم ينتظر منهم جزاءً ولا شكوراً، فإن أحسنوا علم أنّ الله هو الذي ألهمهم، فالجزء من الله، وإن قصر أو لم يحسنوا علم أنّ الله قد شاء أن يتخذ للشواب طريقاً غير طريقهم، ليوثق المؤمن في كلّ الأحوال أنّ الجزاء من عند الله. كم يحسن الإنسان لابنه، وقد لا يرى من ابنه إلا العقوق، فإن كان قد عامل الله عن طريق ابنه، فإنّ الله سيكافئه عن طريق من يكون أبرّ له من الأبناء البررة. أمر الله في خلقه أمر عجب، وكأنه في تصاريفه يذكر المؤمنين به دائماً لقطع علائق قلوبهم بالخلق، مهما كانوا من الأقربين، وربطها به وحده، وأن تكون معاملتهم للخلق من منظور واحد هو منظور المعاملة مع الله، ومن شأن هذا المنظور أن يقسر المؤمن على أن يتقيد بالأعمال التي يحبّها الله، لا الناس الذين يعامل الله عن طريقهم. وبهذا تطمئن القلوب وتكون راضية عن الله، مهما وجدت من الناس جفاءً، أو جحوداً، أو كنوداً، أو قلة وفاء، أو تقصيرات بواجباتها.

لعلّي أسرفت في الحديث. ولكن خواطر تواردت عليّ وأنا أسطر لكم هذه الرسالة فلم أصرفها عن التسجيل، وتركتها تُسطّر. ولو كان قلمكم هو الذي يجري لأضاف عليها نفائس ما يستطيع قلبي أن يجري بمثلها.

عمي الجليل عرفناك قلباً كبيراً، وعقلاً وفيراً، ووفاء منقطع النظير، وقليل في الناس هذه الصفات، فلا تنتظر أن تجد مثل ذلك عند أبناء أخيك حتى أكبرهم، "الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة" دمت لنا ولكل إخوان أخيك وتلاميذه، على ما يحب الله ويرضى، ممتعاً بالصحة الجيدة، والسعادة الكبيرة، واليسار والنصر المؤزر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مكة المكرمة ١٤٠٠/٥/١١ هجرية

ابن أخيك وتلميذكم عبد الرحمن

ومن أعلامها أيضاً أستاذنا فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي،
الداعية الإسلامي المشهور، وقد أوفده والده قديماً إلى الشيخ حسن رحمه الله
ليدرس عنده وهو بعدُ صبيٌّ يافعٌ، وقد درس في معهد التوجيه الإسلامي الذي
كان شيخنا مديراً له وأستاذاً لكثير من المواد المُدرّسة فيه، ثم أكمل دراسته في
الأزهر الشريف، وكان حيناً من الزمن عميداً لكلية الشريعة بجامعة دمشق،
وما زال إلى الآن يدرّس فيها أطال الله في عمره وعافاه.

ومنهم أستاذنا الدكتور مصطفى البغا، والذي كان من طُلاب الشيخ
خيرو ياسين. والشيخ خيرو رحمه الله من الرّعين الأول من طلاب الشيخ
حسن رحمهما الله تعالى. وقد درس الدكتور مصطفى في معهد التوجيه في وقتٍ
متأخّر عن أقرانه، ثم أكمل دراسته في الأزهر، وعُيّن في كليّة الشريعة. وكان لي
شرف إشرافه على رسالتي في الماجستير فترة من الزمن قبل سفره حفظه الله
إلى قطر. وكان أستاذنا الدكتور مصطفى يجلُّ شيخنا كثيراً، وقد اتصل به لأجل
أن يشرف على رسالتي فلقيته مرّة فقال لي: لقد أتيتني من طريق لا أستطيع منه
فراراً. وكان يشاور الشيخ في شؤونه، ويراجعه في مسائل العلم، ويحترمه ويجلُّه
كلما التقيا في مناسبة أو دعوة. وغيرُ هؤلاء كثير.

أمّا الطبقة الثانية فهم مَنْ دَرَسَ عند الشيخ حسن أو آخر حياته من
الشباب، ثم تابع تحصيله على يد أستاذنا الشيخ صادق رحمه الله. ومن أعيان
هذه الطبقة شيخنا الشيخ محمد شقير حفظه الله تعالى، إمام جامع الحسن في
الميدان، والذي كان الشيخ صادق خطيباً له، والشيخ محمد دَرَسَ منذ شبابه

عند الشيخ حسن حبنكة، كما درس عند غيره من الشيوخ، وحفظ القرآن بقراءاته المختلفة على شيخ القراء الشيخ كريم حفظه الله، ولازم حيناً من الزمن الملا محمد رمضان العالم الزاهد الفقيه المتواضع، والد أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وأخذ عنه الكثير أواخر حياته، ثم عكف على التحصيل من شيخنا الشيخ صادق حبنكة رحمه الله، فكان يقرأ عليه دروساً متعددة في الفقه والتفسير واللغة، وقد أشرت إلى بعض ذلك في هذا الفصل.

ومنهم أيضاً الشيخ المحقق قاسم النوري، الذي لازم الشيخ فترة طويلة، وقرأ عليه عدداً من الكتب في الفقه واللغة، وغير ذلك. ثم كان له نشاطٌ موفّق في التحقيق العلمي، وأظنّه الأكبر سنّاً بين أعيان هذه الطبقة، وأكثرهم قرأ عليه.

ومنهم الشيخ المدقق رشدي قلم، الذي درّس بعده في جامع منجك، وكان صحب الشيخ في الفترة الأخيرة من حياته، فلا يكاد يمرّ يومٌ إلا ويحضر فيه للشيخ درساً أو درسين. وكان يلزم دروسه العامة في المسجد، والخاصة في البيت، ويُعرف الشيخ رشدي بالأدب والتواضع والحرص على العلم، والتفاني في مساعدة طلاب العلم وتعليمهم، لا سيما الأجانب منهم.

ومنهم أيضاً أولاد الشيخ حسين خطاب رحمه الله، شيخ القراء في بلاد الشام، وهما الشيخ رياض خطاب، والشيخ ضياء خطاب، وكان يصاحبهما دائماً الأستاذ الشيخ عمر السّوّاح مدير معهد التهذيب والتعليم بدمشق بفروعه المختلفة، وخطيب جامع سفيان الثوري في الميدان.

ومن أعيانها أيضاً الشيخ عصام عرار، والشيخ أسامة الفرا نجل الشيخ محمد الفراء، أحد طلاب الشيخ حسن رحمه الله تعالى، وغيرهم كثير.

أما الطبقة الثالثة فهم الطلاب الذين وفدوا على الشيخ بعد وفاة أخيه، ولم يسعفهم الزمن في التحصيل من أخيه الشيخ حسن رحمه الله 'وهم كثرة كاثرة، وعدد كبير، من رواد دروسه الخاصة والعامة، ومن أبرزهم ولده الشيخ أنس حفظه الله، وهو من حاملي شهادة الحقوق، وقد تخرّج قبل من الثانوية الشرعية، وهو خطيب جامع منجك، الجامع الذي تخرّج منه جميع طلاب عمّه حيث كان المعهد فوقه كما تقدّم، وكان الشيخ حسن خطيباً لهذا الجامع، ثم خطب فيه شيخنا الشيخ صادق، واليوم يخطب فيه ولده الذي لازمه لا سيما آخر حياته، حيث كان معه في حله وترحاله، في دروسه العامة والخاصة.

وكان أخي الأستاذ أنور السعدي المدير الحالي للثانوية الشرعية الرسمية بدمشق، وهي المدرسة التي كان الشيخ حسن رحمه الله قد بناها وعيّن الشيخ صادقاً مديراً لها قبل أن تنتقل ملكيتها لوزارة الأوقاف وتحوّل من معهد شرعيّ إلى ثانوية شرعية، كان أخي قد وفّد على الشيخ أواسط الثمانينيات، فدرّس عليه الفقه الشافعيّ، ثمّ صاحبه في دروسٍ مختلفة إلى أن أكرمني الله عزّ وجلّ بتلمذة حصّني بها الشيخ، فقرأت عليه عدداً من الكتب العلمية في الفقه والأصول والعقيدة والتفسير والأدب والنحو والحديث والأخلاق وغير

١ قد يكون السنّ يسمح بالحضور بين يدي الشيخ حسن رحمه الله، ولكن القدر لم يشأ، إذ من أعيان هذه الطبقة فضيلة الداعية الكبير الدكتور راتب النابلسي، أطال الله عمره وأمتع به، وآخرون من الكبار، لم تواتهم الظروف للقاء الشيخ حسن، وقد أفادوا من أخيه الشيخ صادق رحمه الله تعالى.

ذلك. كما أخذ عنه أيضاً أخي الأستاذ سامر وأخي الأصغر الأستاذ هاني وأخيراً حياته.

ومن أعيان هذه الطبقة الأستاذ الشيخ عبد القادر الخطيب الحسني، الخطيب السابق للجامع الأموي الكبير بدمشق. وقد أخذ عنه آخر حياته الفقه والتفسير وغير ذلك. وكان يواظب على درس شيخنا مع ثلّة من أهل العلم مساء الأحد والأربعاء، والشيخ عبد القادر هو نجل الشيخ أبي الفرج الخطيب، من عائلة علمية عريقة، كما أنّ أخاه الأستاذ الشيخ أحمد معاذ الخطيب، الداعية الإسلامي المعروف، حضر جانباً من دروس الشيخ الفقهية حيناً من الزمن. وأسماء هذه الطبقة لا تحصى كما قدّمت.

ولا أنسى من طلاب الشيخ الذين وفدوا عليه آخر حياته الشيخ عبد العزيز الخطيب الحسني، وهو خطيب مفوّه، ومؤلفٌ مُكثّر، وقد حضر عدداً من دروس الشيخ الخاصّة آخر حياته، وكان يواظب عليها ويحرص على كلّ عبارة يذكرها الشيخ أو شرحٍ يوضّحه، وقد ترجم له في كتابه غرر الشام بترجمة مختصرة لكنها شاملة لنواحٍ كثيرة من حياة الشيخ وسمات شخصيّته. وهو واحد من مشايخ معروفين في الشام درسوا على شيخنا وأخذوا عنه الكثير، ولا يتسع المقام لذكر جميع أسمائهم، فلهم جميعاً شرف تحصيلهم ودراستهم على الشيخ، لا ينكر ذلك من عرفهم أو صاحبهم. ولا يعلم جميع أسمائهم إلا الله عز وجل.

منهج الشيخ رحمه الله في الفتيا:

كان للشيخ منهج في الفتوى لاحظته بنفسي، من خلال رؤيتي المتكررة لأسلوب إجابته على أسئلة الناس، وأنا سأسجل هنا أهم معالم هذا المنهج، ثم أتبع ذلك بذكر نماذج من اجتهاداته الفقهية التي رصدتها، قبل أن أختم هذا الفصل بذكر نماذج من وعظه وتدريسه.

فمن أهم معالم منهجه في الفتوى:

١. إدراك خطورة الفتوى، وأنها في حقيقتها توقيع عن الله سبحانه، لذا كان الشيخ هيأاً للفتيا - كما تقدم -، وكان يتورع عن أن يفتي في أمر لا يتقن مأخذه، وكان يذكر كثيراً قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار)^١، وأذكر أنه قال لمن استعطفه في قضية طلاق، لم تستفتيني؟ فقال له السائل: لخوفي من الوقوع في الحرام، فقال له الشيخ: لم يكون دينك غالباً عندك وأنت صاحب المصلحة، ولا يكون كذلك عندي، وليس الأمر خاصاً بي.

٢. التوسط بين التشدد والتسهيل، مع الحصر على الأخذ بالأورع، ومن تطبيقات ذلك بحثه عن المخارج عند الحاجة، بشرط ألا يخرج عن المعتمد في المذاهب الأربعة، وأذكر أن أحد أمناء الأفواج كان طاف بمن معه طواف الإفاضة قبل عشاء يوم عرفة، وعاد الناس من حجهم وقد سمعوا ببطلان حجهم، وبحث الشيخ لهم عن مخرج، ثم أفتاهم بصحة حجهم، على

١ الحديث رواه الدارمي مراسلاً، بسند رجاله ثقات، في المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة، رقم ١٥٢.

اعتبار أيّ طوافٍ طافوه بعده يقع عن الفرض دون نيّة، فيسرّ على النَّاسِ،
ووجد لهم مخرجاً من المعتمد دون الحاجة لتتبّع الأقوال الضعيفة
والمهجورة، ومثل ذلك فتواه لمن طلق طلاقاً بالثلاثة، مُعلّقاً، بِخُلْعٍ بين
الزوجين، يُبطلُ التعليق، لأنّ الطلاق لا يلحقُ الزوجة وقد بانت بينونة
صغرى، على قولٍ قوي عند الشافعيّة.

٣. التَّريُّثُ والتحقيق، فما كان يتسرّعُ في الفتوى، وكان يسهلُ عليه قول لا
أدري، وانتظرني حتّى أراجع المسألة، وصدّق فيه قول الشيخ عبد القادر
الخطيب في رثائه له:

خَبِيرٌ بِأَفْنَانِ الْعُلُومِ مُحَقِّقٌ

وَإِنْ قَالَا لَا أَدْرِي مَرَاراً تَوَالِيَا

٤. معرفة الواقع ومراعاته، مع الالتزام بالنصّ مقدّمًا مع اختلاف الأحوال. فلم
يكن غائبًا عن الشيخ ما يُسمّيه المعاصرون "فقه الواقع"، ومن تطبيقات ذلك
أنّ سائلًا استفتاه وكنت حاضرًا في مجلسه، عن مسألةٍ تتعلّقُ بالمعاشرة
الزوجيّة، وأفناه الشيخ بجواز ما سأل عنه بشرطِ مراعاة الأحكام الشرعيّة
الأخرى المتعلقة بالسؤال، والشاهد من الأمر أنّ السائل ذهب بعد الاستفتاء،
فالتفت إليّ الشيخ وقال لي: سمعت بعض المشايخ يُفتنون بحرمة هذا الأمر، ولا
نصّ فيه، فلم نُضيقْ على النَّاسِ وإسعًا، والشبابُ اليوم قبل الزواج يشاهدون
الأفلام ويقعون في محظورات، وإنّما يتزوَّجون ليعفوا أنفسهم ويتركوا الحرام، فإذا

قلنا لهم هذا حرام، أوقعناهم فيما هربوا منه.

٥. الاعتماد في الإفتاء بالدرجة الأولى على المعتمد من مذهب الشافعية، وما كان يفتي بغيره إلا عند الحاجة وبعد المراجعة والتحقيق، وأذكر أنه كان يستعين ببعض علماء الحنفية حينما تعرض عليه مسألة فيها فتوى عندهم، والشيخ يعلم ذلك، لكنه لا يفتي حتى يتحقق منهم.

٦. كان له رحمه الله فتاوى في بعض ما استجد من مسائل، غير أنه كان يحب في هذه المسائل الشورى، وعلى الرغم مما تقدم من خوفه من الجراءة في الفتوى، كان له اجتهادات يذكرها أحياناً دون جلبة وادعاء فضل وتميز، وهذه الاجتهادات تنم عن ذكاء حاد، وقريحة علمية سخية وملكة فقهية راسخة. وسأذكر هنا بعضاً من الاجتهادات والآراء الخاصة، وشيئاً من وجهة نظر الشيخ حيالها لأتمم بذلك هذا الفصل حول حياته العلمية رحمه الله تعالى:

المسألة الأولى:

حكم حمل تسجيلات القرآن دون طهارة:

جرى خلاف بين بعض علماء الشام حول حمل أشرطة وأقراص التسجيلات القرآنية من قبل الحائض والجُنُب، وذهب بعضهم إلى قياس هذه الوسائل على أوراق المصحف، ومال بعضهم إلى فساد هذا القياس؛ لأنه قياس مع الفارق.

ورأى شيخنا جواز حمل وسائل التسجيل القرآني المختلفة لغير الطاهر، وكانت حجته في ذلك القياس على القارئ نفسه لا على المقروء، ذلك أن

حافظ القرآن يخزن القرآن في ذهنه وذاكرته، حتى لو أن إنساناً حمّله أثناء تلاوته للقرآن لما اشترط لحمله طهارة من حدثٍ ولا جنابةٍ، وما وسائل التسجيل سوى حافظة لنص القرآن كحفظ حمّله. ولعلّ ما ذهب إليه شيخنا هو من باب الاستحسان بتقديم قياس جلي لأنّ علة الأول أولى بالاعتبار. وهذا التنبّه على الفروق، وتقديم قياس على قياس من خصائص العلماء المتمكنين، وقد كان شيخنا - رحمه الله - معروفاً بهذا.

المسألة الثانية:

وهي في الطهارة أيضاً، وفي مسألة مُعاصرة قلّ من تعرّض لها وهي مسألة التّيامن في الغُسل من مرشّ الماء الحديث في الحَمَّامات، فقد ذهب الشيخ رحمه الله إلى عدم سنّة التّيامن هنا ؛ لأنّ مرشّ الماء يُجْري الماء على الجسد كلّ دفعّة واحدة من الرأس إلى القدم بالجهتين اليمنى واليسرى، فلا حاجة مع ذلك لتعمد مرور الماء على الجهة اليمنى أولاً، وذلك لسببين: الأول: وهو أساس الاستدلال أنّ التّيامن إنما يُسنّ حين تنفصل الجهتين، ولذا يُغسَلُ الكفين معاً أول الوضوء دون تقديم لليمين على اليسار. والسبب الثاني وهو مكملّ للأول منع الإسراف في تحين نزول الماء على الجهة اليمنى أولاً ثم الانتقال إلى الجهة اليسرى.

المسألة الثالثة: حكم نية الاعتكاف دون تحديد

كان الشيخ رحمه الله ينكر قول بعض الفقهاء بجواز نية الاعتكاف في المسجد مدة البقاء فيه، ويرى أن هذا - وإن ذكره بعض الفقهاء - مخالف

لشروط النية في التحديد والجزم، ولذا كان يرى أنَّ نِيَّةَ الْمُعْتَكِفِ عَلَى
النحو التالي: (نويت الاعتكاف في هذا المسجد ما دمت فيه) نِيَّةٌ بَاطِلَةٌ غَيْرُ
صَحِيحَةٍ لَافْتِقَارَهَا إِلَى التَّحْدِيدِ.

هذه بعض أمثلة اجتهاداته رحمه الله، وله في بعض المسائل المعاصرة
المختلف فيها فتاوى قد تخالف جمهور المعاصرين، لكن كان يؤيِّد رأيه وفتواه
بِالْأَقْسَى الصَّحِيحَةِ وَالْأَدْلَى الْوَاضِحَةِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ بِتَحْرِيمِ التَّصْوِيرِ
الْفُوتُوغْرَافِيِّ، وَحَتَّى التَّصْوِيرِ بِالْفِيدْيُو وَالْمُصَوِّرَاتِ الرِّقْمِيَّةِ، وَهَذَا الْمَوْقِفُ دَفَعَهُ
لِلْإِعْتِذَارِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَ دَعْوَتِهِ لِحِفْلِ زَفَافٍ أَوْ نَحْوِهِ، إِذَا مَا كَانَ يَجْلِسُ
فِي مَكَانٍ فِيهِ تَصْوِيرٌ، وَكَانَ يَنْكَرُهُ بِشِدَّةٍ وَحَزْمٍ، وَيَغَادِرُ الْمَجْلِسَ إِذْ لَمَحَ مُصَوِّرَةً
وَلَوْ أَخْفَاهَا صَاحِبُهَا، وَهُوَ مَوْقِفٌ شَهْرٌ بِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ يُدَافِعُ عَنْهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ
الْمُنَاسَبَاتِ. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ بِنَجَاسَةِ الْكَحُولِ بِمُخْتَلَفِ أَصْنَافِهِ، وَلِذَا مَا
كَانَ يَجِيزُ وَسَائِلَ الْعَطْرِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى الْكَحُولِ، وَيَعْتَبَرُهَا نَجِسَةً لَا
يَجُوزُ التَّضَمُّنُ بِهَا.

هذه نماذج من آرائه وأقواله واجتهاداته الفقهية رحمه الله، وهي تُظْهِرُ مَا
كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ قُوَّةِ اسْتِدْلَالٍ، وَإِنْ كَانَ يَكْرَهُ الْإِدْعَاءَ وَتَصْوِيرَ الْأُمُورِ عَلَى غَيْرِ
حُجْمِهَا كَمَا يَفْعَلُهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ، لِذَلِكَ كَانَ يَكْرُرُ أَنَّ الْجُتْهَادَ الْيَوْمَ
يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْمَسَائِلِ الْمُسْتَحْدَثَةِ، وَيَجِبُ بِذَلِكَ الْجُهْدُ لِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِهَا
بِالْقِيَاسِ عَلَى الْمَسَائِلِ الْقَدِيمَةِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَحْكَامِهَا فِي الْأَدْلَى الشَّرْعِيَّةِ أَوْ
كُتُبِ الْفُقَهَاءِ، وَلِهَذَا أَمَثَلَةُ عِدَّةٍ مِنْ فَتَاوَى الشَّيْخِ لَعَلَّ مَوْقِفاً آخَرَ يُمْكِنُنَا مِنْ
اسْتِعْرَاضِهَا وَاسْتِنْبَاطِ مَنَهِجِ الْإِسْتِدْلَالِ عِنْدَهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مِنْ خِلَالِهَا.

وبعد أن أتيتُ في هذا الفصل على ذكرِ تفاصيلٍ مِنْ حياةِ الشيخِ العلميَّة،
أرى أن آتي بنهاجٍ لخطبه ومواعظه ودروسه، ليكون ذلك كالتطبيق العملي بعد
البحثِ النَّظري، وسأختار خطبةً قصيرةً كان - رحمه الله - قد ألقاها بمناسبةِ
عزاءٍ أقيم للمحسن الحاجِّ أكرم العجَّة، ومن الموعظِ موعظةً كتبها لطالبٍ
أجنبيٍّ سأله أن يزوده قبل سفره بنصيحة، ومن الدُّروس درسٌ في تفسير آيةٍ
مِنْ كتابِ الله عزَّ وجل، مِنْ دروسِهِ يوم الاثنين في شرحِ تفسيرِ الجلالين.

نماذج من دروس الشيخ وخطبه ومواعظه

أولاً . في الخطبة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد: فيا أيها المستمعون الكرام. إن اجتماعنا الليلة بعد مضي عام على وفاة المرحوم السيد أكرم أرجو أن يكون اجتماع يُمنّ وخير. فقد احتوى على تلاوة آيات من الذكر الحكيم. وذكر الله العظيم. وصلاة على الرسول الكريم. وأرجو أن يسجل ذلك في صحيفة فقيدينا الغالي رحمه الله، وأن يكون المرحوم عند الله من المكرمين.

أيها السادة إنني لا أريد أن أهرف بها لا أعرف. فإني لم اجتمع بالمرحوم أكرم، ولم ألتق ترجمة عن حياته من معارفه. ولكنني أظن خيراً، وأنفءال بالسعادة، فإن بناءه للجامع الذي أراد أن يخلده باسمه الكريم دليل على إيمانه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ التوبة: ١٨ وأرجو له الجنة وحسن المآب لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً وَلَوْ كَمَفْحَصٍ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ)^١.

١ الحديث رواه بهذا اللفظ ابن حبان عن أبي ذر في كتاب الصلاة، ذكر الخبر الدال على أن الله عز وجل يدخل المرء الجنة ببنائه موضع السجود... رقم ١٦١٠، وأبو يعلى في مسنده عن أنس، رقم ٤٠١٨، وابن خزيمة في صحيحه عن جابر في كتاب الصلاة، باب في فضل المسجد وإن صغر وضاق، رقم ١٢٩٢، بزيادة " أو أصغر "، ونحوه عند أحمد، في مسند بني هاشم، أول مسند عبد الله بن العباس، رقم ٢٠٥٠، بلفظ " من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها... الحديث "، ورواه أيضاً البزار والطبراني، وعند الترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل بنيان المسجد، رقم ٢٩٢، عن عثمان بن عفان بلفظ " من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة "، قال الترمذي: حديث عثمان حديث حسن صحيح. وانظر: كشف الخفاء للعجلوني، الحديث رقم ٢٤٢٦ / ٢، ط مؤسسة الرسالة.

ولم يَرْضَ - رحمه الله - إلا أن يجعل مسجده متكاملاً على أحسن مظهر وأوثق بناء، فضمَّ إليه المستوصف الخيري والقاعة الأنيقة لتكون مقراً للخير الدائم، وذلك من الصدقات الجارية (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له) ^١. وأرجو أن يجعل الله ابنه الذي سمَّاهُ باسمِهِ ولداً صالحاً يدعو له، وجميع أولادِهِ كذلك.

وبعد فيا أيها السادة، لا أخفي عليكم أنني لما أُبْلِغْتُ هذه الدعوة بالأُمس إلى هذا الاجتماع المبارك دارٍ في خَلْدِي أبياتٌ من الشعر لا أخفيها عليكم ؛ لأنني بعد ولادتها من الفكر وجدت فيها الموعظة، وأرجو من الله القبول، فإن شئتم أن تصطبروا على استماعِها فتفضّلوا بالإصغاء.

يَرْحَمُ اللهُ صَاحِبَ القَصْرِ هَذَا
قَدْ بَنَاهُ وَصَارَ طَيِّبَ الثُّرَابِ
إِنَّ رَيْبَ المَنُونِ حَقٌّ وَلَكِنْ
غَفَلَهُ النَّاسِ شُبَّهَتْ بَارِئِيَابِ ^٢

وبالختام نسأل الله لصاحبِ هذه المناسبة أن يجعله عنده من المكرمين، وروحَه في أعلى عليين. ويجزِي الذين دعوا إلى هذا الاجتماع خيرَ الجزاء.

١ الحديث رواه مسلم في الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم ٣٠٨٤، بلفظ "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة..... الحديث". وانظر المرجع السابق ١ / ١٠٥ - ١٠٦.

٢ تمامها في ملحَق الشعر.

ثانياً . في الموعظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، والصلاة والسلام على من أنزل عليه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ . وبعد:

فأقول بناءً على الطلب . والنصيحة واجبة بدون طلب:

أخي السالك . أحسن المسالك . لقد قطعْتُ وأنا في طريقي إلى الآخرة قرناً . في سفينة هذه الحياة . ولا أدري أيان مرساها ، فكان عليّ أن أقدم لك ما تحصل عندي من نتيجة التجارب وقد حلبت أشطر الدهر^١ . وحفظت من مدرسة الدنيا دروساً لأفيدك ممّا استفدت .

إنّ في هذه الحياة مفترق طرق . وكلّ ميسر لما خُلق له . ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين^٢ . فمن وفقه الله للتفقه في الدين ونال نصيباً من ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد حمل الأمانة . فعليه أن يكون أميناً . يراها حقّ رعايتها . فينفق ممّا أتاه الله بتقوى الله . وصدق وإخلاص . وليعلم أنّ من لم يحتكم بالحكمة لا تؤخذ عنه الحكمة . وكيف يعطيها فاقدها .

وفي الكتب المسطورة . نصوص مختلفة . وليس كلّ ما يعلم يقال ، فعليه لمن وثق به واعتمده أن يُخلص له النصيحة . ويأخذ بوصية رسول الله الشاملة (اتّق

١ قال في القاموس: " شَطَرَ شَطْرُهُ ، أي قصد قصده ، وأن تحلب شطراً وتترك شطراً ، وللناقة شطران: قاديان وآخران ، فكُلّ خلفين شطر ، وحلب فلان الدهر أشطره: مرّ به خيرُه وشرُّه " .

٢ من حديث رواه البخاري في العلم ، باب من يرد الله به خيراً... ، رقم ٦٩ ، ومواضع أخر ، ومسلم في الزكاة ، باب النهي عن المسألة ، رقم ١٧١٩ ومواضع أخر .

الله حيثما كنت. وأتبع السيئة الحسنة تمحها. وخالف الناس بخُلُقٍ حسن^١.
 وليحذر من حبِّ الدنيا. فإنَّ حبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة^٢. وليست الدنيا هي
 المال فحسب، ولكن الدنيا كلُّ ما تصبو إليه النفوس قبل تزكيتها. من حبِّ
 الشهرة والجاه. والتَّغَلُّبِ على الأقران. والتَّقَرُّبِ من السلطان. والطمع فيما عند
 الناس. وقد قال الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم (من ازداد علماً، ولم يزد
 في الدنيا زهداً، لم يزد من الله إلا بُعْداً)^٣ وقال: (زيادة العلم في الرجل سوء
 كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد ريثاً ازداد مرارة)^٤، وقال: (مَنْ تَعَلَّمَ
 علماً لغير الله فليتبوأ مقعده من النار)^٥. وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ طَلَبَ

١ رواه الترمذي وصححه، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم ١٩١٠،
 وأحمد، في مسند الأنصار، حديث أبي ذر، رقم ٢٠٣٩٢.

٢ قال العجلوني في كشف الخفاء: "رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه
 مُرسلاً... وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف، ورواه البيهقي أيضاً في الزهد وأبو نعيم من قول
 عيسى ابن مريم..." انظر الحديث ١٠٩٩، ١ / ٤١٢ - ٤١٣. طبعة مؤسسة الرسالة.

٣ رواه الديلمي عن علي رفعه، وسنده ضعيف كما قال العراقي، ورواه الأزدي في الضعفاء بلفظ: "من
 ازداد علماً ثم ازداد للدنيا حباً، ازداد من الله عليه غضباً". المرجع السابق، ٢ / ٣٠٤، رقم ٢٤٠٢.

٤ ليس بحديث، وقد وقع في كتب الأدب نسبة للإمام جعفر بن محمد رحمه الله بلفظ: "الأدب عند
 الأحق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد ريثاً ازداد مرارة" ينظر على سبيل المثال: كتاب
 الصناعتين للعسكري، ١ / ٧٥، ووقع في بعض الكتب المعاصرة على نحو ما ذكره الشيخ نسبة
 لبعض العلماء أو الحكماء، منها على سبيل المثال: كتاب إرشاد العباد، لعبد العزيز بن محمد
 السلطان، حيث جاء فيه ص ٦٤: "وقد قالت الحكماء: زيادة العلم في الرجل سوء كزيادة الماء
 في أصول الحنظل المر كلما ازداد ريثاً ازداد مرارة".

٥ رواه الترمذي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء فيمن يطلب
 بعلمه الدنيا، رقم ٢٥٧٩، بلفظ: "من تعلم علماً لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من
 النار"، وقال: حديث حسن غريب. ونحوه عند ابن ماجه في المقدمة، رقم ٢٥٤.

العلم ليجاري به العلماء. أو ليماري به السفهاء. أو يصرف وجوه الناس إليه
أدخله الله النار)¹.

وليتخلق بالأخلاق التي أدب الله بها نبيه فقال له سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ
رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ النحل: ١٢٥. وقال له عزَّ شأنه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ
مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩. وقال
له جل جلاله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ الأنفال: ٦٣.

واعلم أن رائحة الإخلاص زكية طيبة. ورائحة الرياء خبيثة نتنة.
وأن (من أسر سريرة في نفسه ألبسه الله رداءها)². وأن (من أَرْضَى الله بسخط
الناس. رضي الله عنه، وأَرْضَى عليه الناس. ومن أَرْضَى الناس بسخط الله سَخِطَ الله
عليه وأسخط عليه الناس)³، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٢ - ٣، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة: ٢٨٢.

١ الحديث رواه الترمذي عن كعب بن مالك، في الموضع السابق، رقم ٢٦٥٤، وضعفه، وابن ماجه،
في المقدمة، رقم ٢٤٩، بسند لا يقوم.

٢ رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص عن عثمان بلفظ "ما من عبد يُسرُّ سريرة إلا ردَّاه الله رداءها
علانية...."، وله شاهد حسن. ينظر: كشف الخفاء ٢ / ٢٩٦، رقم الحديث ٢٣٧٥، طبعة
مؤسسة الرسالة.

٣ روى الترمذي في الزهد عن رسول الله، رقم ٢٣٣٨، عن عائشة مرفوعاً، وموقوفاً: "من التمس
رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكلَّه الله إلى
الناس"، وروى ابن حبان في كتاب البر والإحسان، رقم ٢٧٦، عن عائشة رضي الله عنها
مرفوعاً: "من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأَرْضَى الناس عنه، ومن التمس
رضا الناس بسخط الله سَخِطَ الله عنه وأسخط عليه الناس".

وإذا اختلفت الآراء بمسألةٍ فخذْ بالأوْرَع. واستفتِ قلبك^١ وراقبْ ربَّك. فـ (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام)^٢. و(لا يكون المرء من المتقين حتى يترك ما لا بأس فيه خشية الوقوع فيما فيه بأس)^٣. وحاول أن تأخذ العلم عمّن استقام لا عمّن قال. فدينك لحْمُكَ ودمك^٤. واقرن الفتوى بالتقوى. وقبل أن تجيب أو تحدّث، فكّر فيما يترتّب على بيانك، فإنّ الأمور بمقاصدها^٥ وللوسائل حكم المقاصد.

واعلم أنّ الله مطَّلِعٌ عليك وناظِرٌ إليك.

١ جاء في حديث وابصة قولُ النبي صلى الله عليه وسلّم: "استفتِ قلبك.. الحديث"، رواه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث وابصة..، رقم ١٧٣٢٠، والدارمي في البيوع، باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، رقم ٢٤٢١، والحديث حسّنه الإمام النووي في الأربعين، ينظر: الوافي في شرح الأربعين النووية، ص ٢٠٤.

٢ رواه البخاري في الإيثار، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٠، ومواضع آخر، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم ٢٩٩٦.

٣ من حديث رواه الترمذي في صفة القيامة...، باب ما جاء في صفة أواني الخوض، رقم ٢٣٧٥، عن عطية السعدي، وحسنه، ولفظه: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً بما به البأس"، وروى نحوه ابنُ ماجه بسندٍ ضعيف، في الزهد، باب الورع والتقوى، رقم ٤٢٠٥.

٤ من كلام سفيان الثوري في وصيّته لعلي بن الحسن السلمي: "ويا أخي إنّما دينك لحْمُكَ ودمك"، حلية الأولياء ٧ / ٨٢ - ٨٣، ط دار الفكر.

٥ القاعدة الأولى من القواعد الخمس التي ذكر الشافعية أنّ جميع مسائل الفقه ترجع إليها، وأصلها حديث "إنّما الأعمال بالنيات"، وانظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٣٥ فما بعد، ط دار الكتاب العربي.

وفقني الله وإياك أيها السالكُ لنهتدي بهدي رسول الله ﷺ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ الأحزاب: ٢١.

ولا تُخْلِ وقتك من تلاوة القرآن كُلَّ يومٍ، ومن وُرِدِ تتخذه لنفسك وتواظب عليه من الاستغفار، فقد كان النبيُّ المغفورُ له يستغفر الله في كُلِّ يومٍ مئةً مرَّةً^١.. ومن قولٍ "لا إله إلا الله". ف"من قال: لا إله إلا الله مُخْلِصاً بها دخل الجنة"^٢ ومن الصلاة والسلام على رسولِ الله وآله. فمن صَلَّى عليه مرَّةً صَلَّى اللهُ بها عليه عَشْرًا^٣.

فذكرُ الله غذاءُ الرُّوحِ ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

هذا والكلام كثير. والحديث شجون. ودرهم عمل خير من قنطار كلام. والأعمال صور قائمة. روحها وجود سر الإخلاص فيها^٤.

١ روى مسلم في كتاب الذكر والدعاء... باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم ٤٨٧٠، عن الأغر المزني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّه ليُغَان على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مئة مرَّة".

٢ أصل الحديث في الصحيحين، واللفظ من رواية البزار عن أبي سعيد رضي الله عنه كما في الجامع الصغير، ٢ / ٥٤٢، رقم ٨٨٩٦، لكن دون قوله: "بها"، والحديث صحيح.

٣ روى مسلم في الصَّلَاة، باب الصلاة على النبي بعد التشهد، رقم ٦١٦، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من صَلَّى عليَّ واحدةً صلى الله عليه عَشْرًا".

٤ من حكم ابن عطاء الله السكندري، وهي الحكمة العاشرة، وانظر شرحها في شرح الشرنوبى للحكم، بتعليق الشيخ عبد الفتاح البزم، ص ٢٣، طبعة دار ابن كثير، وانظر شرح أستاذنا الدكتور البوطي لها في شرحه للحكم، ١ / ١٤٩ فما بعد. الطبعة الثانية، دار الفكر.

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولا تنسني يا
أخي السالك من أن تدعولي بظهر الغيب بإصلاح الحال وحُسن الختام. وأن
يجمعنا في دار النعيم بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

أخوك في الله. والراجي عفوهُ
صادق حُبُّكَه الشهير بالميداني

أخي السالك. بعد ما كتبتُ لك ما ألهمني الله إيَّاه، دار في خَلْدي أبياتٌ
نظمتها تلفت النظر لعدم الغفلة عن مراقبة الله تعالى ألحقتها بما كتبتُ لعلَّ الله
أن ينفعكَ بها ويأجرني بإخلاصِ النصيحة.

يَا مَنْ تَلَفْتُ يَمَنَةً وَيَسَارًا
خَوْفَ الْوَرَى أَنْ يُلْحِقُوا بِكَ عَارًا
احْذَرْ فَإِنَّ إِلَهَكَ الْأَعْلَى يَرَى
أَوَّلَسْتُ تَرْجُو لِلْإِلَهِ وَقَارًا^١

١ تمام القصيدة في الملحق الشعري.

ثالثاً . في التدريس ١

..... قال المؤلف رحمه الله ونفعنا بعلومه، وجعلنا مخلصين بقراءته:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ (٤٣)

قال المفسر رحمه الله: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا: ترى: رأى تأتي لرؤية العين وتأتي بمعنى تعلم، وعلى كل حال رؤية العين من وسائل العلم. إذا رأيت الشيء بعينك فقد تيقنته، يقولون: ليس الخبر كالعيان، ما تراه غير ما تسمعه، فمعناه إذا كانت ترى بمعنى البصر تضمنت معنى علم، لكن يختلف عملها بالنسبة للغة العربية. رأى البصرية تنصب مفعولاً واحداً، تقول: رأيت السماء، الرؤية بالبصر.

وإذا لم تر الهلال فسلم

لأننا س رؤوه بالأبصار

هناك رأى بمعنى علم: إن الله تعالى يرى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق: ١٤)، أي يعلم سبحانه وتعالى:

رأيت الله أكبر كل شيء

محاوله وأكثرهم جودا

أي علمت أن الله أكبر من كل شيء.

١ تفسير الآية ٤٣ من سورة النور، الاثنان ٢٤ / ٤ / ١٩٩٥، بتصرف يسير.

ولكن " ترى " هنا المقصود بها رؤية العين ؛ لأنَّ سياقها في هذا المكان للاستدلال على قدرة الله سبحانه وتعالى، والمشاهدات هي التي تورث العلم واليقين على ما يجب. فيقول سبحانه وتعالى دليلاً على قدرته، يعني بعد ما بيّن - فيما مضى - حال الكفار وحال المؤمنين وعاقبة الكفار وإنكارهم الإيمان الواجب عليهم، عاد سبحانه وتعالى يُدللُّ على عموم وإحاطة علمه وقدرته بالأشياء وعلى الأشياء، فقال: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا**، يعني أما ترى هذا. هذا من المراتب يراه كلُّ من كان ذا بصر، كلُّ ذي عينٍ يرى السحاب كيف يسوقه سبحانه وتعالى، **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا مِّنَ الَّذِي يَدْفَعُ هَذَا السَّحَابَ** ويسوقه مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ؟ تكون البلد ممتة، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ فاطر: ٩ فيسوق هذا السحاب فينزل المطر فيحيي به الأرض بعد موتها، هذا دليل على قدرة الله.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي يزجي أي يدفع، والمدفوع المسوق لا قيمة له بالنسبة للسايق، لذلك نقول: بضاعة مُزجاة، يعني مبدولة لا قيمة لها، قالوا - إخوة يوسف - له: ﴿وَجِئْنَا بِبُضْعَةٍ مُّزَجَّةٍ﴾ يوسف: ٨٨، يعني بسيطة، ﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يوسف: ٨٨ أعطاهم، وأرجع لهم بضاعتهم، جعلها في أوعيتهم، أي أرجع إليهم الثمن الذي جاؤوا به " حوائج "، فلما أرادوا الرجوع أمرَ العمَّالَ عنده أن يجعلوا البضاعة - التي جاؤوا بها - أن يجعلوها في بضاعتهم، عادوا، وجدوا الحبَّات "الميرة" أي المؤونة، وجدوا الحبَّات "الميرة"، ووجدوا ما

أخذوا له قد أرجعه لهم، فعاد الثمن والمثمن، وهذا كي يعودوا ويطمعوا فيه، سبحانه وتعالى هداه لهذا الأسلوب، ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يوسف: ٧٦.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ يَسُوقَ بَرْقٍ، أَرْجَاهُ: سَاقَهُ بَرْقٍ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، هناك فرق بين دَعَاهُ وَأَرْجَاهُ، أَرْجَاهُ: سَاقَهُ بَرْقٍ، ودَعَاهُ: دَفَعَهُ بِعُنْفٍ، ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ الطور: ١٣.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثم يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، يعني قطعةً من هنا وقطعةً من هنا، لا تجد السماء إلا حَبَكَتْ وأظلم الجو: السحاب الثقيل الذي يحمل المطر: الأسود يكون هابطاً. هناك سحبات عالية محلقة خفيفة. لما تكون المطر فيها مليئةً تجدها واطية، هذا السحاب الثقيل يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، يجمع هذا مع هذا، قطعةً من هنا وقطعةً من هنا، لا تجد إلا عَمَّ ما تحت السماء بالسحاب، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، يَضُمُّ بعضه إلى بعض. عندك تركيب، وعندك تأليف. هذه الأغراض رَكَّبَ لي إياها، كيفما وضعتها فوق بعضها، اسمُهُ تركيب. لكن إذا كان هناك تناسقٌ، هذه مناسبة لهذه، وهذه مناسبة لهذه، لما رَكَّبَتْها بنظامٍ مع الائتلاف: اسمُهُ تأليف. جاء ضَرْبَ يَضْرِبُ، هذه رَكَّبْنَا جملة، لكن لا معنى لها. أمَّا: إن تَكْرَمْنِي أَكْرَمْتُكَ، هذا تأليف، تلك تركيب. فالتأليف أخص من التركيب، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ: يَضُمُّ بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعةً واحدة.

ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا متراكباً أو متراكماً بمعنى واحد، أي فوق بعض، طبقات ليست رقيقة، ليست كسحابة الصيف، كما قال:

سحابة صيف عن قريب تقشع

تغيّم قليلاً، فتذهب الشمس أيام الخريف أو أول أيام الربيع. يكونون جالسين في الشمس فتأتي سحابة تغيّم عليهم، فيقول له:

سحابة صيفٍ عن قريبٍ تقشع

أي تذهب. أمّا السحاب الثقيل فيصبح قطعة واحدة، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا متراكماً بعضه فوق بعض.

فَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، طبعاً، السحاب ليس عبارة عن قطعة أو لوح ألمنيوم، لكنّه أَبْخَرَةٌ متجمّعة بينها خَلَلٌ: فروق، فينزل المطر من خلاله، من هذه الفروق التي بين السحاب، فَرَى الْوَدَقَ المطر، يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ: مخارجه.

وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَنْ: ألم تر أن الله. ينزل الله، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ: هذه من في ثلاثة مواضع: مِنَ السَّمَاءِ، مِنْ جِبَالٍ، مِنْ بَرَدٍ، كُلٌّ واحدة لها إعرابٌ مستقلٌّ. جاء بهذا المثال ابن هشام في مغني اللبيب^١: مِنَ الْأُولَى: ابتدائية أي من أين يبتدأ المطر؟ من السماء. فابتداء نزوله من السماء. فَمِنْ الْأُولَى سَمَّاها

١ ذكر ابن هشام رحمه الله في مغني اللبيب أنّ " مِنْ " تأتي على خمسة عشر وجهاً، أوّلها: ابتداء الغاية، ولم يعرض عند الحديث عنها لهذه الآية، والشيخ إنّما يقصد أنّ مِنْ هذه " الابتدائية " ذكرها ابن هشام في معاني واستخدامات مِنْ في العربية، لا بخصوص هذه الآية، ثم بيّن أنّ السيوطي رحمه الله لم تعرّض لها هنا، أمّا تعليق ابن هشام على الآية فجاء في جملة تنبيهات أوردها بعد ذكر وجوه استعمال مِنْ، إذ مِنْ شروط زيادتها تقدم نفي أو ما في معناه، وقد حكم الفارسي بجواز زيادة مِنْ في الآية في الموضعين الأخيرين (مِنْ جِبَالٍ، مِنْ بَرَدٍ)، مع عدم تقدّم ذلك، وينظر: مغني اللبيب لابن هشام، ص ٤٢٨، ط دار الفكر.

ابن هشام ابتدائية، المؤلف لم يتكلم عليها، بل تكلم عن "من" الثانية، من جبال، من زائدة، يعني ينزل من السماء جبلاً، فيها، في السماء. يوجد في السماء جبال من برد، وهذا يكون من شدة البرد يتجمد البخار. كالبراد المنزلي فالبرد من غير أبخرة لا يصنع ثلجاً. فحسب الآية يوجد في السماء جبال من برد، يعني مكوّنة من برد، والمقصود من الجبال الكثرة والعظمة: أكواماً، تقول فلان لا قمح عنده، يقول لك: عنده جبال من قمح، المعنى أكواماً كثيرة، فمن زائدة، وجبال مفعول به، ينزل من السماء جبلاً. فجبالاً مفعول به منصوب منع من ظهور الفتحة الحركة المناسبة لحرف الجر الزائد، وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا فِي السَّمَاءِ، يَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِي السَّمَاءِ: بدل بإعادة الجار، من جبال بدل من: من السَّمَاءِ، بإعادة الجار، هذا أصبح إعراباً آخر، كأن المصنّف اختلط معه أمران: يعني إما من زائدة، وجبال مفعول به لينزل، ومنع ظهور فتحة المفعول به اشتغال المحل، فأصبح الفتحة مقدراً، هذا إن قلنا إن "من" زائدة. ثم قال: بدل بإعادة الجار، وعليه فمن ليست زائدة. هذا إعراب ثانٍ. يجب أن نقول: أو بدل، إمّا من زائدة، وأصبحت "جبال" مفعولاً به، أو بدل بإعادة الجار، وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ كما تقول: نفعتي زيدٌ علّمهُ، يعني: نفعتي علمه.

ينزل من السماء من الجبال التي في السماء: سمعت من زيدٍ من فيه، أصبحت "من فيه" بدلاً من "من زيد"، فصارت كلمة بدل بإعادة الجار يُفْهَمُ منها أن من غير زائدة. هذا رأي آخر. فالمصنّف رحمه الله أتى بها هكذا.

مِنْ بَرْدٍ: أي بعضه، أي " من " الثالثة للتبعيض. فَمِنْ الْأُولَى مِنَ السَّمَاءِ

ابتدائية، أي يبدأ النزول من السماء، مِنْ جِبَالٍ، إذا اعتبرناها زائدةً، مِنْ بَرْدٍ، من للتبعيض: بعض البرد لا كله. بعضهم يقول هي للبيان، يعني لبيان الجنس يوجد في السماء جبال، لم يبين ما الجبال. يبينها بقوله: مِنْ بَرْدٍ، كقولك خاتم من فضة، فكلمة " مِنْ " للبيان. فهذه الجبال التي في السماء مركبة من برد، بَرْدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ يصيب بالبرد. فَتَرَى الْوَدْفَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْلِهِ هذه واحدة، وينزل من السماء برداً فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ فكانَّ البرد نوعٌ من العذاب غير المطر، لذلك يقول: فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ على كلِّ حال فالبرد قد يأتي عذاباً، إذ يأتي في بعض الأحيان انتقاماً، نزل في بعض القرى مرّةً يكسر السقوف والزجاج، على كل حال، يصيب به أي يناله من يشاء ويُحَرِّمُهُ مَنْ يَشَاءُ، يُمكن أن نقول إن اعتبرناه عذاباً: أصاب به قوماً ليعذبهم وصرفه عَنْ يَشَاءَ.

يَكَادُ سَنَابِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ، يكاد: كاد وكرب واخولق وأوشك كلها

بمعنى قَرَّبَ:

كَرِبَ الْقَلْبُ مِنْ جَوَاهِ يَذُوبُ

حين قال الوشاة هنْدُ غُضُوبُ^١

اخولقت السماء أن تمطر، أي قربت أن تمطر، فهذا: كاد بمعنى قَرَّبَ. يَكَادُ

١ قيل هو للكلحبة اليربوعي، من فرسان بني تميم، وهو من الشواهد النحوية المشهورة، وكرِبَ

بمعنى كاد واقترب، والجوى: شدة الوجد، والوشاة: النّامون.

سَنَابَرَقِهِ: أي يقرب لمعائه. هناك سناء بالمد وسنا بالقصر. أما بالقصر فمعناه
اللمعان، وبالمد الرفعة، ويأتي أيضاً بمعنى اللمعان.

ويأتي بشيء من الدواء، والذي نسميه سنا مكّي، اسمه سناء.

قال البوصيري في الهمزية:

لم يساووك في علاك وقد حال سناً "نور" منك دونهم وسناء^١

نور ورفعته. يَكَادُ سَنَابَرَقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ، وفي البقرة: البرق يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ. يكاد يقرب سنا بَرَقِهِ، لمعانه، يذهب بالأبصار الناظرة له، أي
يَخْطَفُهَا. نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعَلِّمَنَا، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

١ البيت الثاني من همزية البوصيري صاحب البردة، وقول الشيخ "نور" تفسير لقول الشاعر:
"سنا".

الفصل الرابع

شخصية الشيخ العامة

سماته الخلقية

مشاركاته الاجتماعية

سياسته في التعامل مع الأمور العامة

هذا الفصل معقود للحديث عن منهج الشيخ رحمه الله في الحياة بشكل موجز ومكثف، يظهر فيه الوجه الأبرز من حياة الشيخ، وهو سلوكه العام وسماه شخصيته، مما يؤهل له ليكون قدوة ومثالاً يستفاد من دروسه السلوكية في حياة كل مسلم. ولن أطيل هنا - كما لم أطل في الفصول السابقة - وذلك للاكتفاء بالمفيد، وتقديم الأمثلة البسيطة الدالة عليه، بدءاً من الحديث عن صفاته الخلقية، وانتهاءً بالحديث عن منهجه بالتعامل مع الآخرين ومروراً بذكر أخلاقه وصفاته السلوكية. وذلك من خلال النقاط التالية:

صفات الشيخ الخلقية والنفسية:

كان الشيخ رحمه الله ربعة إلى القصر أقرب، حنطى اللون، جميل الطلعة، واسع الجبهة، متوسط الجسم، لا هو بالنحيف، ولا هو بالممتلئ، معتدل القامة، يتميز بلحية لم أر لها نظيراً، فهي مهذبة مشدبة، طويلة دون القبضة، متوازنة من الطرفين، عريضة من الجانبين، ضيقة من الأسفل. وهذا المظهر العام للشيخ كان يولد هبة يشعر بها كل من يلقاه دون أن يخالطه، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفةً أحبه. وكان يزيد من أثر هذا التوازن في مظهره الخارجي لباسه وعيمته، فقد كان يحرص على مظهر لباس ثابت في الصيف والشتاء، في الصباح والمساء، في المسجد والمنزل، وكان يحرص على هذا المظهر الثابت في اللباس في أي مجلس غير مجلس أهله، مهما صغر أمر المجتمعين.

يتألف هذا اللباس من قميص سابغ (كلابية)، فوقها قميص مفتوح سابغ^١ أيضاً (قمباز) يجمعه بزئار، فوقه جبة تحكي جسمه، لا ضيقة ولا واسعة، مع عمّة حمراء عليها شاش أبيض سميك، كأنها يصنعها في آلة دقيقة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. وقد كانت هذه العمامة مع لحيته تشكل ميزة يظهر فيها الشيخ بوقار وهيبة، يساعده عليهما حقيقته النفسية وهدوء تصرفاته، ودراسة حركاته، وقلة تلفّته رحمه الله تعالى.

هذه هي السمات العامة لمظهره الخارجي، وهي سمات غير خداعة ؛ لأنها تدل على خبره وحقيقته النفسية المتميزة، إذ كان هادئاً بطبيعته، سريع البديهة، قليل الكلام، يحب أن يسمع أكثر ممّا يتكلّم، ويُعطي كلّهُ للمتحدّث، وينتقل إليه بجسمه لا بوجهه فقط، وكان يكثر من ترداد قول الشاعر:

ما إن ندمت على سكوتي مرّة

ولقد ندمت على الكلام مراراً^١

١ البيت لأبي العتاهية، وقد وقع ضمن أربعة أبيات منسوبة له، أوّلها قوله:

إن كان يعجبك السكوت فإنّه قد كان يُعجبُ قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوتك مرّة فلقد ندمت على الكلام مرارا

هذا وقد كان الشيخ رحمه الله يكرر: إن الله خلق للإنسان لساناً وأذنين لسمع ضعف ما يتكلّم،

ومن محاسن الحكمة في شعره رحمه الله قوله:

وتوقّ عند النطق أولاً تنطق إنّ البلاء موكل بالمنطق

وكان رحمه الله بطيء الانفعال، سريع الاستجابة للمواقف، يتكلم بالكلام الفصل، ويترك التفصيل في الجزئيات ما لم يكن لذلك ضرورة أو حاجة ماسة. يغلب عليه التبسّم، لكن ما رأيته يضحك بملء فيه قط، وكان يُحبُّ قولَ المصطفى صَلَّى الله عليه وسلّم ويكثرُ مِنْ تكراره: (عَجِبْتُ مِنْ ضاحِكٍ مِلءَ فِيهِ، ولا يدري أَرْضِي عنه أم سَخِطَ) ١.

وكان إلى جانب ذلك حاضر البديهة، حاد الذكاء، يحمل قلباً عطوفاً، لكنّ دمعته غالية، كثير التّفكّر، واسع التّأمّل، ذاكرًا للموت والمصير دائماً، فكانّه بقيّة السّلف الصّالح وما يُذكر من سماتهم المظهريّة والنّفسية. رحمه الله وتغمّده بواسع رحمته.

ومع جمال المظهر والمخبر، كان الشيخ قويّ البنية، كثير التّحمّل، ذا عزمٍ يُشبه عزم الأبطال القدماء، وهمةٌ تُحاكي همّهم، قليل التّعرّق مهما بذل من جُهدٍ، كثير العمل مهما أحسّ بالتّعب، يكره الجلوس في غير عمل، ويكثر القراءة عند الفراغ إن لم يكن في عملٍ بدنيّ.

هذه السّمات يعرفها كلّ من كان قريباً من الشيخ، ذكرتها في غير مبالغة، ونقلتها بأمانةٍ لتعطي صورةً عن تميّزه رحمه الله، وقلة أمثاله، بل ندرة أمثاله قديماً وحديثاً.



١ الحديث رواه البيهقي وابن عدي عن ابن مسعود رضي الله عنه، وحسّنه السيوطي في الجامع الصغير، رقم ٥٣٩٣، ونصّه: "عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحكٍ مِلءَ فيه، ولا يدري أَرْضِي عنه أم سَخِطَ". ٢ / ١١٤، مكتبة الحلبي.

صفاته الخلقية:

لعلَّ جميعَ مَنْ قرأ ما تقدَّم حول حياة الشيخ منذ نشأته يمكن أن يلخِّص
بجمل أخلاقه رحمه الله تعالى، ولعلَّ أبرز هذه الأخلاق تواضعه الشَّديد، ورميه
لحظ نفسه حيث يُلقى ما لا يهتمُّ به، وكان يُحُضُّ طُلاب العلم على هذا الخُلُق
المهمَّ ويكرِّر (آفة الظرف الصِّلَف)^١.

وكان يقول: طالب العلم كغصن الشجر، كُلُّما ازداد حملاً ازداد انحناءً،
ويردُّ قولَ الشَّاعر:

تواضعُ تكن كالنَّجم لاح لناظرٍ

على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالِدخان يعلو بنفسِه

إلى طبقات الجوِّ وهو وضعُ^٢

وإلى جانب هذه الخصلة الخلقية الواضحة في منهجه وتعامله مع الناس
جميعاً صغيرهم وكبيرهم، كان الشيخ وفيّاً يحبُّ الوفاء ويحُضُّ عليه، وقد

١ من حديث رواه القُضاعي، كما ذكر العجلوني في كشف الخفاء، ١ / ١٧، طبعة مؤسسة الرسالة،
وذكر السيوطي في الجامع الصغير أنَّ البيهقي رواه في شعب الإيمان عن علي رضي الله عنه
وضَعفه، وينظر الجامع الصغير للسيوطي، الحديث العاشر، ١ / ٦، بتحقيق محيي الدين عبد
الحميد، وكان طُبِعَ بإشرافٍ ومتابعةٍ وعنايةٍ شيخنا الشيخ صادق رحمه الله تعالى، والظُّرْفُ:
الذكاء والحذق والكياسة، والصِّلَفُ التَّكَبُّرُ.

٢ تنسب لفرنسيس مَرَّاش، من شعراء القرن التاسع عشر، ولعبد الجليل الطباطبائي تشطير لها،
وهو معاصر له.

استعرضت من قبل نماذج من وفائه رحمه الله. وهذا الوفاء فرع صدقه مع نفسه ومع الآخرين، فقد كان صادقاً في لسانه، وصادقاً في عواطفه، وصادقاً في سلوكه، وفي دعوته، بل في جميع مناحي حياته، فقد كان اسماً على مسمى، له من اسمه نصيبٌ وافرٌ.

إلى جانب تواضعه رحمه الله، ووفائه وصدقه كان لئن الجانب من غير ضعف، حازماً من غير شدة، مُخلصاً عطوفاً عفيف الذليل، يحمل إلى ذلك كله نفساً أبيّةً، فقد كان عصامياً بكل ما تحمله هذه الصفة من معنى، يعتمد على نفسه ويكره الاستعانة بالآخرين ما استطاع لذلك سبيلاً. ومع اعتماده على نفسه، وعفة نفسه ويده، كان كريماً يكره أن يكون لأحد عليه فضلٌ ماديٌّ، بل كان سباقاً في إهداء الأيادي وبذل المال والجاه دون تردد لمن يطلب قاصداً ومحتاجاً.

تواضع ووفاء، صدق ولين جانب، إخلاص وعطف ولطف، عزة نفسٍ وعصاميّة، كرم وجود وعطاء، سماحة نفسٍ وإباء. هذه مجمل أخلاقه رحمه الله لمستها بيدي، وأدركها كل من عرفه وخالطه.

سلوكه في الإدارة والتعامل مع المرؤوسين:

كان الشيخ رحمه الله مديراً لمعهد التوجيه الإسلامي، كما كان رئيساً للجنة بناء مسجد سيدنا الحسن. وهي لجنة لبناء المساجد لها نشاط واسع كما سأحدث لاحقاً، كما كان رئيساً لجمعية أسرة العمل الخيري، وهي جمعية خيرية

لها جهدٌ كبيرٌ في مساعدة فقراء حيّه، ويتبع لها مستوصف لغسيل الكلية، وله فروع عدّة.

بالإضافة إلى ذلك كان إماماً وخطيباً، والأئمة والخطباء لهم في مساجدهم دور قياديّ، وإشراف عامٌّ على جميع مناحي النشاطات فيها، أضف إلى ذلك أنّ طلاب الشيخ حسن رحمه الله بايعوه بعد وفاة أخيه، فصار مؤثلاً لهم وشيخاً ومرجعاً علمياً يقصدونه كلما أشكل عليهم أمر، وذلك يحمل في طيّاته مهمّة توجيهيّة وعملاً قياديّاً إشرافياً. وتجاه هذه المسؤوليات، كان للشيخ رحمه الله سياسة واحدة، ينطلق من مبادئ عامة في الإدارة والإشراف والتوجيه سأعرض لأطرافٍ منها، وتقدّم ذكر بعضها في مناسباتٍ عدّة.

المبدأ الأوّل: هو اعتباره لأيّ منصبٍ مسؤوليّةٍ وتكليفاً، لا ميزةً وتشريفاً. ولذا كان يكره المناصب، ويحاول الابتعاد عنها قدر استطاعته، لكنّه عندما يتولّى المسؤوليّة يعطيها حقّها.

والمبدأ الثاني: هو اعتباره للمسؤوليّة أمانة، (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ^١، وهو حديث كان يكثر من تكراره، ولذا كان يبذل جهده في إدارة ما هو موكلٌ إليه، يقدّم ذلك على حظّ نفسه، وحظّ أهله منه. إذ كان يخرج في الصّباح الباكر أيّام كان مديراً لمعهد التّوجيه، ولا يرجع إلّا بعد أن يُسدل الظّلام ستاره على الكون، وربّما نام لحاجةٍ في المعهد متابعَةً لشؤون الطّلاب المعاشية،

١ من حديث رواه الشيخان، البخاري في الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٤، ومواضع أخر، ومسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل.....، رقم ٣٤٠٨.

وبعد أن كبرت سنُّه ما كنت أراه إلا ممسكاً لكتاب علم، أو لورقةٍ رسميَّةٍ ينظّمها، أو عملٍ إداريٍّ يرثُّه. يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة نجل الشيخ حسن في وصفه لتفاني عمِّه - رحمهم الله جميعاً - في سلوكه في إدارة معهد التوجيه: (....) وخدمةٍ منقطعة النظير لطلّاب معهده، الذي كان مديره المباشر فيما بعد، حتّى كان يأتي من بيته في منتصف الليل، ليعالج المرضى من الطّلاب، فيسهر على تمريرهم... برقة قلبٍ وصبرٍ ما وجدناهما عند غيره) ١.

والمبدأ الثالث: احترامه للمرؤوسين، وتقديره لآرائهم، وحبُّه لسؤالهم ومشاورتهم في إدارة شؤونهم، فقد كان في هذا الأمر رحمه الله يعتمد على الشورى بأوسع أبوابها، مع لينٍ وحزمٍ كما تقدّم، وسياسةٍ ومرونةٍ حسب ما يقتضيه الموقف. ومن تطبيقات هذا المبدأ في إدارته للمعهد، ما حدّثني به رحمه الله من مراعاة المدرّسين ورغباتهم بشكل عام، واستجابته لملاحظاتهم على الطّلاب دون إهمال، وقد كان رحمه الله لا يرفع عقوبةً عن طالب ما لم يشفع فيه من طلبها، وهذا منهج دائم كان لا يغيّره مع اختلاف طباع المعلّمين وأمزجتهم.

والمبدأ الرابع: الرّحمة العامّة وتغليبها في تعاملاته المختلفة مع المرؤوسين، هذا إلى جانب الهدوء في حلّ المشاكل والتّعامل المتدرّج لإصلاح المفاسد.

١ الوالد الداعية المري، د. عبد الرحمن حبنكة ص ١٠٩.

هذه بعض عناوين سياسته رحمه الله في الإدارة: إحساسٌ بالمسؤولية واعتبارٌ لأمانتها وتقديسٌ لوجوب القيام بمتطلباتها، واحترامٌ للمرؤوسين وتغليبٌ لمبدأ الشورى في التعامل معهم، مع وضع الرحمة إلى جانب الحزم، وحلّ المشكلات والمصاعب بالهدوء والتدرُّج. وما كان اليأس يعرف إلى إدارته طريقاً، وهو القائل:

ليس من شيمتي وإن شئتُ يأسُ
أسأل الله أن يُحقّقَ فآلِي

علاقته بالناس وأسلوب تعامله مع مختلف شرائحهم:

هذا جانب مهم جداً من حياة الشيخ، استعرضنا بعض جوانبه في مباحثنا السابقة، فتحدثنا عن علاقته بأسرته وعائلته، وقلنا إنه كان باراً بأبيه، وفيّاً لزوجته، رحيماً بأولاده، كما تحدثنا عن علاقته بأساتذته، وقلنا إنه كان يجلُّ أخاه ويحترمه ويبالغ في الثناء عليه، كما تحدثنا عن علاقته بطلابه، وقلنا إنه كان يكره الإثقال عليهم، ويتودد لهم ويحنو عليهم، ويعاملهم على أنهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما تحدثنا آنفاً عن تعامله مع مرؤوسيه، وقلنا إنه كان يعمل بمبدأ الشورى، ويشجع مرؤوسيه على الإدلاء بآرائهم بحريّة وتجرد. وبالخلاصة فقد كانت الرحمة والوفاء والصدق والإخلاص عناوين بارزة لتعامله رحمه الله مع جميع من كانوا حوّلَهُ.

لكن بقي أن نتحدث عن علاقاته الاجتماعية مع الناس، ونشاطاته الخيرية، وخدماته العامة، كما ينبغي أن نلّم بطرفٍ من سياسته مع أولي الأمر حكماً ومسؤولين، وسنعرّج إن شاء الله على موقفه من المخالفين له في الرأي، ومن الفئات المناوئة، ومن الحاقدين على الإسلام أو المعادين للعربية، وهذا ما حقّه أن يكون في هذه الفقرة ضمن حديثنا عن شخصيّة العامة رحمه الله تعالى.

ونبدأ الحديث أولاً بـ

علاقته مع العلماء:

فقد كان رحمه الله على علاقة طيّبة بجميع علماء بلاد الشام المعبرين، كانت له علاقات مميّزة مع العلماء وطلاب العلم من مختلف المشارب، دون تعصّب أو انحياز لفئة دون فئة، اللهم إلا أن يكون الحق، وكان رحمه الله يسارع إلى لمّ الشمل كلّما شعر بصدع في علاقات أهل العلم، ويتودّد للجميع، وكان أهل العلم يقصدونه في كثير من حوائجهم.

وأذكر أسماء بعض العلماء الذين كان له معهم علاقة خاصّة، وأبدأ بإخوانه، الذين أقروا له جميعاً بالخلُق الرفيع، والتقدّم في العلم والفضل والمعاملة، فلا غرو أن تكون العلاقة بينهم وبينه علاقة متميزة بمختلف المقاييس، وللتمثيل فقد كان بينه وبين الشيخ حسين خطّاب - شيخ قرّاء الشام - محبة كبيرة جداً، وكان الشيخ رحمه الله كثيراً ما يُحدّثني عن عمق العلاقة الخاصّة بينهما، وكان يقول عنه: "لم أر مثله في حياتي أبداً". وقد كان

الشيخ حسين يُبَادِلُهُ الحُبَّ والاحترام، وكان يُقَدِّمُهُ على جميع إخوانه، بل كان لا يتقدم عليه في مسير أو مركب البتة^١.

أما العلماء الذين كان له معهم علاقة متميزة من خارج مدرسته العلميّة، فمنهم - على سبيل التمثيل أيضاً -: الشيخ أبو الفرج الخطيب الحسني، وقد حدثني رحمه الله عن خصوصيّة هذه العلاقة القديمة معه، وكان يمتدحه ويثني على منهجه المحافظ، وحدثني الشيخ عبد القادر نجل الشيخ أبي الفرج أنَّ الشيخ قد اجتمع مع والدِهِ في لجنة ضَمَّت أعيان علماء الشَّام، وكانت غايتها متابعة الشأن الإسلامي، والاهتمام بأمور المسلمين ومصلحتهم العامّة، حيث كانوا يلتقون كبار مسؤولي البلد في كلّ مناسبة تستدعي ذلك خدمةً للصالح العام.

ومنهم الشيخ هاشم السيد من دوما، وأخوه الشيخ عبد الله، والشيخ عبد الغني الدقر، رحمه الله تعالى، وقد كانت بينهما جلسات خاصة يتناولان فيها الأدب، وكان الشيخ صادق قد كتب له أبيات مديح سرَّ بها الشيخ عبد الغني جداً، قال له فيها:

عَبْدُ الْغَنِيِّ غَنِيٌّ عَنْ مَدَائِحِهِ	بَحْرُ الْعُلُومِ فَمَا دَلَوِي بِمَائِحِهِ
شَهُمٌ تَقِيٌّ وَفِيٍّ مَاجِدٌ فَطِنٌ	مَوْفَقٌ مَلْهُمٌ سَبْحَانَ مَنْجِحِهِ

١ كان الشيخ حسين رحمه الله من أقرب تلامذة أخيه إليه، وقد أتيت على ذكره لتمييز العلاقة بينهما من جهة، وتمثيلاً لعلاقته بإخوانه من جهة أخرى، وليس من المناسب أن أسرد أسماء إخوانه، وعلاقته التفصيليّة معهم، فهم معروفون من جانب، وعلاقته بهم علاقة الأخ الصالح بأخيه من جانب آخر، فلا يحتاج بعد ذلك للتفصيل.

صَاحِبُهُ فِي دُرُوسِ الْعِلْمِ ذَا أَدَبٍ	لَقَاطٌ لَوْلَوْهُ صَيَّادٌ سَانِحِهِ
يُعْنَى بِحِفْظِ الْقَوَافِي مِنْ شَوَاهِدِهِ	وَيَعْتَنِي بِمَعَانِي غَيْرِ وَاضِحِهِ
وَإِنْ تَبَدَّى لَهُ خُلْفٌ بِمَسْأَلَةٍ	يُحِلُّ مُشْكِلَهَا أَخْذًا بِرَاجِحِهِ
فِيَالهِ أَلَمَعِيًّا جَلَّ مُلْهِمُهُ	أَحَاطَ بِالْفَضْلِ طُرًّا مِنْ جَوَانِبِهِ
أَرْجُو لَهُ مِنْ مَدِيدِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهُ	وَأَنْ يَفُوزَ مِنَ الْمُسْعَى بِصَالِحِهِ

ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحمن الشاغوري، رحمه الله تعالى، وهو من أعيان التصوف الكبار المعاصرين في سوريا، وكان للشيخ عبد الرحمن قديماً جلسات خاصة يتذاكر فيها مع الشيخ صادق الإنشاد وعلم الأنغام مع بعض المنشدين القدماء.

و منهم أيضاً: الشيخ زهير نوفلية، وقد كان أول اتصال في صباح العيد يتلقاه الشيخ صادق للمباركة بالعيد هو اتصال الشيخ زهير. ومرة حاول الشيخ صادق أن يسبقه فلم يتمكن من ذلك ؛ لأن خط الشيخ زهير كان يظهر بأنه مشغول، وذلك بسبب محاولة طلب الشيخ زهير للشيخ صادق، وعندما انتظر الشيخ صادق قليلاً لإعادة المحاولة رنَّ الهاتف فإذا بالشيخ زهير يسبق كعادته مباركاً.

و من هؤلاء طلاب الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى، ومنهم على سبيل المثال: الشيخ شوكت الجبالي، رحمه الله، وقد كان يستشير الشيخ صادقاً في كُلِّ شؤونه الخاصة والعامة، ولا يسافر أبداً حتى يتصل بالشيخ ويودّعه.

ومنهم طلابُ الشيخ صالح الفرفور، وعلى رأسهم: الشيخ عبد الرزاق الحلبي، والشيخ أديب الكلاس، ثم أولاد الشيخ صالح، وجميعهم يُجلُّون الشيخ، وكان الشيخ - رحمه الله - يواصلهم ويشاركهم في مناسباتهم المختلفة.

أما تعامله مع العامة:

فقد كانت تحكمه أخلاقُ الإسلام، وقدوة خير الأنام صلى الله عليه وسلم، فقد كان يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في سلوكه مع العامة سواء من الخواص أم من العوام، يصبر ويتحمل، ويبذل ويعطي، ولا ينتظر جزاءً من أحد. ولقد شهدت له مواقف تدلُّ على سموه في التعامل، وترفعه عن الصغائر، ممَّا لا أكاد أحصي عدده، وكان يكرّر:

ليس الغبيّ بسيدٍ في قومِه

لكنَّ سيد قومِه المتغابي^١

وكان يتمثّل ذلك في جميع تصرفاته، خاصّة في الإصلاح بين الناس، إذ كان ذلك همّه الأبرز، وكان لا يتوانى عن بذل الجهد في الإصلاح، ويتحمل بسبب ذلك الكثير، إذ كثيراً ما يتبرّم طرفٌ ويرضى طرف، والشيخ يقاسي ويصبر، ولا يعتذر عن مسعى للإصلاح حتّى ولو كان مريضاً.

١ من قصيدة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي.

ومن طُرْفِ أحكامه الإصلاحية، أَنَّهُ جاءه تاجرٌ من الميدان وآخر من سوق
قديم بدمشق مشهور بالتجارة يدعى (البزورية)، واختصم إليه في شأن بضاعةٍ
زَعَمَ التاجرُ الميدانيُّ أَنَّهُ سَدَّدَ ثمنها، وادعى الآخر أَنَّهُ بعثها ولم يتقاضَ قرشاً في
مقابلها حسب حسابه الجاري مع هذا التاجر، ورأى الشيخ بعد نقاشٍ أَن يدفع
التاجرُ الميداني نصف القيمة، وقَبِلَ الطرفان، ثم قال الشيخ للتاجرِ الميداني: أَمَّا
أنت فستدفع مالاً له ظاناً أَنك تدفعه للمرة الثانية، وهو يظنُّ أَنك آخذٌ لنصف
حقه، وإني أرى أَن تبذل هذا المال للمسجد، فإن كان له كان صدقةً منه، وإن
كان لك كان صدقةً منك، ويخرج منكما ما في نفسيكما من ظنٍّ كلٍّ طرفٍ أَنَّهُ
صاحب حقٍّ عند الآخر ولم يوفه، فوافق الطرفان، وأخرج التاجرُ الميداني قسطه
من المال وسلَّمه للشيخ، فسُرَّ الشيخ وانصرف الرَّجلان. لكنَّ الشيخ لم
يرضَ أَن يكون ذلك إخراجاً، فاتصل في صباح اليوم التالي بكلا الرَّجلين،
وتوثَّقَ من أَنهما راضيان كلُّ الرضا عن هذا الحكم، عندها أرسل الشيخ إلى
محاسب الجمعية، وأعطاه المال ثم ردَّ الوصل المقابل لأصحابه.

وكان إلى جانب ذلك يلبي جميع من دعاه ما استطاع لذلك سبيلاً، يشارك
النَّاس في أفراحهم وأحزانهم، يعزي بالوفاة، ويشارك في حفلات العقود،
ويلبي الدَّعوة إلى الولائم خاصة إذا كانت من فقير أو ذي حالة متوسطة، جبراً
لخاطره، وكنت ألحظ منه المسارعة في الدَّهاب إلى دعوات الطَّبقة المتوسطة من
النَّاس والإبطاء في الاستجابة لدعوات الأغنياء، ويذهب غالباً كارهاً غير
مطمئن، وكنت ألحظ تعفُّفه عن الاستزادة من الطَّعام، إذ كان أقلَّ النَّاس طعماً

على موائد الأغنياء، يأكل الكفاية دون تعمُّدٍ لإقلالٍ أو إكثار، لكنَّه رحمه الله بطبيعته كان يأكل الكفاف. وكان قويًّا على نفسه، يُكرِّرُ قولَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ليس الشَّدِيدُ بالصرعة، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يملك نفسه عند الغضب)^١، وكان - يرحمه الله - يرى أنَّ الغضب مثال ضربه صلى الله عليه وسلم عن الانفعال، والمقصود من ملك نفسه عند أي انفعال: رغبة أو رهبة أو شهوة. وكان الشيخ أوضح مثال على امتلاك ناصية النفس والقدرة عليها، فكانت لا تغلبه شهوته، ولا يشدُّه طعامٌ مهما كان لذيذاً أو نادراً. وكان قادراً على كبح لجام نفسه أمام الشَّهوات والمستلذَّات، وهذا طرف من قوته وشجاعته ورباطة جأشه رحمه الله، لأنَّ من ملك نفسه عند الشَّهوة، ملكها عند الرَّهبة كما كان يقول رحمه الله تعالى.

غير أنَّه - رغم استجابته لدعوات النَّاس ومشاركاته لأفراحهم وأتراحهم - كان لا يحضر غالباً مناسبات الزَّفاف، أي ما يسمَّى عندنا بـ " التَّلبِيسَة " وذلك لأسباب من أهمِّها انتشار التَّصوير في هذه المناسبات، وكونها زيادة على حفلات الزَّواج المتمثلة أساساً بالعقود أو ما يدعى عندنا (حفلة الكِتَاب) فكان يلبِّي هذه الحفلات دون تلك، حتَّى إِنَّه امتنع عن حضور حفلات زفاف جميع أولاده، مع أنَّها كانت بسيطةً ومتواضعةً وخاصَّةً، وقال: (لا أترك النَّاس يقولون يحضر زفاف أولاده، ولا يحضر زفاف أولادنا). على أنَّه رحمه الله كان

١ الحديث رواه البخاري في الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٥٦٤٩، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم ٤٧٢٣.

يُكرم طُلاب العلم المقرّين بجبرِ خواطِرهم، وكان حضر حفل زفافي، وزفاف أخي أيضاً، وهذا من فرط تواضعه رحمه الله تعالى.

وإلى جانب مشاركة الشيخ لأفراح الناس وأتراحهم، وإصلاحه بينهم، كان - رحمه الله - يبذل جاهه في سبيلهم، مع محافظته على ماء وجهه وعدم المبالغة في الطلب لما كان عليه - رحمه الله - من عزة نفسٍ وعصاميّة. ولربما بذل جاهه للغريب ومنع ذلك عن أبنائه وذويه، ولقد شهدت ذلك بنفسي، وعايته بطرفي، فأشهد بذلك شهادة العارف وذلك من غيرته على الناس وتلهفه لقضاء حوائجهم ولو قسا على نفسه وخالف هواه ورغبته.

ومن منطلق حرصه - رحمه الله - على مصالح الناس، قام من خلال جمعيّته التي يترأسها بأعمال خيريّة كثيرة منها ما قدّمت الحديث عنه من بناء مستوصف لغسيل الكلى، وقد سُرّ - رحمه الله - كثيراً عند إنشائه، هذا إلى جانب مساعدته للمرضى بحديثه إلى القائمين على صندوق العافية بمعاونتهم بالمال والدواء إذا كانوا فقراء محتاجين، وكان - رحمه الله - يحثُّ التُّجّار كثيراً على الجود في سبيل دعم هذا الصندوق، لما رأى من خدماته الاجتماعيّة لا سيما في دعم ذوي الدّخل المحدود عند الحاجة إلى العمليّات الجراحيّة.

ولم يقتصر اهتمامه - رحمه الله - بالسّعي لمساعدة الفقراء والمحتاجين، بل كان يهتمّ بصورٍ متعدّدة من أبواب الخير، وعلى رأسها بناء المساجد. ولقد بنت لجنته التي يرأسها مساجد كثيرة منها: جامع الحسن بالميدان وهو - فيما أظنّ - أكبر مسجد في المنطقة، وجامع زين العابدين، وإعادة بناء جامع منجك، وهو

مسجد أخيه الذي تحرّج منه إخوانه من العلماء، ولقد قوّض المسجد وبُني من جديد، حتّى صار علماً يُشار إليه بالبنان بعد أن كان جامعاً صغيراً يتسع لعشرات المصلّين فقط، ومن المساجد التي بنتها اللجنة في حيّ الميدان أيضاً: جامع الرّضا، وجامع العزيز، وجامع السيدة عائشة بالقدم. ثمّ تحوّلت اللجنة للبناء خارج حيّها فقامت بإعادة بناء جامع سيدنا عثمان بن عفّان في تنظيم كفرسوسة، وهو جامع كبير جداً بُنى على أسس بناء المسجد في العصور الماضية لكن بحلّة جديدة. وإلى جانب بناء هذه المساجد قامت اللجنة بترميم عدد كبير من المساجد في دمشق وريفها.

هذه بعض عناوين فعل الخير الذي كان همّ الشيخ الثّاني، بعد همّه الأوّل بنشر العلم ووعظ النّاس وتذكيرهم. وهذا بعض ملامح سلوكه - رحمه الله - مع العامّة من النّاس، ولا شكّ أنّ هذا السّلوّك جعل له الكثير من المحبّين، وإن كان الشيخ بطبيعته لا يطرّوّر علاقاته العامّة، ولا يرغب بكثرة الظّهور. لقد كان - رحمه الله - فعّالاً، يحبّ العمل في الظّلام، ويكره الأنوار الكثيرة التي يرغب في إضاءتها بعض المتحرّكين في العمل الخيري والدّعويّ.

أمّا تعامله مع أولي الأمر:

فقد كان النّصح عنوانه، وكان - رحمه الله - يتحاشى الإكثار من الاجتماع بهم، ويكتفي بالتنبيه على الأخطاء على المنبر أو عبر الهاتف، فإذا اضطر إلى لقاء مع بعضهم كان عنوانه الأبرز بيان الحقّ والإرشاد للخير. وقد عرّف رحمه الله

بمواقفه الشجاعة والجريئة مع مختلف الزعماء الذين توالوا على حكم سورية، وقد ناله بسبب ذلك الأذى حتّى إنّه سُجِنَ مع أخيه إبّان المحنة التي تعرّض لها الشيخ حسن رحمه الله. وقد وصف الشيخ صادق هذه المحنة، وما عاناه في السّجن في أبيات شعريّة كتبها وهو مسجون في سجن القلعة بدمشق، ثمّ في سجن الحلبوني في منزل الشيخ تاج رحمه الله، حتّى إنّ قلمه قد جفّ حبره من كثرة ما كتّب من الشعر، وفي ذلك يقول:

جفّ ريق اليراع فاختنق الشّعـ
 رُ بصّـدري فأحدت الخفقانـا
 علّ حبراً يُمّده بِمدادٍ
 كمّ قريض يُقرّض الأزانـا

وقد صوّر الشيخ في هذه القصيدة السّجن على أنّه خلوة مع الله:

ففسى شاعرٌ يُخفّف عنّي
 فيحيّد التّخويل والإفتانـا
 يصفّ السّجنَ خلوةً لمرئـدٍ
 عيّن الله شيخه السّجّانـا

وكان سبب هذا السّجن أنّ كاتباً كتب في مجلّة رسميّة قبل قيام الحركة التصحيحية، وبالتحديد عام ١٩٦٧م، كفراً بواحاً يهزأ فيه بالذات الإلهيّة وبالدين الإسلامي. وخطب الشيخ حسن خطبةً ناريّة كان يستعيز فيها من الفتنة، مع رغبته في بيان هذا الجرم العظيم بحق الله وحقّ المجتمع المسلم.

وحصلت فتنة مرتبة أمام المسجد، وحاول الشيخ صادق رحمه الله تهدئة الأحوال وبذل في ذلك جهده، إلا أن أولي الأمر أصرّوا على حضور الشيخ حسن، وكانت تلك خدعة لسجنه مع أخيه رحمهما الله تعالى. وقد أشار لذلك شيخنا في بعض قصائده التي سمّاها (من وحي السّجن) حين قال:

وَقَفْتُ فِي السُّوقِ مَذْهُولًا وَقَدْ مَرَجْتُ
عُهُودُ قَوْمٍ وَكَادُوا كَيْدَ فَتَانِ
ذَهَبْتُ لِلْبَيْتِ وَدَعْتُ الْبَنِينَ وَقَدْ
أَوْصَيْتُ لَا تَخْرُجُوا لِلسُّوقِ مِنْ شَانِي
وَعُدْتُ أَحْرُسُ مَنْ أَخْشَى عَلَيْهِ وَمَا
أَغْنَاهُ عَنْ حَارِسٍ يُؤْوِي لِسَجَانِ
وَصَرْتُ فِي السُّوقِ أَمْشِي مَشْيَ مُضْطَرِبٍ
أُفَرِّقُ الْجَمْعَ، وَالتَّفْرِيقُ أَغْيَانِي
وَجُلْتُ مَعَ قَادَةِ الْأَمْنِ الَّذِينَ أَتَوْا
أَسْعَى لِأَرْحَضَ عَنَّا تُهْمَةً الْجَانِي
نَقُولُ يَا نَاسُ فَوْضَاكُمْ تَضُرُّنَا
عُودُوا جَمِيعًا إِلَى بَيْتٍ وَدُكَّانٍ

واستمرَّ الشيخ يصف ما جرى قبل دخول السّجن إلى أن قال:

١ يقصد بـ: " من أخشى عليه " أخاه الشيخ حسن رحمهما الله تعالى.

وَجَاءَنَا مُنْذِرُ أَسْمَاءَ وَالِدُهُ
 جَهْلًا بِشِيرًا وَأَبْدَى وَدَّ خِلَانِ
 وِرَاغَ إِنَّ وَزِيرَ الْأَمْنِ يَطْلُبُكُمْ
 وَسَاءَ مَا رَأَى مِنْ حَيِّ مِيدَانِ
 وَرَاحَ يُقْسِمُ إِنَّ الْقَصْدَ لَيْسَ أَذَى
 وَإِنَّمَا الْقَصْدُ إِرْضَاءٌ لِمَنْ شَانِ
 وَمَنَعَ الشَّيْخُ جِدًّا وَاسْتَخَارَ فَلَمْ
 يَرِ انْشِرَاحًا وَلَمْ يَرْضَخْ لِإِذْعَانِ

ثم قال:

يَقُولُ لَا بُدَّ أَنْ أَلْقَاهُ عَنْ كَتَبِ
 أَنْاقِشِ الْأَمْرِ مَعَهُ بَحْثَ إِخْوَانِ
 فَأُلْهِمَ الشَّيْخُ مَا حُمِّ الْقَضَاءُ بِهِ
 وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ كَرْبٍ وَأَحْزَانِ

وقد لجأ الشيخ إبان سجنه لكتاب الله، فكان يقرأ على ضوءٍ ضعيفٍ جداً مع ضعفٍ في نظره ختمه كاملة كل يومٍ في المصحف، لا ينام حتى يئتمها^١، وكان بذلك يخفف من آلام البعد عن الأهل والأولاد:

١ قال الشيخ في بعض ما سجل: "ولما كنت في السجن في بيت الشيخ تاج في الحلبوني، وحيداً في غرفة، كتبت عدة قصائد تسليت بها، إلى أن جف القلم، وحصلت على نسخة مصحف، رجعت لتلاوة كتاب الله، مع أن الضياء بسيط جداً، وخط المصحف اللطيف الحجم دقيق، وسيء

هَيَّا لِنَتْلُوَ آيَ الذِّكْرِ إِنَّا بِهِ
لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ وَالْحَكَمِ
اقْرَأْ نَجِدْ أَنَّهُ سَاقِ الْقَضَاءِ إِلَى
يَعْقُوبَ مَعَ وَلَدَيْهِ لاذِعَ الْأَلَمِ
إِخْوَانُ يُوسُفَ أَلْقَوْهُ بِلا سَبَبٍ
فِي الْجُبِّ وَانصَرَفُوا عَنْ رَحْمَةِ الرَّحِمِ
وَضَمَّهُ السَّجْنُ أَغْوَاماً لِعِقَّتِهِ
كَيَّدَ النِّسَاءِ رَمَى الصِّدِّيقَ بِالنُّهْمِ
وَادْكُرْ إِذَا شِئْتَ إِبْرَاهِيمَ كَيْفَ رَمَى
بِزَوْجِهِ وَأَبْنَاهُ فِي مَوْضِعِ الْحَرَمِ
وَذَبَحَهُ وَلَدًا بَرًّا يُسَاعِدُهُ
وَالْعُطْفُ قَدْ عَمَّهُ وَالشَّيْبُ فِي اللَّمَمِ
لَا تَطْلُبِ الصَّفْوَةَ مِنْ دَارٍ خُلِقَتْ بِهَا
لِتُبْتَلَى ثُمَّ تُجْزَى فَارْضَ وَاسْتَتِمِ
يَا رَبُّ فَاجْعَلْ فَوَادِي ذَاكِراً أَبَدًا
وَاجْعَلْ لِسَانِي إِلَهِي ذَاكِراً بِقَوْمِي

الطَّباعه، والنَّظَّارات ليست معي، بل بقيت في القلعة مع ابن أخي، وتعدَّرت عليَّ القراءةُ أوَّلَ الأمرِ لهذه الأسباب، ثم كررت المحاولات إلى أن سهَّلها اللهُ سبحانه بعد التَّضَرُّعِ إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ يا صديقي - وأنا صادق - في آخِرِ الْأَيَّامِ أَخْتَمُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَتَمَةً كَامِلَةً، لَا أَنْام حَتَّى أُتِمَّهَا، وَذَلِكَ مَعُونَةً مِنَ اللَّهِ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ".

وقد انتصر الله عزَّ وجلَّ لشيخنا وشيخه رحمهما الله تعالى، فبعد نكسة حزيران، أُفْرِجَ عن سجناء الرأي في سوريا، وكان منهم الشيخ وأخوه، ثم إنَّ جميع من ساهموا في سجنهما قتلوا أو انتحروا أو أودعوا السَّجن، بعد فترة قصيرة^١.

وبعد هذه المرحلة، كان شيخنا قد التقى بالرئيس الرَّاحل حافظ الأسد مرَّات، وكانت سياسته المناصحة وبيان الحقِّ، في الوقت الَّذي كان ينهى فيه عن الضَّوضاء والفتنة وإثارة المشاكل، منبِّهاً على وجوب جمع الكلمة، وإخلاص النَّصيحة، وطاعة أولي الأمر ما حكموا بأمر الله تعالى.

أمَّا سياسته في التَّعامل مع المناوئين أو المخالفين:

فقد كان عنوانها الحزم مع المناصحة، فمن ذلك أنَّه رحمه الله كان يُعامل غير المسلمين معاملةً حسنةً، ويتحدَّث إليهم بلطفٍ ومودَّةٍ، لكنَّه كان يكره بشدَّة أن تؤثر هذه المعاملة الواجبة شرعاً على الخلط بين الأديان وادِّعاء وحدتها، وكان ينكر بشدَّة وحزم في مختلف المواقف والمناسبات المدهنة والمجاملة في الدِّين، ويؤكد على الولاء والبراء: موالاة المؤمنين، والتَّفريق بينهم وبين من لا يؤمن بالله أو برسوله، فليسوا سواء، ولا يجوز الخلط بحال، المعاملة اللينة مع أهل الذِّمة واجبة، ولكن لكم دينكم ولي ديني.

أمَّا الدُّعاة الَّذين كان يشعر منهم الشيخ بخروجٍ عن الجادة، فقد كان يواصلهم للمناصحة والمذاكرة بعيداً عن أعين النَّاس، وقد شهدت مجاملته

١ يقول الشيخ في التسجيل الآنِف الذِّكْر: " وقد جعل اللهُ ثأرنا على من ظَلَمنا، ولا يزال من بقي منهم في قيد الحياة مسجوناً، وهذا يُثبِتُ أنَّ عقوبة الظُّلم مُعجَلة، ودعوة المظلوم مستجابة ".

وحواره مع بعضهم للنصح والتذكير، لكنه كان ينكر عليهم في المجالس، ولا يسلم عليهم أمام الناس، إظهاراً لرفضه لمنهجهم وطريقتهم التي ابتدعوها بعيداً عن الكتاب والسنة. وأعرف أن بعض تلامذة الشيخ استهده قصيدته التي كتبها لحفيده عمّار، وفيها قوله:

حفيدي إنَّ جدَّك قد توانى
وقصَّر بالعظيم وبالضَّئيل
وليس له سوى الأقدار عُذْرٌ
سوى الخلق ما هو بالعليل

فأعطاه الشيخ القصيدة، ووصلت إلى يد أستاذ له أنكر كلام الشيخ هذا، ووصل تعليقه على هذا الكلام إلى شيخنا، والشيخ إنما يعتذر بالأقدار عقيدة من جهة، وتواضعاً من جهة أخرى، فأين تقصيره من تقصير الكثيرين من الناس؟! ومع ذلك كله كان في نفس الشيخ من كلامه في قصيدته شيءٌ كما أخبرني غير مرّة، وكان يرغب في تغيير الشطر الأوّل من البيت الثاني (وليس له سوى الأقدار عُذْرٌ)، وذلك أدباً مع الله عزّ وجلّ^١. وعلى كلّ فقد وصل ما قاله الأستاذ إلى شيخنا، وحصل أن اجتمعا في مجلس، فأبى شيخنا السّلام عليه، وظنّ ذاك أن السّبب ما وصل إلى الشيخ من إساءة الأدب معه بخصوص هذا البيت، وأرسل مع تلميذه الذي أخذ القصيدة من الشيخ اعتذاراً عن سوء التّعبير الذي لم يكن يقصده، فقال له الشيخ: أيظنُّ أنني لم أسلم عليه لإساءته بحقي، إذن أخبره أن حظّي لنفسى ألقيه حيث يلقي ما لا قيمة له عنده، فليصحح عقيدته وأنا أقبل يده، لا أسلم عليه فقط.

١ وجدّتها مغيرةً بخطّه إلى: وليس له سوى الإهمال عُذْرٌ.

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مِنْهُ هَذَا، مَا ذَكَرَهُ الدُّكْتُورُ الْحَبَشُ فِي جَرِيدَةِ الثَّوْرَةِ غَدَاةَ وَفَاتِهِ،
حَيْثُ قَالَ: "حِينَ مَضَيْتُ فِي رِسَالَتِي فِي التَّجْدِيدِ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّنَا مِنْ أَبْعَدِ مَدْرَسَتَيْنِ،
.... وَهُوَ مُلْتَزِمٌ بِعُمُومِ النَّصِّ: "فِي كُلِّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ".

كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّجُلَ سَيَكُونُ أَشَدَّ الْمَعَارِضِينَ لِمَشْرُوعِنَا التَّجْدِيدِيِّ،
فَالرَّجُلُ وَاضِحٌ فِي أَنَّ الْفَقْهَ الْإِسْلَامِيَّ تَأَمُّ وَجَاهِزٌ وَلَا يَحْتَاجُ لَشَيْءٍ مِنَ
التَّجْدِيدِ، وَالْخِيَارُ الْمَفْضَلُ لَدَيْهِ هُوَ اتِّبَاعُ الْأُئِمَّةِ بِدُونِ تَحْفِظٍ، قَفَّ عَلَى مَا وَقَفَ
عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ، فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا،

أَمَّا الشَّيْخُ صَادِقٌ فَقَدْ كَانَ فِي الشَّاطِئِ الْآخِرِ يَرْتَابُ فِي التَّجْدِيدِ كُلِّهِ شَعَارًا
وَدَثَارًا، كُنْتُ أَهَابُ مَوْقِفَ الشَّيْخِ صَادِقٍ، وَحِينَ ذَهَبْتُ إِلَى
الشَّيْخِ فِي دَارِهِ كَانَ فِي النَّفْسِ وَجَلٌّ شَدِيدٌ مِنْ مَوْقِفِ الرَّجُلِ، وَكَانَ الْمُرْتَبِّصُونَ
بِذَلِكَ كَثْرًا، وَكُنْتُ مَعَهُمْ مِنَ الْمُرْتَبِّصِينَ.

لَقَدْ اسْتَمَعْتُ إِلَيْ طَوِيلًا وَأَنَا أَتَحَدَّثُ عَنْ تَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ، وَعَنْ فَتْحِ مَنْجَمِ
الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ بِلا تَحْفِظٍ، وَكَانَ الْحَاضِرُونَ يَنْتَظِرُونَ مِنَ الشَّيْخِ غَضَبَةً مُضَرِّبَةً
تَهْتِكُ حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَمْطُرُ الدَّمَاءَ. فَالرَّجُلُ مَعْرُوفٌ بِمَوْقِفِهِ الْمَحَافِظِ الصَّلْبِ،
وَهُوَ لَا يَهَابُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا تَمُ، وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ، وَنَظَرْتُ فِي وَجْهِهِ
الْحَاضِرِينَ وَقَدْ عَلَاهَا التَّحَفُّزُ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ الَّذِي كَانَ مُسْتَغْرَقًا فِي جَلَالِ اللَّهِ، لَمْ
يَشَأْ أَنْ يَقُولَ أَكْثَرَ مِنْ كَلِمَاتٍ مُحَدَّدَةٍ بَسِيطَةٍ: أَنْتَ تَقْبَلُ النَّصْحَ؟ وَأَنَا أَتَمْنَى لَكَ أَنْ
تَبْقَى مَعَ الْجَمَاعَةِ، الْأَفْضَلُ أَنْ تَبْقَى مَعَ الْجَمَاعَةِ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ^١.

١ جريدة الثورة، الجمعة ٩ / ١١ / ٢٠٠٧.

أمّا موقفه من أعداء الإسلام ودعاة الفجور:

فقد كان في منتهى الحزم، كان يدعو للجهاد بكافة أشكاله، مع الحكمة وعدم التهور، وكان يصبُّ حمماً خطابين في كلِّ موقفٍ يتبجَّح فيه أعداء الله، ومواقفه الشُّجاعة في هذا معروفة ومشهورة.

بقي كلمات مختصرة في آخر هذا الفصل تتمُّ الصورة الحقيقيَّة لطبيعة الشيخ وشخصيَّته الفذة، فقد كان ذكيّاً جدّاً في تعامله مع النَّاس ليس بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعه، كما كان صاحب دُعاةٍ يكره اليأس ويُشجِّع على التفاؤل، وكان حاضر البديهة سريع الفهم مناوراً في المعاملة دون مداهنةٍ أو مجاملةٍ على حساب الحقِّ أو الدِّين، وهو بالإضافة إلى ذلك يميل إلى أن يكون مع النَّاس غير متميِّزٍ عنهم، يسير بسيرهم، ويقف عند وقوفهم ما لم يخالفوا الحقَّ أو يجيدوا عن الدِّين، كما كان يحبُّ الهدوء، والجلوس مع نفسه بين الفينة والأخرى، ويكره الضَّوضاء والجلبة، ويحبُّ الجلوس إلى أهله ومسايرتهم بعيداً عن حُمى العلاقات الاجتماعيَّة، ولذا كان يكره السَّفر، وما سافر إلا للحجِّ أربع مرَّاتٍ متفرِّقة في حياته، أوَّلها سنة ١٩٥٥م، وآخرها مع أولاده سنة ١٩٩١، وسافر مرَّةً واحدةً لغير الحجِّ، وذلك إلى ليبيا للمشاركة في مؤتمر الحوار الإسلاميِّ المسيحيِّ سنة ١٩٧٦م، ونتج عن هذا الحوار إسلام القسيس الذي كان يحاورهم كما نشرت وسائل الإعلام حينذاك.

الفصل الخامس

أدب الشيخ وشعره

تقدّم أنّ الشيخ رحمه الله كان أديباً شاعراً نحوياً لغوياً متفوقاً في كلّ العلوم التي تتصل باللغة وبيانها. وهذا الفصل معقود لبيان بعض جوانب تميّزه في الأدب والشعر. وهناك ملحوظ إن شاء الله سأذكر فيه أكثر ما عثرت عليه من شعره، أمّا في هذا الفصل فسأتحدث عن اهتمامه الإجمالي باللغة والشعر، وعن موقفه العام من أنواع الشعر، كما سأطرق للحديث عن شاعريته وجمال أخيلته، وعن الحكمة في شعره، قبل أن أنتقل للفصل الأخير، وهو الحديث عن وفاته وما قيل في رثائه.

تميّز الشيخ في الأدب واللغة:

تقدّم معنا أنّ الشيخ رحمه الله كان آية في الأدب وحجة في اللغة، وقد أعطاه الله عزّ وجلّ - كما يقول ابن أخيه الدكتور الشيخ عبد الرحمن رحمهما الله تعالى - (موهبة شعرية وأدبية رفيعة، لكنه لم يستغلها في إنتاج كبير، ومن أسباب ذلك انشغاله بإدارة مشروع المدرسة، والعلم والتعليم، وبعض أعمال الكسب للإنفاق على أسرته. واهتمّ في دراسته ومطالعاته باللغة، فكان في حلقات الشيخ الوالد المرجع اللغوي ضبطاً وفهماً، وله أيضاً بصيرة دقيقة في النحو والإعراب وشرح كبريات كتب العلم،.....)^١.

وقد شهد لتمييز الشيخ في مجالات اللغة والأدب جميع معاصريه من شيوخ وأتراب وتلامذة، فبالإضافة لشهادة أخيه وشيخه، وابن أخيه الداعية المفكر الأديب الشاعر - كما تقدّم آنفاً - سمعت من شيوخنا شهادات كثيرة تؤيّد ما قاله الشيخ عبد الرحمن رحمه الله، ومن المعجبين بأدبه ولغته شيخنا

١ - الوالد الداعية المري، د. عبد الرحمن حبنكة، ص ١١٠.

الشيخ كريم راجح - حفظه الله تعالى - شيخ القراء في الشام، وقد سمعت ثناءه وشهادته بهذا مرات ومرات، تحدّث عن سليقة الشيخ السليمة، ولغته الرائعة، وشعره العذب الرائق، وجود قريحته الأدبية في المواقف الارتجالية. فمن ذلك قصة سمعته منه مراراً، خلاصتها أنّ طالباً كتب شعراً غير موزون يمدح فيه شيخنا، وأصر على أستاذنا الشيخ كريم أن يعرضه على الشيخ، ويسأله رأيه فيه، ويطلب منه رداً شعرياً عليه، وحاول الشيخ كريم مراراً أن يبيّن له أن شعره هذا غير موزون إلا أن الطالب رجاه كثيراً، وألح في الرجاء، فدخل الشيخ كريم على شيخنا وهو مشغول بشؤون الإدارة، وقرأ عليه ما كتبه الطالب، وضحكا، فقال له الشيخ صادق: ألا أجيبه، قال: أجبه إن شئت، فقال له: اكتب، وقال على البديهة:

يا شاعراً أشعاره مشعورة

هلا وجدت لما شعرت مخرّسا^١

فمن العجائب والعجائب جمّة

بين الخيول الدهم مشي الخنفسا

ومن جود قريحته أنّه - يرحمه الله - رأى طالباً يسمى عزّ الدين نائماً في الدرس، فقال ارتجالاً:

إذا نام عزّ الدين ذلّ رجاله

ومن سنة هاهم سنين بلا عزّ

١ - المخرّس: رجل كان يدور على البيوت، ويصلح الأواني المكسورة، ولها معنى آخر من خرّس بمعنى سكت ولم ينطق.

ومن ذلك أيضاً أنَّ صديقاً لأخيه أبي الخير يدعى " عمر حمور " كان شاعراً محبباً للشيخ، وكتب له قصيدة يمدح فيها آل حبنكة، ويخص الشيخ صادقاً بالمدح، مطلعها (بني حبنكة أنتم نجوم هدى)، وطلب من أبي الخير أن يوصلها للشيخ، وأن يرجوه أن يكتب جواباً له على قصيدته هذه، فكتب له الشيخ على الفور قصيدة رائعة، مطلعها:

يا حُسْنَ أَغْصَانٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ قَدْ
أَنْبَتْهَا فَتَزَيْنَتْ بِخَبَاهَا^١

وقد طلب الشيخ من أخيه أبي الخير أن يطلب من صديقه جواباً لها، فاعتذر الرجل عن المعارضة، واعترف للشيخ بالتقدم والإبداع.

إلى جانب هذه السليقة الشعرية، كان الشيخ صاحب حسٍّ لغويٍّ مرهفٍ، ومعرفةٍ بضبط الألفاظ ومعانيها المتعددة، بالإضافة لإتقانه لفني النحو والصرف، وحبّه لفنّ البلاغة بأشكاله المختلفة بياناً وبديعاً ومعاني.

وقد عرّض الشيخ الدكتور عبد الرحمن حبنكة لبعض إبداعاته في كتابه الذي ترجم فيه والده، وهذه مقتطفات منها، تبرز سليقة الشيخ وحسّه اللغويّ المرهف، ومعرفته بأصول العربية وقواعد البلاغة والبيان. يقول الشيخ عبد الرحمن: " كتب لي رسالة جوابية جاء فيها قوله لي:

صبرت عن اللقاء فكنتُ جلدًا
وما أرسلت - معترفًا - كتابا

١ ستجدها في الملحق الذي خصصته لشعره رحمه الله.

وَلَا اسْتُنْفِدْتُ طَاقَاتِ صَبْرِي

بعثت إليك ألتمس الجوابا

فهو يطالبني في هذا بجوابٍ كتابٍ لم يرسله لي، ويعترفُ بأنَّه لم يرسله لي....
وبعث إليَّ برسالةٍ إلى مكَّة عقب حجَّته الثَّانية الَّتِي حجَّها بعد ثلاثين عاماً
من حجَّته الأولى، جاء فيها ما يلي، مستخدماً مصطلحاتٍ حسابية ونحويَّة
وأسماء كتبٍ وفق دلالاتها اللغويَّة لا الاصطلاحيَّة، بطريقةٍ مرحَّةٍ حلوةٍ خفيفة
الظِّلِّ، دقيقة الأداء، ذات إيحاءات عميقة:

(فنسأل الله أن يجمع المقسَّم، ويطرح الزَّائد، ويزيد النَّاقص، ويمدَّ الجزر،
ويخفض المنصوب، ويرفع المخفوض، ويحرك السَّاكن، ويسكِّن المتحرِّك، ويضمِّم
المحذوف، ويظهر المضمَّر، ويبدِّل الحال، ويقدِّر العطف، ويصرف السَّوء عن
المنعوتين بالتَّفضيل، لنُعربَ عن الآمال المبنية، وينزلَ قطرَ الرَّحمة فيُبلِّ الصَّدى، حتى
تزهو رياض الصَّالحين بِشذور الدَّهب وعقود الجُمان، فتكون نزهة النَّاظرين وإرشاد
العباد إلى سبيل الرَّشاد...، عسى أن تستمع إلى عيون الأخبار، بهداية الباري، وإرشاد
السَّاري، وننعم بفيض القدير، من خزينة الأسرار، للكفاية الأخيار، وعندها ننزل
الدفوف عن سطح الرُّفوف، ونشدو بديع الأغاني، بروح المعاني، ونسلك أوضح
المسالك، لما يرضي المالك، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويُعطى المُخلص كتابه
بيمينه، فيقرأ فيه ما تمَنَّاه، فيحمدُ الله على ما تفضَّل به وأولاه....)^١ .

١ الوالد الداعية المري، د. عبد الرحمن حبنكة، ص ١١١.

وقريبٌ من هذه الرسالة التي كتبها الشيخ لابن أخيه، ما أطلعني عليه
رحمه الله من قصيدةٍ شعريّةٍ يستخدم فيها مصطلحات نحوية و صرفيّة، لا يراد
بها معانيها الاصطلاحية، بل دلالاتها الأصلية، مطلعها:

مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ وَالْأَفْكَارُ نَاصِبَةٌ
لَمْ يَرْفَعْ الْجَزْمُ بِالْهَجْرَانِ رَجَواها
يَذْكُرُ النَّفْسَ بِالْمَاضِي مَضَارِعُهُ
مِنْ الْهُمُومِ فَتَنْسَى أُمْرَ شَكْواها
لَا تَحْقِرُنْ نِسْبَةَ التَّمْيِيزِ فِي دَنْفٍ
وَحَالُهُ صِفَةُ التَّنْكِيرِ فَحَواها
جَرَّتْ صُرُوفُ اللَّيَالِي نَحْوَهُ عِلَالاً
لَا يَسْتَطِيعُ لَفِيفٌ حَمْلَ بَلْواها
أَمَا تَعَدَّتْ عَلَيْهِ وَهْيَ لِازِمَةٌ
فَكَيْفَ يَسْمَعُ قَاضِي الْحُبِّ دَعْواها

هذه نماذج سريعة، وسأتي إن شاء الله على أغلب ما وقع لي من شعره،
وذلك على شكل ملحق بعد الفصل الأخير الذي ودّع فيه شيخنا هذه الدنيا.

موقف الشيخ من الشعر:

وبمناسبة الحديث عن إبداع الشيخ في الآداب عامّة، وفي الشعر خاصّة،
قد ينكر بعض النَّاسِ صرف الشيخ لبعض أوقاته في كتابة الشعر، وانشغاله
بالنَّسِيب والمدح وغيرهما من فنون الشعر عند قيامه بأعباء الدَّعوة وإيصال
الرَّسالة على نحو ما أمر الله ورسوله.

أقول: بمناسبة ما نحن بصده عن الحديث عن شعر الشيخ، وبالإضافة إلى ما تقدّم من أن الشيخ صاحب سليقة شعريّة لا تحيجه إلى كثير وقت لنظم الشعر، ومن أن الشيخ رحمه الله مقلٌّ كما ذكرت من كلام الدكتور عبد الرحمن حبنكة رحمه الله انشغالاً بالعلم والإدارة والأعمال الخيريّة، لا بدّ من بيان موقف الشيخ من الشعر، ورأيه في نظمه في مختلف الأغراض التي يتعرّض لها الشعراء، مقدّماً بين يدي بيان موقفه قصّة حصلت معي يوم أطلّعت - رحمه الله - على قصيدة لي كنت كتبته بعد قراءتي لقصة مموزين التي ترجمها أستاذنا د. البوطي، قال لي يومها - رحمه الله -: من حقّ الإنسان أن يُعبّر عن مشاعره، لكن ما ينبغي لطالب العلم أن يصرف الكثير من الوقت بحجّة نظم الشعر والتعبير عن المشاعر، فوقت طالب العلم أثمن من ذلك ^١.

أمّا موقفه العام والمعلن والواضح، فهو ما قاله شعراً، بشكل موجزٍ ومختصر:

الشُّعْرُ كَالنَّارِ مَذْمُومٌ وَمُتَّحَدٌ
فَحُذِّبْ قَوْلِي وَلَا تَجْنَحْ لِمَا جَنَحُوا
مَنْ أَطْلَقَ الذَّمَّ لِلْأَشْعَارِ قِيلَ لَهُ
لَيْسَ الْغَرِيقُ بِأَبْحَارٍ كَمَنْ سَبَحُوا
النَّشْرُ بَرٌّ وَوَعْرٌ فِي مَسَالِكِهِ
وَالشُّعْرُ بَحْرٌ بَسِيطٌ لَالٌ نَجَحُوا

١ وما يؤكد موقفه هذا قوله:

كسرت دفي وقد قطعت أوتاري وعفت عشقي وتلحيني وأشعاري
فصاح إبليس بامن تبت من غزل مزماري الشعر قد عطّلت مزماري

فالشعر - من حيث هو كلام يعبر فيه الإنسان عما بداخله - كالنثر تماماً،
كلاهما ينقل ما يجول بخاطر المتكلم إلى المخاطب، فلماذا نذم الشعر ونمتدح
النثر ؟ !!

يقول شيخنا رحمه الله في رثاء الشيخ قاسم حرز، خطيب وإمام جامع
الصحابة في الميدان، وقد كان أديباً وشاعراً، وعالماً صالحاً:

الْيَوْمَ مَاتَ خَلِيفَةُ الْأَدَبَاءِ
وَخَلِيفَةُ الْعُلَمَاءِ وَالصُّلَحَاءِ
عَهْدِي بِأَنَّ الشُّعْرَ فَنُّ مُظْلِمٌ
وَبِأَنَّ هُ الْمِرْمَارَ لِلْإِغْوَاءِ
وَإِذَا امْتَلَأَ جَوْفُ ابْنِ آدَمَ مِنْ دَمٍ
خَيْرٌ مِنَ الْأَشْعَارِ لِلشُّعْرَاءِ
مَا بَالُهُ أَضْحَى عِظَاتٍ نُظِّمَتْ
مَوْزُونَةً بِالشَّرْعِ وَالْأَرَاءِ
مَنْ يَحْتَكِمُ بِالشَّرْعِ يَنْظُمُ حِكْمَةً
وَيَكُونُ فِي الْعُقْبَى مَعَ السُّعْدَاءِ
مَا الشُّعْرُ إِلَّا قَالِبٌ مُوشِيَةٌ
أَطْرَافُهُ مُسْتَجْمِعُ الْأَرْجَاءِ

تُجَلَّى الْمَعَانِي فِيهِ كَالْحُسْنَاءِ فِي

ثُوبٍ قَشِيبٍ مُحْكَمِ الْإِرْفَاءِ

الشَّعْرِ مِثْلَ النَّثْرِ ظَرْفٌ أَوْدَعَتْ

فِيهِ الْمَعَانِي وَهُوَ خَيْرٌ وَعَاءٍ

إذن فالشعر وعاءٌ جميل لمعانٍ قد تكون جميلة، فيزداد بذلك جمالها، وقد تكون غير ذلك فترفض، لا لشكل الوعاء، بل لأنها هي أفسدت شكله، وشوّهت منظره وهيئته.

هاتان الحكمتان تلخصان موقف الشيخ من الشعر: الشعر كالنثر مذموم وممدوح، والشعر مثل النثر ظرفٌ أودعت فيه المعاني.... ومن ثمّ فما كان الشيخ يرفض الشعر جملة، ولا يمتدحه بمختلف أغراضه، بل كان يشي على المعنى الجميل شعراً كان أو نثراً، ويذمّ سواه كذلك.

أمّا شعر الغزل، والذي كان يُجَيِّدُهُ رحمه الله، وقد كان يستعملُهُ كسفينَةٍ يركبُها المتلقّي لبلوغِ شاطئِ الحكمةِ والموعظةِ، لا كمقدّماتِ الطَّلَلِ في الجاهليّةِ، وما كان منه قصائد تامّة، فهي موجّهةٌ لاستنباتِ البيان، وبيانِ أصولِ التعبير والتفنّنِ في أساليبِ الكلامِ العربيِّ البليغ، وهو يُجَرِّكُ في النَّفْسِ هواها الخاصَّ، إذ إنّهُ إن لم يكن موجّهاً للمعاني السّامية، فهو مُطلَق. أقول: أمّا شعرُ الغزلِ فموقفه فيه هو موقفُ الفُقهاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، كالإمامِ النَّوَوِيِّ حينما يقول:

(وإن كان يمدح - الشاعر - الناس، ويُطري، نُظِر، إن أمكن حمله على ضربٍ مُبالغٍ، جاز، وإن لم يُمكن حمله على المُبالغة، وكان كذباً مُخضاً، فالصحيح الذي عليه الجُمهور، وهو ظاهرُ نصّه، أنّه كسائر أنواع الكذب، فتردُّ شهادته إن أكثر منه، وقال القفال والصيدلاني: لا يلحق بالكذب؛ لأنّ الكاذب يُوهّم الكذب صدقاً، بخلاف الشاعر، فعلى هذا لا فرق بين قليله وكثيره، وهذا حسنٌ بالغ، وينبغي أن يُقال على قياسه: إنّ التشبيب بالنساء والغلمان بغير تعيين لا يُحلُّ بالعدالة، وإن كثر منه؛ لأنّ التشبيب صنعة، وغرض الشاعر تحسين الكلام، لا تحقيق المذكور، وكذلك ينبغي أن يكون الحكم لو سمى امرأة لا يدري من هي) ^١.

١ روضة الطالين، كتاب الشهادات، باب فيما يفيد أهلية الشهادة، ٨ / ٢٠٧، ومن أقوى الأدلة على هذا ما روي عن حسان رضي الله عنه بعد إسلامه من الشعر، كالمطالع الغزليّة، وأدّل منه استماع رسول الله لكعب وهو يذكر سعاد في مطلع قصيدته المشهورة "بانت سعاد"، وإعطائه برده مكافأة له على قصيدته، وهذا إقرار واضح منه صلى الله عليه وسلّم، وأنّ ما ينقل عن بعض علماء الحديث من عدم صحّة القصّة فهو مخالف لما صرح به جهابذة هذا العلم، وقد درس بعض المعاصرين الأسانيد المختلفة للقصّة، وأحصى لها ثمانية طرق موصولة، وأكثر من اثني عشر طريقاً موقوفة على أكثر من واحد، وذكر أنها بمثابة المتواتر المعنوي، وانظر كتاب د. سعود بن عبد الله الفنينسان: "توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد"، وانظر ما قاله الأستاذ بدر بن علي المطوع في محاضرة له عن القصيدة جاء فيها: "وقد ثبتت، وثبت سماع رسول الله صلى الله عليه وسلّم - لها - بأسانيد صحيحة" خلال ندوة رصدها موقع الإسلام اليوم بتاريخ ١٣ / ٢ / ١٤٢٦ هـ، وانظر كتاب فلسفة الحب عند الشيخ علي الطنطاوي لأحمد علي آل مريع (ص ١٩) حيث نقل عن المحدث الشيخ إسماعيل الأنصاري قوله: "إنّ للقصيدة سنداً صحيحاً متصلاً، كما أنّ لها طرقاً مُرسلة، وقد تلقى الجميع - ذلك - بالقبول، فلا التفات إلى أيّ محاولةٍ للتشكيك فيها".

وقففة سريفة مع شعر الشيخ من حيث المذهب والصورة والإبداع إجمالاً:

هذا الموضوع بحاجة إلى وقفة طويلة لا أظن أن هذا البحث في حياة عالم وفقيه جليل يتسع لها، وقد يوفقني الله عز وجل لدراسة أدبية نقدية شاملة لشعر الشيخ وصوره وأخيلته في مناسبة تتخصّص لهذا الجانب من شخصية الشيخ العلمية، فالشيخ رحمه الله كان فقيهاً قبل أن يكون شاعراً، عالماً ربّانياً قبل أن يكون أديباً وبليغاً، ولذلك فالحديث عن أدبه وشعره هنا ما ينبغي أن يأخذ من البيان فوق الحديث عن علمه وفقهه وإخلاصه وورعه، وهي أمور تحدّثنا عنها بإيجاز. وسنأتي على كلام بعض المؤبّنين في الفصل القادم إن شاء الله لنزيدها بياناً من كلامهم شهادة على ما قدّمنا، فليس مناسباً أن نوجز هناك، ونفصل هنا؛ لأنّ الغاية الأساسية وضع صورة لقدوة وأسوة من علمائنا، تكون نبزاً لنا في حياتنا، ولكن لما كان الشيخ على ما ذكرنا من التميّز الأدبي واللغوي، كان لا بدّ من وقفة سريعة مع خصائص شعره وبعض إبداعاته في الصورة والمعنى، لتكتمل الصورة الحقيقية على ماهي عليه، ولعلّ الله ييسّر تفصيلاً مستقلاً لكلّ جانب من جوانب حياة الشيخ، إذ كلّ جانب بحاجة إلى كتيب كهذا.

أقول ابتداءً ما عرفْتُ الشيخ خارجاً عن عرُوض الخليل البتّة، أي أنّ شعره شعرٌ كلاسيكيّ لم يتأثّر أبداً بموجة الشعر الحديث لا بالشكل ولا بالصورة، وهذا لا يعني أن شعره تقليديّ بحث، بل هناك إبداع في الشكل وآخر بالصورة، وإن لم يكن خروجاً على مذاهب الأقدمين أو ما كان يسمّيه النقاد قديماً ب: (عمود الشعر العربي).

فمن إبداعاته في الشَّكل أنَّ أستاذنا الدَّكتور محمد سعيد رمضان البوطي طلب منه تخميساً لأبيات الشَّافعيِّ المشهورة (ولَمَّا قسا قلبي وضاقَت مَذهبي) فكتب الشيخ مرتجلاً تخميساً وتسديساً للبيتين الأوَّل والأخير وتسييعاً للأبيات الثلاثة، وتشطيراً أوَّل وثانياً وثالثاً، ثمَّ تذيلاً لها. وقد أعطى أستاذنا الدَّكتور التَّخميس والتَّشطير، وأطلعني رحمه الله على بقيَّة عمله على الأبيات الأخيرة قائلاً: إنَّه لم يعرف من سبقه إلى التسديس.

والمقصود بالتَّسديس أن يأتي بأربعة أشطُر على وزن الشَّطر الأوَّل وقافيته ويختتمها بشطرٍ سادسٍ، هو الشَّطر الثَّاني من البيت الأصليِّ على النِّحو التَّالي:

بيتا الشَّافعيِّ:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذهبي

جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا

فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ

تُجُوذُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكْرُمًا

تسديس الشيخ:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذهبي

وَدَفَّ دَبِيبُ المَوْتِ بَيْنَ جَوَانِبِي

نَفَضْتُ يَدِي مِنْ أَقْرَبَائِي وَصَاحِبِي

وَعُدْتُ إِلَى المولى بِقَلْبِي وَقَالْبِي

وَقُلْتُ إِلَهِي لَيْسَ ذَنْبِي بِحَاجِي
 جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمًا
 تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
 بِرَحْمَتِكَ الْعُظْمَى ذَوَى فَاثْتَهَتْهُ
 وَأَطْمَعَنِي لَا تَقْنَطُوا إِذْ تَلَوْتُهُ
 تُنَادِي ذَوِي الْإِسْرَافِ لَمَّا سَمِعْتُهُ
 تَقُولُ عِبَادِي قَسْتُ ذَنْبًا جَنَيْتُهُ
 بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

كما ثَمَّنَ الشيخ البيتين الأولين من بردة البوصيري، وتثمينها هذا في
 ملحق الشعر إن شاء الله.

ومن إبداعه في الصورة، قوله في قصيدة يصف فيها القلم:
 الْعِلْمُ بَحْرٌ وَالْيَرَاغُ سَفِينَةٌ
 تَنْجِي إِذَا خَفَّتْ وَدَقَّ شَبَاهَا^١
 فَارْكَبْ بِخَمْسٍ أَنَامِلٍ وَاشْبَحْ بِبِسْ
 مِ اللَّهِ مَجْرِيهَا كَذَا مُرْسَاهَا
 هُوَ مُنْشَىٌّ هُوَ حَاسِبٌ هُوَ خَاطِبٌ
 كَمْ بَنَتْ فِكْرَ فَضْلِهَا وَعَلَاهَا

١ الشَّيْبَا جَمْعُ الشَّيْبَةِ، وَهِيَ حُدُّ الشَّيْءِ وَطَرَفُهُ، وَدَقَّ الشَّيْءُ يَدُقُّ: صَارَ دَقِيقًا، بَعَكْسِ الْغَلِيطِ، أَيْ صَارَتْ أَطْرَافُهَا دَقِيقَةً رَقِيقَةً.

هُوَ شَاعِرٌ كَمْ قَالَ خَيْرَ قَصِيدَةٍ
لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا وَرَوَاهَا
وهو الخطيبُ فكَمْ لَهُ مِنْ خُطْبَةٍ
هَزَّ الْعَوَاطِفَ حِينَ إِذْ أَلْقَاهَا
أَسْمَاؤُهُ كَالطَّيْسِ^١ ذَاكَ عَدِيدُهَا
دَلَّتْ عَلَى شَرَفٍ إِلَى مُسَامَا
قِيْدُ الْأَوَابِدِ فَارَسُ الْجَوْلَاتِ فِي
صَفِّ السُّطُورِ مُلَطَّخٌ بِدِمَاهَا
فَتَرَاهُ يَخْتَرِقُ الصُّفُوفَ كَأَنَّهُ
مَا خَافَ سُودَ الصُّحُفِ أَنْ يَقْرَاهَا
يَغْدُو إِلَى ذَاكَ الْقَلِيبِ وَيَسْتَقِي
وَيَقُولُ شَاهَتِ أَوْجُهًا وَجِبَاهَا^٢

أما تجديده في الأغراض والمواضيع، فمن أمثلتها مناقشته العقلية لبعض المذاهب الفكرية المعاصرة، ومقارنتها بالدين الإسلامي، وبيان رجحان الدين على الفكر البشري، ولذلك أمثلة عدة في شعره رحمه الله، منها رده على دعاة التسوية المادية بين الناس على نحو ما يطمح إليه بعض الطوباويين، وما حاولته بعض الأنظمة العالمية انطلاقاً من الفكر الماركسي، يقول الشيخ رحمه الله:

١ الرَّمْلُ، أي تُشْبِهُ الرَّمْلَ في كثرتها.

٢ شَاهَتِ الوجوه: قُبِحت، قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر، وفي حنين، وذُكِرَ القليب (البئر) تعريضاً بهزيمة المشركين في غزوة بدر، على أن المراد به هنا: الدَّوَاة.

لولا التَّفَاضُلُ بَيْنَ النَّاسِ لَأَشْتَعَلَتْ
 نَارُ الْحُرُوبِ وَقَدْ كَانُوا لِيخْتَلَفُوا
 وَلَوْ تَسَاوَوْا مَا نَالُوا وَمَا بَذَلُوا
 وَلَا أَثْبَيُوا وَلَا طَاعُوا وَلَا احْتَرَفُوا
 إِنْ كُنْتَ أَنْتَ كَمَثَلِي طَاعِمًا مَرَحًا
 ففِيمَ أَنْصِبُ أَعْضَائِي وَأَعْتِسِفُ

وموسيقى شعر الشيخ موسيقى عذبة، وهو يختار من الأبحر الشعرية ما يتناسب مع موضوعه، انظر إلى قوله وهو يصف آلام الأسنان والأضراس، في أبياتٍ مقطعةٍ الكلمات كتقطيع الأسنان والأضراس في الفم، ومع كون بعض ألفاظها جزلةً قاسية الحروف (لقد أقضت مضجعي....) كقسوة آلام الأضراس، لم تؤثر على إيقاع القصيدة السلس، وعلى موسيقاها المحببة، والقريبة من العامة الذين تستهويهم هذه المواضيع:

أَشْكُوْ إِلَى مَوْلَايَ مَا	قَاسِيَتْ مِنْ دَاءِ اللَّثَّةِ
الْأُمُّهَا وَلَا مُمْسِكِيهَا	وَأَوَّاهَا مُثَلَّثَةً
لَقَدْ أَقْضَيْتَ مَضْجِعِي	مَعَ أَنَّهَا مُحْتَشَّةٌ
الضُّرْسُ مِنْهَا ذَكَرٌ	وَسِنَّةٌ مِنْهَا مُؤَنَّثَةٌ

وحتى إذا اختار الشيخ كلمةً غريبة جزلة متنافرة الحروف، فإنك ترى انسجامها مع موسيقى النص داخل قصيدته، فكلمة " خيتعور " مثلاً كلمة غريبة ثقيلة، والنظر إليها خارج النص الشعري يوحي بأنها كلمة غير شعرية، لكنها في بيت الشيخ التالي أروع ما تكون ضمن سياقها:

هذا وَمَنْ يَهْوَى يُعَالِجْ فِي الْهَوَى غُصَصاً وَمِنْ كَلَفٍ يَزِيدُ تَكْلُفًا
ولها مُجَبَّأً لِلتَّفَرُّدِ وَالْخِلَا أَرْقَا غَزِيرَ الدَّمْعِ أَصْفَرُ مُدْنَفَا
إِنَّ الْغَوَانِي خَيْتَعُورُ جُبَّهَا لَا تَرْجِي مِنْ حُبِّهِنَّ لَكَ الصَّفَا^١

فانظر إلى انسجام الكلمة مع موسيقى النص، ومناسبتها للمقصود منها، وهو تخويف الشباب من التعلُّق بحبِّ النساء.

هذا، وعلى الرَّغم من غلبة الوعظ والحكمة والمدح الدينيِّ على شعر الشيخ، وانتشار الأحاديث الوجدانيَّة والعاطفيَّة في ثنائه، أي تصدِّي الشيخ لأغراض الغزل والحكمة والموعظة، لا يغيب الوصف على قلَّته عن شعر الشيخ وأدبه، ومن روائع وصفه وصُفُّه للقلم في القصيدة التي نوهنا بها سابقاً، وسيقرؤها المطالع ضمن الملحق بعد الفصل القادم بإذن الله.

أمَّا وصف الطَّبيعة، فمن قصائده الرائعة فيه، قصيدةٌ قالها وهو بعدُ صغيراً في الكتَّاب، وقد طَلَبَ أستاذه من الطُّلَّاب أن يكتبوا موضوعاً تعبيرياً يصفون فيه فصول السَّنة: الشَّتاء والرَّبيع والخريف والصَّيف، فكتب الشيخ قصيدته

١ ذكرَ صاحبُ القاموس معانيَ كثيرةً لكَلِمَةِ " خيتعور "، منها: السَّرَاب، وكلُّ ما لا يدومُ على حالٍ، ويضمحلُّ، وشيءٌ كنسجِ العنكبوتِ يظهرُ في الحرِّ كالخيوطِ في الهواء، وهذه المعاني أقرب للسياق من تفسيرها بالغول، وإن لم يكن ثمَّ مانعٌ من تعدُّد المراد، كما قرَّرَ في علم الأصول، وعلى المعنى الأخير قول الشاعر:

كلُّ أنثى وإن بدا لك منها آيةُ الحبِّ حُبُّها خيتعورُ

وفي شعر شيخنا هي أجمل وأليقُّ وأنسب.

هذه ومطلعها (ما كان ضَرَّكَ لو مررت برَبوةٍ) وهو يصف الرَبوة في مختلف
فصول السَّنة، ومن أبيات هذه القصيدة - وقد ضاع أكثرها -:

ما كان ضَرَّكَ لو مَرَرْتَ بِرَبْوَةٍ
غَنَاءَ ذَاتِ بِلَابِلٍ وَجَاذِرِ
فِيهَا طَنَافِئُ سُنْدُسيَّةٍ فَوْقَهَا
صُفْرُ البَهَارِ عَلَى جِمالٍ بَاهِرِ
تَرعى الظَّبَاءُ ثِمَارَهَا، تَحسُو المَهَا
مِنْ ذَوْبِ بَدْرِ سَمَائِهَا المُنْتَاثِرِ
وَإِذَا جَنَى الفِرْصَادِ تَمَّ نِضَاجُهُ
أَلْقَى بِمُهْجَتِهِ لِمَهْوَى العَاثِرِ
أَوْ قِطْعَةَ الحَلْوَى بَدَتْ فِي صَرَّةِ
مِنْ شَجَرَةِ التَّيْنِ اليمِينِ القَاهِرِ^١

أمَّا الفخر فلا نكاد نعر على مثال له في شعر الشيخ، نظراً لطبيعة الشيخ
وأخلاقه ومنهجه في الحياة، ولكن قد نجد بيتاً هنا أو هناك يُمكن أن يُنسب لهذا
الغرض، وغالباً ما يكون ذلك في إطارٍ من حديثٍ نفسي في حال كربٍ أو ألمٍ،
كما قال في قصيدته الَّتِي كتبها بعد وفاة زوجته الأولى مخاطباً صورتها:

كَلِّمْنِي يَا دُمَيْتِي وَسَلِينِي
كَيْفَ حَالِي مِنْ بَعْدِ مَا صرْتُ فَرْدًا

١ الجاذر: جمع جُوذُر: ولَّد البقرة الوحشية، والفِرصاد: نوى العنَب، ويطلق على التوت، والتين قد
أقسم به الله القاهر في سورة التين.

وجفاني أهلي وخان صاحبي
 وغزني الأحران جنداً فجنداً
 ضيعوني وأي خل أضاعوا
 فبدلي أن أجعل الكل ضداً

والمدح ليس أحسن حالاً بكثير، للسبب نفسه، لكن هنا قد نجد قصائد
 كاملة في مدح بعض أولي الإحسان، مكافأة لهم على إحسانهم، من مثل قوله في
 مدح أخيه الشيخ:

إن قام يخطب فهو أخطب قائل
 أو راح ينقل فهو أصدق من روى
 أو هز جذع القول ساقط محسناً
 رطباً جنيّاً عابَهُ عَدَمُ النَّوَى
 هذا الإمام الفذُّ فارعوا ودّه
 يا سعد من هدى مُعلِّمه أوى

وفي البيت الثاني من هذه الأبيات مدحٌ بما يشبه الذم، وهو من أبواب
 البديع، وقد كان رحمه الله مبدعاً في اختيار البديع، حتّى كأنّه يأتي موافقة من غير
 تعمّد شأن المبدعين الكبار.

طبعاً لم يكن مدح المصطفى صلى الله عليه وسلّم غائباً عن شعره رحمه الله،
 بل على العكس ثم قصائد عدّة يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن

كان ذلك ألصق بفنِّ الدِّينِيَّاتِ إنَّ صَحَّ التَّعْبِيرُ. وإلى جانب هذا وذاك نجد المدح ضمن غرض الرِّثاء، وهو غرض واسع جداً من الأغراض الَّتِي كُتِبَ فيها الشيخ رحمه الله، وإن كانت أكثر مراثيه للرَّاحِلِينَ من علماء الشريعة في الشَّام، كقوله في رثاء الشيخ علي الدَّقَرِ رحمه الله:

كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى الْمَمَاتِ مَصِيرُهُمْ
لَكِنْ عَظِيمٌ مَوْتُهُ الْعُلَمَاءِ
وَالْمُخْلِصُونَ الْعَامِلُونَ بِعِلْمِهِمْ
كَالرُّسُلِ لَوْلَا زُبَّةُ الْإِيْحَاءِ
إِنَّ الْفَقِيْدَ عَلَيْهِ سُحْبٌ مَرَّاحِمٍ
مَثَلُ الْكَمَالِ وَقُدُوءُ الصُّلَحَاءِ
هَاضَتْ وَفَاتَكَ يَا عَظِيمُ قَوَامَنَا
وَمِنْ الْمِضِّ مُصِيبَةُ الْعُظَمَاءِ
قَدْ كُنْتَ تُعْنَى بِالْبَنَاتِ صِيَانَةً
وَوَقَايَةً وَسَعَادَةَ الْأَبْنَاءِ^١
لِلَّهِ أَيَّامٌ نَشَرَتْ بِهَا الْهُدَى
وَجَلَّوَتْ صَدْأَ جَهَالَةِ الْجُهْلَاءِ
عَزَفَتْ عَنِ الدُّنْيَا وَقَدْ زَكَّيْتَهَا
نَفْسٌ مُقَدَّسَةٌ مِنَ الْأَهْوَاءِ

١ إشارة إلى مدارس الغرَّاء التي أسَّسها: صيانة البنات، وقاية الأبناء، سعادة الأبناء.

ومن ذلك رثاؤه للشيخ صالح الفرفور رحمه الله تعالى:

يَا مُوتُ إِن غَيَّيْتُ عَنَّا شَخْصَهُ

فَسَنَاهُدِي الْإِرْشَادَ لَيْسَ يُغَيِّبُ

أَدَى أَمَانَتَهُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ

وَنَتَائِجُ الْإِخْلَاصِ حَاشَا تُسَلَبُ

لكن المراثي لم تقتصر على علماء الدين، بل تناولت أيضاً بعض المحسنين،
فمن ذلك قوله في رثاء أكرم العجّة:

أُخَاطِبُ مَنْ أَرَزَّنِي لَعَلَّ خِطَابَهُ

يَكُونُ بِهِ لِلْجُرْحِ بِالْقَلْبِ مَرَهُمُ

وَلَكِنْ رِثَائِي مِنْ وَفَائِي لِحُسْنِ

وَمَذُحِ أُولِي الْإِحْسَانِ حَقُّ مُسَلَّمُ

إِذَا جَادَ فِي عَهْدِ الْجِهَالَةِ حَاتِمُ

فَأَنْتَ بِعَصْرِ الْعِلْمِ أَتَقَى وَأَكْرَمُ

لَقَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ أَنَّكَ مُؤْمِنُ

بَنَيْتَ لَهُ بَيْتاً وَنِعَمَ الْمَقْدَمُ

أمّا الحكمة، فهي الغرض الأوسع في شعره رحمه الله، وله قصائد تخصّصت

لهذا الغرض، كما له حكم منشورة هنا وهناك من مثل قوله:

أَقْلِلْ أُخَيَّ مِنَ الْمَزَاحِ فَإِنَّهُ
سَقَطَ الْكَلَامُ وَنَاشَرَ الْأَحْقَادُ
فَالْمَزْحُ مِثْلُ الْمَلْحِ يُضْلِحُ قَلْبَهُ
وَإِذَا تَكَاثَرَ عَادَ لِلْإِفْسَادِ

وقوله:

يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ إِنَّ الْعُمَرَ مَعْيَارُ
وَمَا لِفَائِتِهِ عَوْدٌ وَتَكَرَّرُ
لَا يَعْلَمُ الْخَيْرَ إِلَّا مَنْ يُقَدِّرُهُ
وَالرِّزْقُ وَالْكَسْبُ وَالْأَعْمَارُ أَقْدَارُ

ومن قصائده في الوعظ والحكمة:

إِنْ خَادَعَتْكَ الزُّخَارِفُ وَاسْتَأْخَذَتْكَ الطَّرَائِفُ
فَاذْكُرْ حَسَابَكَ عَنْهَا وَاحْسِبْ لَتَلَكِ الْمَوَاقِفُ

وَمِنَ الْفَنُونِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُتَقَنُّهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ، التَّأْرِيخُ بِحِسَابِ
الْجُمَلِ، وَذَلِكَ بَوَاضِعِ التَّارِيخِ - لَا سِيَّمَا تَارِيخَ الْوَفَاةِ - بِالْحُرُوفِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى
أَرْقَامِ^١، وَلِذَلِكَ أَمْثَلُهُ كَثِيرَةٌ مِنْ شِعْرِ الشَّيْخِ، مِنْهَا قَوْلُهُ فِي تَأْرِيخِ وَفَاةِ السَّيِّدِ
مُحَمَّدٍ فَائِزٍ رَاجِحٍ:

١ حيث كل حرف يقابل رقماً، فالألف ١، والباء ٢، والجيم ٣، ...، والقاف ١٠٠....

سَلِّ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً	لهذا الطَّيِّبِ الصَّالِحِ
رَضَى أَبَوَيْهِ كُلَّهُ	فَنِعَمَ التَّاجِرُ الرَّابِحِ
مَسَاءَ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَا	نَ يَغْرُبُ بِذُرَّةِ اللَّائِحِ
فَارَّخَ قَدْ مَضَى يَهْنَا	مَحَمَّدُ فَايُزُ رَاجِحِ
١٠٤ ٨٤١ ٦٦	٩٢ ٨٩ ٢١٢

— ١٤٠٤ هـ —

و ربَّما كان يؤرِّخُ صراحة ومباشرة، كما في قوله يرثي زوجة أخيه الشيخ،
الحاجةَ نظميَّة، ويذكرُ تاريخَ وفاتها:

نَظَمْتُ عُقُودَ حَيَاتِهَا نَظْمِيَّة	بُحْيُوطٍ تَقَوَّاهَا وَصَدَقَ طَوِيَّة
عَاشَتْ عَلَى شُكْرٍ وَذِكْرٍ دَائِمٍ	وَالْحَمْدُ دَيْدَنُهَا وَحُسْنُ النِّيَّة
وَلَقَدْ أَعَانَتْ بَعْلَهَا بِجَهَادِهِ	تَبْغِي مَنَازِلَ فِي الْجِنَانِ عَلَيْهِ
بِجَمِيلِ صَبْرٍ وَدَعَتْ وَاسْتَسَلَّمَتْ	وَالنَّفْسُ رَاضِيَةُ الْقَضَا مَرْضِيَّة
فِي عَامِ أَلْفٍ وَالثَّلَاثِ وَعَشْرَةٍ	وَمِئِينَ أَرْبَعَةٍ مَضَتْ هَجْرِيَّة

— ١٤١٣ هـ —

وأخيراً، كان من أواخر ما كتب الشيخ من الشعر، أبياتاً وجدت على
قصاصة ورقٍ أمام سريرِهِ بعد رحيله من الحياة، وقد أنشدتها قبل ذهابه
للمستشفى أمام أولاده، وهي:

يَا نَاطِرًا خِيَالِي
خُذْ عِبْرَةً مِنْ مِثَالِي
قَدْ كُنْتُ مِثْلَكَ حَيًّا
حَتَّى طَوَّعْتَنِي الْيَالِي
وَكَمْ رَأَيْتُ خِيَالًا
فَصَارَ مِنْهُمْ خِيَالِي
قَدْ كُنْتُ أَنْظُرُ ذِكْرِي
مَا كَانَ ذَاكَ بِيَالِي
إِنْ أَحْسَنَ اللَّهُ حَتْمِي
فَلَسْتُ فِي ذَا أَبَالِي ١

١ هذا آخر ما قاله الشيخ شعراً فيما أظن، أما أول ما كتبه الشيخ فكان يوم السبت ٢١ ذي الحجة ١٣٥٢ هـ، كما وجدته بخطه مؤرخاً، وبعضه غير موزون، وكان للشيخ من العمر نحو من خمسة عشر عاماً، ومنه قوله مخاطباً إبليس:

فقلت له يا قائد الناس كلهم إلى الشرِّ والبلوى فُكُنْتَ معانداً



الفصل الأخير

الرحيل الأخير

هذا الفصل معقود أساساً لمختارات من مراثيات نثرية وشعرية كانت في تأبين الشيخ، سأقدم لها بالحديث عن رحيله، ثم أتبع ذلك بمختارات متنوعة وغير طويلة، أعرض فيها لبعض ما ذكره العلماء وطلبة العلم من مزايا الشيخ، وخصائصه العلمية النفسية، حتى تكتمل الصورة لدى القارئ، وسأعقب ذلك إن شاء الله بملحقٍ أعرض فيه أهمَّ قصائد الشيخ، مما أطلعني عليه في حياته، ومما كتبه آخر حياته محتفظاً فيه ومنسّقاً له حرصاً عليه من الضياع كما ضاع الكثير من شعره رحمه الله.

الوداع الأخير:

من الأمور التي قد يجهلها الكثير من الناس أنّ الشيخ عاش تسعين عاماً لم يشك من الأمراض المنتشرة في مجتمعاتنا، فقد بقي إلى آخر عمره قوياً متماسكاً سويّ الظّهر راسخ الخطوة، غير أنّ التّسرّع في القلب، والذي انتابه بعيد وفاة أخيه رحمه الله تعالى، كان المشكلة الصحيّة التي عانى منها في الرّبع الأخير من حياته. وقد دخل المستشفى رحمه الله أواخر حياته لإجراء عمليّة روتينيّة تمّت بنجاح، وبقي في المستشفى أيّاماً ثمّ رجع إلى البيت وصحته جيّدة. وقد زرته وجلست معه فترة من الزّمن بعد خروجه من المستشفى ليلة وفاته رحمه الله، وكان يظهر جليّداً وصبراً ويشكر الله على العافية. وفي صباح اليوم التّالي، ومع بزوغ شمس السّابع والعشرين من شوال ١٤٢٨هـ، الموافق ٦ تشرين الثّاني ٢٠٠٧م، أسلم الشيخ روحه إلى بارئها جلّ وعلا، وتوفي عن عمر ناهز التّسعين عاماً، قضاءً في الجهاد والدّعوة والتّعليم.

وحَدَّثني ابنه فضيلة الأستاذ أنس، أنَّ الشيخ في آخر أيامه صار قليلَ الكلام كثيرَ التأملِ، وكلِّما وقعت عينه على عين ابنه أنس يسأله ابنه: هل لك من حاجة؟ فيقول - وهو يتبسم - : سلامتك.

وأخبرني أنَّ الشيخ رأى مناماً قبيل وفاته بأيام، فذكره بتفصيله عدة مرات، له، ولبعض أهله، وفي الليلة الأخيرة، وقبل وفاته بأربع ساعات فقط، أعاد الشيخ على ابنه أنس سردَ المنام ودون مقدمات:

قال له:

(رأيت في المنام أخاً قديماً لنا يدعى أبا محمود خليفة يدعوني إلى طعام الغداء، فاعتذرت إليه وقلت له: لا أستطيع، فأنا مدعوٌّ من قِبَل أخِي الشيخ حسن، وقد دعاني عدة مرات فلم أستجب، ولا أريد الآن أن أتخلَّف عن دعوته).

ثم سكت.

فقال له أنس: المهم أنَّك لم تذهب.

فنظر إليه الشيخ نظرةً عميقة معبرة، ولم يرد عليه بشيءٍ بعدها أبداً، ونام أربع ساعاتٍ ثم استيقظ ليصليَ الفجرَ، ومات بعد أن تكلم ببضع كلمات وهو يتبسم.

وفي ظهر يوم الرحيل شيعت دمشق بموكبٍ مهيب حضره عشرات الآلاف جثمانه الطاهر من منزله إلى جامع الحسن في الميدان، حيث صُلِّي عليه وأبَّته مفتي الجمهورية ساحة الشيخ أحمد حسون^١ ثم سارت الجنازة باتجاه

١ ستجد مختاراتٍ من هذا التأين قريباً.

مقبرة الجورة في الميدان حيث دُفن رحمه الله في قبر والده الحاج مرزوق حبنكة، وهو قبر جدّه أيضاً عرابي بن غنيم رحمهم الله جميعاً.

وقد نقلت عدد من وسائل الإعلام خبر وفاة الشيخ، ومما أذكره من ذلك صحيفة الثورة، وهي صحيفة سورية رسميّة، حيث جاء فيها مقال فيه تأبين الشيخ، ومما ورد فيه:

يوم ودعت دمشق آخر الكبار.. صادق حبنكة... رجل الإشراق والأذواق، كان هادئاً متواضعاً، دائم الإطراق والإشراق، دقيق المعرفة والأذواق، ولم يكن رحمه الله من أولئك الخطباء الذين تهتز بهم المنابر، ولم يكن يتصدر المؤتمرات الدولية، ولا يوجد في سجله عنوان المناصب التي وليها، ولا الأوسمة التي حصدها.

ولم يكن من أولئك الذين يتنافسون على مناصب الدنيا، ويتواثبون في منابر الإعلام، لقد كان معرضاً عن هذا كله، وحين جاءت إليه المناصب تراوده عن نفسه وتغريه ببريقها أراها من نفسه أيما شمم، وكان المنصب تلو المنصب يأتيه في أبهى زينته ثم يرتد خاسئ الطرف وهو حسير.

كان يدهشني في الرجل تواضعه ولطفه على الرغم من الهالة التي كنا نعرفها عنه كزعيم لا يهادن ولا يداهن ولا يهاري ولا يصانع ولا يجامل، ومن المدهش أن ترى رجلاً يتحقق بهذه الصفات كلها وتضيف إليه أيضاً أنه لا يغضب ولا يصخب!! فالمعروف أن إنكار المنكر يحتاج إلى غضب وحزم، ولكن الشيخ رحمه الله كان لا يلتفت إلى ذلك كله، وكان يؤثر هدوءه، وكانت العرائم تراحم ببابه، تقرأ في سيرته وعطائه أخبار السلف الصالح، وتذكرك بعهد العلماء الذين نزهوا العلم عن رغبات الرياسة وصانوه وصانهم، وعظموه في النفوس فرفعهم في ضمائر الناس، وعلى الرغم أن الرجل كان يعتبر رمزاً للتيار المحافظ ولكنه كان يحظى بمحبة الجميع دون

استثناء، وكان مكانه في قلوب مخالفيه ليس أقل من مكانه في قلوب مريديه، كان بكل احترام يؤسس لعلاقة احترام وتقدير مع كل مخالف.

رحمك الله أيها الشيخ الجليل ، لا أجد أوفى بك من اسمك الشريف، ولكل اسم من مسماه نصيب ، وإن الله يحب الصادقين.

لتهنأ بك الشام أيها المجاهد وأنت تنضم إلى قافلة رجالها الخالدين، وستبقى في الخاطر رمزاً لتيار المحافظة والرشد الذي يحترم الناس ويحبهم وينصح لهم.

لقد رحل نقي الثوب قليل العيب، وأشهد الله أنه كان محباً لله ورسوله، ولا أجد لك منزلاً في الآخرة أولى من قول الرسول الأعظم: يحشر المرء مع من أحب^١.

وأقيمت تعزية في جامع الحسن لثلاثة أيام حضرها كبار العلماء من سورية ولبنان والأردن وفلسطين وغيرها، كما حضرتها شخصيات سياسية وفعاليات اقتصادية واجتماعية واسعة، وقد أُلقيت في هذه التعزية خطب تتحدث عن مآثر الشيخ، وقصائد تراثيه، وقد اخترت مقاطع من هذه وتلك، وخاصة في اليوم الثالث للتعزية، وهو اليوم الحاشد الذي اجتمع فيه علماء من سورية والأردن ولبنان وفلسطين وإيران، وشخصيات سياسية كبيرة منهم ضباط كبار ووزراء، كما أمّه عدد كبير من المعزّين.

١ جريدة الثورة، الجمعة، ٩ / ١١ / ٢٠٠٧ م.

مختارات من كلمات التأبين في أيام التعزية

طرف من تأبين سماحة مفتي الجمهورية

الشيخ بدر الدين حسون للراحل الكبير^١:

أيها الراحل الحبيب، يا من غرست في القلوب محبة الله ومحبة رسوله، اليوم تلقى جزاء محبتك، اليوم تحصد نور محبتك....

- نعم إنَّ الحُبَّ هو اليوم الذي تلقى الله فيه، وتصل للقاء الله فيه، لذلك أيها الأحبة انظروا إلى الموت من منظار الإيمان لا من منظار - فقط - الحزن والخوف والمصيبة، فإن كانت مصيبتنا بفقد العلماء كبيرة، فأملنا بالله عز وجل أن يجعل في هذه الأسرة الرائعة الكريمة التي أنبت علماء، ألا يجعل فيها جفافاً في العلم، إنما أن يحمل العلم رجال، يحملون هذا الميراث العظيم، فإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، نعم، آل حبنكة، هذه الأسرة التي عرفت بها بلاد الشام بعلمها وعلمائها وأبنائها، أنتم اليوم تحملون ميراثاً عظيماً، فحافظوا على ميراث الأنبياء، لا يخرج من هذا البيت أبداً، فقد دُفِعَ في ثمنه بكاء وسجود وعمل وعلم وقيام، هكذا كان رحمه الله، وهكذا كان من قبله شيخنا رحمه الله.

١ قالها قبيل التشييع، في جامع الحسن.

- أما أنتم سادتي علماء بلاد الشام، فاعرفوا عظم الأمانة والمسؤولية، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم ائتمنكم على عمود الإسلام، وقال: رأيتُه وضع في بلاد الشام، فاحملوا هذا العمود بأمن وأمان وإيمان وثقة، حتى لا يستبدلنا الله بغيرنا.

- هذا المشهد الذي ترونه أيها السادة، هذا حصاد العمر، هذه نتيجة التقوى والورع في رجلٍ ترك الناس ومشى باتجاه رب الناس.

- الله الله في علمائكم يا أبناء الشام، والله الله في الإسلام يا علماء الشام.

- أما الموت، أيها الراحل العظيم، أيها الراحل الثابت، أيها الراحل الورع، فلن يحجبنا موت عن لقاءك، فإن سرت إلى الحياة الباقية فاذكرنا عند ربك وإن اجتمعت بأخيك الثابت في جنانه، الواثق من خطواته، كما كان، فقل له: إن الإسلام في بلاد الشام لا زال عظيماً، وإن أهله لازالوا يتمسكون به، وإن الجيل الجديد متمسك بالإسلام كما كان الجيل الذي سبقنا وسيبقى هكذا بإذن الله.

- أما أنتم يا أبناء هذا الحي، يا مَنْ نشأ بينكم آل حبنكة، فأرجو الله أن يُنشئ من بينكم من يحمل بعدهم الراية، وهذا ما آمل من الله وأرجوه.

- أرجو الله العلي القدير أن يجعل شيخنا في جنان عدن، وأن يحشره في شفاعة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. والله أسأل أن يأجرَ الشام وأهلها في مصيبتهم، وأن يبدلهم خيراً، إنه سميعٌ مجيب الدعاء.

- نستودعك مَنْ لا تخيب ودائعُه، شيخنا رحمك الله، والسلام عليك يوم ولدت، والسلام عليك يوم بالورع تمسكت، والسلام عليك يوم ستجد الآن حصاد عملك بين يدي مولاك.. وأعظمَ الله أجرنا بك شيخنا.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

جانب من خطبة شيخ القراء

الشيخ كريم راجح

بعد عشاء اليوم الثالث للتعزية آخر أيام شهر شوال الموافق ٨ تشرين الثاني ٢٠٠٧م:

فُوجِئْتُ بِالنَّبَأِ الْعَظِيمِ فَخِلْتُهُ
حُلُمًا وَقُمْتُ أَكْذِبُ الْأَخْلَامَ

كنت أنا والشيخ صادق قبل ليلة، وقلت له كيف أنت، قال لي أنا بخير،
قلت له أريد أن أسافر، وقال: ادعُ الله لي، قلت: أسأل الله أن يعافيك....

وخطر في بالي قول المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقهُ أملاً
شرقت بالدَّمَعِ حتى كاد يشرق بي

وأنا أقول الآن:

وما كان قيسٌ هُلكهُ هُلكٌ واحدٍ
ولكنَّه بنيانٌ قومٍ تهدما

الشيخ صادق أيها الإخوة يمثل جيل العلم في القرن الماضي. الشيخ صادق اليوم بقيّة السّلف الصّالح، بقيّة الشيخ أبي الخير الميداني، بقيّة الشيخ إبراهيم الغلاييني، بقيّة الشيخ حسن حبنّكة...

الشيخ صادق - كما قلت لكم - خلاصة عصر مضى، وهو في خاتمة أولئك.... أوّل ما جئت إلى جامع منجك يا إخوان، حضرت درساً للشيخ صادق فأعجبت بأدبه وحسن تعبيره ومجازاته واستعاراته، وكان أوتي قوة، وكان له شغف بكتب الأدب وبشكل خاص بكتاب مقامات الحريري، فكان يقرأ فيه كثيراً، فأعجبت به، وشعرت أنني أصبحت معجباً به فصار بيني وبينه خِلْطَةٌ على صغر سنّي، لم أكن أتجاوز الخامسة عشر من عمري، فكان يجلسني في غرفته ويقول الشّعْر.

الشيخ صادق - أيها الإخوة - كان أديباً، وكان شاعراً، وكان عالماً وكان ذكياً، عنده قدرة في قراءة الكتب القديمة، وفي فهم العبارة، كان يفهم العبارة، فهم العبارة في الكتب القديمة علّم - أيها الإخوة - كان الشيخ صادق درّاكاً لهذا المعنى.

كلمة الدكتور

محمد سعيد رمضان البوطي

في التعزية - اليوم الأول:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، أيها السادة، أحمد الله عزَّ وجلَّ أولاً أن طوى لي الأرض ويسر لي عوداً إلى دمشق قبل أن ينفُضَ هذا الجمع المبارك الذي تلاقي أفرادَه ليعزِّيَ ويُعزِّيَ كُلُّ واحدٍ منهم بهذا المصاب. أحمد الله عزَّ وجلَّ على هذا التيسير، وآسف أن لم يكتب لي وجودٌ في دمشق في هذا اليوم الذي شيعت فيه دمشق عالمها الجليل أستاذنا وشيخنا الشيخ صادق حبنكة رحمه الله.

- أيها الإخوة كلمتي التي أودُّ أن أقولها تعبيراً عن مشاعري، وما أظن أنني مبالغ أو منحرف فيها عن الجادة وميزان الصواب: أنَّ المصيبة في هذا الحدث الكبير لا يتمثل في الشخص الذي ارتحل عنا وغاب عن أعيننا. المصيبة ليست مصيبتَه. وكيف أتصوّر أنها مصيبة الشيخ الذي عرفته يعانق العلم منذ شبابه، منذ أن عرفته منذ أوائل الخمسينات من القرن الماضي، وظلَّ يعانق العلم ويتعشَّقه دارساً ومعلماً إلى أن رحل من داره إلى المشفى، وأظنُّ أنَّه حتى في ذاك اليوم كان على موعد مع طلابه، ومع موعد في درس من دروس العلم، ولعلَّ المنية لو لم تعاجله ولم تسابقه إلى هذا الذي عاش له ومات معه، ألا وهو العلم، لعاد إلى طلابه ولعاد إلى مجلسِ علمه، وأي علم؟ إنَّه العلم المقرب إلى الله، إنه

العلم المبصر بشريعة الله، إِنَّه العلم الذي يبصر العبدَ بهوَيْتِه عبداً مملوكاً لله سبحانه وتعالى. في آخر زيارة زرتَه فيها وسألتَه فيها عن صحته وعرفت أنه ترك الخطابة، عرفت أنه إنما يتنفس برئة العلم بالنسبة لحياته الروحانية، ظننت أنه قد قطع صلته بالطلاب، ولكنَّ جوابه الذي أجابني به أنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يترك هذا الحبيب الذي عاش معه وتقلَّبت حياته كلها معه، أنَّى له أن يهجر حبيبه هذا أسبوعاً لا بل يوماً أو يومين. أعود فأقول: هذا الإنسان الذي رحل عنا وهو يعانق حبيبه العلم المقرب إلى الله، لا يمكن أن نتصور أن الموت مصيبة بالنسبة إليه. نعم سمّاها الله مصيبة ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ المائدة: ١٠٦ لكنها مصيبة للأحياء الذين يودّعون قريبتهم، صاحبهم، شيخهم، مُربيهم، فالمصيبة مصيبتنا نحن أيها الإخوة، ليست مصيبة شيخنا الذي حُجِبَ عنا، ولا أقول "الفقيد"، هو ليس فقيداً، وأنا لا أتألَّى على الله سبحانه وتعالى، ولكنني أقول ما أعرف وأشرح ما استبان لي، إنّها مصيبة حقاً، ولكنها تتمثل فينا نحن الذين ودّعوا شيخهم اليوم، هؤلاء الطلاب الذين كانوا ينهلون من علمه، هؤلاء الذين ربُّوا على يده، وأنا واحدٌ ممَّن تلقَّى التربية منه. تلقيت التربية على ثلثة من الأساتذة الذين أدين لهم بالفضل لا من واحد، على رأسهم الشيخ حسن رحمه الله يليه شيخنا الشيخ صادق، الشيخ حسين خطاب، الشيخ كريم راجح، نعم إلى آخر هؤلاء الذين أدين لهم بالفضل، هؤلاء رحلوا عنا، المصيبة تتمثل في مشاعرنا نحن، في الوحشة التي أصابتنا نحن إذ حجّبوا عنا ورحلوا عن دنيانا هذه، ولكن الله سبحانه وتعالى كريم، الله عزَّ وجلَّ أرحم من أن يبقِيَ هذه الوحشة التي يعزِّي بعضنا بعضاً بها، لا بد أن يبدل الله عز وجل

وحشتنا بالسكينة وأن يعوّضنا خيراً، هذه الثلثة التي لا يمكن أن ننكرها إذ أصابت مجتمعنا هذا بفقد عالمٍ جليلٍ أجمعت أمتنا، لا أقول في هذه البلدة، بل في عالمنا العربيّ أيضاً على علوّ شأنه، وعلى مكائته الباسقة في العلم وفي الاستقامة وفي الثبات على النهج الذي عاش له وتوفي عليه. لا بد أن تُسدَّ هذه الثغرة، ولا بدّ أن تُسدَّ هذه الثلثة، وأمتنا بخير إن شاء الله. ولا شكّ أنّ في الطلبة الذين تخرجوا على يده من سيّودي رسالة الإسلام إنّ في هذه البقعة أمّ في بقاع أخرى. وأنا أعلم أنّ في الذين كانوا يتعشّقون مجالسه شباباً آتين من مشارق الأرض ومغاربها، وأعلم أنّهم بمقدار ما كانوا يضحون بالراحة والوقت والجهد في سبيل العلم، كان الشيخ يبادلهم مثل هذا التعب والضنى، كان هو الآخر يترك راحته في سبيل راحة أخرى هي راحة العلم.

هذه تعزية أعزّي بها نفسي وأعزي بها إخواني، ولكنني أتوّج هذه التعزية بشرطها بالأمل الكبير الذي أنتظر تحقيقه من مولانا وخالقنا عزّ وجلّ، ألا يترك شامنا هذه للناس، أو للجهود المضلّة التي تحاول بعثرة هذه الأمة، والتي تحاول إبعادها عن دينها. إنّ الله عزّ وجلّ تكفل بشامنا هذه، ومعنى تكفّلِه بشامنا هذه أنّ سلسلة العلم والعلماء لن تنقطع، بل إنّ سلسلة المخلصين لدين الله عزّ وجلّ ستستمر، أقول قولي هذا وأختتم كلمتي بالتعزية، لكن لمن أقدمها، والكلّ معزّى ومعزي بأن واحد، أعزي عالمنا العربيّ والإسلاميّ بوفاة شيخنا الراحل، رحمة الله، عوّضه الله الجنة. والسلام عليكم ورحمة الله.

طرف من خطبة الشيخ أسامة الرفاعي

في اليوم الثاني للتعزية:

أيها الإخوة، فقدت دمشق، بل بلاد الشام، فقدت درّةً من درر الإسلام العظيم بفقدنا لسيدنا الشيخ صادق حبنكة رحمه الله تعالى.

الشيخ صادق أيها الإخوة كلُّكم يعرفه، وكلُّكم عاش معه، وعرف كثيراً من خصاله، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه، ولكنه كان علماً بارزاً في العلم، وعشق نشر العلم والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

الشيخ صادق حبنكة، لعلَّ الكثير منكم يعلم أنَّه ما كان يفارق أخاه الأكبر سيدنا الشيخ حسن حبنكة عليه رحمة الله ورضوانه، ما كان يفارقه في أكثر دروسه إن لم نقل في كلِّ دروسه، ينهل عنه من هذه العلوم التي حباه الله بها، ثم إذا به في حياة أخيه ينشر هذا العلم وينتفع به خلقٌ كثير. وما زال على ما نشأ عليه من عشقه للعلم ومحَبَّته له، ما زال يقيم حلقَّ العلم إلى آخر لحظة من حياته رضي الله تعالى عنه، وما زلنا في كلِّ يوم نسمع أنَّ فلاناً وفلاناً قرأ على الشيخ سنين طوالاً وطوى كتباً من كتب الفقه والتوحيد واللغة العربية وغير ذلك من أنواع العلوم، طواها كلها على سيدنا الشيخ صادق حبنكة رحمه الله تعالى، دون ضجيج ولا صخب. لقد كان الشيخ في شدَّة علمه وعظمة ما أتاه

اللهُ سبحانه وتعالى يميل إلى الخفاء أكثر ممَّا يميل إلى الظهور رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

أيها الإخوة، أن يجتمع في شخصٍ واحد: الحبُّ الشديد للعلم، والرغبةُ الجارحة في نشر العلم والدعوة إلى الله سبحانه ثم أن يجمع إلى ذلك كله الجهادَ في سبيل الله، والصبر على اللأواء والشدة، فهذا من النادر. لعلَّ بعضاً منكم يعلم أن سيدنا الشيخ حسن حبنكة حينما تعرَّض إلى الشدة والامتحان والابتلاء، لم يكن معه أبداً إلا أخوه الطود الشامخ والجبل الراسخ، لم يكن معه إلا الشيخ صادق رحمه الله تعالى، فكان شريكه في الابتلاء في محتته كلّها من أول يوم إلى آخر يوم، ولطالما سمعت من سيدنا الشيخ حسن حبنكة صفحاتٍ عن صبر الشيخ صادق في ابتلائه ذلك، وفي مشاركته له في الجهاد في سبيل الله، والصبر على نشر دعوة الله سبحانه وتعالى.

طرف من خطبة الشيخ سارية الرفاعي

في اليوم الثاني للتعزية

إنَّ خير تعزية نعزي بها: آل حبنكة ؟ أم آل الميدان ؟ أم أهل دمشق ؟ لا بل نعزيَّ العالم الإسلاميَّ كُلَّهُ في وفاة سيدنا وشيخنا الصادق فأقول: لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمًى.

مضى سيدنا الشيخ صادق إلى الربِّ الكريم الرحيم... مضى وقد ودَّعت دمشق بالأمس عالمها الجليل، وصادقها الأمين، ودَّعته ليكون في جوار الربِّ الكريم، الرحيم الرحمن.....

فكان المسلمون جميعاً أسرةً لمثل سيدنا الشيخ صادق، كان همه واهتمامه المسلمين وأوضاع المسلمين.....

كان صادقاً مع نفسه، مع أمته، صادقاً مع ربه.... كلما دخلت عليه وجدت القلب العامر بالحبِّ لله جلَّ جلاله، وجدت الصفاء، وجدته روحاً قبل أن تصعد روحه إلى السماء. نعم معاشر المؤمنين، هكذا كنا نجد شيخنا الصادق كلما زرنه بصفائه وحبِّه، بعطفه وحنانه، هذا هو شأنه منذ أن كان مديراً لهذا الصرح العلمي الذي خرَّج العلماء وخرَّج الفقهاء وخرَّج القراء، كان مديراً لهذا المعهد، والمشرف عليه.... حتى غدا العلماء الكبار يشهدون بصدق الشيخ صادق، وبعطف الشيخ صادق، وبحنان الشيخ صادق. فرحمك الله شيخنا الجليل وجعلك في أعلى عليين وأكرمك، وزاد في إكرامك....

جانب من كلمة الشيخ الدّاعية

أحمد معاذ الخطيب

خطيب الجامع الأمويّ الكبير بدمشق سابقاً

في اليوم الثالث للتعزية:

الحمد لله على كلّ حال، وأفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم على الهادي سيدنا
محَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:....

هذا الرّجل الذي نجتمع اليوم في عزائه إنّما هو بقيّة النّبوة في أرض الشّام،
أرض البركة والخير والعلم.

أيها الإخوة الكرام: للناس مشارب، وللعلماء مذاهب، ولكن تميّز الشيخ
رحمه الله بأنه كان من مدرسة العلماء أصحاب المواقف...

ولا عجب من ذلك فقد تربي على ثلة من أهل العلم والفضل والمواقف
وأبرزهم وأعظمهم وأجلّهم العلّامة الرّاحل أخوه الكبير، بل إمام البلدة بلا
منازع في وقته: الشيخ المجاهد حسن حبنّكة رحمه الله تعالى.

ومن تلك الرّوح انطلق الشيخ صادق فكانت له مواقف كثيرة ثبت فيها
على الحقّ عندما أحجم النّاس، وتمسّك بالصراط المستقيم عندما زاغت أبصار
وحناجر وقلوب...

قد ينزع بعض الناس إلى الشدة والغلظة، وما رأيت أحداً إلا القلة من العلماء يماثلون الشيخ فيما أوتي من الهيبة والمكانة مع التواضع الشديد.

إنَّ ما عند الشيخ من القوة والعزيمة والفضل هو الشيء الذي ينبغي أن يقتدي به كل عالم، وكلُّ طالبٍ علمٍ، حتى يبقى هذا الدين نظيفاً مستقيماً يقوم به أهله ولا يضيع.

جانب من كلمة الدكتور

رمضان عبد الله شلح

أمين عام حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

في اليوم الثاني للتعزية

أما بعد: جرت العادة والسنة أن يعزّي الناس أهل الفقيد، فقلت في نفسي
عندما طُلب إليّ أن أتحدث - وكيف لا أتحدث في هذا الموكب الربانيّ المهيب -،
قلتُ: مَنْ أَهْلُ الفقيد؟

أُعزّي آل حبنكة الكرام برحيل العالم الكبير الجليل الشيخ صادق حبنكة
رحمه الله؟

أم أُعزّي سورية العروبة والإسلام؟

أم أُعزّي بلاد الشام؟ إلى أن وصلني الجواب في خاطري:

العالم الربانيّ: أهله لا ينحصرون في أسرته، ولا في أهل بلده ومحله.

الشيخ صادق حبنكة ألّه مليار ونصف المليار مسلم، وكيف لا؟ واسمعوا
قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩، تكفّل الله سبحانه
وتعالى، بحفظ الذكر، بحفظ الدين، بحفظ الإسلام، لكن: إذا أردنا أن نسأل،
وأن نتعلم، وأن نعرف شيئاً عن هذا الذكر.

أيّ باب في الأرض يا رب نطرق؟

وأيّ باب في الأرض ندق؟ مَنْ المتكفل؟

من المؤتمن على هذا الدين، وهذا الذكر؟ فيأتينا الجواب من الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩

جانب من كلمة

السيد عدنان الموسوي

ممثّل حزب الله من لبنان، في اليوم الثالث من التعزية

يقول الحبيب في كتابه الكريم وخطابه المبين. بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

باسم قائد المقاومة، وسيدها، قائد التحرير والانتصار، سماحة الأمين العام

لحزب الله: السيد حسن نصر الله، ومعاونيه وإخوانه، أتقدم إليكم جميعاً بأسمى

آيات العزاء برحيل هذا العالم الربانيّ، العابد الماضي إلى رحمة الله إن شاء الله.

هذه التعزية كُلِّفْتُ بأن أنقلها إليكم، ونحن شركاؤكم بالمصاب.

فلقد كان لهذا الفقيد الراحل العزيز الغالي الدور الكبير على كل الأصعدة

التربوية والاجتماعية، وخصوصاً بالنسبة لنا في المقاومة الإسلامية في العام

الماضي في أيام حرب تموز الجائرة، الحرب العالمية التي شُنَّت على المقاومة

الإسلامية في لبنان.

لا ننسى لفضيلة الشيخ الراحل الأستاذ الكبير الشيخ صادق حبنكه

مواقفه وأياديه البيضاء ودعمه المادي والمعنوي، ووقوفه إلى جانب شعب

المقاومة. وليس هذا غريباً عليه، وهو ابن مدرسة الإسلام المعطاءة التي دعمت

الجهاد والمجاهدين، وحضّت أتباعها على الجهاد في سبيل الله بالقول والكلمة

والمدد.

جانب من خطبتي في اليوم الثالث للتعزية

المَلِكُ مَلَكِي لَا يُرَدُّ قَضَائِي وَأَنَا الْحَكِيمُ وَأَرْحَمُ الرَّهْمَاءِ
أُفْنِي وَأُحْيِي مَنْ أَشَاءُ لِحُكْمَةٍ عِنْدِي وَإِنِّي أَحْكُمُ الْحُكَمَاءِ

مطلع قصيدة رثى بها شيخنا الراحل فضيلة العلامة الشيخ صادق حبنكة
رحمه الله تعالى... الشيخ علياً الدقر...

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا وحبينا ونبينا وعظيمنا
محمدًا عبد الله ورسوله، اصطفاه من البرية هاديًا للعالمين.

أيها الإخوة: في يوم وفاة الشيخ سعدت لأصل البيت، وما تماكنت
نفسي أن أقبل رأسه، نحيت وجهي ونزلت، وشاهدت عمنا أبا كمال، سلَّمْتُ
عليه فاغرو رقت عيناه، عند ذلك تذكرت مشهداً كان بين يدي الشيخ قبل
رمضان، وكان الشيخ يجمع بعض ما تناثر من شعره، قال لي: يا أحمد، أتعرف
القصيدة التي رثيت بها زوجة الشيخ عبد الله المسعري - أخ له من السعودية -؟
قلت: هي عندي يا سيدي، قال لي - رحمه الله - هلا أتيتني بها، فإنني كنت
أبحث عنها، وما وجدتها، تذكرت في هذا الموقف هذه القصيدة، وتجلدت،
وصعدت إلى الشيخ وقبَّلت رأسه. قال له رحمه الله:

عَهْدْتُكَ عَبْدَ اللَّهِ أَتَقَى وَأَصْبِرَا فَمَا لَغَزِيرِ الدَّمْعِ فِي الطَّرْسِ قَدْ جَرَى
عَلَى أَنْ هَذَا الرِّزْءُ وَاللَّهُ فَادِحٌ وَلَكِنَّ ذَا الْإِيْمَانِ لَنْ يَتَغَيَّرَا

طرف من محاضرة
الشيخ كريم راجح
" الشيخ صادق حبنكة كما عرفته "
في جامع الدقاق بالميدان

- نشأ الشيخ صادق في بيت علم - في بيت فضل - في بيت رجلٍ أستاذٍ
معلّم.

عندما وعى الشيخ صادق وكان عمره خمس سنوات كان يرى أخاه يقول
العلم في البيت.

فهذه نشأة تدلّك على أنّه أوّل ما تفتّح ذهنه تفتّح على العلم. كان الشيخ
حسن رحمه الله فصيحا، فأول ما تفتّح ذهنه تفتّح على الفصاحة، كان الشيخ
حسن رحمه الله شاعرا، فأول ما تفتّح ذهن الشيخ صادق تفتّح على
الشعر،..... فعاش الشيخ صادق من حين نعومة أظفاره أخاه الشيخ حسن
بكلّ ما فيه، فكان في بيته يسمع منه العلم، وفي المسجد يسمع منه العلم، وأمام
الطلاب يسمع منه العلم، وكان يصاحبه دائما، وكان الشيخ حسن رحمه الله
يصطفيه.

هو نشأ في بيت علم، ولذلك كان فصيحا، وكان ذكيا، وكان ذكيا حادّ
الذكاء، لكن ذكائه كان هادئا.. فتجده يدرك الأمور ويعرف كيف يسيرها.

الشيخ صادق كان ذكيا أكثر منه عالما، بمعنى أنّ ذكائه وحنكته ما كانت
تُعجزُه أن يقرأ أيّ كتاب، ولو لم يقرأه أبداً،... أيّ كتابٍ تأتيه به ولو لم يره في

حياته كان يُقْرَأُكَ إِيَّاهُ كَأَنَّهُ مُؤَلَّفُهُ، فكان علمه في فهم العبارة وفي حلّها، وعلمه في تجواله في الكتب.

الشيخ صادق كان إذا سمع من الشيخ المسألة الواحدة، كان يحفظها ولا يحتاج أن يعود إلى الكتاب، ما يسمع شيئاً إلا يحفظه.

كان رحمه الله عصامياً، كان يجب أن يأكل من كد يمينه وعرق جبينه، وما كان يعتمد على الآخرين في حياته، وهذه مزية للشيخ صادق.

تزوَّج ولم يولد له، وأصيبت زوجته بالسرطان وتوفاها الله، وبقي مدة طويلة لا يتزوج، كان عنده رحمة، عنده شفقة، فكان يصعب عليه أن يتزوَّج بعد وفاة زوجته.

- كان بالإضافة إلى علمه وفضله، كان خُلُقُهُ ربيعاً عالياً، فأنا عشت معه أكثر من ستين سنة ما أعرفه يوماً من الأيام رفع صوته، ولا أعرفه يوماً من الأيام حصل بينه وبين أحد مشاجرة، كان يقول كلمته فإن تقبلها جليسه فذاك وإن لم يتقبلها يسكت، وكان مهما رأى الأمور مشجرة ينفرد ويسكت، وربما تكلم بكلام قليل من أجل أن يحل الموضوع، فإن انحلّ فذاك وإلا فإنه إمّا أن يسكت وإمّا أن يغادر المجلس. وكان من خلقه أنه مهما تكلمت عليه في قضية ما لا تضره في جسمه ولا في ولده ولا في بيته ولا في شيء يتعلّق به، مهما تكلمت - ولو أنك هاجمته، ولو بوجهه، أو ليس بوجهه، بلَغُهُ، فما كان يجعل نفسه عنده علم كأنك تتكلم عن غيره، وإذا بلغه كان لا يرد، لكن إذا كان له حقٌ يضيع كان يفتش عليه، رحمه الله عليه، كان يفتش عليه دون مشاجرة، وكان يصل إلى ما يريد وهو هادئ البال رخي الصوت، لذلك كان صديقاً للناس،

وما أعرفه مرّةً كنا نمشي معه إلا يلتفت ويقول تفضّلوا، كان عنده احترامٌ
للآخرين.

ما رأيته مرّةً أكل فشيح، ولا رأيته مرةً أكل ألواناً متعدّدة، يأكل لوناً أو
لونين، ويترك الأكل.

توفيت زوجته وبقي مدة طويلة ما تزوّج، فكان الشيخ حسن متألماً من
عدم زواجه، كان كلما رآه يقول له: يا صادق، الله يرضى عليك، تزوّج، حتى
تزوّج رحمة الله عليه. وربنا سبحانه وتعالى أكرمه بهؤلاء الأولاد...

- كان ميّالاً للأدب، كان ميّالاً للشعر، كان يحب الشعر والأدب، وأنا
أدركته وهو يقرأ مقامات الحريري، وما أكثر ما كان يقرأها ويعيدها، ويتكلم
عنها، وكان أمامه المختار، وكان يُقرؤه، وأقرأ الشيخ قاسم وإخوانه المختار.

فنحن عشنا على أدب الشيخ صادق، وكان يحفظنا الشعر، وأذكر أنه هو
الذي حفظنا القصيدة الزينية، ومطلعها:

صرمت جبالك بعد وصلك زينبُ والدّهْرُ فيه تغيرٌ وتقلُّبُ
نشرت ذوائبها التي تزهو بها سُوداً ورأسك كالثغامة أشيبُ^١

قصيدة حفظنا إياها من أولها إلى آخرها،.....، وفي آخرها يقول:

وإذا رأيت الرزق عزّ ببلدةٍ وخشيت فيها أن يضيّق المطلبُ
فازحل فأرض الله وإسعة الفضا طوْلاً وعَرْضاً شرقها والمغربُ

١ هي لصالح بن عبد القدوس، وقيل لغيره، والثغامة: نبت أبيض.

فَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي وَالتُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

وأذكر حفظنا قصيدة لأبي العلاء المعري:

أَلَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ مَا أَنَا فَاعِلٌ عَفَافٌ وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلٌ^١

.... رحمه الله كان يحفظنا، يبحث عن الأبيات الحلوة الجميلة التي فيها الشعر، وفيها الأدب، وفيها القوّة، وفيها الشاعرية، فكان يفتّش عنها، وكان يحفظنا إياها، وما أكثر ما حفظنا على يده عليه رحمة الله.

وكان يقول الشعر، شعره كان يأخذ باللبّ، جميل جداً.

غريب أن يصبح الإنسان في التسعين وهو يقول الشعر، تضعفُ القافية، كل شيء بالإنسان يضعف، حتى شعره يضعف، فأنا إن كنت يوماً من الأيام قلت الشعر فالفضل فيه للشيخ صادق، كان يشجّعنا على مثل ذلك، أذكر مرة أنني قلت قصيدة في الشيخ صادق، مَرَضَ رحمة الله عليه فنظمت فيه هذه الأبيات:

يَا بُلْبُلَ الْأَنْسِ عَرِّدْ فَوْقَ نَادِينَا	وَأَنْشِدِ الشَّعْرَ أَلْوَاناً وَأَزْوِينَا
وَأَطْرِبِ الْحَيَّ بِالْأَلْحَانِ تَبَعُثْهَا	عَلَى مَجَالِسِنَا رَوْحاً لِتُحْيِينَا
فَقَدْ سَأَمْنَا وَلَا هَوُوَ وَلَا طَرِبُ	وَقَدْ بَرِمْنَا وَلَا نَايُ يُغْنِينَا
وَعِيدُنَا يَوْمَ يَشْفِي اللَّهُ صَادِقَنَا	وَقَدْ شَفَاهُ فَحَلَّ الْأَنْسُ نَادِينَا
يَا صَادِقَ الْقَوْلِ وَالْإِيمَانِ تَهْتَةٌ	مِنْ صَادِقِ الْحَبِّ يُزْجِيهَا تَلَا حِينَا

١ مطلع قصيدة لأبي العلاء في نحو أربعين بيتاً على البحر الطويل.

فَدَتَكَ نَفْسِي لَبِيئاً مُلْهِماً وَفَتَى حُلُوَ الشَّائِلِ حَازَ الْعِلْمَ وَالِدِينَا
وَشَاعِراً مُرْهَفَ الْإِحْسَاسِ قَدْ خَضَعَتْ لَكَ الْقَوَافِي فَرِذْتَ الشُّعْرَ تَمَكِّنَا
يَا سَيِّدِي مَعْهَدُ التَّوَجُّهِ ذُو ظَمَأٍ فَهَلْ تَمُنُّ فَتَسْقِيهِ وَتَسْقِينَا
مَا مَسَّكَ الضَّرْبُ بَلْ أَجْرٌ وَمَغْفِرَةٌ وَرَفَعَةٌ مِثْلَهَا حَالُ الْمُصْلِينَا
إِنِّي أَهْنَأُ مُحْرَاباً وَمُدْرَسَةً وَمُنْبَرّاً فِيكَ قَدْ طَابَتْ رِيَاحِينَا
سَأَلْتُ رَبِّي لَا نَأْتِيكَ عَادِيَةً مِنْ اللَّيَالِي فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا

أَخْلَاقُهُ كَانَتْ عَالِيَةً وَرَفِيعَةً جَدًّا، حَتَّى كَانَتْ أَخْلَاقُهُ حَسَنَةً مَعَ أَعْدَائِهِ.

كَانَ دَائِمًا مَيَّالًا لِلْهُدُوءِ، مِنْ خَلْقِهِ، مَا كَانَ يَحِبُّ الصَّخْبَ، مَا كَانَ يَحِبُّ رَفْعَ
الْأَصْوَاتِ، وَكَانَ دَائِمًا يَحَاوِلُ أَنْ يَعِيشَ الْهُدُوءَ الْكَامِلَ، حَتَّى دُرُوسُهُ كَانَتْ
هَادِئَةً، حَتَّى خُطْبُهُ. فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ مَا كَانَ أَبَدًا يَخْضَعُ لَضَالٍّ أَوْ مُضِلٍّ.

كَانَ عِنْدَهُ إِثَارٌ، وَكَانَ يَبْذُلُ فَصَاحَتَهُ وَبَيَانَهُ وَقُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ
يُدَافِعَ عَنْ إِخْوَانِهِ، فَكَانَ عِنْدَهُ تَضَحِيَّةٌ.

فَكَانَ بِقَدْرِ مَا هُوَ هَادِيٌّ، بِقَدْرِ مَا هُوَ مَدَافِعُ عَنِ الْحَقِّ.

- كَانَ عَصَامِيًّا، فَمَا أَكَلَ مِنْ زَادٍ أَحَدٍ.

- لَمْ يَقْرَأْ عَلَى غَيْرِ أَخِيهِ، وَأَقْرَأَ كُلَّ تَلَامِذَةِ أَخِيهِ.

مختارات من قصائد الرثاء للشيخ الراحل

قصيدة للأديب الإسلامي الكبير

الأستاذ مصطفى عكرمة

في رثاء الشيخ^١:

يَا مَنْ لِفَقْدِكَ فِي الْقُلُوبِ كُلُّومٌ	يَهْنِيكَ أَنَّكَ فِي الْقُلُوبِ مُقِيمٌ
اللَّهُ زَانِكَ بِالْهَدَايَةِ وَالتَّقَى	وَبَطِيبِ ذِكْرِ مَنْكَ سَوْفَ يَدُومُ
سَمَّاكَ رَبُّكَ صَادِقًا، يَا طِيبَ مَا	سَمَّاكَ رَبُّ بِالنَّفُوسِ عَلِيمٌ
مِنْ قَبْلِ أَنْ كُؤِنْتَ شَاءَكَ صَادِقًا	سُبْحَانَ رَبِّكَ إِنَّهُ لَحَكِيمٌ
سَبْحَانَهُ لَكَ قَدْ تَخَيَّرَ مَنِتًأ	بِالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى هُوَ الْمُؤْسُومُ
كَمْ شَعَّ نُورُ الْهَدْيِ مِنْهُ مَهَابَةٌ	وَلَكُمْ لَهُ بَيْنَ الْوَرَى تَعْظِيمُ!
فَنَشَأَتْ فِي خَيْرِ الْبُيُوتِ تَأْدِيبًا	يُرْعَى خَطَاكَ الْوَاحِدُ الْقَيُّومُ
مَا حَدَثَ عَنْ نَهْجِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	فَإِذَا بِنَهْجِكَ فِي الْحَيَاةِ قَوِيمُ

١ أُلْقِيتَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لِلتَّعْزِيَةِ.

تسعى على نشر الهداية خُلصاً
لو رحتُ أحسبُ ما جباك إلهنا
خُلِقَ كأَنفاسِ الرِّبيعِ وحِكْمَةٍ

وسوى رضا الرَّحْمَنِ لَسْتَ تَرُومُ
من مكرماتِ عَقْنِي التَّرْقِيمُ
وتواضَعُ زانَتُهُ مِنْكَ عُلُومُ

يا من بأصْفى الحبِّ قلبُكَ عامراً
علَّمتَ أجيالاً بسيرتك التي
في كلِّ ما قد كنتَ كُنْتَ معلِّماً
والعِلْمُ إن لم يلتزِمِ بعقيدةٍ
جَسَدَتْ دِينَ اللَّهِ فِعْلاً صادقاً

وبكلِّ من آذوكَ أَنْتَ رَحِيمُ
فيها يُؤدِّي دورَه التَّعلِيمُ
هيهاتَ مثلكَ أن يكونَ عَلِيمُ!
تَهْدِي خطاهُ فَإِنَّهُ تَهْدِيمُ
فالقولُ مثلُ الفِعْلِ مِنْكَ عَظِيمُ

عَلَّمَ الْهُدَى وَالصَّالِحَاتُ فِعْالُهُ
لِلَّهِ فَقَدْ كَمْ أَضْرَ بِمَهْجَتِي
كَمْ ذَا فَهِمْتُ الْعِلْمَ مِنْكَ بِنَظَرَةٍ
وَلَكَمْ هُرَعْتُ إِلَيْكَ أَرْجُو حِكْمَةً
لِلَّهِ كَمْ لَكَ بِسَمَةِ وَإِشَارَةٍ

من لي بِمِثْلِكَ وَالْمُصَابُ أَلِيمُ!
فَلَهُ بِقَلْبِي رَهْبَةٌ وَوَجُومُ
ولكم يكون بنظرة تفهيم!
لأرى بَأَنَّكَ مَرشِدٌ وَحَكِيمُ
فيها لمن رام العلومَ علُومُ!

اللَّهُ أَلْبَسَكَ الْمَهَابَةَ بِالتَّقَى
بِكَرِيمٍ خُلِقَكَ كُنْتَ فِينَا قَدْوَةً
خَيْرُ الْعُلُومِ الْبَاقِيَاتِ تَخْلُقُ
لَمْ يُشَقِّ هَذَا الْكَوْنَ إِلَّا عَالَمٌ
إِفْنَاءُ أَهْلِ الْحَقِّ غَايَةُ سَعْيِهِ
الْحَقُّ أَنْتَ أَيَا إِلَهِي فَانْتَصِرْ
فَالْكَوْنَ بَعْدَ هَذَاكَ رَبِّي مَظْلَمٌ
يَا مَنْ قَضَاؤُكَ لَا يُرَدُّ بِمَنْ طَغَى
فَلَأَنْتَ بِالْمِرْصَادِ يَا رَبِّي لَهُ
شُكْرًا لَهُ مَنَّا عَلَى إِجْرَامِهِ

فَالنُّصْحُ مِنْكَ كَمَا يُمْرُ نَسِيمٌ
وَبِمَا تَرَكْتَ فَأَنْتَ أَنْتَ كَرِيمٌ
بِذَوِي التَّقَى فَهِيَ الَّتِي سَتَدُومُ
بَطِرٌ.. وَإِلَّا حَاقِدٌ وَظَلُومٌ
وَالْكَوْنَ مِنْهُ قَدْ غَزَتْهُ هُمُومٌ
لِلْحَقِّ إِنَّكَ قَادِرٌ وَرَحِيمٌ
فِيهِ تَحَكَّمُ ظَالِمٌ وَغَشُومٌ
أَنْزَلَ قَضَاءَكَ فِيهِ يَا قَيُّومٌ
مَهْمَا اسْتَبَدَّ فَمَحْوُهُ مُحْتَمُومٌ
فَأَخُو الْمَظَالِمِ فِي غَدٍ مَهْزُومٌ

يَا صَادِقًا فِي كُلِّ مَا قَدْ كَتَبَهُ
أَلَمْ الشَّامِ عَلَيْكَ وَحَدَّ خُلْفَهَا
قَدْ كَانَ حُبُّكَ لِلْقُلُوبِ مَوْحِدًا
فَاهْنَأْ بِقُرْبِ مَنْ اصْطَفَاكَ، وَصَادِقًا
لَوْ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِزَحْمَتِهِ لَمَّا

وَالْآنَ ضَمَّكَ فِي الْخُلُودِ نَعِيمٌ
فَتَهْدَمْتَ لِلتَّفَرُّقَاتِ تَخْوِمٌ
وَالْيَوْمَ فَقَدْكَ لِلْقُلُوبِ نَظِيمٌ
سَمَّاكَ فَهُوَ بِمَنْ أَتَاهُ رَحِيمٌ
سَمَّاكَ صَادِقٌ وَهُوَ فِيكَ عَلِيمٌ

قصيدة للأستاذ محمد جمال راجح

نجل شيخ القراء في رثاء الشيخ ١:

والمنايا موائلٌ في الأماني	كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْمَيِّتَةِ دَانِي
كُلُّ نَفْسٍ وَلَيْسَ لِلْمَوْتِ ثَانِي	يَلْجُ الْمَوْتُ كُلَّ بَابٍ وَيَغْشَى
طَوَلَ عَيْشٍ فَأَنْتَ لَا بُدَّ فَانِي	عِشْ مَيْناً وَزِدْ يَقِيناً وَأَمَلْ
بافتقار الحيا وفقد الحنان	ذَبَلْتَ بِهِجَةَ الْحَيَاةِ وَجَفَّتْ
مَنْ بَنِيهَا وَعَيْشِ كُلِّ جَبَانٍ	طَاطَأَتْ كُرْبَةً لِمَوْتٍ شُجَاعٍ

* * *

عِظَةٌ فِي السُّرُورِ وَالْأَحْزَانِ	فِيكَ يَا مَوْتُ مِنْ ثَمِينِ الْمَعَانِي
كُلُّ غَادٍ يَلُودُ بِالرَّحْمَنِ	وَيَقِينُ بِاللَّهِ يَرْجُوهُ مِّنَّا
فِي شِقَاءٍ وَذَلَّةٍ وَهَوَانٍ	لَكِنَّ الصَّالِحُونَ وَلَّوْا فَبِتْنَا
صَالِحُ الْحَيِّ نَادِراً كَالْجُهَانِ	أَقْفَرْتُ مِنْهُمْ الْحَيَاةُ فَأُضْحَى
وَالنَّقِيُّ الرَّضَى فِي كُلِّ آنٍ	كَالتَّقِيِّ الَّذِي يَهِيْمُ خُشُوعاً
(صَادِقُ) النَّفْسِ أَصْمَعِي الْجَنَانِ	هَادِئٌ وَادِعٌ رَزِيْنٌ رَصِيْنٌ
وَفَصِيحٌ يَفُوقُ كُلَّ بَيَانٍ	عَالِمٌ فَاضِلٌ أَدِيبٌ أَرِيْبٌ
بِاتِّسَادٍ وَخَبْرَةٍ وَاتِّزَانِ	لُغَوِيٌّ يَجُوبُ حَوْلَ الْمَعَانِي

١ أُلْقِيَتْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لِلتَّعْزِيَةِ.

حاضر في بديهة من دهاء
شاعرٍ ساحرٍ تبيت القوافي
والمعاني التي تشق علينا
فقته الجمم ليس إلا معينا
دأبت همته عليها دؤوب
بذل العمر والسنين الخوالي
زاده العلم من تلقاه يلقي

* * *

(صادق) القلب والحجا واللسان
رُزأت فيكم الشام بثلم
تلکم الشام أذمنت كل خطب
فإذا مات عالم في جاهها
من رأى الناس يوم أمس توالى
بين باك تمنعت مقتلته
وجزوع توافقت مؤقته
ورجال تحف بالنعش حتى
ونساء على الطريق تكالى
هتك الحزن حسنهن وأزرى
هكذا شيعت دمشق عظيماً
لا عظيم الثراء والبنيان

وذكاء وحكمة واقتنان
بين صدغيه نهبه للسان
رست في خياله كالعواني
من حواش ضئيلة التبيان
بين فكر له وقلب يعاني
بين قاص من العلوم وداني
خير زاد له بخير خوان

خشية الله قيمة الإنسان
وصدوع تميز بالأركان
لم تزل لها عادات الزمان
خسف الذل مجدها بثوان
بين باك وجازع حيران
باحتياس الدموع في الأجفان
بانصباب لدمعها الهتان
ذاق قبل البلى بلاء البنان
واكفات العيون والدمع قاني
فاجع الخطب بالغواني الحسان
من عيون الرجال والأعيان
أو عظيم الضلال والبهتان

أَوْ سَلِيطاً مُّجِلُّهُ النَّاسُ خَوْفًا
أَوْ وَضِيعاً مُّعَظَّمًا بِافْتِرَاءٍ
لِّلضَّلَالِ الْمُضَلَّلُونَ وَشَيْكَاً

* * *

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ صُقْعٍ
أَكْرَمُوا الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ كَيْلًا
إِنَّمَا الْعِلْمُ زَادُ دِينٍ وَدُنْيَا
إِنَّمَا الْحَرْبُ حَرْبُ عِلْمٍ وَفِكْرٍ
حَاصِرُونَ وَأَطْمَعُونَ بِنَغْيٍ
وَمَهَازِيرٍ أَذْمَنُونَ عَلَيْهَا
أَيْنَ إِحْسَاسُنَا وَأَيْنَ شَعُورُ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطْلُبُوا الْعِلْمَ عِلْمًا
وَاسْتَقِيمُوا وَوَحِّدُوا الصَّفَّ حَتَّى
وَعَلَى اللَّهِ نَصْرُ كُلِّ ضَعِيفٍ

* * *

أَيُّهَا الْمُزْتَجِي بِقَبْرِكَ رَوْضًا
وَافِدٌ أَنْتَ فِي ضِيَاةِ رَبِّ
فَارْحَمِ اللَّهَ (صَادِقًا) وَاعْفُ عَنْهُ
وَاهْدِ أَنْجَالَهُ الْكِرَامَ وَعَظَّمْ
يَرْحَمْ اللَّهُ طَالِبَ الْعِلْمِ يَا أُوِي

وَأَتَّقَاءَ لِبَطْشِهِ الْفَتَّانِ
بَيْنَ بُرْدَيْهِ سَحْنَةُ الشَّيْطَانِ
يُظْهِرُ الْحَقُّ رُغْمَ أَنْفِ التَّوَانِي

مِنْ بِلَادِ الدُّنْيَا وَكُلِّ مَكَانٍ
يَهْدِمُ الْجَهْلُ جَانِبَ الْأَوْطَانِ
وَسَلَاخُ يَلِيقُ بِالْفَتْيَانِ
وَالثَّقَافَاتُ غَايَةُ الطُّغْيَانِ
وَفُجُورٍ يَهْجُ بِالْأَبْدَانِ
كَمْ صَرَفْنَا بِهَا عَنِ الْوِجْدَانِ
بِالْمَصَابِ الْعَمِيمِ فِي الْبِلَادِ
تَبَلُّغُوا الْمَجْدَ عِنْدَهُ لِلْعَنَانِ
تَسْتَطِيعُوا الصُّمُودَ لِلْعُدُونِ
وَعَلَى اللَّهِ عِزُّ كُلِّ مُهَانٍ

* * *

عَبْقَرِيًّا مِنْ عَبْقَرِيِّ الْجَنَانِ
قَابِلِ التَّوْبِ مُجْزِلِ الْإِحْسَانِ
وَاعْفِرِ اللَّهَ أَعْظَمَ الْغَفْرَانِ
فِيهِمُ الْعِلْمُ يَا عَظِيمَ الشَّانِ
لِسَلَامٍ وَيَرْعَوِي مِنْ أَمَانٍ

قصيدة للأستاذ الشيخ

عبد القادر الخطيب الحسني

خطيب الجامع الأموي الكبير بدمشق سابقاً

في رثاء الشيخ رحمه الله^١ :

فخلَّ دُمُوعَ العَيْنِ تَهْمِي سَوَاقِيَا	على صَادِقٍ فَلْيُنِّكَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا
فحسبُكَ دمعُ القلبِ في النفسِ باقِيَا	ولا تحسِنُ فيها حنانِكَ عِبْرَةً
وحسبك صِدْقٌ إنْ فشا الكِذْبُ طَاغِيَا	على رجلٍ حَارَ الفضائلُ جَمَّةً
وقد صارَ أشباهُ الرجالِ أَعَالِيَا	على رجلٍ فيه الرُّجُولَةُ حَقَّةً
عن الأوجهِ الأستارُ عَزَّ مَسَاوِيَا	على رجلٍ رمزٍ إذا ما تساقطتْ
شُجاعٌ يُرَجِّى للشدائدِ دَاهِيَا	على رجلٍ صِدْقٍ مَهيبٍ مُخَنِّكٍ
وما كان منقاداً لهم أو مُحَابِيَا	على رجلٍ يسعى الكبارَ لِبَابِهِ
له كهزيمُ الرعدِ فاسمعه دَاوِيَا	لطيفٌ خفيضُ الصوتِ لكنَّ وَقْعَهُ
ويبذلُ للطلابِ جَذْلانَ رَاضِيَا	حليمٌ وقورٌ كالملوكِ بِسَمَّتِهِ
وما عافَ تعليةً ولا كَلَّ رَاوِيَا	وجاوزَ تسعيناً من العمرِ بَرَّةً
ومن مرهفِ الإحساسِ يزجي القوافِيَا	يذودُ عن الفصحى وأين كُتَمَاتِهَا

١ أُلقيت في اليوم الثالث للتعزية.

كريمٌ يصونُ العلمَ كيما يصونه
خبيرٌ بأفنان العلوم محققٌ
وفي الشيخ ميلٌ للهدوء بطبعه
ويبغضُ دعوى المبطلين عريضةً
عمامته بيضاء تسمو بجبهة
تواضعه للخلق فيه سحبة
ويُنصتُ للجلّاسِ بالسمع والنهي
ويأمر بالمعروف ما استطاع حيلةً
إذا أنا لم أبك الإمام إذا قضى
وئلمة هذا الدين تزداد رقعةً
وإن مصاب الدين فيه لفجعٌ
ومن يلقم الأحجار في الحق أهلها
سئما من التدجيل في كلِّ محفلٍ
ومن لم يقم بالحق يصدعُ جهرةً
سلامٌ من الرحمن يغشاك صادقاً

عزيزٌ وإن ذلّوا وأحنوا النواصيا
وإن قال لا أدري مراراً تواليها
ويكره جعجاعاً يُزجرُ عاليها
ويهوى من الأفعال ما كان خافيا
لغير جناب الله ما كان راجيا
وعزته بالعلم كالنجم ساميا
وإن كان أدري بالحديث مراميا
وينهى عن الفحشاء من كان آتيا
وأعقبنا يئتماً ففيم بكائيا
ولا راقعٌ يرجى يهبُّ مداويا
لمن خلف الميدان في الشام خاليا
ومن ينبري للبطل غير أن ماحيا
ومجت بنا الأسماع ما كان نابيا
فلا ينطقن بالزور فينا نحابيا
فقد كنت برّاً بالعهود موفياً

قصيدة للأستاذ

الشيخ النسيب محمد أبو الهدى اليعقوبي

في رثاء الشيخ^١:

يا شام ماذا قد جرى لعُلاكِ	خَطْبُ دهاكِ فجَلَّ فيه أساكِ
فَعَدَّتْ تهاوى من ذُرِّ الأفلاكِ	ما للسماءِ تزعزعت أقمارها
وبدت عيونُ الخلق وهي بواكي	مادت جِبَالُ الأرضِ وهي سواكِ
قد حلَّ فيكِ فَحَلَّ منك عُراكِ	ماذا جرى لكِ يا دمشقُ وما الذي
والعلمِ والإخلاصِ دونِ عِراكِ	ما للمنون تصيَّدت عَلمَ الهدى
فَذَا من العَبَّادِ والنُّسَّاكِ	ورمت شَعُوبٌ بكلِّ سهمِ عالماً
أنبأؤهُ في صادقِ أفتاكِ	هذا قضاءُ اللهِ فيكِ وقد أتت
يا شامُ جُنْدٌ في المماتِ فِداكِ	قد كان في عُرْضِ الأنامِ غِنًى وهم
ذرفت عيونُ النَّاسِ ملء شراكِ	لو مات ألفٌ دونَ شيخِ الشَّامِ ما
يعتَمَ هذا الموتُ خيرَ حُلاكِ	لكنَّها سُنُنُ الحياةِ قضت بأن
أُتْرى يعودُ الشَّعرُ بعد هلاكِ	أينَ الفصاحةُ والبلاغةُ بعدهُ
عُقْداً من الياقوتِ والأسلاكِ	تبكيه آياتُ البيانِ تنظمت

١ ألقاها في اليوم الثالث للتعزية.

يبكي عليه العلمُ في تحقيقه	يبكي عليك الزُّهدُ كلُّ ملاك
تبكي رسومُ العلمِ صانَ حياضه	عن خوضِ كلِّ مدنسٍ أفاك
تبكي الفتاوى خائفاتٍ أن تُرى	من بعده تُصطادُ بالأشراك
تبكي بلادُ الشامِ قرناً قد مضى	من حكمةٍ عرُكتهُ أيَّ عراق
تبكي المهابةُ والحصانةُ والرِّزا	نهُ فقُدهُ في السَّهلِ والتَّكتاك ^١
تبكي العنائمُ أن تُرى من بعده	تعلو رؤوسُ الغُمرِ والأرْماك ^٢
يا أُمَّةَ الإسلامِ حسبُك أنه	في الحقِّ صالَ بسيفهِ الفتَّاك
لا، لم يذلَّ، ولم تذلَّ قناتُهُ	وحَمَى ذِمَارَ الدِّينِ يومَ حمَّاك

١ التكتاك: بوزن الزَّلزال، من التكتكة، الأرض التي يصعب السيرُ فيها.

٢ الأرماك: جمع رَمَك، والرَّمَك: جمع الرَّمكة: الرجلُ الضَّعيف.

قصيدة للشيخ شهاب الدين

ابن العلامة الشيخ صالح فرفور

في رثاء الشيخ رحمه الله^١:

وسرُّكم في الصادقين موزَّعُ	فضائلُكم للنَّاسِ تاجٌ مرصَّعُ
فذلك شأنُ القلبِ يصبُّ ويرجعُ	وإن كان قلبي قد صبا لِسواكمُ
فذلك رُزءٌ للصناديدِ مفرِّجُ	وإن كان قلبي قد بكى بوفاتِكم
جری فجرت مِنّا دماءٌ تودَّعُ	على كلِّ أهلِ العلمِ تقديرُ ربِّنا
وليس لنا عن تلكمُ الرُّوحِ مرجعُ	على أنَّ أهلَ العلمِ رُوحُ قلوبِنا
سأرثيكَ حتى جاء موْتُكَ يُفجِّعُ	ويا سيدي ما كنت أحسبُ أنني
أعاروكَ بعضَ اللبِّ كي لا يزعزعُ	حياتُكَ ذخِرَ للكبارِ وليتَّهمُ
مِنَ العقلِ حتَّى صرموا وتقطَّعوا	ولكنَّهم غُرُّوا بما قد تظاهروا
من الحقِّ حتَّى قام للحقِّ مجمعُ	وموْتُكَ إظهارٌ لكلِّ جليلةٍ
فذلك فوقَ الفضلِ أعلى وأرفعُ	ومن صَنَعَت كلتا يديه عجائباً
وعوَّضها عمّا تعاني وتفجعُ	عطاؤكم زانَ البلادَ وأهلها
وذا خيرٌ وجهه للمعالي وأجمعُ	وعِلْمُكم أضحى قريناً لبذلِكم

١ نظمها بعد خمسة أيام من وفاة الشيخ.

ويا صادقاً في كل شأنك هل لنا
رحلت فجاء الزور ركناً مشيداً
وهل لبني قومي بموتك عبرة
فمن شأنكم ألا يكون تنازل
ومن شأنكم ألا يقوم منافق
ومن لطفكم أن التواضع خالص
تواضع أهل العلم عز ورفعة
ومهما أراد المبطون تنقصاً
تكلم أهل العلم في كل محفل
وما كان منك القول من فيك سرعة
ففي الصمت قول عند كل ضرورة
ويا من تخيلت الفضائل جمعت
أسائلكم بالله أن تعطفوا على
وأسألكم أن تذكروني لربكم
فإني نظمت الشعر فيك محبة
فإنك حي في المات وليس ذا
وخير جمال فيه أن قلت أولاً

من الصدق في تقليدكم ما يوزع
وهل بعد هذا الداء زرع مروع
إذا أخطأوا ألا يضلوا فيرجعوا
عن الحق مهما حاولوا وتجمعوا
فيرقى لديكم منبراً ثم يسمع
بشخصكم لا يعتريه ترفع
وذلم في غير ذلك مطمع
من الحق فالمولي بجاهك يرفع
فكنت بصمت ناطقاً لو سمعوا
ولكن لسان الحال والفعل أنفع
وفي اللفظ إكثار من الهذر مقذع
لدى راحتيه وهو منها يوزع
محبكم فالفضل يعطى ويمنع
وأن تقبلوني بعد هذا وتشفعوا
وأنت ترى مني القصيد وتسمع
عجيباً فأهل الصدق بالصدق يرفع
فضائلكم للناس تاج مرصع

١ أخبرني الشيخ شهاب أنه رأى الشيخ في منامه بعد العزاء بيومين، فطلب الشيخ من الشيخ شهاب أن يرثيه، فقام من نومه فرثي الشيخ رحمه الله، بقصيدة مطلعها تذكره من منامه، وهذا مراده من قوله: وأنت ترى مني القصيد وتسمع.



حرف الهمزة

١ - من مُوجِرٍ نفسي

فَهُوَ الدَّوَاءُ لِمَنْ أَرَادَ شِفَاءً	مَنْ مُوجِرٌ نَفْسِي مُخَالِفَةً لِهَوَى
وَمِنَ التَّقَى أَتَرَعْتُهَا أَدَوَاءَ	كَمْ جِئْتُهَا بِالْكَأْسِ تَلْمَعُ رَقَّةً
تَتَجَرَّعِي كَأْسَ الرَّدَى إِنْ شَاءَ	هَائِي اشْرَبِي كُؤَبَ الْهُدَى مِنْ قَبْلِ أَنْ
وَالْمَوْتُ يَسْقِي مُرَّةً صَفْرَاءَ	إِنَّ الدَّوَاءَ مُرٌّ وَلَكِنْ نَافِعٌ
ظَنَنْتُ دَوَائِي حَنْظَلًا أَوْ دَاءَ	فَأَبَتْ وَنَادَتْ بِالشُّبُورِ كَأَنَّهَا
يَشْوِي الْوَجْهَ وَيَقْطَعُ الْأَمْعَاءَ	نَسِيتُ بَأْنَ جَهَنَّمَ غَسَّاقَهَا

٢ - فؤادك يا صفاء

فُؤَادُكَ يَا صَفَاءَ فِيهِ الصَّفَاءُ
كَأَنَّكَ رِيْمَةٌ وَأَبُوكَ وَرَدُّ
مُلَيْتٍ عَوَاطِفًا وَمُلَيْتٍ لُطْفًا
زِيَارَتُكَ الْقَصِيرَةُ بَانَ فِيهَا
فَلَا أَذْرِي لِقَاءً أَوْ وَدَاعًا
أَقُولُ سَنَلْتَقِي فِي الصَّيْفِ لَكِنْ
مِنْ اللَّهِ الْإِجَابَةُ وَهُوَ بَرٌّ
بَنَيْتَ مِنَ الْقُصُورِ لَنَا قُصُورًا
وَحَقٌّ نَحْيَبُهُ لِأَخٍ حَبِيبٍ
وَلَكِنْ شِيَمَتِي التَّقْصِيرُ دَوْمًا
أَعُوذُ بِعَفْوِكَ وَالْأُوذُ فِيكُمْ
أَبْنَتٌ أَخِي أَبُوكَ أَخٌ وَفِيَّ
رَجَوْتُ بَانَ نَعِيشَ مَعَا نُوْدِي
أَحْسُ بِغُرْبَةٍ فِي ضِمْنِ أَهْلِي
وَلَكِنْ لَسْتُ أَيَّاسٌ إِنَّ رَبِّي
وَكُلُّ مَكُونٍ وَلَهُ ابْتِدَاءُ

وَشِيَمَتُكَ الْمَرْوَةُ وَالْوَفَاءُ
لَدَيْكَ شَجَاعَةٌ فِيهَا الْحَيَاءُ^٢
وَعَيْنُكَ مِثْلُهَا مَيْمٌ وَهَاءُ
لَنَا أَلِفٌ وَدَالٌ ثُمَّ بَاءُ
لِقَلَّةٍ حِينَهَا فَمَتَى اللَّقَاءُ
بَسِيرٍ بُرُودَةٍ تَمْضِي الشِّتَاءُ
إِذَا لِلْقَائِنَا كَانَ الدُّعَاءُ
كَذَا يَلِدُ السَّاحَةُ وَالسَّخَاءُ^٣
كَبِيرٌ لَا يَلِيْقُ بِهِ النَّسَاءُ
وَهَذَا فِي مُعَاشِرَتِي وَبَاءُ
وَأَرْجُو أَنْ يُجَمِّلَنِي الشِّفَاءُ
وَأُمُّكَ بَرَّةٌ فَهُمَا سَوَاءُ
رِسَالَاتٍ وَمَا تَمَّ الرَّجَاءُ
فَيْرَحَضُ وَخَشْتِي هَذَا الْإِخَاءُ^٤
قَدِيرٌ وَهُوَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
سَيَمْضِي حِينُهُ وَلَهُ أَنْتِهَاءُ

١ جواب كتاب لبنت ابن أخي الشيخ عبد الرحمن [المصدر الثالث].

٢ الورد: الأسد.

٣ القصور: التقصير، والثانية جمع قصر.

٤ يرَحَضُ: يغسل، يُزِيل.

٣ - إنسان عيني غريق

نَجَاتُهُ بِاللَّحَاءِ ^١	إِنْسَانٌ عَيْنِي غَرِيقُ
لِحَبِّهِ جَفَّ مَائِي	إِذَا التَّقَى بِخَيْالِ
عَيْنُ الْعَنَا وَالشَّقَاءِ	الْحُبِّ مِنْ غَيْرِ وَضَلِ
مُنَغَّصٌ بِالْجَفَاءِ	وَالْعَيْشُ مِنْ غَيْرِ حُبِّ
حَتَّى الْقَطَا وَالظُّبَاءِ	وَالْحُبُّ فِي كُلِّ قَلْبِ
أَسِ يُعَالِجُ دَائِي	قَلْبِي مَرِيضٌ فَهَلْ لِي
مَرَأَكُ فِيهِ شِفَائِي	يَا مَنْ مَلَكَتْ فُؤَادِي
تُذِرُكَ يَتِمُّ فَنَائِي	قَدْ ذُبْتُ شَوْقاً وَإِنْ لَمْ
وَفِيهِ بَعْضُ الدَّمَاءِ ^٢	تَلَا فَمَا أَنْتَ فِيهِ
وَأَنْتَ بَدْرُ الضُّيَاءِ	كَيْفَ احْتَوَاكَ فُؤَادِي
اللَّهُ نُورُ السَّهَاءِ	لَكِنْ وَجَدْتُ نَظِيرًا

١ إنسان العين: حَذَقَ العين.

٢ الدَّمَاءُ: بَقِيَّةُ النَّفْسِ ، الْحَشَاشَةُ ، بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْمَرِيضِ ، يُقَالُ: مَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا دَمَاءٌ يَتَرَدَّدُ فِي خِيَالِ.

بِاللهِ جُذِّلِي بِوَضَلٍ
 لُقَيْكَ رُوحِي وَأُنْسِي
 مَصَائِبُ الدَّهْرِ شَتَّى
 طَرْفَاكَ هَارَوْتُ سِحْرِ
 وَوَرْدُ خَدَّيْكَ بَنَجْ
 مَنْ خَاضَ بِحَرِّ وَدَادٍ
 يَتَيْنِيهِ فِي الْأَرْضِ دَوْمًا
 حَرُّ الْغَرَامِ بِقَلْبِي
 عُدْتُ مِنْ غَيْرِ جَدْوَى
 أَمْضَيْتُ غَالِبَ عُمْرِي
 مَا الْحُبُّ إِلَّا عَذَابٌ
 وَفِي هَوَاكَ اخْتِنَاؤٌ
 وَاعْدِلْ لِمَا فِيهِ نَفْعٌ
 لَا أَخْشَى شَرَّ نَفْسِي
 يَا رَبِّ أَصْلِحْ فُؤَادِي

قَدْ طَالَ عَهْدُ التَّنَائِي
 يَا قَاتِلِي بِالْإِبَاءِ
 وَالْبَيْنُ جَهْدُ الْبَلَاءِ
 مُجْنَدِلٌ كُلُّ رَائِي
 فِي أَنْفِ كُلِّ فِدَائِي
 نَبَذْتُهُ فِي الْعَرَاءِ
 لَا يَهْتَدِي لِلنَّجَاءِ
 فِي زَمِيرِ الشَّيْءِ
 مَا لِي وَهَذَا الْعَنَاءِ
 مَا بَيْنَ حَاءٍ وَبَاءِ
 يَسْرِي كَمَسْرَى الْوَبَاءِ
 فَانشُقْ نَقِيَّ الْهَوَاءِ
 فِي الضَّرْوِ قَبْلَ انْطِفَاءِ
 تَقْوَى إِلَهٍ كَسَائِي
 وَرَضْنِي بِالْقَضَاءِ

٤ - رثاء قاسم حرز الله^١

وَحَلِيفَةُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحَاءِ	الْيَوْمَ مَاتَ خَلِيفَةُ الْأَدَبَاءِ
قَلْبَ امْرِئِ الْأَدَبَاءِ وَالْفُصَحَاءِ	مَا لِلتَّصَوُّفِ وَالزَّهَادَةِ خَالَطَا
وَبَيَّأَنَّهُ الْمَزْمَارُ لِلِإِغْوَاءِ	عَهْدِي بِأَنَّ الشُّعْرَ فَنُّ مُظْلِمٌ
خَيْرٌ مِنَ الْأَشْعَارِ لِلشُّعْرَاءِ	وَإِذَا امْتَلَأَ جَوْفُ ابْنِ آدَمَ مِنْ دَمٍ
مَوْزُونَةً بِالشَّرْعِ وَالْآرَاءِ	مَا بَالُهُ أَضْحَى عِظَاتٍ نَظَّمَتْ
وَيَكُونُ فِي الْعُقْبَى مَعَ السُّعْدَاءِ	مَنْ يَحْتَكِمُ بِالشَّرْعِ يَنْظُمُ حِكْمَةً
أَطْرَافُهُ مُسْتَجْمِعُ الْأَرْجَاءِ	مَا الشُّعْرُ إِلَّا قَالِبٌ مَوْشِيَةٌ
ثَوْبٌ قَشِيبٌ مُحْكَمُ الْإِرْفَاءِ	تُجَلَّى الْمَعَانِي فِيهِ كَالْحَسَنَاءِ فِي
فِيهِ الْمَعَانِي وَهُوَ خَيْرٌ وَعَاءِ	الشُّعْرِ مِثْلُ النَّشْرِ ظَرْفٌ أَوْدَعَتْ
وَاللَّفْظُ مِنْ مُسْتَعَذِّبٍ وَهُرَاءِ	وَمِنْ الْمَعَانِي جَوْهَرٌ وَمُزَيَّفٌ
تَزْهِي بِعَقْدِ جُمَانِهَا اللَّأْلَاءِ	لِلَّهِ كَمْ زُقَّتْ إِلَيْكَ عَرَائِسُ

١ رثاء للشيخ قاسم حرز الله ، إمام وخطيب جامع الصحابة بالميدان [المصدر الثاني]

رثاء للشيخ قاسم حرز الله رحمه الله [المصدر الرابع].

فَاعْجَبْ لِهِنَّ بَنَاتٍ فِكْرِكَ كَيْفَ لَمْ
مَنْ لِلْقَرِيضِ وَلِلتَّصَوُّفِ بَعْدَهُ
قَدْ كَانَ صَبَّاراً عَلَى عَوَزٍ وَلَمْ
قَدْ كَانَ مُحْسِناً إِلَى الْفُقَرَاءِ لَمْ
وَمُوطاً الْأَكْنَافِ حَامِلَ هِمَّةٍ
حُلُوَ الْبَدِيهَةِ ذَا جَوَابٍ حَاضِرٍ
عَذَبَ الْخِطَابِ وَلَا يَجُودُ بِحَقِّهِ
لَوْ لَمْ يَرِدْ أَنْ يُتَّقَى مِنْهَا الْخِيَا
الْمَوْتُ سَيْفٌ قَاطِعٌ لَمْ نَسْتَمِعْ
وَلَوْ اسْتَمَعْنَا كَانَ أَوَّلَ خَالِدٍ
فَعَلَيْكَ رَحْمَةُ رَبِّنَا يَا قَاسِماً

تَحْرُمُ عَلَيْكَ وَلَمْ تَقْعُ بِزِنَاءٍ
مَنْ ذَا يُصَحِّحُ شُبْهَةَ الْأَخْطَاءِ
يَعْدُ الرِّضَا فِي شِدَّةٍ وَرَخَاءٍ
يَبْخُلُ وَلَمْ يَفْخَرْ بِفَرْطِ عَطَاءٍ
طَارَتْ بِصَاحِبِهَا إِلَى الْجُوزَاءِ
وَمَسَدٌ ذَا فِطْنَةٍ وَذَكَاءٍ
إِلَّا لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ
رُجُودٌ فِي أَلْفٍ لَهُ لِفِدَاءٍ
بِخُلُودِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِي الْأَنْبَاءِ
طَهَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْأَحْيَاءِ
حِرْزَ الْإِلَهِ عَلَى ذَوِي الْإِعْيَاءِ

٥ - قدوة الصالحاء^١

وَأَنَا الْعَزِيزُ وَأَرْحَمُ الرَّحْمَاءِ	الْمَلِكُ مُلْكِي لَا يُرَدُّ قَضَائِي
عِنْدِي وَإِنِّي أَحْكَمُ الْحُكَمَاءِ	أُحْيِي وَأُفْنِي مَنْ أَشَاءُ لِحِكْمَةٍ
لَكِنْ عَظِيمٌ مَوْتُهُ الْعُلَمَاءِ	كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى الْمَمَاتِ مَصِيرُهُمْ
وَأُفْوَهُمْ كَاللَّيْلِ الظُّلَمَاءِ	فَالْعَالَمُونَ جَمِيعُهُمْ نُجُومُ الْهُدَى
كَالرُّسُلِ لَوْلَا رُبُّهُ الْإِنْحَاءِ	وَالْمُخْلِصُونَ الْعَامِلُونَ بِعِلْمِهِمْ
مَثَلُ الْكَمَالِ وَقُدُوةُ الصُّلَحَاءِ	إِنَّ الْفَقِيدَ عَلَيْهِ سُحْبُ مَرَا حِمٍ
وَمِنْ الْمُمْضِ مُصِيبَةُ الْعُظَمَاءِ	هَاضَتْ وَفَاتُكَ يَا عَظِيمُ قَوَامَنَا
كَعَلَى مَنَارَاتٍ وَفِي الْأَحْيَاءِ	لَبَّيْتَ رَبَّكَ لِلنَّدَاءِ وَقَدْ نَعَوُ
ةً مُقَدِّمًا فَكَأَنَّكَ فِي الْأَحْيَاءِ	فَخَرَجْتَ لَكِنْ فَوْقَ نَعْشِكَ لِلصَّلَا
فَاهَنَّا بِبَنِيْلِكَ رُبُّهُ الشُّهَدَاءِ	لَا شَكَّ أَنَّكَ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ تَمَّتْ
وَلِدَيْنِهِ قَدْ كُنْتَ فِي النُّصَرَاءِ	فِي اللَّهِ قَدْ جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ
تَبَخَّلْ وَلَمْ تَمْتَنَنَّ بِفَرْطِ عَطَاءِ	قَدْ كُنْتَ مُحْسِنًا إِلَى الْفُقَرَاءِ لَمْ
طَارَتْ بِصَاحِبِهَا إِلَى الْجَوَزَاءِ	وَمَوْطَأَ الْأَكْنَافِ حَامِلَ هِمَّةٍ

١ رثاء للمرحوم العلامة الشيخ علي الدقر عقب وفاته ١٩٤٢ [المصدر الثاني]

ألقيت في جامع منجك بعد قراءة ختم قرآن حين وفاته ، ٢٥ صفر ١٣٦٢ [المصدر نفسه].

اللَّهُ دَرْكَ حَازِمًا وَمُفَكِّرًا
 قَدْ كُنْتَ تُعْنَى بِالْبَنَاتِ صَيَانَةً
 اللَّهُ أَيَّامُ نَشَرْتَ بِهَا الْهُدَى
 عَزَفْتَ عَنِ الدُّنْيَا وَقَدْ زَكَّيْتَهَا
 زَهَدْتَ عَلَى وَجْدٍ فَلَمْ تَهْوِ الْغِنَى
 عَكَفْتَ عَلَى الطَّاعَاتِ مُنْذُ شَبَابِهَا
 نَشِطْتَ عَلَى حُسْنِ الْخَوَاتِمِ وَفَقْتَ
 سَكَنْتَ فُؤَادَكَ لِلْإِلَهِ مَوَدَّةً
 غَمَرْتَهُ حَتَّى لَمْ تَدْعُ فِيهِ مَحَا
 مُلِيَ التَّقَى مُلِيَ الْوَقَا مُلِيَ الصِّفَا
 قَدْ كُنْتَ تَرْتَعُ فِي رِيَاضِ مَسَاجِدِ
 قَدْ كُنْتَ تَخْشَى أَنْ تُعَدَّ مُقْصَرًا
 مَاذَا أَعْدُدُ مِنَ الْمَآثِرِ بَعْدَ مَا
 يَكْفِيكَ فَخْرًا سُنَّةٌ أَحْيَيْتَهَا
 وَدَّعْتَ أَهْلَكَ يَا عَلِيَّ الْقَدْرَ إِذْ
 قَدْ فَاقَ رَأْيُكَ سَائِرَ الْأَرَءِ
 وَوَقَايَةً وَسَعَادَةَ الْأَبْنَاءِ
 وَجَلَوْتَ صَدًّا جَهَالَةِ الْجُهْلَاءِ
 نَفْسٌ مُقَدَّسَةٌ مِنَ الْأَهْوَاءِ
 لَكِنْ تَمِيلُ لِعَيْشَةِ الْفُقَرَاءِ
 رُشْدًا فَلَمْ تَعْمَلْ لِمَجْمَعِ ثَرَاءِ
 لِلْخَيْرِ إِذْ خُطَّتْ مِنَ السُّعْدَاءِ
 فَلَكُمْ تُرْغَبُ مُخْلِصًا بِإِخَاءِ
 لَّا لِلْأَذَى وَالْغِلِّ وَالشُّحْنَاءِ
 مُلِيَ الْمَعَارِفِ دَاخِلَ الْأَحْنَاءِ
 فَارْتَعَ بِرَوْضِ الْجَنَّةِ الْعَلِيَاءِ
 فَاهْنَأُ وَجُلْ بِقُصُورِكَ الشَّمَاءِ
 وَضَحَتْ كَأَفْلَاكِ بَدَتْ بِسَمَاءِ
 فَهِيَ الشَّفِيعُ بِذَلِكَ الْإِحْيَاءِ
 أَتَمَّمْتَ كُلَّ فَضِيلَةٍ وَعَلَاءِ

١ إشارة إلى المدارس التي أنشأها: صيانة البنات ، وقاية الأبناء ، سعادة الأبناء .

وَتَرَكْتَ أَغْمَالًا تَحْمَلُ عَنْهَا
وَهُمْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَكْفَاءُ لَهَا
عَوَّدْتَهُمْ صَبْرًا عَلَى الْأَعْمَالِ فِي
أَخْلَقَ بِهَا أَنْ تَسْتَدِيمَ لَانْتِهَا
جَاءَتْكَ تَقْصِيدُكَ الْمُنُونُ وَلَيْتَهَا
لَكِنَّ مَوْتَ الصَّالِحِينَ كَغَيْرِهِ
بَلْ يُنْتَقَى مِنْهَا الْخِيَارُ وَخَيْرُهُمْ
فَرُّوا مِنَ الْفِتَنِ الْهَوَالِكِ رِدْوُهُمْ
فَكَأَنَّهُمْ حُجَّاجُ بَيْتِ اللَّهِ قَدْ
سَارُوا وَرُوحُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأَاهُمْ
وَمَضَتْ تُتَابِعُهُمْ وَلَوْ لَا أَنَّهُمْ
زَهَقَتْ وَلَكِنْ أَجَلْتُ وَلِكُلِّ ذِي
لَوْ لَا السُّلُومَاتُ كُلُّ مُقَرَّبٍ
لَوَدِدْتُ أَنْ أَرَيْتُكَ طِيلَةَ مُدَّتِي
أَرْجُو وَظَنِّي أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتِي
يَوْمَ التَّغَابُنِ إِنْ قُصِدَتْ عُرِفَتْ مِنْ
يَا يَوْمَ تَبْعُثُهُ أَغَرَّ مُحَجَّلاً

نِيَطَتْ إِلَى أَشْبَالِكَ التَّجَبَّاءِ
دُمْتُ الْخَلَائِقِ خَيْرُهُ الرُّوسَاءِ
حَزَمَ بِلَا عُجْبٍ وَدُونِ رِيَاءِ
وَكِلْتُ إِلَى أَرْبَابِهَا الْأَكْفَاءِ
اعْتَاَصْتُ وَلَوْ أَلْفًا مِنَ الْجُهَلَاءِ
حَتَمْتُ وَأَغْمَارُ الْوَرَى بِقَضَاءِ
مُعْطِي الدَّوَاءِ وَكَاشَفُ الْأَذْوَاءِ
حُسْنُ الْيَقِينِ بِأَكْرَمِ الْكُرَمَاءِ
وُقِفُوا قَصِيرَ الْوَقْتِ فِي الْمِيَنَاءِ
ظَنَنْتُ بِذَلِكَ قُدُوةَ الْفَضَلَاءِ
رُدَّتْ بِوَعْدٍ وَاجِبِ الْإِنْفَاءِ
أَجَلِ كِتَابٍ عَزَّ بِالْإِمْضَاءِ
إِنَّ السُّلُوءَ مُحْفَفُ الْأَرْزَاءِ
لَكِنْ يُقْصَرُ عَنْ عُلَاكَ رِثَائِي
سَبَبًا لِأَنَّ أَلْقَاكَ مِنْ شَفَعَائِي
بِضِ الْوُجُوهِ بِوَجْهِكَ الْوَضَاءِ
يُعْلِي لَوَاءِ الشُّنَّةِ الْغَرَاءِ

٦ - يارب

يَا رَبُّ أَنْتَ تُقِيلُنِي عَثْرَاتِي
إِنِّي لَأَرِسُفُ فِي الذُّنُوبِ مَقِيداً
إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي رَاحِماً فَمَنْ الَّذِي
وَالْعَبْدُ عَبْدُكَ جَاءَ بِابِكَ سَائِلاً
قَدْ كَانَ قَلْبِي فِي الْخَفَاءِ مُنَاجِياً
فَأَمِطْ حَوَاجِزَ زَلَّتِي مِنْ مَسْلَكِي
وَاجْعَلْ دُرُوعَ الْخَوْفِ مِنْكَ وَقَايَتِي
تَقْوَاكَ لِي حِصْنٌ حَصِينٌ حَافِظٌ
إِنَّ الْهَوَى يَهْوِي بِصَاحِبِهِ إِلَى
فَاسْتُرْ عُيُوبِي بِالتَّقَى فَلِبَاسُهُ
وَامْسَحْ عَلَى عَيْنِي بِكَفِّ عِنَايَةٍ
وَقِنِي شَرَارَ شِرَارِ خَلْقِكَ إِنَّنِي
فَإِذَا أَعِيشُ بِظِلِّ حِفْظِكَ دَائِماً
أَنْتَ الْكَرِيمُ فَلَسْتُ أَيْأَسُ حِينَما
أَحْسِنُ خِتَامِي فَهُوَ غَايَةُ مَطْلَبِي
وَاجْعَلْ سِرَاجَ الْعَالَمِينَ مُشْفَعاً
سَلِّمْ عَلَيْهِ مُصَلِّياً وَمُبَارِكاً

لَا رَبَّ غَيْرُكَ يَا سَمِيعَ دُعَائِي
أَطْلُقْ قُبُودِي وَاعْتَفِرْ أَخْطَائِي
أَرْجُو سِوَاكَ فَأَنْتَ أَنْتَ رَجَائِي
مُتَضَرِّعاً يَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءِ
وَالْيَوْمَ مِنْ بُعْدِي رَفَعْتَ نِدَائِي
كَيْ لَا أَظْلَلَ بِزُمرَةِ الْبُعْدَاءِ
مِنْ أَسْهُمِ الْأَوْزَارِ وَالْأَرْزَاءِ
وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ أَعْدَائِي
حَمّاً الذُّنُوبِ وَمُعْضِلِ الْأَدْوَاءِ
خَيْرٌ وَبِالتَّقْوَى يَتِمُّ نَقَائِي
أَرْتَدُّ مِنْهَا مُبْصِرِ الْأَضْوَاءِ
مُسْتَضْعَفٌ يَا نَاصِرَ الضُّعَفَاءِ
فَبِهِ أَعِيشُ مُنْعَماً بِصَفَاءِ
أَدْعُو وَأَرْجُو أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ
وَبِهِ أَفُوزُ بِخَفَةِ السُّعْدَاءِ
بِیْ یَوْمَ لَا وَزَرَ مِنَ اللَّأْوَاءِ
وَاجْعَلْ مَحَبَّتَهُ لَدَيْكَ دَوَائِي

حرف الباء

٧ - قضت نحبها^١

قَضَتْ نَحْبَهَا وَاللَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهَا	وَإِنِّي أَسِيفٌ كُنْتُ أَجْلِسُ جَنْبَهَا
وَلَوْ صَحَّ لِي فِي حِينِهَا لَأَقْدَيْتُهَا	بِنَفْسِي وَأَمْوَالِي وَلَمْ أَلْقَ غَيْبَهَا
إِلَى آخِرِ الْأَنْفَاسِ وَهِيَ رَضِيَّةٌ	وَذَكَرَى إِلَهَ الْخَلْقِ يَمْلَأُ قَلْبَهَا
طَلَبْنَا لَهَا طِيبَ الْحَيَاةِ وَطُوبَهَا	وَقَدْ أَعْجَلَتْ عَنَّا لِتَرْضَى رِبَّهَا
سَعَيْنَا حَثِيئًا بِالشِّفَاءِ مِنَ الضَّنَى	دَعَوْنَا وَلَكِنْ قَدْ قَضَى اللَّهُ نَحْبَهَا
وَكَمْ مِنْ طَبِيبٍ عَالَجِ الدَّاءِ مُخْلِصًا	وَلَكِنْ قِضَاءً صَارَعَ الدَّاءَ طِبَّهَا
لَقَدْ صَاحَبْتَنِي الْعُمَرَ وَهِيَ حَرِيصَةٌ	عَلَى رَاحَتِي يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَهَا
وَمَهْمَا أَتَاهَا مِنْ دَوَاعِي خُرُوجِهَا	مِنْ الدَّارِ مَا كَانَتْ تُفَارِقُ بَعْلَهَا

١ في رثاء زوجته الحاجة نوره الخطيب.

تَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ عُرُوضِ تَسْرُعٍ
كَأَمْ رُؤُومٍ فِي حَنَانٍ وَرَحْمَةٍ
فَيَا رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ كُنُونِي أَنْيَسَهَا
وَأَمْسَى فُؤَادِي بَعْدَ زَوْجِي فَارِعَاً
وَكَانَ غِذَائِي كُلَّ يَوْمٍ غِذَاءَهَا
وَكُنَّا عَلَى هَذَا بِحَقٍّ وَشَرَعَةٍ
وَلَمْ أُنْسَ ذِكْرَهَا وَإِنْ كُنْتُ رُبَّمَا
فَأُصْبَحْتُ ضَنْفًا لِلْمُؤَاسِينَ رَافَةً
أَرَى مِنْهُ أَنْ يَشْمَلُونِي بِعَظْفِهِمْ
وَصَرْتُ أَرَى الْأَنْوَارَ فِيهَا قَوَائِمًا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا فَرَقَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ
جَزَاهُمْ إِلَهِي عَنِّي الْخَيْرُ كُلَّهُمْ
وَأَسْأَلُهُ حُسْنَ الْخِتَامِ وَجَمْعَنَا
فَإِنْ مَنْ رَبِّي بِالْجَنَانِ لِحَمْعِنَا
فَتِلْكَ حَيَاةَ لَيْسَ لِلْمَوْتِ سُلْطَةٌ
حَيَاةُ بِهَا مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ دَائِمًا
وَلَيْسَ بِهَا هَمٌّ وَلَيْسَ بِهَا أَسَى

بَغَيْبَتِهَا كَانَتْ تُرَاقِبُ رَبَّهَا
وَزَوْجَ وَدُودَ وَهِيَ تُعْلِنُ حُبَّهَا
وَيَا رَوْضَةَ الْجَنَاتِ لَا زِلَّتِ قُرْبَهَا
وَقَدْ كَانَ سِرِّي فِي هَنَاءَيْنِ سِرِّهَا
وَقَدْ كَانَ شَرِي فِي صَفَاءَيْنِ شَرِّهَا
وَكُنَّا نَرَى رَغْدَ الْحَيَاةِ وَعَذْبَهَا
أَرَى بَعْضَ أَنْسٍ حِينَ أَصْحَبُ صَحْبَهَا
أَحْمَلُهُمْ عَبَاءَ الشُّوُونِ وَصَعْبَهَا
فَلَا أَشْتَهِي شَرْقَ الدِّيَارِ وَعَرْبَهَا
وَصَرْتُ أَرَى مِنْ وَحْشَةِ السَّجَنِ رَحْبَهَا
يَوْدُونُ لِي صَفْوَ الْحَيَاةِ وَطَيْبَهَا
وَأَلْبَسَهُمْ مِنْ حَلِيَّةِ الدِّينِ ثَوْبَهَا
جَمِيعًا بِدَارِ طَيْبِ اللَّهِ تُرْبَهَا
نَسِينَا أَسَى هَذِي الْحَيَاةِ وَكَرْبَهَا
عَلَيْنَا بِهَا وَالنَّفْسُ تَمْلِكُ إِزْبَهَا
خَصِيْبٌ وَلَا نَخْشَى مِنَ الْمَحَلِّ جَدْبَهَا
وَلَا حِفْدَ فِيهَا سَهْلَ اللَّهِ دَرْبَهَا

٨ - يا سالكاً درب الغواية

يا سالكاً دَرَبَ الغَوَايَةِ سادِراً
المَوْتُ ضَرغامٌ بِدَرَبِكَ رابِضٌ
عَرَّجَ على طُرُقِ الهدى فإلى مَتى
لا شَكَّ أَنَّكَ مُدْرِكٌ يا هارِباً
وَلَقَدْ خُلِقْنَا كي نَعِيشَ لِفَتْرَةٍ
مَضَتِ الدُّهُورُ وأَهْلُها وشُؤُونُهم
مِنَ عَهْدِ آدَمَ والخلائِيقُ طالِعُ
الْكُلِّ فانِ والمُهَيِّمُ قادِرُ
ليسَ المَخِيفُ بأنْ نَمُوتَ ونَتَّهِيَ
لَكِنَّا نَحْيَا ونُبْعَثُ بَعْدَها
تَبَّالِمْنَ لا يَرَعَوِي عَنْ غِيَّهِ
والفُوزُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ لِذُنُوبِهِم
إِنَّ السَّعِيدَ بِمَنْ مَضَى مِنْ صَحْبِهِ
وَجَمِيعُ سَعِيكَ في الحِياةِ مِثَالِبُ
أَهْلَهُ حُبُّ المَالِ أوْ حُبُّ الطَّبَا

في جِيدِهِ ظَفَرُ المَنِيِّ نَاشِبُ
فإذا وَصَلْتَ إِلَيْهِ فَهُوَ الوائِبُ
ذو الغيِّ عَنْ سُبُلِ الهدايةِ راعِبُ
مَلَكُ المَنُونِ لِكُلِّ حَيٍّ طالِبُ
تَمْضِي ووَهْمُ الخُلْدِ وَهْمٌ كاذِبُ
ما مِنْهُمْ أَحَدٌ بِنَجْوَى هارِبُ
نَجْمٌ إلى أَمَدٍ وَنَجْمٌ غارِبُ
وعلى أوامِرِهِ تعالى غالِبُ
أَجالُنا فَلِكُلِّ عُمَرٍ كاتِبُ
والْكُلُّ عَمَّا قَدْ جَناهُ مُحاسِبُ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْعاهُ يَوْماً نادِبُ
مِنْ قَبْلِ ما يَبْكِي عَلَيْهِمَ ناحِبُ
مُتَبَيِّهُ يَخْشَى المَغْبَةَ تائبُ
إِذا صاحَ الغُرابُ النَّاعِبُ
لِلنَّاسِ فيما يَعْشَقُونَ مَذاهِبُ

يَا مُغْرَمًا أَغْرَاهُ حُسْنُ كَوَاعِبِ
قُلْ لِي إِذَا صَفِرَتْ وَطَابَكَ يَا فَتَى
يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ فِي أَحْوَالِهِ
الْعُمُرُ أَغْلَا وَهُوَ يَمْضِي مُسْرِعًا
فَاقْنَعْ مِنَ الْأَرْزَاقِ فِيهِ يَبْلُغَةَ
لِلسَّعْيِ فِي سَبَبِ الْمَعِيشَةِ جَانِبُ
لَا تَنْسَ حَظَّكَ عِنْدَ مَوْتِكَ قُطْنَةً
الْمَرْءُ مَسْئُولٌ إِذَا سَكَنَ الثَّرَى
الْقَبْرِ إِمَّا رَوْضَةً مِنْ جَنَّةٍ
وَأَذْكُرْ وَقُوفَكَ فِي الْقِيَامَةِ خَاشِعًا
مَنْ ذَا الَّذِي يَسْعَى لِيُشْفَعَ عِنْدَهَا
لَا تَتَّقِدْ عَيْنًا بَغَيْرِكَ ظَاهِرًا
اللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْكَ وَنَاطِرٌ
وَاللَّهُ يَكْشِفُ مَا تُكِنُّ وَعَالِمٌ
وَعَدًا سَيُشْهَدُ إِنْ جَحَدْتَ جَوَارِحُ
شَهِدَتْ عَلَيْكَ بِمَا أَحَسَّتْ أَوْ رَأَتْ

وَالنَّاعِمَاتُ مِنَ الْبَنَاتِ ثَعَالِبُ
مَاذَا تُفِيدُكَ ذَاتُ حُسْنٍ كَاعِبُ
أَقْصِرْ فَإِنَّ الْمَالَ ظِلٌّ ذَاهِبُ
مَا ذَاهِبٌ مِمَّا تُضَيِّعُ آيِبُ
لَا يَشْغَلَنَّكَ مُوجِبٌ أَوْ سَالِبُ
وَلِتَلِ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ جَانِبُ
وَلِنَافَتَيْنِ وَمَا لَدَيْكَ مَكَاسِبُ
فَمُنْعَمٌ فِي قَابِ رِهٍ وَمَعَاقِبُ
أَوْ حُفْرَةٍ فِيهَا شُورَاظٌ لَاهِبُ
وَجَمِيعُ سَعْيِكَ فِي الْحَيَاةِ مَثَالِبُ
غَيْرُ الصَّلَاحِ وَكُلُّ سَعْيٍ خَائِبُ
إِنْ كَانَ أَكْثَرَ مَا عَمِلْتَ مَعَايِبُ
مَاذَا سَتَعْمَلُ وَهُوَ جَلُّ مُرَاقِبُ
مَا فِي الصُّدُورِ وَمَا عَلَيْهِ حَاجِبُ
مَا فِي شَهَادَتِهَا عَلَيْكَ شَوَائِبُ
وَاللَّهُ أَنْطَقَهَا وَأَنْتَ تَعَارِبُ

١ الشُّورَاظُ: لَهَبٌ لَا دَخَانَ فِيهِ ، وَيُطَلَّقُ عَلَى حَرِّ النَّارِ .

فَهُنَاكَ تَبْكِي حَسْرَةً وَنَدَامَةً
مَاذَا يُفِيدُكَ إِنْ رَحَلْتَ نَوَائِحَ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ فِي حَيَاتِكَ صَالِحاً
وَاحْشِ إِلَـهَ بِكُلِّ حَالٍ مُخْلِصاً
مَا شَمْسُ يَوْمٍ أَشْرَقَتْ إِلَّا اخْتَفَتْ
لَا تَغَرَّرْ بِصَفَاءِ عَيْشِكَ فَارِهاً
فَعَدَا يُقَلِّبُكَ الْمَغْسَلُ هَامِداً
إِذْ لَيْسَ يَخْوِيكَ الْأَقَارِبُ كُلُّهُمْ
قَدْ كُنْتَ فِي هَذِي الْحَيَاةِ مُنْعَمًا
لَا حَيٍّ يَبْقَى نَاعِماً أَوْ لَاغِبًا
النَّاسُ فِي الدُّنْيَا نِيَامٌ صَحْوُهُمْ
يَا غَافِلًا وَالْمَوْتُ يَسْعَى نَحْوَهُ
يَا رَبُّ وَفَّقْنَا لِأَخْلَاصِ تَوْبَةٍ
وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِالْقَبُولِ تَكَرُّماً
نَرْجُوكَ يَا رَبَّاهُ أَحْسَنَ خَتْمَنَا
فَارْحَمْ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِيكَ فَكُنَّا

عَبَثاً وَلَوْ أَنَّ الْجَفُونَ سَحَائِبُ
يَنْعَقْنَ حَوْلَكَ وَالْدُمُوعُ سَوَاكِبُ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ لِلنَّفُوسِ تُحَارِبُ
خَوْفُ الْإِلَـهِ لِكُلِّ خَيْرٍ جَالِبُ
وَكَذَاكَ يُخْفِي النِّجْمُ حَتَّى الثَّاقِبُ^١
وَسِوَاكَ مَحْرُومٌ وَضِيعٌ سَاغِبُ^٢
مَاءُ الْحَيَاةِ مِنَ الْجَوَارِحِ نَاضِبُ
كَلَّا وَلَا يُؤْوِيكَ خِلٌّ صَاحِبُ
وَالْكُلُّ أَضْغَاثٌ وَحِلْمٌ خَائِبُ
سَهْمُ الْمَنَايَا لِلْبَرَايَا صَائِبُ
عِنْدَ الْمَمَاتِ فَرَاغِبُ أَوْ رَاهِبُ
قُمْ وَأَنْتَبِهْ إِنَّ الْعَذَابَ لَوَاصِبُ^٣
إِنَّ الْمَتَابَ عَلَى الْعُصَاةِ لَوَاجِبُ
فَجَمِيعُ عَفْوِكَ لِلْمُشْرِدِ جَاذِبُ
إِنْ شِئْتَ تَرْحَمْ أَوْ تَشَاءْ تُعَاقِبُ
يَرْجُو النِّجَاةَ وَفِي رِضَائِكَ يَرْغَبُ

١ النجم الثاقب: المرتفع على النجوم.

٢ السَّاعِبُ: الجائع.

٣ واصلب: ثابت ودائم.

٩ - ذَرِينِي غَادَتِي

ذَرِينِي غَادَتِي عَمَّ الْمَشِيبُ	وَشَمْعَةُ مُدَّتِي كَادَتْ تَذُوبُ
أَعِيبُ سِوَايَ إِنْ شَاهَدْتُ عِيَا	وَأَنْسَى أَنْنِي كُلِّي عُيُوبُ
وَأَعِيْهَا إِذَا اسْتَعْتَبْتُ يَوْمًا	فَفِي تَالِيهِ تَتَقَلَّبُنِي الذُّنُوبُ ١
مَتَى مَوْلَايَ تَتَخَنِي مَتَابَا	لَعَلِّي قَبْلَ تَرْحَالِي أَتُوبُ
فَعُمْرِي نَاهَزَ التَّسْعِينَ عَامًا	وَحَتَمُ الْعُمُرِ أَخْفَتُهُ الْغُيُوبُ
وَمَا دَامَتْ تَهْدُنَا الْمَنَايَا	فَلِإِنَّ الْعَيْشَ مِنَّا لَا يَطِيبُ
إِذَا عَضَّ الْمَنُونُ عَلَى خِنَاقٍ	فَلَا يُنْقِذُكَ أَهْلٌ أَوْ حَبِيبُ
فَلَا تَطْمَعُ بِطُولِ الْعُمُرِ جَهْلًا	فَإِنَّ الشَّمْسَ أَنَّهَا الْغُرُوبُ
إِذَا مَا كُنْتَ تَجْهَلُ وَقْتَ مَوْتٍ	فَظَنُّكَ لِلْبَقَا شَيْءٌ عَجِيبُ
لَكَ الْأَصْحَابُ فِي الدُّنْيَا وَلَكِنْ	يَوْمَ الْحِشْرِ أَنْتَ إِذَا غَرِيبُ
فَلَا يُطْمَعُكَ طَوْلُ الْعَيْشِ وَاعْمَلْ	لِنَفْسِكَ إِنَّمَا الْآتِي قَرِيبُ
وَمَنْ يَأْخُذُ بِحَزْمٍ ثُمَّ عَزَمَ	فَذَاكَ أَمَانَةَ اللَّهِ الْأَرِيبُ

١ استعتب: استرضى وأرضى.

وَلَذِ بِاللهِ إِن تَشْعُرْ بِضَعْفٍ
إِذَا صَفَرَ الْوِطَابُ فَلَا بُكَاءَ
أَدَمَ ذِكْرَى الْمَمَاتِ تَعِشْ سَعِيداً
وَلَيْسَ الْمُسْتَبَدُّ بِهَا لَبِيئاً
سَأَلْتُ اللهَ يَنْفَعْنِي بِنُصْحِي
إِلَى هَادِي الْبَرِّيَّةِ صَلِّ إِلَهِي
بَنَيْتُ قَصِيدَتِي عَشْرِينَ بَيْتاً
إِذَا مَرَضَ الْفُؤَادُ مِنَ الْمَعَاصِي

فَإِنَّ إِلَهَكَ الْمَوْلَى يُجِيبُ
مِنَ الْأَحْبَابِ يَنْفَعُ أَوْ نَحِيبُ^١
وَعَيْشُ الْغَافِلِينَ هُوَ الْكَئِيبُ
وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ اللَّيْبُ
وَحَاشَا سَائِلَ الْمَوْلَى يَحِيبُ
صَلَاتِي مَعَ سَلَامٍ لَا يَغِيبُ
وَمَا إِنْ مَسَّنِي فِيهَا لُغُوبُ
فَذِكْرُ اللهِ نَعَمَ هُوَ الطَّيِّبُ

١ صَفَرَ الْوِطَابُ: خلا، يُقَالُ: صَفَرَ الْبَيْتَ: صَارَ فَارِغاً، وَالْوِطَابُ: جَمْعُ وَطْبٍ: سِقَاءُ اللَّبَنِ،
وَيُقَالُ: صَفَرَتْ وَطَابَهُ وَصَفَرَ إِنَاؤُهُ: إِذَا هَلَكَ وَمَاتَ.

١٠ - أرادوا غلابَ الشيخ^١

أرادُوا غِلابَ الشَّيْخِ والشَّيْخُ غَالِبٌ
لَهُ فِي سَبِيلِ الرِّبِّ أَيْدٍ وَضِيئَةٌ
وَإِنَّ لَهُ فِي خِدْمَةِ الْخَلْقِ جَانِباً
إِذَا مَا رَأَى الْمَعْرُوفَ أَيْدٍ رَاضِياً
حَرِيصٌ عَلَى فَهْمِ الْحَقَائِقِ دَائِماً
سَوْوَلُ عَقُولٍ يَنْهَلُ الْعِلْمَ صَافِياً
إِذَا مَا تَبَدَّتْ بِنْتُ فِكْرٍ وَسِيمَةٍ
وَإِنْ مَا دَعَاهُ لِلْبَطَالَةِ فَارِغٌ
وَأَشْرَبَ مِنْ حُبِّ الْمَعَالِي فُؤَادُهُ
هُمَامٌ رَعَاهُ اللَّهُ مِنْ بَدْءِ نَشْئِهِ
سَرِيٌّ وَلِيٌّ حَازِقٌ ذُو فَرَاسَةٍ
لَقَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ قَوْلًا وَمَنْهَجًا
وَأَسْرَتُهُ كَانُوا بِفَضْلِ اعْتِنَائِهِ
هُوَ الْبَذَرُ فِيهِمْ نُورُهُمْ مِنْ ضِيَائِهِ
عُنَاصِرُ خَيْرٍ مُتَّقُونَ فَكُلُّهُمْ
مَحَاسِنُهُمْ قَدْ لَا تُعَدُّ كَثِيرَةً
وَلَمْ تَلَقْ إِنْسَانًا مِنَ النَّقْدِ خَالِصاً

عَلَيْهِ سِمَاتُ الْمَجْدِ قَلْبٌ وَقَالِبُ
وَمَقُولُهُ بِالذِّكْرِ رَطْبٌ وَدَائِبُ
وَإِنَّ لَهُ لِلنُّسْكِ وَالذِّكْرِ جَانِبُ
وَإِنْ كَانَ نُكْرٌ فَهُوَ نَاهٍ وَغَاضِبُ
وَيَحْجُبُهُ عَنْ مَنْطِقِ الْجَهْلِ حَاجِبُ
وَيَخْفِضُ جُنْحَ الدُّلِّ إِنْ لَاحَ طَالِبُ
يُقَلِّدُهَا عِقْدَ الثَّنَا وَهُوَ خَاطِبُ
يَقُولُ لَهُ إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاغِبُ
فَفِي قَلْبِهِ لِلْفَضْلِ وَالْخَيْرِ جَاذِبُ
وَالرِّبِّ وَالتَّقْوَى تَكُونُ الْعَوَاقِبُ
ذَكِيٌّ وَحَاشَا تَزْدَهِيهِ الشَّعَالِبُ
وَكَمْ لِلَّذِي يَنْلُو الْكِتَابَ مَكَاسِبُ
ذَوِي عِصْمَةٍ مَا فِيهِمْ قَطُّ رَائِبُ
كَأَنَّ بَيْنَهُ مِنْ سَنَاهُ كَوَاكِبُ
بِأَحْوَالِهِ رَبَّ الْعِبَادِ يُرَاقِبُ
كَفَاهُمْ كَمَالاً أَنْ تُعَدَّ الْمَثَالِبُ
لِكُلِّ أَمْرٍ بَعْضٌ مِنَ النَّاسِ عَائِبُ

١ كتبها في مدح الشيخ غالب الحرش ، وهو تاجر ميداني معروف ، وكان نائباً للشيخ في جمعيته لبناء المساجد.

١١ - أيا حسناً

أَيَا حَسَنًا قَدْ حُزْتَ لِلْحُسْنِ كُلِّهِ	فَعِلْمًا وَإِخْلَاصًا تَزِيدُ وَتَطْلُبُ
بِكُمْ نَالَتْ الْمِيدَانُ كُلَّ فَضِيلَةٍ	وَأَنْتُمْ لَهَا نِعَمَ الْإِمَامِ الْمُرْتَبُ
فَأَنْتُمْ لَهَا كَالشَّمْسِ تَنْفَعُ قَابِلًا	وَتَحْرِقُ إِنْسَانًا عَنِ الْحَقِّ يَعْزُبُ
جَلَسْتَ بِهَا وَسَطًا لِتَعْدِلَ بَيْنَهَا	وَقُمْتَ بِهَا ضِيَّ الْعِزِّ فِيهَا تُهْدَبُ
نَشَرْتَ بِهَا عِلْمًا مُفِيدًا إِلَى الْمَلَا	قَمَعْتَ بِهَا جَهْلًا فَأَنْتَ الْمُؤَدَّبُ
بَثَّتَ بِهَا أَنْبَاءَ بَرَاءٍ مِنَ الشَّقَا	وَحَقَّقْتَ مَنْ فِيهَا بِهَذَا فَأَطْنَبُوا
رَكِبْتَ عَلَى الْخَيْلِ الْجَيَادِ وَشَاهِرًا	لِسَيْفِ الثَّقَى تَدْعُو الْبِرَازَ وَتَنْدُبُ
وَعَذَيْتَ فِيهَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَاهْدَى	وَمَا زِلْتَ لِلْجَهْلِ الظُّلُومِ تُعَذِّبُ
عَلِمْتُ بِأَنَّ السَّيْفَ يَخْلُو مُجَرَّدًا	فَبَادَرْتُ فِي تَجْرِيدِ الْأَسْمِ أَخَاطِبُ
أَيَا حَسَنُ اسْمُخْ فِي مَقَالِي مُذَكَّرًا	عَلَى مَا فَعَلْتَ اثْبُتْ فَحَاشَا تُعَاقِبُ

١٢ - أَسْمُوهُ بِالْإِلْهَامِ طِفْلاً صَالِحاً

الشَّمْسُ تَغْرُبُ وَالْكَوَاكِبُ تَغْرُبُ
 يَا مَوْتُ إِنْ غَيَّبْتَ عَنَّا شَخْصَهُ
 أَدَى أَمَانَتَهُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ
 رَبَّى بَيْنَهُ عَلَى الْمَعَارِفِ وَالتَّقَى
 عِلْمُ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَاهْدَى
 أَسْمُوهُ بِالْإِلْهَامِ طِفْلاً صَالِحاً
 دَعَا الصَّالِحِ بِدُونِ بُرْهَانٍ لَهَا
 لَمْ يَثْرُكِ التَّذْرِيسَ طُولَ زَمَانِهِ
 أَنهى الْحَيَاةَ وَمَا انْتَهَى تَعْلِيمُهُ
 الْفَتْحُ مِنْ تَأْسِيسِهِ وَالنُّصْحُ فِي
 فَادْكُرُهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنَصَّةِ وَاعْظاً
 وَادْكُرُهُ فِي مِحْرَابِهِ مُتَنَسِّكاً
 يَطْوِي عَلَى حُبِّ التَّنَاصُحِ قَلْبَهُ
 وَإِذَا تَجَلَّى الثُّورُ عَنْ شَمْسِ الضُّحَى
 لَا ضَيْرَ لَا تَثْرِيبَ نَخَشَى إِنَّنَا
 فِي كُلِّ عَصْرٍ لَا تَزَالُ جَمَاعَةٌ

وَشَمُوسُ فَضْلٍ فَتَقِينَا لَا تَغْرُبُ
 فَسَنَا هُدَى الْإِرْشَادِ لَيْسَ يُغَيَّبُ
 وَنَتَائِجُ الْإِخْلَاصِ حَاشَا تُسَلَّبُ
 وَالْعِلْمُ أَغْلَى مَا يُنَالُ وَيُوَهَّبُ
 أَصْفَى مِنَ الْمَاءِ الزَّلَالِ وَأَعْدَبُ
 وَاللَّهُ حَقَّقَ مَا يُرِيدُ وَيَكْتُبُ
 مِنَ الْاسْتِقَامَةِ ذَاكَ بَرَقَ خُلْبُ
 فَالْعِلْمُ وَالتَّعْلِيمُ ذَاكَ الْمَطْلَبُ
 فَإِلَيْهِ أَعْمَالُ الْخَلَائِفِ تُنْسَبُ
 تَوَجِّهِهِ فَيَمَّا يَقُولُ وَيَكْتُبُ
 وَادْكُرُهُ وَهُوَ عَلَى الْمَنَابِرِ يَخْطُبُ
 وَإِلَى الْكَرِيمِ مَعَ الْعِبَادَةِ يَرْغَبُ
 وَمَجَالِسُ الذِّكْرِ إِلَيْهِ تُجَبُّ
 فِي جَبْهَةِ الْحَقِّ اسْتِنَارَ الْغَيْهَبُ
 نَدْرِي بِأَنَّ الْحَقَّ دَوْماً يَغْلِبُ
 أَنْصَارُهُ وَالْمُضْطَفَى لَا يُكَذَّبُ

١ في رثاء العلامة الشيخ صالح الفوزان رحمه الله تعالى.

وَهُمُ الدُّعَاءُ إِلَى الْهُدَى وَإِلَى التَّقَى	فَاللَّهُ يُرْضَى وَالْمُنَافِقُ يَغْضَبُ
اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَضْطَفِي	وَقُلُوبُنَا بِيَدِ الْقَضَاءِ تُقَلَّبُ
وَالْحُكْمُ لِلْمَوْلَى وَكُلُّ مُكَوَّنٍ	عَنْ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ لَا يَعْزُبُ
يَا رَبِّ أَوْرِدْنَا الْهَدَايَةَ صَرْفَةً	تَحْيَا النُّفُوسُ بِهَا وَنَعْمَ الْمَشْرَبُ
وَاجْبِرْ مُصِيبَتَنَا وَأَصْلِحْ حَالَنَا	وَارْحَمْ وَنَعْمَ مَنْ نُحِلُّ وَنَنْدُبُ
وَأَمْنُنْ وَعَوِّضْنَا وَصَبِّرْ آلَهُ	فَبَصِّرْنَا وَرِضَانِنَا نَتَقَرَّبُ

١٣ - تخميس سعدت بك الأكوان

الْفِكْرُ فِي طَهَ يَزِيدُ مَحْزِنًا	مَا دَامَ فِي أَوْصَافِهِ مُتَفَكِّرًا
أَمَّا اللِّسَانُ فَقَوْلُهُ مُتَفَاخِرًا	سَعِدْتَ بِكَ الْأَكْوَانُ يَا خَيْرَ الْوَرَى
وَلَدَائِهَا قَدْ جِئْتَ نِعَمَ طَيْبُ	

مِنْ نُورِكَ الشَّمْسُ الْمُضِيئَةُ أَسْفَرَتْ	وَلَأَجْلِكَ الْجَنَّاتُ طَهَ زُيْنَتْ
كُلُّ الْمَحَاسِنِ سَيِّدِي مَهْمَا رَبَّتْ	هِيَ عَنْكَ فَرَعٌ مِنْ شَذَاكَ تَطْيَيْتْ
وَكَذَا الْفُرُوعُ بِأَصْلِهِنَّ تَطْيِبُ	

قَادَ الْهَوَى وَاسْتَحْكَمَتْ بِي شَهْوَةٌ	يَا هَلْ تُرَى تُهْدَى إِلَى شِفَاعَةٍ
يَا مُصْطَفَى مَالِي سِوَاكَ وَسِيلَةٌ	أَنْتَ الْوُجُودُ وَكُنَّا لَكَ نُسخَةٌ
نُسِخَتْ عَلَى مَرَاكَ يَا مَحْبُوبُ	

ارْحَمْ ضَعِيفاً جَاءَ يُبْدِي ذُلَّهُ يَشْكُو الَّذِي قَدْ سَامَهُ فَأَكَلَهُ
يا غَايَةَ الْأَمَالِ فَضْلاً كُنْ لَهُ فحَلَا حُبُّكَ حِينَ حُبُّكَ حَلَهُ
وَجَمِيعُ مَا هُوَ لِلْحَيِّبِ حَيْبُ

١٤ - لا يبتغي المدح^١

مَنْ لِي بِمِثْلِ كَرِيمٍ مَاجِدِ الْحَسَبِ عَطَاؤُهُ الثَّرُّ لَا يَحْتَاجُ لِلطَّلَبِ
فِعْلُ الْمَبْرَاتِ وَالْإِحْسَانُ دَيْدْنُهُ وَقَدْ تَحَلَّى بِحُسْنِ الذَّوْقِ وَالْأَدَبِ
لَا يَثْرُكَ الْخَيْرُ إِذْ يَرْجُو جَوَازِيَهُ سَمِيرُهُ نَاطِقُ الْأَخْبَارِ فِي الْكُتُبِ
يَنْوِي بِمَعْرُوفِهِ مَرْضَاةَ خَالِقِهِ وَلَيْسَ يَنْوِي اشْتِهَاراً فِي ذُرَى الرُّتَبِ
لَا يَبْتَغِي الْمَدْحَ وَالْإِطْرَاءَ مُفْتَخِراً عَلَى الْخَلَائِقِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
لَكِنَّ مَوْلَاهُ حَاشَا أَنْ يَضِيعَهُ فَكَانَ بَرّاً نَجِيّاً نُخْبَةً النُّخَبِ
يُنَاصِرُ الدِّينَ فِي تَعْلِيمِ شَرَعَتِهِ إِحْيَاءُ سُنَّةِ طَهٍ أَعْظَمُ الْقُرَبِ
يَا رَائِدَ الْحَقِّ بِالْإِحْسَانِ تَبَذَّلُهُ وَقَاكُمُ اللَّهُ شَرَّ الْخَبِّ وَالرَّيْبِ
يَا صَاحِبَ الْهِمَّةِ الْقَعْسَاءِ لَا بَرَحَتْ عَنَايَةُ اللَّهِ تُنَجِّيْكُمْ مِنَ الْكُرْبِ
عَلَيْكَ أَزْكَى سَلَامٍ خَالِصٍ عَطِيرٍ مِنْ صَادِقِ الْحُبِّ لَا مُطَرٍّ وَمُتَّهَبِ
لَكِنَّهُ يَرْتَجِي مِنْ مُحْلِصٍ وَرِعٍ دُعَاءَ غَيْبٍ وَهَذَا غَايَةُ الْأَرَبِ

١ كتبت ضمن كتاب للشيخ جمعة الماجد [المصدر الثالث].

١٥ - أفنيت شرح شبابي

أَفْنَيْتُ شَرْخَ شَبَابِي	جَمَعْتُهُ بِالتَّصَابِي
أَبْصَامُ عُمْرِي سِرَاعٍ	مَمَرُ مَرِّ السَّحَابِ
مَضَّيْتُهَا فِي عَذَابٍ	أَخَافُ سُوءَ الْعَذَابِ
قَدْ بَرَّحَ الْوَجْدُ قَلْبِي	أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مَا بِي
أَبْوَابُهُ كَالْيَدِي	دَخَلْتُ مِنْ كُلِّ بَابٍ
أَضَاعَ لِي مَلَكَاتِي	فَكُنْتُ مِثْلَ السَّرَابِ
عَيْنَايَ نَعْمَةً رَبِّي	كَانَا ابْتِدَاءَ مُصَابِي
أَرْجُو عَنَابَةَ رَبِّي	تَكُونُ قَبْلَ انْقِلَابِي
لَيْتَنِي أَكُونُ بَعِيداً	وَمَسْكَنِي فِي الرُّوَابِ
أَعِيشُ عُمْرِي وَحِيداً	وَذَا دُعَاءٍ مُجَابِ
لَا أَلْتَقِي بِالْغَوَايِ	فَهَنَّ سُوءُ شَبَابِي
فَضَحْتُ سِرِّي بِشِعْرِي	لَمَّا نَفَضْتُ جِرَابِي
لَكِنَّنِي بُخْتُ فِيهِ	لَأَرْعَوِي بِالْعِتَابِ
أَفْرَغْتُ صَدْرًا مَلِيئاً	مَقَرَّ حَاساً بِالتَّبَابِ
لَوْ مِتُّ مِنْ قَبْلِ هَذَا	وَمَسْكَنِي فِي الرُّثَابِ
لَمَّا مَلَأْتُ كِتَابِي	مِنْ مُوجِبَاتِ الْعِقَابِ

مَاذَا يَكُونُ جَوَابِي ؟
 أَرَجُوكَ يَسَّرُ حِسَابِي
 مِنْ قَبْلِ نَعْيِ الْغُرَابِ
 لَا أُسْرِقِي وَصْفَ حَابِي
 بِحَرْبٍ وَأَوْغِيَابِي
 وَأَمْنُنْ بِنُصْحِ الْمَتَابِ
 قَدْ جَاءَنَا بِالْكِتَابِ
 وَاللَّهِ وَالصَّحَابِ

إِذَا سُئِلْتُ بِحَشَرٍ
 يَا رَبِّ أَنْتَ إِلَهِي
 أَرَجُوكَ رَدًّا جَمِيلًا
 أَنْتَ الَّذِي أَرْجِيهِ
 عَجَزْتُ عَنْ حَرْبِ نَفْسِي
 فَزَكَّهَا يَا إِلَهِي
 بِحَقِّ خَيْرِ رَسُولٍ
 عَلَيْهِ أَزْكَى صَلَاةٍ

١٦ - فلا تخفى الحقيقة^١

وَجَدَدْتُ الْقَدِيمَ مِنَ الثِّيَابِ
 وَأَكْثَرْتُ التَّغْذِيَّ بِاللُّبَابِ
 وَأَثَرْتُ الْعَصِيرَ مِنَ الشَّرَابِ
 وَأَلْتَهُمُ الشَّوَاءَ مِنَ الْكِبَابِ
 وَصَرْتُ أَعَزُّ خَصْمِي فِي الْخِطَابِ
 لَعَلِّي أَنْ أَعُودَ إِلَى شَبَابِي
 وَزَوَّرْتُ الْهُيُوءَةَ بِالْخِلَابِ

أَكَلْتُ هَرِيصَةً وَشَرَبْتُ شَهْدًا
 لَعِبْتُ رِيَاضَةً وَصَبَعْتُ شَيْبِي
 وَأَقْوَى الْفَيْتَمِينَ بَلَعْتُ حَبًّا
 وَأَكْرَعُ حَبَّةَ الشُّونِيزِ زَيْتًا
 وَصَرْتُ أَعْدُو سِيرِي فِي اعْتِدَالِ
 وَأَلْقَيْتُ الْعَصَا وَمَشَيْتُ تَوًّا
 تَجَاهَلْتُ الْقَدِيمَ مِنَ الْقَضَايَا

١ عن عهد الشباب [المصدر الرابع].

فَوَا أَسْفِي لَقَدْ فَشِلْتُ جُهودِي
وعَادَ الشَّيْبُ يَظْهَرُ بَعْدَ حِينٍ
وَأَذْرَكَ مَنْ يُكَلِّمُنِي بِأَنِّي
فَصَرْتُ أَجِيبُهُ مِنْ غَيْرِ فَهَمٍ
وَتَحْتَلِطُ الْخُطُوطُ عَلَيَّ جِدًّا
وَأَظْلَمَتِ الْعُيُونُ وَكُنْتُ قَبْلًا
وَكَفَّيْ إِنْ حَمَلْتُ أَدَاةَ شَرِّ
وَخَارَتْ قُوَّتِي مِنْ بَعْدِ عَزَمٍ
وَكَانَتْ هِمَّتِي عَلَيَّاءَ فِيهَا
وَكَانَ الدِّهْنُ يَحْكِي الشَّمْسُ نُورًا
فَأُطْفَأَ نُورُهُ سَهْرَ اللَّيَالِي
وَكَانَتْ لَا تُهَيِّجُنِي رُعُودٌ
وهَـذِي سَاعَةٌ الْإِشْرَاقِ وَلَّتْ
وَتُوبُ الزُّورِ شَفَافٌ رَقِيقٌ
فَلَا تَخْفَى الْحَقِيقَةُ وَهِيَ نُورٌ
وَمَا كَانَ الصَّبَا مِنْ بَعْدِ شَيْبٍ
وَمَنْ قَدْ كَانَ عُنْصَرُهُ تُرَابًا
وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ إِلَى فَنَاءٍ
وَلَكِنَّ الْمُهَيْمَ إِذَا نُشِرْنَا

وبَاءَ جَمِيعُ سَمْعِي فِي تَبَابٍ
كَأَنِّي مَا اسْتَفَدْتُ مِنَ الْخِضَابِ
تَقِيلُ السَّمْعِ مِنْ بَيْنِ الصُّحَابِ
وَلَا أَذْرِي الْخَطَاءَ مِنَ الصَّوَابِ
إِذَا مَا جِئْتُ أَقْرَأُ فِي الْكِتَابِ
أَكَادُ أَشِيمٍ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
وَصَحْنُ الْأَكْلِ تَرَعَشُ فِي اضْطِرَابِ
هُوَائِي بِهِ بَتْلَيْنِ الصَّعَابِ
أَكُونُ مُنَاطِحًا هَامَ السَّحَابِ
وَيَأْتِي النَّاسُ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ
وَشُغْلُ الْبَالِ بِأَلْهَمِ الْمُهَابِ
فَصَرْتُ أَهْيَجُ مِنْ صَوْتِ الذُّبَابِ
وَدَامَ الْكَرْبُ مِنْ نَعْبِ الْغُرَابِ
وَنُورُ الْحَقِّ يَظْهَرُ كَالشَّهَابِ
وَلَا يَأْتِي الشَّابُّ بِالْاِكْتِسَابِ
يَعُودُ إِلَى الْمَشَايخِ بِالتَّصَابِ
خَلِيقٌ أَنْ يَعُودَ إِلَى التُّرَابِ
وَكُلُّ الْعَامِرَاتِ إِلَى خَرَابِ
وَأَحْضَرْنَا جَمِيعًا لِلْحِسَابِ

وَقَدْ عُرِضَتْ مَسَاعِينَا عَلَيْنَا
تَخَلَّصْنَا بِعَفْوِ اللَّهِ عَنَّا
فَتِلْكَ هِيَ السَّعَادَةُ لَا سِوَاهَا
وَأَنَّ مَنَاسِكَهَا سَهْلٌ وَلَكِنْ
وَصَرَفُ النَّفْسِ قَسْرًا عَنْ هَوَاهَا
وَإِقْبَالُ عَلَى الطَّاعَاتِ دَوْمًا
وَمَنْ يُزْشِدْ إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَمَنْ يُحْرِمَ مِنَ التَّوْفِيقِ حَاشَا
لِكُلِّ شَرَّةٍ لِلْخَيْرِ لَكِنْ
فَثَبَّتَنِي عَلَى تَقْوَاكَ عُمْرِي
عَرَفْتُ بِأَنَّ فِي الْأُخْرَى سُؤَالَ
وَمَالِي حُجَّةٌ بَلْ لَيْسَ عُذْرٌ
وَلَكِنْ اعْتِرَافِي وَأَنْكِسَارِي
وَحُسْنُ الظَّنِّ بِالْمَوْلَى كَفَيْلٌ
إِذَا حَسُنَ الْخِتَامُ وَنَلْتُ عَفْوًا
إِلَهِي أَرْجِي التَّوْفِيقَ حَتَّى
وَكُلُّ سَعَادَتِي بِرِضَاكَ عَنِّي

لَنَذْكُرْهَا وَكُلُّ فِي كِتَابٍ
لِنَنْجُو بَعْدَ مَنْ سُوءِ الْعَذَابِ
هِيَ الْمُقْصُودُ مِنْ حُسْنِ الْمَآبِ
مَلَائِكُ نَوَاهِلَهَا صِدْقُ الْمَتَابِ
وَمَا يَدْعُو إِلَى إِثْمٍ وَعَابِ
بِقَصْدِ رِضَا الْمُهَيِّمِينَ وَالثَّوَابِ
سَيَخْلُصُ فِي الْمَعَادِ مِنَ الْعِقَابِ
تَقْوَمُهُ بِوَعْظٍ أَوْ عِتَابِ
كَثِيرٌ مَنْ يَعُودُ إِلَى انْقِلَابِ
فَإِنَّ إِلَيْكَ يَا رَبِّي مَآبِي
وَلَكِنْ مَا عَرَفْتُ لَهُ جَوَابِي
وَلَا أَرْجُو خَلَاصِي بِالْغِيَابِ
سَيَمْحُو الذَّنْبَ مِنْ غَيْرِ ارْتِيَابِ
بِتَخَصُّلِ النِّهَارِ وَالزَّرَافِي
فَلَا آسَى عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ
أَحَبَّ لِقَاكَ إِنْ صَفَرْتَ وَطَابِي
فَفِيهِ أَعِيشُ مِنْ غَيْرِ اكْتِيَابِ

١٧ - خل ذكرى الأحاب

خَلَّ ذِكْرِي الْأَحْبَابِ فِي الْأَلْبَابِ
يَا خَلِيًّا لَوْ دُفَّتْ حُلُومُ مَذَاقِي
أَنَا فِي يَقْظَتِي أَفْكَرُ فِيهِمْ
أَكْلَفُ الْغَمَضِ صَائِدًا وَهُوَ كُرَّةُ
نَوْمِ أَهْلِ الْهَوَى حَبَائِلُ صَيْدِ
إِنَّ مَنْ كَحَلِ الْعُيُونِ بِنَوْمِ
يَكْذَحُ الْعَامِلُونَ مِنْ أَهْلِ عَيْشِ
هُمْهُمْ لَذَّةُ الْجُسُومِ وَلَكِنْ
لَذَّةُ الرُّوحِ لَذَّةُ الْخُلْدِ فِيهَا
إِنَّمَا الْمَرْءُ رُوحُهُ وَهِيَ تَبْقَى
فَافْهَمِ الْحَقَّ جَيِّدًا قَبْلَ لَوْمِي
وَتَعَرَّفْ عَلَى الْمَحَبَّةِ مِنِّي
أَنْتَ تَقْضِي الْأَحْكَامَ قَبْلَ التَّرْوِي
كُلُّ حُكْمٍ قَبْلَ التَّصَوُّرِ رَدٌّ
إِنَّمَا الْحُبُّ رُوحٌ رُوحِي وَقَلْبِي
فَتَحَاشَا الْمَلَامَ وَاسْلُكْ سَبِيلًا
وَتَذَوِّقْ شَهْدَ الْغَرَامِ لَذِيذًا
لَا تَدْعُهُ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً
لَوْ تُصَاحِبْ أَهْلَ الْهَوَى كُنْتَ مِنْهُمْ

لَا تُعْكَرْ صَفْوُ الْهَوَى بِالْعِتَابِ
لَا سَتَهَتْ الَّذِي تَرَى مِنْ عَذَابِي
وَأُنَاجِي خَيَالَهُمْ فِي شَرَايِ
وَأُرِيدُ الْوَصُولَ مِنْ أَيِّ بَابِ
يَرْصُدُونَ الْأَطْيَافَ لِلْأَحْبَابِ
وَهُوَ يَهْوَى فَقَدْ أَتَى بِالْعُجَابِ
وَعَلَيْهِمْ يَهْوُنُ حَمْلُ الصَّعَابِ
كُلُّ جِسْمٍ مَالُهُ لِلتُّرَابِ
وَسِوَاهَا كَخُلْصٍ فِي سَحَابِ
حِينَ تَنْضَوُ الْأَجْسَادُ نَضَوَ الثِّيَابِ
يَا عَذُولِي وَاحْكُمِ بِحُكْمِ الصَّوَابِ
لَا تُطَبِّقْ عَلَيَّ حُكْمَ الْغِيَابِ
فِي جِجَالِ الشُّكُوكِ وَالْإِزْتِيَابِ
لَيْسَ لَحْمُ الْقَطَا كُلُّهُمُ الْغُرَابِ
لَيْسَ مَضْغُ الْقَشُورِ مِثْلُ اللَّبَابِ
بِمَشْيِي سَلَكَتُهُ وَشَبَابِي
لَا تَقُلْ إِنَّهُ رَجِيْعُ الدُّبَابِ
مَا دَوَاءُ الْعَذَابِ غَيْرُ الْعَذَابِ
لَسْتُ تَنْجُو مِنْ حُكْمِ عَدُوِّ الصَّحَابِ

١٨ - كيف نعصي الإله ؟

يَرْحَمُ اللَّهُ صَاحِبَ الْقصرِ هَذَا
إِنَّ رَبَّ الْمُنُونِ حَقٌّ وَلَكِنْ
إِنَّ سَعْيَ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ تَقْوَى
خَسِرَ الْعَامِلُونَ مِنْ غَيْرِ أَجْرٍ
مَا عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ قَدْ أَعْدُوا
قَدْ أَضَاعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي هُمُومٍ
إِنَّ أَيَّامَ عُمرِنَا رَأْسُ مَالٍ
هَذِهِ الْأَجَالُ تَمْشِي سَرِيعاً
هِيَ حَتْمٌ لَا تَقْبَلُ الرَّدَّ مَهْمَا
لَا وَلَا الْإِنْتَظَارَ حِيناً إِلَى أَنْ
لَا تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ
أَوْ لَيْسُوا أَمْثَالَنَا لَمْ يَنَالُوا

قَدْ بَنَاهُ وَصَارَ طَيِّ التُّرَابِ
غَفَلَةُ النَّاسِ شُبَّهَتْ بِأَرْتِيَابِ
تَعَبٌ مُوقِعٌ بِذُلِّ التَّبَابِ
حَسْرَةُ الْمُفْلِسِينَ يَوْمَ الْحِسَابِ
عَمَلًا صَالِحًا لِيَوْمِ الْمَآبِ
بِلِبَاسٍ وَمَطْعَمٍ وَشَرَابِ
وَحَرَامٍ ضَيَاعُهَا فِي الْخِلَابِ
كُلَّ يَوْمٍ حُلُوهَا فِي اقْتِرَابِ
بَذَلِ الْبَاذِلُونَ مِنْ أَسْبَابِ
يُضْلِحُ الْمَرْءُ مِنْ فُسَادٍ وَعَابِ
كَمْ حُضُورٍ قَدْ أَصْبَحُوا فِي غِيَابِ
بَعْضَ مَا أَمْلَأُوهُ قَبْلَ الذَّهَابِ

١ بمناسبة مرور عام على وفاة المرحوم أكرم العجة في قصره [المصدر الثالث]

بمناسبة سنوية المرحوم أكرم العجة باني الجامع [المصدر الرابع].

كَمْ رَأَوْا كَمَا نَرَى كُلَّ يَوْمٍ
 لَيْتَ أَنَا عِنْدَ النَّذَارَةِ نَذْكُرُ
 إِنَّنَا رَاحِلُونَ مِنْ غَيْرِ زَادٍ
 يَتَمَنَّي مَنْ أَسْرَفُوا أَنْ يُعَادُوا
 وَتَمَثَّلَ مَعِيَ قَوْلُ هِمٍّ
 صَفٍ إِذَا شِئْتَ حَسْرَةً فِي قُلُوبٍ
 وَوُجُوهًا زُرْقًا وَغُبرًا وَنَفْسًا
 وَتَذَكَّرُ يَوْمَ التَّغَابُنِ قَوْمٌ
 وَأَنَاسٌ قَدْ أَحْسَنُوا قَدْ أَطَاعُوا
 لَا تَوْخَرُ نَصْحَ الْمَتَابِ لِأَنْ لَا
 تُثَمَّ قَدِّمَ إِلَى غَدٍ خَيْرَ زَادٍ
 وَتَسْتَرِّ بِسِتْرِ رَبِّكَ وَاقْنُتْ
 وَتَطَهَّرْ فَاللَّهُ جَلَّ مُحِبُّ
 كَيْفَ نَعَصِي الْإِلَهَ وَهُوَ بَرَانَا
 كَيْفَ نَلْقَاهُ آتِيَيْنِ عُصَاةً

نَشْرُ نَعْيٍ عَلَى جِدَارٍ وَبَابٍ
 أَنَّ مَا نَبْتَغِيهِ رَهْنُ الْخَرَابِ
 وَإِلَى رَبِّنَا أَكْيَدُ الْإِيَابِ
 ثُمَّ كَلَّا تَكُونُ رَدَّ الْجَوَابِ
 آهٍ وَاحْسَرْتَا لِفَقْدِ الشَّبَابِ
 وَاجْفَاتِ مِمَّا جَنَّتْ فِي اكْتِسَابِ
 مِنْ عَنَا الذُّلِّ وَالْأَسَى فِي اكْتِسَابِ
 ظَلَمُهُمْ قَدْ أَعَدَّهُمُ لِلْعِقَابِ
 بُشِّرُوا يَوْمَهُ بِحُسْنِ الثَّوَابِ
 تَخَرَّمَكَ الْمُنُونُ قَبْلَ الْمَتَابِ
 صَدَقَاتٍ تَجْرِي لِيَوْمِ الْمَتَابِ
 فَلِبَاسِ التَّقْوَى أَعَزُّ الثِّيَابِ
 مَنْ أَنَابُوا كَمَا أَتَى فِي الْكِتَابِ
 أَفْتَحَفَى وَعَيْنُهُ فِي ارْتِقَابِ
 وَهُوَ إِنْ شَاءَ دَسَّانَا فِي الْعَذَابِ

أَنْعَمَ اللَّهُ بِالْجُودِ عَلَيْنَا
 هَلْ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ تُبَارِزَ رَبًّا
 وَمَلَكَ الْأَعْمَالِ حُسْنُ يَقِينٍ
 أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ هِيََا اسْتَحْيُوا
 إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ
 إِنَّ فِي الْكَائِنَاتِ لِلْحَقِّ ذِكْرِي
 سَوْفَ نُدْعَى جَنَازَةً فَوْقَ نَعْشٍ
 إِنَّ سَهْمَ الْمَنُونِ سَهْمٌ مُصِيبٌ
 كَمْ جُدُودٍ مَضَوْا وَعَادُوا تُرَابًا
 صَاحٍ أَنْصَتْ لِسَاعَةِ الرُّسُغِ وَاسْمَعِ
 سُوسَةً تَقْرِضُ الْحَيَاةَ وَطَبْلٌ
 أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجُودَ بِعَفْوٍ
 يَرْحَمُ اللَّهُ سَابِقِينَ إِلَيْهِ
 نَحْنُ بِاللَّهِ مُؤْمِنُونَ لَهُ الْحُمُ
 سَدَّدَ اللَّهُ لِلصَّوَابِ خُطَانَا
 وَقَضَى لِاجْتِمَاعِنَا كُلَّ خَيْرٍ
 ثُمَّ نَرْجُو اجْتِمَاعَنَا بِرِیَاضِ الْـ
 نَحْنُ وَالسَّابِقُونَ مِنَّا إِلَيْهِ

وَرَعَانَا فَضْلًا بِلا اسْتِيْهَا
 مُنْعِمًا بِالْجُودِ وَالْإِزْيَابِ
 أُمَّةُ الْكُفْرِ سَعْيُهُمْ كَسْرَابِ
 قَدْ دَعَانَا وَخَصَّنَا بِالْخُطَابِ
 لَا تُضَيِّعُوا الْأَعْمَارَ بِالْأَلْعَابِ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
 وَسِيلْنِي التَّدَاءُ بِالْأَلْقَابِ
 وَبَغَيْرِ التَّرْشِيحِ وَالْإِنْخَابِ
 أَوْلَيْسَتْ مِنْ عِبرِ الْأَنْسَابِ
 دَقَّةُ الْقَلْبِ مِثْلُ نَعْيِ الْغُرَابِ
 دَقَّةُ مُؤْذِنٍ بِوَقْعِ الْحَرَابِ
 مَا عَلَى الْعَبْدِ إِنْ دَعَا مِنْ حِجَابِ
 وَيَقِينَا مِنْ حَرِّ نَارٍ مُهَابِ
 لَدُّ وَتَبَّأً لِكَافِرٍ مُرْتَابِ
 وَرَعَانَا عِنْدَ الْأُمُورِ الصَّعَابِ
 لَجَمِيعِ الْخُضُورِ بِاسْتِيْعَابِ
 خُلْدٍ فِيهَا أَرَائِكَ وَزُرَابِ
 وَجَمِيعِ الْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ

١٩ - يا من مررت بجنبي

مَهْلًا عَلِقْتَ بِقَلْبِي	يَا مَنْ مَرَرْتَ بِجَنْبِي
فَاصْطَيْدَ وَاللَّهُ حَسْبِي	نَصَبْتَهُ فَخَصَّ صَيْدِي
كَلَّا فَلَا زِلْتَ جَنْبِي	أَعِيشُ مِنْ غَيْرِ قَلْبِي
لَكِنْ ضَحَكْتُ بِعَبِّي	أَظْهَرْتُ مِنْكَ نَكِيرًا

٢٠ - طارق الباب

أَنْ يَرَى مَنْ رَأَاهُ مِنْ حُجَابِهِ	طَارِقُ الْبَابِ سَائِلٌ يَتَمَنَّى
مِنْ ذَوِي الْجِدِّ وَاقِفًا عِنْدَ بَابِهِ	أَوْ يَرَاهُ بِمُقَلَّتِي مَنْ رَأَاهُ
أَنْ يُحْيِيَ الْمُسْعُودَ مِنْ أَتْرَابِهِ	لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُسْعِدُ الصَّبَّ يَوْمًا
لَمْ يَفُتُّهُ تَيْمُمٌ مِنْ تَرَابِهِ	وَإِذَا فَاتَهُ دُخُولُ حَمَاهُ
وَيَفُتُّ الْجِبَالَ بَعْضُ الْتِهَابِهِ	يُوقِدُ الْبَحْرَ مَا بِهِ مِنْ أَوَامٍ
لِيَنَالُوا أَجُورَهُمْ مِنْ ثَوَابِهِ	مَا عَلَيْهِمْ لَوْ أَسْعَفُوهُ بِوَضَلٍ
مُسْتَهَامًا وَرُبَّ لَحْدٍ ثَوَى بِهِ	كَمْ يَقْضِي مِنْ عُمْرِهِ فِي الْبَرَارِي
خَلَصُوهُ مِنْ كَرْبِهِ وَعَذَابِهِ	فَاجْمَعُوا شَمْلَهُ حَنَانًا عَلَيْهِ
يَتَشَّى مِنْ شَذَاهُ قَبْلَ غِيَابِهِ	أَنْعِشُوهُ وَلَوْ بِوَعْدٍ كَذُوبٍ
قَبْلَ أَنْ تَسْمَعُوا نَعِيبَ غُرَابِهِ	أَنْعِشُوهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْعِشُوهُ

حرف التاء

٢١ - يا يوسف الحسن

نَسْمَعُ وَعُدًّا مُنْبِتَا	يَا يُوسُفَ الْحُسْنَ مَتَى
وَلَمْ تَزَلْ مُلْتَفِتَا	أَعْرَضْتَ صَنِيفًا وَشِتَا
وَوَفَيْتَنِي بَاءً وَتَا	كَمْ مَرَّةً وَاْعَدْتَنِي
عَهْدًا نَبَذْتَ تَعْتُتَا	أَوْ كَلَّمَا عَاهِدْتَنِي
جَرَدَنَ سَنِيفًا مُضِلَّتَا	أَرْحَمُ بِحَقِّ نَوَاعِسِ
يُنْمِرُ وَرَدًا فِي الشُّبَّتَا	وَبِحَقِّ غُضَنِ مَائِسِ
أَزْكَى صَحَابِكَ مَنِبِتَا	وَإِذَا رَجِمْتَ وَجَدْتَنِي
وَالْعَبْدُ أَضْحَى مُحْبِتَا	لَكِنَّ عُذْرِي وَاضِحٌ
رُؤْيَاكَ تُخَيِّمِي المَيْتَا	يَا بَدْرُ صِلْنِي تُخَيِّمِي
يَوْمُ اللِّقَاءِ لَقَدْ أَتَى	وَإِذَا سَأَلْتُكَ قُلْ مَعِي

٢٢ - وعظمتني فاتعظت

وَعَظَّتْ بِي فَاتَّعَظْتُ
بُنْتُ سَبْعٍ وَابْنُ سَبْعٍ
وَعَظَّتْ بِي حِينَ قَالَتْ
ذَكَرْتَنِي بِوَفَاتِي
عِنْدَ هَذَا قُلْتُ فِي
إِنْ تَكُنْ تَغْفُلُ عَنْهُ
كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى
كَانَ يَكْفِينِي نَذِيرًا
أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى
حِينَ فَكَّرْتُ بِهَذَا
عَفَّرَ اللَّهُ ذَنْبِي
فَلَقَدْ أَسْرَفْتُ جِدًّا
إِنْ سَأَلْتُ الْعَفْوَ عَنِّي
أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
أَنَا نَذْمَانُ عَلَى مَا
يَا إِلَهِي أَنْتَ حَسْبِي
أَبْدِلِ الْعَيْ بِرُشْدٍ
شَارِدٌ أَنْبَتُ نَفْسِي
إِنَّهَا تَأْمُرُ بِالسُّوءِ
فَاغْفِرِ اللَّهُمَّ إِنِّي
وَاجِعَلِ الْهَادِي شَفِيعِي

أَنَا شَيْخٌ وَهِيَ بِنْتُ
وَتَمَازَيْنَ بَلَّغْتُ
مَنْ لَهَا إِنْ أَنَا مُتُّ
وَعَنِ الْمَوْتِ عَفَلْتُ
نَفْسِي إِنَّ الْمَوْتَ مَوْتُ
إِنَّ لِلْآجِلِ وَفُتُّ
وَكِتَابُ اللَّهِ بَاتُ
أَنْزِي شِخْتُ وَشَبْتُ
رَحْمَةً إِنْ مَا بَرَدْتُ
سَائِرَ اللَّذَاتِ عَفْتُ
وَعَفَا عَمَّا جَنَيْتُ
وَكَلِمَ الْعُتْبَى نَوَيْتُ
فَمَنْ اللَّهَ اسْتَحَيْتُ
وَعَنِ الْأَمْرِ عَتَيْتُ
قَدْ مَضَى فِيمَا قَضَيْتُ
فَامُحْ عَنِّي مَا اقْتَرَفْتُ
أَنْتَ إِنْ تَهْدِي اهْتَدَيْتُ
صَحَفَ الْمَاضِي طَوَيْتُ
وَبِالْأَمْرِ غَوَيْتُ
نَادِمٌ رُحْمَاكَ تَبْتُ
وَعَلَى هَذَا اعْتَمَدْتُ

٢٣ - تبارك الله

تَبَارَكَ اللَّهُ كَمْ فِي الْكَوْنِ آيَاتُ
إِقْرَأْ إِذَا شِئْتَ آلَاءَ الْمَلِكِ عَلَى
النَّجْمِ فِي الْأَرْضِ وَالْأَشْجَارِ سَاجِدَةٌ
اللَّهُ مُنْبِتُهَا وَاللَّهُ مُنْبِتُهَا
نَجِّنِي مِنَ الشَّجَرِ الْأَثْمَارِ يَنْعَةً
تَبْدُو الثَّمَارِ جَمِيعاً وَهِيَ حَامِضَةٌ
تَرَعَى الشَّيْءَ هَشِيماً ثُمَّ تُتَحَفْنَا
مِنْ أَيْنَ لِلشَّاةِ هَذَا الْخَيْرُ تَمْتَحِنَا
مَنْ فَجَّرَ الْمَاءَ مِنْ صَلْدِ الصُّخُورِ وَمَنْ
لَوْ لَا الْهَوَاءُ وَلَوْ لَا الْمَاءُ مَا جُعِلَتْ
مِنْ الْخَلَائِقِ مَنْ فِي الْبَرِّ مَسْكَنُهُ
فَسَاكِنُ الْبَرِّ يُحْيِيهِ الْهَوَاءُ وَقَدْ
يُسَبِّحُ الرَّعْدُ لِلْمَوْلَى وَيَحْمَدُهُ
وَتَسْجُدُ الشَّمْسُ تَحْتَ الْعَرْشِ خَاضِعَةً
لَوْ يَقْفُهُ النَّاسُ تَسْبِيحَ الْخَلَائِقِ مَا
الْعِلْمُ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ سَائِرُهُ
قَدْ جَاءَ بِالْعِلْمِ طَهَ جَلَّ مُرْسَلُهُ
الْأَرْضُ تُنْمِلِي عَلَيْنَا وَالسَّمَاوَاتُ
صَحِيفَةُ الْأَرْضِ كَمْ فِيهَا عَجَائِبُ
وَالنَّجْمُ فِي الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُطِيعَاتُ
قَدْ حَيَّرَ الْعَقْلَ إنبَاتُ وَإنبَاتُ
مِنْ أَيْنَ لِلْغُصْنِ تِلْكَ الْمُسْتَلَذَّاتُ
فَكَيْفَ طَابَتْ وَمِنْ أَيْنَ الْحَلَاوَاتُ
بِالسَّمْنِ وَالصُّوفِ وَالْأَلْبَانِ خَيْرَاتُ
بِهِ فَنِعَمَتْ صَنَاعاً تِلْكَ الشَّاةُ
أَجْرَى الْهَوَاءَ وَرَاقَتْ مِنْهُ نَسَمَاتُ
فِيهِ الْحَيَاةُ تَرَى الْأَحْيَاءَ قَدْ مَاتُوا
وَالْحَوْتُ مَوْطِنُهُ فِي الْبَحْرِ لَبَّاتُ
يَمُوتُ مِنْهُ الَّذِي فِي الْيَمِّ يَمُوتُ
وَيُنْزَلُ الْغَيْثُ كَيْ تَحْيَا النَّبَاتَاتُ
تَسْتَأْذِنُ الْحَقَّ هَلْ لِلدَّأْبِ عَوْدَاتُ
كَانَتْ وَلَا سُمِعَتْ تِلْكَ الضَّلَالَاتُ
وَقَدْ رَمَى النَّاسَ فِي الْكُفْرِ الْجَهَالَاتُ
صَلَاةُ رَبِّي عَلَيْهِ وَالتَّحِيَّاتُ

٢٤ - رَمَضَانُ يَا شَهْرَ الْعِبَادَةِ ١

رَمَضَانُ لَوْ دَامَتْ لَنَا بَرَكَاتُهُ
عِنْدَ الْإِلَهِ وَهَذِهِ آيَاتُهُ
قَالَ الرَّحِيمُ لِتُجْتَنَى طَاعَتُهُ
وَهُوَ الْكَرِيمُ لَذَا تَزِيدُ هِبَاتُهُ
مِ اللَّيْلِ فِيكَ لِمُؤْمِنٍ رَعْبَاتُهُ
بِكَ عَيْنُنَا لَا تَقْضِي فِرَاحَتُهُ
كَمْ فِيكَ مِنْ خَيْرٍ بَدَتْ شِرَافَتُهُ
فُزْنَا بِهَا فَجَزَاؤُنَا جَنَاتُهُ
فِي شَهْرِنَا شَهْرٌ سَمَتْ خَيْرَاتُهُ
فِيهِ الصَّيَامُ وَجَبَّذَا نَفَحَاتُهُ
مِنْ كُلِّ خَيْرٍ قَدْ حَوَتْ أَوْقَاتُهُ
فِيهَا لِمُحْتَاجٍ دَعَا حَاجَاتُهُ
مِنْ لَيْلَةٍ فِيهَا زَهَتْ سَاعَاتُهُ

رَمَضَانُ يَا شَهْرَ الْعِبَادَةِ وَالتَّقَى
رَمَضَانُ أَنْتَ عَلَى الشُّهُورِ مُقَدَّمٌ
تَنْبِي بَأَنَّكَ فِي الْعُلَا شَرَفًا وَقَدْ
الصَّوْمُ لِي وَأَنَا الَّذِي أَجْزِي بِهِ
فِيكَ التَّرَاوِيحُ الَّتِي هِيَ مِنْ قِيَا
لَوْ كُنْتَ كُلَّ الْعَامِ كَانَ لَنَا الْهَنَا
كَمْ فِيكَ تَابَ الْمُذْنِبُونَ لِرَبِّهِمْ
كَمْ فِيكَ نَلْنَا قُرْبَةً مِنْ رَبَّنَا
إِبْلِيسُ مَعَ أَتْبَاعِهِ قَدْ صُفِّدُوا
قَدْ أَنْزَلَ الذِّكْرَ الْحَكِيمُ بِهِ كَذَا
فِيهِ التَّهَجُّدُ فِي خَتَامِ اللَّيْلِ بَلْ
فِيهِ الَّتِي عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ خَيْرَتْ
هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ الرَّفِيعِ وَيَالَهَا

١ نموذجٌ مِنْ شِعْرِ الصَّبَا.

يَا شَهْرَ صَوْمٍ صُمِّ عَنِ الشَّكْوَى لِمَنْ
 لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ جَهْرَنَا
 لَكِنَّ أَنْفُسَنَا تَوَدُّ لِذِكْرِهَا
 لَا سِيَّامَا عِنْدَ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءُ
 لَا تَشْتَغِلُ بِنَمِيمَةٍ وَبِغِيْبَةٍ
 بَيْنَ الْعِبَادِ وَرَبِّهِمْ حَبْلٌ فَلَا
 لَا يَفْتِنَنَّكَ مَكْرُهُ إِنْ قَالَ يَا
 إِنْ لَمْ تُبَلِّغْ لَنْ يُتُوبُوا بَلْ تَرَى
 وَاللَّهُ حَذَرَ مَنْ إِطَاعَةَ أَمْرِهِ
 تُبْنَى أَيْ رِبَّاهُ فَاغْفِرْ ذُنُوبَنَا
 إِنْ شَاءَ رَبِّي أَنْ بَقِيَتْ لِعَامِنَا الـ
 لَكِنَّتِي لَمَّا مَضَيْتِ تَذَكَّرْتُ
 رُحْ فِي هِنَاءٍ ثُمَّ رُحْ بِسَلَامَةٍ
 وَاضْحَبْ سَلَاماً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

بَرَأَ النَّدَى وَتَعَاظَمَتْ مَنَاتُهُ
 وَالسَّرَّ أَيْضاً وَالْجَمِيلُ صِفَاتُهُ
 حُسْنًا وَتَكَرَّرَ مَا الْقَبِيحُ سِمَاتُهُ
 وَالنَّفْسُ وَالْأَكْوَانُ مَخْلُوقَاتُهُ
 فَاللَّهُ يُغْضَبُ إِنْ تَهَنُّ حُرْمَاتُهُ
 تَقْطَعُهُ وَاحْذَرْ مَنْ وَهَتْ حِيلَاتُهُ
 رَمَضَانَ بَلِّغْ مَا بَدَتْ آيَاتُهُ
 أَنْتَ الْخَوَّونُ فَرُخِرْفُ كَلِمَاتُهُ
 وَإِلَيْهِ مِنْهُ تَوَجَّهْتَ لَعْنَاتُهُ
 إِيَّيْ عُبَيْدٌ لَمْ تَقَلْ عَثْرَاتُهُ
 آتِي تَجِدْ عَبْدًا زَكَتْ قُرْبَاتُهُ
 نَفْسِي بِأَنَّ الْحَيَّ تَمْضِي حَيَاتُهُ
 طُوبَى لِلْإِنْسَانِ صَفَتْ نِيَّاتُهُ
 وَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْوَرَى صَلَوَاتُهُ

٢٥ - يا عدولي

يا عَدُوْلِي دَعْنِي مِنَ التَّرَهَاتِ
أَنَا فِي لَذَّتِي وَأَنْتَ خَلِيٌّ
إِنَّ بَيْنَ الْوَجُودِ وَالْوَجْدِ بَوْنًا
صَحْتِي بِالسَّقَامِ مِنْ فَرْطِ وَجْدِي
وَلِكُلِّ شَرْبٍ وَإِنْ شَرَابِي
أَوْ نَحْشَى عَلَيَّ أَنِّي عَلِيلٌ
سَوْفَ تَفْنَى الْجُسُومَ وَالرُّوحَ بَاقٍ
إِنَّ قَوْمًا لَمْ يَطْعَمُوا الْحَبَّ شَهْدًا
مَا لَأَرْوَاحِنَا عَدُوْلِي قِيُودٌ
أَنَا أَلْقَاهُ يَقْظَةً وَمَنَامًا
إِنَّ لُقْيَاهُ جَتَّتِي وَنَعِيمِي
سَلَّمَ الْأَمْرَ لَيْسَ لِي مِنْ خِيَارٍ
هَلْ عَلِمْتُمْ يَا إِخْوَتِي أَنَّ حُبِّي
مَنْ أَحَبَّ الْمُخْتَارَ فَهُوَ سَعِيدٌ
إِنَّمَا الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَمَأْوَى
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ مَا ذَرَّ نَجْمٌ
وَأَجَادُوا الْأَنْعَامَ مِنْ أَضْبَهَانٍ

لَا تُقَطِّعْ مُسَلْسَلَ الذِّكْرِيَّاتِ
شَرَحُ حَالِي مِنْ أَضْعَبِ الْمُشْكَلَاتِ
وَشَوْوُنُ الْوَجْدَانِ بِالْعَاطِفَاتِ
وَحَرِيقُ الْأَشْوَاقِ مِنْ لَذَّتِي
وَشَرَابُ الْعُشَّاقِ مَاءُ الْحَيَاةِ
إِنَّ مَوْتِي بِالْحُبِّ مِنْ مُنْشَرَاتِي
هَمُّ أَهْلِ الْأَذْوَاقِ بِالْبَاقِيَّاتِ
قَدْ أَضَاعُوا الْأَعْمَارَ بِالْفَانِيَّاتِ
تَتَلَقَّى فِي سَائِرِ الْحَالَاتِ
وَطُؤُ عُمْرِي وَضَلُّ وَبَعْدَ مَمَاتِي
وَيُؤْوِ الْمُخْرُومُ بِالْحَسَرَاتِ
إِنَّ مَوْلَايَ مَالِكٌ مَلَكَاتِي
مُسْعِدٌ لِي وَرَافِعٌ دَرَجَاتِي
حُبُّهُ مِنْ دَلَائِلِ الْخَيْرَاتِ
وَدَّ طَهَهُ فَارَادِسُ الْجَنَّاتِ
وَتَغْنَى الْعُشَّاقُ بِالْغَانِيَّاتِ
وَحِجَازٍ وَمِنْ صَبَا وَيَّاتِ

٢٦ - على الطائر الميمون^١

على الطائر الميمونِ وافَتْ سُمَيِّي
 تَمَنَّتْ على ظَنِّي اللَّقا في فُجَيْرَةٍ
 أَسامةٌ يَرعاهَا ورَبِّي حَفِظُهَا
 هُمَاهِبَةُ المولى وبِالشُّكْرِ سَوْفَ لَا
 كما أُرَتِّجِي المَنَّانَ جَمْعاً لَشَمْلِنَا
 دَعَوْتُ الذي لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ غَيْرُهُ
 يُعوِّدُنِي الإِحْسَانَ في كُلِّ حَالَةٍ
 لِذَاكَ فَإِنِّي لَا أَلُوذُ بِغَيْرِهِ
 فَشِيمَةُ كُلِّ الخَلْقِ فَقَرٌّ وَحَاجَةٌ
 ورَبِّي غَنِيٌّ قَادِرٌ وَمُدَبِّرٌ
 وَلَيْسَ لِأَحْكَامِ الإِلَهِ مُعَقَّبٌ
 فَقُلْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ كَامِلَ أُسْرَتِي^٢
 وَكانَ اللَّقا في الشَّامِ غَايَةً مُنْيِي
 وَيَحْفَظُ بِنْتَيْهَا صَفَاءَ الطَّوَيَّةِ
 يَنالُهَا بِاللُّطْفِ أَيُّ أَدِيَّةِ^٣
 وَتُسِيرُ ما نَبَغِيهِ مَعَ حُسْنِ نِيَّةٍ
 عَسَى باضْطِرَّارِي أَنْ يُكَبِّي دَعْوَتِي
 وَيَعْلَمُ تَقْصِيرِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي
 وَمَنْ ذا الذي يَقْوَى على حَلِّ عُقْدَتِي
 وَلَيْسَ لَهُمْ عَن فَضْلِهِ أَيُّ غُنْيَةٍ
 حَمِيدٌ مَحْمَدٌ ذُو جلالٍ وَعِزَّةٍ
 وَهَلْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ لِلْبَرِّيَّةِ

١ في وداع سمية وزوجها أسامة عند سفرهما [المصدر الأول].

٢ سمية بنته الكبرى.

٣ صفاء وهبة ابنتا الحاجة سمية بنت الشيخ.

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا أَمَّكَهُ
يَقُولُ لَهُ كُنْ أَنْتَ مَلِكِي وَصَنَعَتِي
أَصْرَفُ أَحْكَامِي بِأَمْرِي وَحِكْمَتِي
أَنَا اللَّهُ سُبْحَانِي الْعَلِيمُ بِخَلْقِهِ
فَتَبَّاءَ لِلْخُلُوقِ أَحَطْتُ بِنِعْمَتِي
وَكَرَّمْتُهُ عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ فَاغْتَلَى
وَيَا فُوزَ مَنْ وَقَفْتُهُ لِحَبَّتِي
هُوَ الْمُفْلِحُ الْمَسْعُودُ أَعْمَلَ عَقْلَهُ
إِلَهِي إِنِّي صَادِقُ الْعَزْمِ لَا أُذْ
أَتُوبُ مِنَ التَّفْرِيطِ فَاغْفِرْ لِمُسْرِفِ
وَقَدَّرْ لِي الْخَيْرَ الْعَمِيمَ وَنَجِّنِي
وَوَفِّقْ وَأَلْبِسْنِي لِبَاسًا مِنَ التَّقَى
وَسَهِّلْ دُرُوبَ الصَّالِحَاتِ لَعَلَّنِي
فَإِنْ تَمَّ لِي مَا أَرْجِيهِ مِنَ الْهُدَى

عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ أَيْ وَسِيلَةٍ
وَمَنْ ذَا لَهُ طَوْلٌ يُبَدِّلُ فِطْرَتِي
وَقَدْ يَجْهَلُ الْمَخْلُوقُ بِأَلْغِ حِكْمَتِي
تَقَدَّسَ سُلْطَانِي وَجَلَّتْ إِرَادَتِي
وَأَعْطَيْتُهُ عَقْلاً وَيَنْسَى كِرَامَتِي
وَأَغْفَلَ شُكْرِي أَوْ تَلَهَّى بِمُنْعَتِي
وَذَكَرِي وَشُكْرَانِي وَحُسْنِ عِبَادَتِي
لِيَعْرِفَنِي رَبًّا فَمَا وَاهُ جَنَّتِي
بِعَفْوِكَ عَنِّي مُسْتَجِيرٌ بِذِلَّتِي
رَجَوْتُ وَلَمْ أَقْنَطْ لِتَقَبُّلِ تَوْبَتِي
مِنْ الْغِيِّ يَا رَبِّي وَصَحْبِي وَعِزَّتِي
فَرَحْمَاكَ مَطْلُوبِي وَمَرْضَاكَ بُغْيَتِي
بِسُورِ حَيَاتِي اسْتَرَدُّ سَعَادَتِي
وَمَحُوِ الْخَطَايَا فَهُوَ بَيْتُ قَصِيدَتِي

٢٧ - ما كنت آمل^١

ما كُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَعِيشَ وَأَحْتَفِي
 بَلْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ نَجْمِي آفَلٌ
 أَمْشِي وَأَشْعُرُ أَنَّهُ مُتَقَلِّصٌ
 فَأَمَدَّنِي مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ كَامِلٍ
 كَانَتْ مَعِيَ زَوْجٌ أَعِيشُ بِوَدَّهَا
 وَبِعَفَّةٍ وَبِخَفَّةٍ فِي ظِلِّهَا
 وَبِهَاءٍ طَلَعَتْهَا وَرَوْنَقِ شَكْلِهَا
 وَبِصَدَقِ لَهْجَتِهَا وَلُطْفِ حَدِيثِهَا
 صَاحِبْتُهَا عَشْرًا وَخَمْسًا كُنْتُ فِي
 ثَمِ انْقَضَى سِتَانٍ وَهِيَ مَرِيضَةٌ
 وَتَحَمَّلْتُ وَتَحَمَّلْتُ وَتَعَسَّلْتُ
 بَرَدَتْ وَتَوَحَّيْتُ إِلَيْهِ وَذَكَرُهُ
 رَجَعْتُ إِلَى مَعْبُودِهَا مَرَضِيَّةً
 وَبَقِيتُ وَخَدِي أَيُّهَا مُسْتَغْنِيًا
 مَا خَلَفْتُ وَلَدًا وَأَصْبَحَ فَارِعَاً
 وَنَوَيْتُ أَنْ أَبْقَى فَرِيدًا عَابِدًا

بِزِفَافِ أَبْنَائِي وَعِرْسِ بَنَاتِي
 مِنْ بَعْدِ إِفْصَارِي مِنَ الزَّوْجَاتِ
 ظِلِّي وَلَمْ أَحْلُمُ بِطُولِ حَيَاتِي
 بِالْعُمْرِ وَالْأَوْلَادِ وَالْخَيْرَاتِ
 وَبِحُسْنِ مَا جَمَعْتُ مِنَ الْحَسَنَاتِ
 وَرَشَاقَةٍ فِي الدَّلِّ وَالْحَرَكَاتِ
 وَبِطَيِّبِ الْقَسَمَاتِ وَالْبَسَمَاتِ
 وَبِئْسَ دَوْمًا عَنْ الشُّبُهَاتِ
 أَتْنَائِهَا فِي أَطْيَبِ الْحَالَاتِ
 مَشْغُولَةٌ بِالذِّكْرِ وَالِدَعَوَاتِ
 وَمَضَتْ تَشْمُ رَوَائِحَ الْجَنَّاتِ
 حَسَبَ الْإِطَاقَةِ آخِرَ الْكَلِمَاتِ
 رَضِيتُ بِمَا أَمْضَى وَمَا هُوَ آتِي
 مِقْدَارَ فَوْقِ ثَلَاثَةِ سَنَوَاتِ
 قَلْبِي مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ
 مُتَفَرِّغًا لِلْعِلْمِ وَالطَّاعَاتِ

١ بمناسبة زواج بعض أولادي [المصدر الأول والثاني].

وظَنَنْتُ أَنَّ الْعُمْرَ أَمْسَى كَامِلًا
وَقَصَدْتُ مِنْ فُورِي الْحِجَازَ مُيَمَّمًا
وَحَجَجْتُ عَنْ نَفْسِي كَمَا اسْتَأْجَرْتُ مَنْ
نَفَّذْتُ مَا أَوْصَتْ بِهِ مُسْتَمْطِرًا
أَرْجُو الْقَبُولَ مِنَ الْكَرِيمِ بِفَضْلِهِ
وَصَبَرْتُ حَتَّى لَا أُخْلَفَ زَوْجَةً
حَسَبَ التَّصَوُّورِ وَالْعِلْمِ مُقَدَّرُ
وَاخْتَارَ لِي زَوْجًا حَكَتْ بِصَلاَحِهَا
قَدْ أَشْبَهَتْهَا فِي جَمِيلِ صِفَاتِهَا
فَكَأَنَّهَا عَادَتْ إِلَيَّ بِوَصْفِهَا
وَأَرَادَهَا رَبِّي وَلُودًا أَنْجَبَتْ
مِنْ بَعْدِهِمْ جَاءَتْ سُمَيَّةُ اتَّبَعَتْ
مِنْ بَعْدُ قَدْ خَتَمَ الْبَيْنَ مُحَمَّدٌ
الْكُلُّ قَدْ سَمَّيْتُهُمْ بِمُحَمَّدٍ
أَعْدَادُ أَبْوَابِ الْجَنَانِ جَمِيعُهُمْ
أَرْجُو لَهُمْ مَا أَرْجِيهِ مِنَ الْهُدَى
وَنَرَى بِهَا وَفْدًا تَقَدَّمَ قَبْلَنَا
وَهُنَاكَ يَكْمُلُ لِلصُّدُورِ صَفَاؤُهَا
وَهُنَاكَ نَسْعِدُ بِالْحَيِّبِ مُحَمَّدٍ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا صَلَّى أَمْرُؤُ

مُتَرَقِّبًا لِأَوَاخِرِ اللَّحْظَاتِ
أَرْضَ الْبَقِيْعِ وَمِنْ عَلَى عَرَفَاتِ
قَدْ حَجَّ عَنْهَا صَافِي النِّيَّاتِ
لِسَحَائِبِ الْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَاتِ
وَعَسَى يَقِينِي اللَّهُ مِنْ عَثَرَاتِي
وَلَهَا يَتَامَى أُبْسِلُوا الشِّتَاتِ
مَا لَمْ أَحِطْ خُبْرًا بِتَقْدِيرَاتِي
مَنْ فَا رَقْنِي قَبْلَهَا بِمَمَاتِ
وَعَفَافِهَا وَخِلَائِقِ وَسِمَاتِ
وَتَبَدَّلَتْ ذَاتُ بِمُشْبِهِ ذَاتِ
تَتَرَى ثَلَاثَةَ صَبِيَّةٍ وَوَلَاةٍ
بِثَلَاثَةِ أُخْتَاءَ وَهُنَّ هِبَاتِي
قَبْلَ ابْتِنَيْنِ وَكُلُّهُنَّ مُوَاتِي
أَرْجُو شِفَاعَةَ سَيِّدِ السَّادَاتِ
فَالْإِسْعَادِي وَمُخَوِّهَاتِي
لِيَكُونَنَّ مَوْلَانَا إِلَى الْجَنَّاتِ
أَصْلًا وَزَوْجًا إِخْوَةً أَخَوَاتِ
مِنْ غِلَّهَا وَضَغَائِنِ الضَّرَّاتِ
وَبِكُلِّ مَهْدِيٍّ وَكُلِّ هُدَاةٍ
بِمَسَاجِدِ وَجَوَامِعِ الصَّلَوَاتِ

٢٨ - أديمي وصالي

أَدِيمِي وَصَالِي غَادَتِي أَنْتِ مُنِيَّي
كَلَامُكَ لِي يَشْفِي كَلَامِي بِلُطْفِهِ
إِذَا كَانَ قَيْسٌ جُنَّ بِالْحُبِّ وَالْهَاءِ
هُوَ الْكِ رَشَادٌ وَاهْتِدَاءٌ وَعِزَّةٌ
إِذَا كَانَ غَيْرِي بِأَلْهَوَى كَانَ مُدْنَفًا
حَيَاةً بِأَحَبِّ حَيَاةٍ سَوَائِمِ
يَعِيشُونَ حَتَّى يَأْكُلُوا ثُمَّ يَأْكُلُوا
وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحُبَّ يَنْهَضُ بِالْفَتَى
وَفِيهِ غِذَاءُ الرُّوحِ وَالرُّوحُ إِنَّهُ
عَلَى أَنَّ سِرَّ الْحُبِّ يَسْرِي بِطَبْعِهِ
وَلَسْتُ عَلَى رَأْيِ الَّذِينَ يَرَوْنَهُ
وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِأَنَّهُ
وَلِي شَرَفٌ أَنِّي أُطِيعُ عَوَاطِفِي
هُوَ الْمَالُ مَتْرُوكٌ هُوَ الْجِسْمُ لِلْفَنَاءِ
فَدَعْنِي عَذُولِي إِنْ نُصَحَكَ فَاشْلُ

تَمَلَّكَتِ قَلْبِي وَاخْتِيَارِي وَمُهَجَّتِي
وَوَضَّلْتُ يَا لَيْلَايَ تَرْيَاقُ عِلَّتِي
فَلَايِي بِحُبِّكَ اسْتَنَارَتْ بَصِيرَتِي
وَفِي الْحُبِّ لَيْلَى طِيبٌ عَيْشِي وَلَذَّتِي
فَلَايِي بِحُبِّي أَشْتَفِي وَهُوَ صَحَّتِي ١
وَقَوْمٌ بِأَحَبِّ طَعَامِ الْبَرِيَّةِ
لَكَيْمَا يَعْشُوا بِأَنْتِظَارِ الْمَيَّةِ
وَيَرْفَعُ مَنْ يَهْوَى لِأَرْفَعِ رُبَّةِ
هُوَ الْمَرْءُ وَالْجُثْثَانُ مَاضٍ لِحُفْرَةِ
إِلَى قَلْبٍ مَنْ أَضْحَى نَقِيَّ الطَّوِيَّةِ
شَقَاءٌ وَذَلَالٌ وَهُوَ بَعْضُ الْبَلِيَّةِ
أَنَا الْمُغْرَمُ الْوَلَهَانُ فَافْرَأْ هُوَيَّتِي ٢
وَلَسْتُ بِمَغْرُورٍ وَفَخْرِي بِشَرَوْتِي
وَتَحْلُدُ رُوحِي حِينَ تَنْهَالُ بُنْيَتِي
وَشَرَعَةُ أَرْبَابِ الْمَحَبَّةِ شَرَعَتِي

١ الدَّنْف: المرض الملازم.

٢ الولهان: من الوله: الحزن الشديد والحيرة والوجد.

وَلَا تُحَذِّرِي يَا غَادِي تَرْكِي الْهَوَى
 عَلَى الْحُبِّ أَحْيَا طَيِّبَ النَّفْسِ هَانِئاً
 وَمَنْ كَانَ ذَا قَلْبٍ خَلِيٍّ مِنَ الْهَوَى
 وَأَطْيَبُ مَا فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَتَمُّهُمْ
 فَفِي هَذِهِ الدَّارِ الْمَحَبَّةُ صَفْوُهَا
 وَمَا طَابَ عَيْشُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْوَرَى
 وَحَتَّى مَعَ الْخَلَاقِ لَمَّا أَحَبَّهُمْ
 فَيَا رَبُّ أَسْعِدْنَا بِحُبِّكَ إِنَّنَا
 وَنَزْجُوكَ يَا رَبَّاهُ أَحْسِنُ خِتَامَنَا
 وَفَرِّجْ عَنِ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ أَهَمَّهُمْ

فَعَيْشِي بِدُونِ الْحُبِّ ذُلِّي وَوَحْشَتِي
 وَإِلَّا فَإِنِّي دُمَيْةٌ طُولَ عَيْشَتِي
 بِرُوحٍ وَيَغْدُو وَهُوَ مُشَبِّهُ آلَةٍ
 عَلَى سُرُرٍ إِخْوَانُ صِدْقٍ وَصَفْوَةٍ
 وَصَفْوُ حَيَاةِ الْمُنْعَمِينَ بِجَنَّةٍ
 بَأَيَّامِهِمْ إِلَّا بِصِدْقِ الْأُخُوَّةِ
 وَهُمْ أَحَبُّوهُ تَمَامَ السَّعَادَةِ
 عُصَاةٌ وَنَزْجُوءُ الْعَفْوِ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ
 فَحُسْنُ خِتَامِ الْمَرْءِ خَيْرُ هَدْيَةٍ
 وَمَنْ عَلَيْنِهِمْ بِانْتِصَارٍ وَعِزَّةٍ

٢٩ - أَلْتَنِي ذَكَرِيَاتِي

أَلْتَنِي ذِكْرِيَاتِي
 وَيُنَحِّ نَفْسِي لِحَيَاةٍ
 مَجَلَّتْ أَطْرَافُ خَلْقِي
 وَاکْتَوَتْ جِلْدُهُ خَدِّي
 أَشْتَهِي الْعَوْدَ لِبَدْنٍ
 أَهْ هَيْهَاتَ وَهَلْ مِنْ
 أَسَفِي أَنْ لَا أَهْـلِدِي
 مُرَّقَتْ أَيَّامُ عُمْرِي

وَهِيَ تَارِيخُ حَيَاتِي
 ضُمِّيَتْ بِالْتَّرَاهَاتِ
 مِنْ حَرِيقِ الزَّفَرَاتِ
 مِنْ حَمِيمِ الْعِزْبَاتِ
 لَا كُتْسَابِ الصَّالِحَاتِ
 عَائِدٍ بَعْدَ الْفَوَاتِ
 وَأَنَا بَعْضُ الْهُدَاةِ
 بِأَكْفِ الْغَفَلَاتِ

لَيْتَ قَبْلَ النَّاسِ كَانَتْ
لَا تَرَى عَيْنِي عُيُوبِي
يَقِظُ أَحْرُسُ غَيْرِي
رَبِّمَا أَهْوَى بِرُوحِي
مَنْ مُعِيشِي مَنْ مُجِيرِي
أَنْتَ يَا رَبِّي غَفُورٌ
بَدَّلَ اللَّهُمَّ فَضْلاً
فَاتَنِي الرِّكْبُ وَحَازَتْ
لِي لَيْسَ لِي إِلَّاكَ رَبِّي
فَتَدَارِكُنِي بِطُفْ

مَوْعِظَاتِي وَاعِظَاتِي
وَهِيَ عَنِّي فِي سُبَاتِ
وَأَقْبَلُ الْعَثَرَاتِ
خَطْئِي فِي خُطُواتِي
غَيْرُ رَبِّ الْكَائِنَاتِ
وَمُجِيبُ الدَّعَوَاتِ
حَسَنَاتِ سَيِّئَاتِي
قَصَبِ السَّيْبِ لِدَاتِي
أَنْتَ تَمُخُّوهُ فَوَاتِي
وَاهْدِنِي قَبْلَ مَمَاتِي

٣٠ - آمال الهوى قدي

أَمَالَ الْهَوَى قَدِّي وَأَوَدَ قَامَتِي
فِيَا لَيْتَ عَذَالِي يَرُونَ الَّذِي أَرَى
فَيُسْعِفُنِي بِالْوَصْلِ عَطْفًا وَرَحْمَةً
وَلَوْ أَنَّ حَبِّي عَطْفُهُ مِثْلُ عَطْفِهِ
أَضُنُّ عَلَى اللُّوَامِ فِي الْحُبِّ غَيْرَةً
فَيُشْرِكُنِي فِي الْحُبِّ مَنْ لَا أَحِبُّهُ

وَكَادَتْ سِهَامُ الطَّرْفِ تُنْهِي إِقَامَتِي ١
وَلَيْتَ الَّذِي أَهْوَاهُ يَرُنِي لِحَالَتِي ٢
فَمَا غَيْرُ لُقْيَاهُ شِفَاءً لِعِلَّتِي
رَقِيقٌ لَهَانَتْ فِي الْغَرَامِ بَلِيَّتِي ٣
لَوْجُهُ الْهَوَى كَيْلًا يُؤْلُونُ وَجْهَتِي
وَيَحْوِيهِ قَلْبٌ لَيْسَ بَيْنَ طَوِيَّتِي

١ القُدُّ: قامة الرجل ، وأود: مِنْ أَوْدَ يَأُودُ أَوْدًا: اِعْوَجَّ.

٢ العَذَالُ جمع عاذل: العذول: اللائم ، ويستعمل كثيراً فيمن يلوم العاشق.

٣ الْحَبُّ: بكسر الحاء: المحبوب ، والعَطْفُ: الحنان والرَّقَّةُ والميل والشفقة ، والعِطْفُ بكسر- العين: الجانب وهو من الإنسان من لدن رأسه إلى وركه.

٣١ - أنا المغبون وحدي

أنا المغبونُ وحدي في حياتي
مضى منها ثمانٍ من عُقُودٍ
تُبَهِّئُني الحوادثُ ويكُ أَصْلِحُ
أما أَن الأوانُ وعِشْتُ قَرْنًا
أَعَدَّدُهُم وَلَكِنْ لا أَبالي
وأيامي لَقَدْ فَاتَتْ وَغَابَتْ
أما في الموتِ مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى
لقد وَلَّى الشَّبابُ وَصَرْتُ هِمًّا
تَذَكَّرُنِي البَلَى دَقَاتُ قَلْبِي
سِهامُ الموتِ تَتَرى كُلَّ يَوْمٍ
وَكَمْ مِثْلِي اطمأنَّ فَجَبَّتْهُ
أشاهدُ بَلٍّ وَأَقْرَأُ بَلٍّ وَأُدْرِي
نُصِرَ على التَّغافلِ بَيَدِ أَنَا
ولا نَدْرِي أَتَأْتِينَا المَنايا
يَرِجُ المرءُ مَطْلَعُهُ وَيَزْهُو

فَقَدْ قَضَيْتُهَا بِالزَّهَاتِ
بِلا نَفْعٍ كَأَنِّي فِي سُبَاتِ
سَلُوكِكَ قَبْلَ أَنْ تُقْضَى حَيَاتِي
وَكَمْ قَرْنٍ تَسَاقَطَ مِنْ لَدَاتِي
كَأَنِّي لَسْتُ مِنْ أَهْلِ المَمَاتِ
بَغَيْرِ مَكاسِبٍ مُتَشَابِهَاتِ
أَلَمْ يَحِنْ ارْغَوَائِي عَنْ هَنَاتِي
وَيُوشِكُ أَنْ أُؤْوَلَ إِلَى الرِّفَاتِ
وَتُنْذِرُ أَنْ سَتَبْعْتُ بِالسَّكَاتِ
وَيُطْمِعُنِي انْزِواها بِالنَّجاةِ
وَلَمْ يَجِدِ السَّيْلَ لِلانْفِلَاتِ
وما كانَ الجُمُيعُ مُبْهَّاتِي
نُصِرَ المالُ وَهُوَ إِلَى شَتَاتِ
نَهَاراً أَوْ سَتَاتِي بِالْبَيَاتِ
وَيَضَعُفُ ثُمَّ يَذْبُلُ كَالنَّبَاتِ

نُرْتَّبُ مَا نُرْتَّبُ كُلَّ يَوْمٍ
وَلَيْسَ يُفِيدُهُ جَمْعٌ وَمَنْعٌ
وَلَوْ ذَكَرَ الْفَنَاءَ وَمَا إِلَيْهِ
أَلَا قُولُوا لِمَنْ يَهْتَزُّ عَجْبًا
وَمَنْ يُرْغِي وَيَخْطُبُ مُسْتَفِئْضًا
وَمَنْ مَلَكَ الْعِبَادَ بِغَيْرِ حَقٍّ
أَلَا هَلْ دَامَ لِلْأُمَمِ الْمَوَاضِي
وَهَلْ خَلَدَ الطُّغَاةُ بِمَا أَعْدُوا
وَهَلْ فِرْعَوْنُ وَالنَّمْرُودُ دَامَا
سَيَفْنِي الْكُلَّ وَالِدَيَّانُ يَبْقَى
يَقِينِي أَنَّ حِرْصِي لَا يَقِينِي
وَأَنَّ الْمَوْتَ مَا مِنْهُ مَفَرٌّ
وَلَيْسَ يُفِيدُنِي إِلَّا رُجُوعِي
إِذَا صَحَّ الْمَتَابُ وَتَابَ رَبِّي
وَهَلْ نَالَ الَّذِينَ قَضَوْا وَمَاتُوا
إِلَهِي إِنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذُنُوبِي
فَسَاخِجْنِي وَأَحْسِنْ لِي خِتَامِي
وَشَفِّعْ لِي رَسُولَكَ يَوْمَ حَشْرِ

وَأَمَّا الْفَتَى كَالْمُضْحَكَاتِ
وَيَكْفِيهِ بِقَدْرِ الْإِفْتِيَاتِ
يُحَوِّلُهُ تَقَوُّوتَ الْفُتَاتِ
وَيَفْخَرُ بِاخْتِرَاعِ الْمُعْجَزَاتِ
وَلِلْمُتَكَبِّرِينَ مِنَ السُّرَاةِ
وَمَنْ زَعَمَ الْخُلُودَ بِالْأَفْتِيَاتِ
الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهِيَاتِ
وَهَلْ شَيْءٌ يَدُومُ عَلَى الثَّبَاتِ
وَعَادُ وَالْجَمِيعُ مِنَ الْبُغَاةِ
وَكُلُّ النَّاعِقِينَ إِلَى صُمَاتِ
وَلَا كُلُّ الْوَسَائِلِ مُنْجِيَاتِي
وَنَفْسِي وَاهْوَى أَعْدَى عِدَاتِي
إِلَى الْمَوْلِ بِأَثْوَابِ التُّقَاةِ
عَلَيَّ فَلَسْتُ أَخْشَى الْمُوجِعَاتِ
سِوَى قُطْنٍ وَنَوَاحِ النَّائِحَاتِ
وَلَطْفِكَ بِي وَغَفْرُكَ مُغْنِيَاتِي
وَأَصْلِحْ حَالِي قَبْلَ انْتِبَاتِي
عَلَيْهِ سَلَامِي مَعَ أَزْكَى صَلَاتِي

٣٢ - عاد شهر الصيام

وَعَلَيْهِ دَلَائِلُ الْخَيْرَاتِ	عَادَ شَهْرُ الصَّيَامِ بِالْبَرَكَاتِ
وَكَفَّاهُ زِيَادَةُ الصَّلَوَاتِ	عَادَ وَالْيُمْنُ فِيهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
وَاجْتِنَاءُ الْأَحْبَابِ لِلطَّاعَاتِ	فِي التَّرَاوِيحِ رَاحَةٌ وَثَوَابٌ
رُبُّنَا جَلَّ يُجْزِلُ الْحَسَنَاتِ	فِي بَيُوتِ الْكَرِيمِ نُورٌ وَفِيهَا
لِبَيُّوتِ الْإِلَهِ لِلْقُرْبَاتِ	فَتَرَى الْوَافِدِينَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ
عَنْ جَمِيعِ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ	عَوْضُوا الصَّوْمَ طَاعَةً وَاحْتِسَابًا
يَا لَهُ بَاعِثًا عَلَى الْخَيْرَاتِ	مَعَهُدُ الصَّوْمِ وَاعِظٌ وَمُرَبٍّ
وَهُوَ فِي الْعَامِ مَوْسِمُ الصَّدَقَاتِ	فِيهِ تَسْخُو النُّفُوسُ بِالْبِرِّ طَوْعًا
مِنْ جَمِيعِ الْأَثَامِ وَالْفَلَتَاتِ	فَهُوَ كَالْحَجِّ فِيهِ طَهْرٌ وَحِفْظٌ
وَقَبُولاً لِلصَّوْمِ وَالْحَسَنَاتِ	نَسْأَلُ اللَّهَ فِيهِ عَوْنًا وَعَفْوَاً

٣٣ - عافت النفس سائر اللذات^١

عَافَتِ النَّفْسُ سَائِرَ اللَّذَاتِ مُذْ أَحَاطَتْ عِلْمًا بِقُرْبِ الْوَفَاةِ
نَفِدَ الزَّيْتُ فِي السَّرَاجِ فَمَا لِي طَمَعُ بَعْدُ فِي امْتِدَادِ الْحَيَاةِ
عَمَّنِي الْإِرْتَحَا وَجَفَّتْ عُرُوقِي ذَهَبَ الْأَطْيَانُ مِنْ شَهَوَاتِي
لَيْسَ لِلدَّاءِ هَذَا شِفَاءً بَعْدَ حِينٍ شِفَاؤُهُ بِالْمَمَاتِ
كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَوَاءٌ سِوَاهُ هَكَذَا قَالَ سَيِّدُ السَّادَاتِ
إِنَّ أَخْذَ الْمُقَوِّياتِ وَشُغْلًا بِالتَّمَارِينِ أَشْخَفُ التَّرَهَّاتِ
وَعِلَاجُ النَّفُوسِ مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ وَاعْتِرَافُ بِالْعُجْزِ عَنْ مُنْجِيَاتِ
هُوَ بَرْدُ التَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ مِنَّا وَرِضَانَا بِسَائِرِ الْحَالَاتِ
قَالَ رَبِّي وَمَنْ نُعَمِّرْهُ فِي الْخَلْقِ سَقِ نُكَّسُهُ قَبْلَ قَبْرِ الرُّفَاتِ
قَدْ خَرَجْنَا مِنَ الْبُطُونِ بِلا عِلٍّ سَمِ وَعُدْنَا لِلضَّعْفِ فِي الذِّكْرِيَّاتِ
كُلُّ هَذَا لِنَسْتَكِينَ وَنَرْضَى وَهُوَ أَيْضًا يُوحِي بِقُرْبِ السُّكَاتِ
أَنْتَ لَا شَكَّ صَائِرٌ لِتُرَابٍ وَسُتُفْنِيكَ الدَّيْدَانُ بِالْإِقْتِيَّاتِ
جَلَّ رَبِّي الْحَكِيمُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَيْنَا الرِّضَا مَعَ الْإِخْبَاتِ
مَنْ يُجَادِلُ فِيمَا جَرَى فَهُوَ غَرٌّ بَحْثُهُ فِي الْقَضَاءِ عَيْنُ افْتِئَاتِ
إِنَّ مَنْ عَاشَ كَالسَّوَائِمِ غُمْرٌ غَافِلٌ مُسْتَغْرِقٌ فِي السُّبَاتِ
هَمُّهُ الْأَكْلُ وَالشَّرَابُ وَنَوْمٌ هَكَذَا ضَاعَ عُمْرُهُ بِالشَّتَاتِ
إِنَّا بَعْدَ مَوْتِنَا سَوْفَ نَحْيَا كَحَيَاةِ النَّبَاتِ بَعْدَ الْمَوَاتِ
وَسَيَجْرِي السُّؤَالُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَدْ عَمَلْنَا وَمَا لَنَا مِنْ فَوَاتِ

١ في الزهد في الدنيا والعمر ٨٤ عاماً. [المصدر الثاني].

وَاکْتَفَى وَلَوْ بِبَعْضِ الْفُتَاتِ
فِي جِنَانٍ يَفُوزُ بِالطَّيِّبَاتِ
مَعَ حُسْنِ الْخِتَامِ عِنْدَ الصُّمَاتِ
وَتَقَبَّلَ وَامِنُنْ بِحُسْنِ الثَّبَاتِ

فَازَ مَنْ خَفَّفَ الْحِسَابَ بِزُهْدٍ
تَرَكَ الْمُشْتَهَى بِدُنْيَاهُ حَتَّى
رَضَّنَا يَا رَبَّنَا وَارْضَ عَنَّا
قَدْ لَجْنَا إِلَيْكَ يَا رَبُّ فَاغْفِرْ

٣٤ - فرص قد أضعتها

خَلَقْتَ فِي فُؤَادِي الْحَسَرَاتِ
بِالتَّوَانِي مَنَعُوتَةً بِالفَوَاتِ
بِقَضَاءٍ مِنْ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ
بِمُبِيدِ التَّسْوِيفِ وَالرَّهَاتِ
وَأَنَا وَقِفْ بِأَرْضِ مَوَاتِ
أَهْلَكَتَنِي تَتَابِعُ الزَّلَّاتِ
ثُمَّ تَمْضِي الْآيَّامُ كَالْغَابِرَاتِ
سَاعِيًا لِلصَّلَاحِ قَبْلَ الْمَمَاتِ
أَوْ قَضَاءٍ لِفَائِتِ الصَّالِحَاتِ
أَفْقَدْتُهُ تَتَابِعُ الرَّفَرَاتِ
أَنْشَبَتْ ظَفَرَهَا بِلا مُنْذِرَاتِ
لَيْتَ خَيْرًا قَدَّمْتُهُ لِحَيَاتِي
فَاتِ آيَّامِ زَرْعِ النَّبَاتِ

فَرَضْتُ قَدْ أَضَعْتُهَا فِي حَيَاتِي
أَضَبَحْتُ قَبْضَةَ الْيَدَيْنِ وَأُمْسَتُ
لَسْتُ آسَى عَلَى الْفَوَاتِ فَكُلُّ
غَيْرِ أَنِّي أَخَافُ قَتْلَ حَيَاتِي
قَدْ رَأَيْتُ الْآيَّامَ تَمْضِي سَرِيعًا
لَسْتُ أَبْنِي وَلَسْتُ أَرْزُحُ لِكِنْ
كُلَّ يَوْمٍ أُرِيدُ إِصْلَاحَ حَالِي
فَمَتَى يَا تُرَى أَقُومُ بِحَزْمٍ
لَيْسَ بَعْدَ الْمَمَاتِ لِلْمَرْءِ سَعْيٌ
وَإِذَا عَضَّتِ الْمَنُونُ بِحَيْدٍ
كَمْ رَأَيْنَا وَكَمْ سَمِعْنَا مَنَايَا
لَا يُفِيدُ الْمَغْبُونُ فِي يَوْمٍ فَضْلٍ
إِنَّ مَا فَاتَ مِنْ صَلَاحٍ وَبَرٍّ

هَذِهِ الدَّارُ دَارُ حَرْثٍ وَزَرْعٍ
 إِنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ
 وَمِنَ الْهَوْلِ يَجْعَلُ الْوُلْدَ شَبَابًا
 إِذْ يَوَدُّ الْمُسِيءُ فِيهِ افْتِدَاءً
 ذَاكَ يَوْمٌ لَا نَفْعَ فِيهِ بِمَالٍ
 مَنْ أَتَى رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ
 إِنَّ مَنْ زُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ فَازُوا
 يَا إِلَهِي أَدْعُوكَ طَالِبَ عَفْوٍ
 أَنْتَ رَبِّي مَالِي سِوَاكَ وَحَسْبِي
 فَأَجِرْنِي رُحْمَاكَ مِنْ حَرِّ نَارٍ

وَعِدًا مَنْ سَعَى جَنَى الثَّمَرَاتِ
 عَنْ رَضِيْعٍ سَيُذْهِلُ الْمَرْضِعَاتِ
 لَا حَمِيمٌ لَا شَافِعٌ لَا مُوَاقٍ
 يَبْنِيهِ وَالزَّوْجِ وَالْأُمَّهَاتِ
 وَعَدِيدٍ مِنَ الْبَيْنِ الثَّقَاةِ
 فَهُوَ الْمُتَّقِي مَصِيرِ الْعُتَاةِ
 وَهُمْ الْخَالِدُونَ فِي الْجَنَّاتِ
 فَاسْتَجِبْ يَا إِلَهَنَا دَعَوَاتٍ
 لَسْتُ أَقْوَى عَلَى عَذَابِ الْجَنَآةِ
 وَاعْفُ عَنِّي بِحَقِّ هَادِي الْهُدَاةِ

٣٥ - قد أظلم القلب مني

قَدْ أَظْلَمَ الْقَلْبُ مِنِّي بِالْخَطِيئَاتِ
 طَوَّقْتُ عِقْدَ الْأَسَى حَبَاتُهُ أَسْفُ
 أَوَاهَ يَسْبِقُهَا آهٌ وَيَتَّبِعُهَا
 قَدْ ضَيَّقَتْ نَفْسِي نَفْسِي بِمَا اكْتَسَبَتْ
 أَنْوِي الْمَتَابَ وَكَمْ عَهْدٍ أَعَاهَدُهُ
 مَنْ لِي بِخِلٍّ وَفِيَّ اسْتَعَيْنَ بِهِ

وَأَحْرَقَتْ كَيْدِي نَارُ النَّدَامَاتِ
 بَلْ كَادَ يَخْنُقُنِي إِضْهَارُ أَنَاثِي
 آهٍ وَيَضْحَكُهَا مَجْمُوعُ آهَاتِ
 مِنَ الْأَثَامِ وَبَاءَتْ بِالْأَسْيَاتِ
 لَكِنْ يُفَاجِئُنِي إِفْسَادُ نِيَّاتِ
 يَسِيرُ تَوًّا عَلَى دَرْبِ الْهُدَايَاتِ

يَا مَنْ هَدَيْتَ الْأُلَى كَانُوا عَلَى خَلَلٍ
يَا رَبَّ أَنْتَ وَلِيِّي جِئْتُ مُنْكَسِرًا
مَالِي سِوَاكَ إِلَهِي لَا تَكِلْنِي إِلَى
وَلَسْتُ أَقْوَى عَلَى هَذَا الصَّرَاعِ وَلَا
وَأَنْتَ رَبِّي مُجِيرُ الْمُسْتَجِيرِ إِذَا
حَتَّى اسْتَقَامُوا عَلَى نَهْجِ الْعِبَادَاتِ
خَلَّصَ فَوَادِيَّ مِنْ زَيْغِ الْغَوَايَاتِ
نَفْسِي فَحَسْبِيَ لَقَدْ ضَيَّعْتُ أَوْقَاتِي
كَفْنًا وَلَا حَوْلَ لِي إِلَّا بِدَعَاوَاتِ
قَدْ لاذَ بِالْعَفْوِ مُحْفُوضَ الْجَنَاحَاتِ

٣٦ - هناك العرس يا أصفى البنات^١

هناك العرسُ يا أصفى البناتِ
سألتُ اللهَ يَجْعَلُهُ زَفَافًا
حَظِيَّتِ بِأَيْمَنِ الْأَزْوَاجِ أَضَلًّا
فَصَادَ غَزَالَةً عَيْنَاءَ مَالَتِ
أَرِيْمَةً أَسْبَغَ الرَّحْمَنُ فَضْلًا
لَقَدْ أَلْبَسْتَ تَاجَ الْمَكْرُمَاتِ
لِحُسْنِ الْحِظِّ مَعَ حُسْنِ النَّبَاتِ
وَأُسْعِدَ طَيِّبٌ بِالطَّيِّبَاتِ
إِلَيْهِ وَأَذْنُهَا سِيَمَا الصُّمَاتِ
عَلَيْكَ الْخَيْرُ مِنْ غَيْرِ أَنْبِتَاتِ

١ ضمن رسالة لصفاء بنت الشيخ عبد الرحمن مع مقدمة نشرية قال الشيخ فيها: أخي الكريم ، وصديقي الوفي الحميم ، وابن أخي المرحوم الرحيم ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد وصلتني دعوتكم المشرفة إلى عقد زواج الأنسة صفا. زادها الله مما وهبها من الفضائل بالشكر... إلى أن قال: وقد جاد عليّ ذهني الفاتر ببنت الفكر إلى البنت البكر فأرجو قبولها على عجرها وبجرها ولكم الشكر والفضل.

عَرَفْتُكَ ذَاتَ تَفَكُّيرٍ سَلِيمٍ
 وذَاتَ تُقَى وَلُطْفٍ مَعَ عَفَافٍ
 وَلَا عَجَبٌ بِجَمْعِكَ لِلْمَزَايَا
 جَمَالٌ مَعَ جَلَالٍ مَعَ كَمَالٍ
 فَإِنَّ أَبَاكَ شُهُمٌ أَلَمَعِيٌّ
 عَلَى عَيْنٍ وَحِيدَةٍ وَالِدَيْنِكَ
 أَفَادَتُكَ الْأُتُوثةُ مَعَ ثَلَاثِ
 خُصُوصاً صِنُوكِ الصَّافِي مُحَمَّدٍ
 لَقَدْ دَرَسَ الشَّرِيعَةَ وَهُوَ بَرٌّ
 مُحَمَّدٌ قَدْ هُدِيتَ لِحَيْرِ دَرْبٍ
 وَأَرْجُو اللَّهَ أَنْ تَحْظَى بِزَوْجٍ
 كَمَا أَرْجُو الْمُهَيِّمِينَ جَمْعَ شَمْلٍ
 عَسَى أَنْ نَسْتَعِينَ عَلَى الْأَعَادِي
 فَإِنِّي صَرْتُ فِي بَلَدِي غَرِيباً
 وَنَفْسِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ
 وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ تَهْيِئَةَ زَادٍ
 أَبُوكَ أَيَا صَفَا أَصْفَى صَدِيقٍ

وَجِدُّ نَابِذٍ لِلتَّرَهَاتِ
 وَإِيمَانٍ يَلُوحُ عَلَى السَّمَاتِ
 وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ
 وَحُسْنُ الذَّوْقِ مِنْ أَسْنَى الْهَبَاتِ
 وَأَمَّا مِنْ خِيَارِ الْأُمَمَاتِ
 لَقَدْ رُبِّيتَ خَيْرَ التَّرَبِّيَاتِ
 مِنَ الْإِخْوَانِ كُلُّهُمْ مُؤَاثِي
 سَلِيمِ الْقَلْبِ مُحَمَّدُ الصِّفَاتِ
 حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الدُّعَاةِ
 فِسْرٌ تَوَّاسُ دُونَ الْفَنَاتِ
 بَيِّتَ دِمَشْقَ مِنْ خَيْرِ الْبَنَاتِ
 وَإِنْهَا لَأَيَّامُ الشَّتَاتِ
 خُصُومُ الدِّينِ مِنْ قَبْلِ الْمَمَاتِ
 وَإِنْ أَلْقَى الْمَلَاقِي بِالْمَقَاتِ
 أَسْلَيْهَا بِأَحْلَى الذِّكْرِيَّاتِ
 وَلَا تَقْدِ تَقَوَّتَ بِالْفُتَاتِ
 وَكُفٍّ لَا يَمِيلُ إِلَى الدَّعَاتِ

حرف التاء

٣٧ - أشكو إلى مولاي

قاسيتُ مِنْ داءِ اللّٰثِه	أشْكُو إلى مَوْلَايَ مَا
وثأؤُها مثلاًثِه	آلِئْهُهَا وَلَائْهُهَا
أنفاسُها ملوْثِه	تَحْرِمْني مَا أَشْتَهِي
لِكُلِّ كَرْبٍ مُورِثِه	نَافِخَةٌ لِوَجْتي
مَعَ أَنَّهَا مُحْنَثِه	لَقَدْ أَقْضَيْتُ مَضْجِعي
وسِئْلُهَا مُؤْثَثِه	الضَّرْسُ فِيهَا ذَكَرُ
في هَامِتي مُبْتَحِثِه	صَبْرٌ جَمِيلٌ إِنَّهَا
يَكَادُ يُبْذِرُ رَفْثِه	ذُو الْحِلْمِ مِنْ آلِئْهَا
يُمَسِّي يُعَانِي عَبَثِه	وَصَاحِبُ الْجِدِّ بِهَا
مَا كَانَ يَقْضِي تَفْثِه	وَلَوْ رَمَتْ ذَا نُسْكِ
وَأَعْدَ وَعْدًا نَكْثِه	وَتَجَعَّلُ الْوَفَى لَوْ
لَوْ كَانَ يَلْقَى جَدَثِه	حَتَّى الْجَلِيدُ يَشْتَهِي
لَا ذُقْتُ يَوْمًا حَدَثِه	نَقِيرُهَا يَا خُلَّتِي
وَارْحَمْ وَصَحَّ حِثَثِه	يَا رَبُّ سَلِّمْ جَمْعَنَا
وَبَدَعْهُ مُسْتَحْدَثِه	وَعَافِه مِنْ فِتْنَةٍ

حرف الجيم

٣٨ - عرج على حرم الرسول^١

عَرَجَ عَلَى حَرَمِ الرَّسُولِ تَجِدُ بِهِ	نُورَ النُّبُوَّةِ مُشْرِقاً وَهَاجِياً
الْأَنْسُ وَالْبَرَكَاتُ فِي أَرْجَائِهِ	فَاسْتَسْقِ مَاءَ حَيَاتِهِ ثَجَّاجِياً
أَجْرُ الْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ مُضَاعَفٌ	وَالْمُؤْمِنُونَ تَوَافَدُوا أَفْوَاجِياً
فَاسْبِقْ لَتَحْصِيلِ الصَّلَاةِ بِرَوْضَةٍ	بَيْنَ الزَّحَامِ وَلَا تَخَفْ إِزْعَاجِياً

^١ بمناسبة زيارة المصطفى ﷺ.

٣٩ - سلمى ولبنى

سَلْمَى وَلُبْنَى وَلَيْلَى كُلُّهُنَّ لَمَنْ
يُبِضَاءُ زَهْرَاءُ خَوْذُ رَيْقُهَا عَسَلٌ
تَرْمِي فُؤَادِي سِهَامٌ مِنْ حَوَاجِبِهَا
وَطَيْفُهَا فِي اللَّيَالِي وَهِيَ رَاقِدَةٌ
أَمْشِي وَئِيداً وَفَكْرِي شَارِدٌ قَلِقٌ
يُظَنُّنِي النَّاسُ ذَا حِلْمٍ وَلَوْ عَلِمُوا
كُلُّ يُعْنِي عَلَى لَيْلَاهُ مُضْطَرَباً
أَحَبَّهَا مَاشِطَاتُ شَعْرَهَا الدَّاجِي
يِيدُو عَلَى لَعَسٍ مِنْ غَيْرِ مَكْيَاجٍ^١
تَسْطُو عَلَيَّ بِمَيَّاسٍ وَغَنَّاجٍ^٢
يَأْتِي إِلَيَّ بِأَضْغَاثٍ وَأَمْشَاجٍ^٣
يَا لَيْتَ سَعْيِي عَلَى ضَوْءٍ وَمِنْهَاجٍ
أَنِّي بِحَمَلِ الْهَوَى قَطَعْتُ أَوْدَاجِي^٤
لَكِنَّهُ غَيْرُ مَوْعُودٍ وَلَا رَاجِي

١ خَوْذُ: شَابَّةٌ نَاعِمَةٌ ، اللَّعَسُ: سَوَادٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي بَاطِنِ الشَّفَةِ.

٢ الْمَيَّاسُ: صَيْغَةٌ مَبَالِغَةٌ مِنْ مَاسٍ ، يُقَالُ مَاسٌ فَلَانٌ يَمِيسُ مَيَّسًا: تَبَخَّرَ وَاخْتَالَ ، وَهِيَ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مُقَدَّرُ تَقْدِيرِهِ قَدْ ، وَالْغَنَّاجُ مِنَ الْغَنَجِ وَالْغَنَّاجُ: الدَّلَالُ.

٣ الْأَضْغَاثُ جَمْعُ ضِغْثٍ ، مَا يُقْبَضُ عَلَيْهِ بِجُمُوعِ الْكَفِّ ، وَيُقَالُ: أَتَانَا بِأَضْغَاثٍ مِنَ الْأَخْبَارِ: بَضْرُوبٍ مُخْتَلِطَةٍ مِنْهَا. وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ: مَا كَانَ مِنْهَا مُلْتَبِسًا مُضْطَرَبًا يَصْعَبُ تَأْوِيلُهُ. وَالْأَمْشَاجُ: الْأَخْلَاطُ.

٤ الْأَوْدَاجُ: جَمْعُ الْوَدَجِ: الْوَدَاجُ: عَرَقٌ فِي الْعُنُقِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقْطَعُهُ الذَّابِحُ فَلَا تَبْقَى مَعَهُ حَيَاةٌ.

حرف الحاء

٤٠ - يا إلهي

يا إلهي ضاقَ الحِناقُ بِغَلِيٍّ	فأُئْلِنِي مِنْ أَسْرِ نَفْسِي سَراحاً
أَهْلَكْتَنِي نَفْسٌ غَوِيٌّ شَرُودٌ	قَطَعَتْ مَقْودِي وَنَدَّتْ جِهاحاً ^١
ضاعَ عُمْري فِي حَرْبِها وَهِيَ تَبْغِي	وَأُراني لا أَسْتَطِيعُ كِفاحاً
لَسْتُ قَرَمًا فَأَسْتَطِيعُ دِفَاعاً	ضالِعٌ عاجِزٌ فَقَدْتُ السَّلاحاً
ولا تَكِلْنِي إِلَيَّ ضَعِيفٌ	لَسْتُ أَرْجُو إِنْ لَمْ تُعِنِّي نِجاحاً
لَيْسَ لِي عَلَيْكَ حَقٌّ وَلَكِنْ	أُرَجِّي الخَيْرَ مِنْحَةً وَسِماحاً
أَنْتَ رَبِّي وَخالِقِي وَوَلِيِّي	أَبْدِلِ الخُسْرانَ رَبِّي رِباحاً
لَيْسَ صَعْباً عَلَيْكَ إِصْلاحُ حالي	أولَيْسَ الإِصْلاحُ أَمْرًا مُباحاً
فأَغْنِنِي يا مَنْ هَدَيْتَ فَضَيْلاً	وأَعْضِنِي مِنَ المِساءِ صِباحاً
وَاعْفُ عَنِّي وَاعْفِرْ سِوَالِفاً ذَنْبِي	رَبِّ وَاجْعَلْ سِوَرَ الحِياةِ صِلاحاً

١ غوى يغوي غياً وغواية فهو غاوي، وغويّ: ضلّ، وشَرَدَ شُروداً نَفَرَ، فهو شارد وشَرود، والمَقُود: القيادة: ما تقاد به الدابة من حبل ونحوه، ونَدَّ: نَفَرَ وشَرَدَ، وَجَّحَ الفرس جِهاحاً: عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه، فهو جامح: أي يأبى الانقياد.

يَوْمَ حَشْرٍ إِذَا الْجَمِيعُ أَشَاحَا
وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً وَفَلاَحَا
عِنْدَمَا يُكْثِرُ الْحُضُورُ نَوَاحَا

وَخِتَاماً أَحْسَنُ خِتَامِي وَكُنْ لِي
ثُمَّ حَبِّبْ إِلَيَّ لِقْيَاكَ وَارْحَم
ثُمَّ خُذْنِي أَفْتَرَّ ضِحْكَاً سُرُوراً

٤١ - أيها الكيس^١

جَدِّ التَّوْبَ عِلَّ ذَنْبِكَ يُمْحَى
مَعَ خَيْرِ الشُّهُورِ شَهْرِكَ صَلَاحَا
فِي رِيَاضِ الْجَنَانِ لَيْلاً وَصُبْحَا
لَا تُضَيِّعْ لِرَأْسِ مَالِكَ رِبْحَا
رَمَضَانَ التَّقَى لِمَنْ شَاءَ نُجْحَا
فَاطَوْ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ اللُّهُوِ كَشْحَا
فَهِيَ أَشْهَى اللَّذَاتِ طَعِماً وَنَفْحَا
بِسَخَاءٍ قَدْ فَازَ مَنْ يُوقُ شَحًّا
وَتَضَرَّعَ وَاطْلُبْ مِنَ اللَّهِ فَتْحَا
بِانْقِضَاءِ الْحَيَاةِ قَدْحاً وَمَدْحَا
وَتَعَسَّلَ وَاكْدَحْ لِرَبِّكَ كَدْحَا
وَالْتَمَسْ لِلْهُوَى لِحَاماً وَكَبْحَا

أَيُّهَا الْكَائِسُ الْمُؤَمِّلُ رِبْحَا
وَاعْتَنِمْ مَوْسِمَ السَّعَادَاتِ وَاعْقِدْ
نَهْنِهِ النَّفْسِ وَابْتَغِ الْخَيْرَ وَارْتَعِ
إِنَّ عُمْراً وَهَبَتْهُ رَأْسُ مَالٍ
لَا تُفَرِّطْ بِفُرْصَةِ الْعُمَرِ هَذَا
قَدْ أُعِدَّتْ مَوَائِدُ الْخَيْرِ فِيهِ
وَتَقَدَّمَ وَابْسِطْ يَدَيْكَ إِلَيْهَا
وَتَعَهَّذْ مَوَاطِنَ الْبِرِّ وَابْذُلْ
وَاسْأَلِ الْأَجَرَ مِنْ جَوَادِ كَرِيمٍ
عَادَ بَعْدَ الْغِيَابِ وَهُوَ نَذِيرٌ
فَتَشَمَّرْ لِلْمَوْتِ فَالْأَمْرُ جِدٌّ
هَذَا النَّفْسِ بِالْعِبَادَةِ وَاضِرٍ

١ بناء على طلب الصديق (من تواضع الشيخ) نذير صبح بمناسبة رمضان ١٤١٧ هـ [المصدر الثاني].

وَإِنْ فِي مَسَلِكِ التَّعَبُّدِ حُسْنًا
 وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَطِيرَ وَتَرْقَى
 كُنْ مَعَ اللَّهِ فِيهِ لَا تَرْجُ غَيْرًا
 يَا إِلَهِي إِنَّا اعْتَزْنَا وَتُبْنَا
 كُنْتَ فِي لَيْلٍ غَفَلَتِي فِي رُقَادٍ
 وَبَدَرِ الْعِصْيَانِ وَالْجَهْلِ قُبْحًا
 فَاسْتَعِزْ مِنْ جَوَانِحِ اللَّيْلِ جُنْحًا
 وَابْنِ مِنْ خَالِصِ التَّجَرُّدِ صِرْحًا
 فَاْمُنَحِ الْعَفْوَ يَا إِلَهِي مَنَحًا
 فَتَنَبَّهْتُ مُذْ أَتَى نَذِيرِي صُبْحًا^١

٤٢ - زار وقت الصباح

زَارَ وَقْتَ الصَّباحِ مِثْلَ الصَّباحِ
 إِنَّ حُبَّ الْمِلَاحِ طَبَعُ سَلِيمٍ
 عَشِقِي الْحُسْنَ مِنْ سَلَامَةِ طَبْعِي
 نَغْرُهُ بِاسْمٍ بِحُسْنِ لَمَاهُ
 وَجَنَّتَاهُ مِثْلَ الشَّقِيقِ وَأَحْلَا
 وَاشْتَهَتْ نَفْسِي الْعِناقَ لِطَبْيِ
 إِنَّ مَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ فَرِيدٍ
 كَانَ فِي الْقَلْبِ مِنْ جَفَاهُ قُرُوحٌ
 وَلَوْ جَدِي وَدَهَشْتِي وَابْتِهَاجِي
 وَنَوَى بِاللِّقَاءِ هَذَا افْتِضَاحِي
 لَيْسَ بِدَعَا فِي الْحُبِّ حُبُّ الْمِلَاحِ
 لَيْسَ عَارًا عَلَيَّ عِشْقُ الصَّباحِ
 وَثَنِيَاهُ نُضِّدَتْ كَالْأَقَاحِي
 مَذْ تَبَدَّى سَكِرْتُ مِنْ غَيْرِ رَاحِ
 وَحَلَالِي التَّقْبِيلُ قَبْلَ السَّاحِ
 قَدْ أَلَانَ الْقَرِيطُ لِلْمُدَاحِ
 فَإِذَا الْوَصْلُ بَلَسَمٌ لِحِرَاحِي
 بِلِقَائِهِ رَفَضْتُ رَفْصَ السَّاحِ

١ الأخ نذير صبح مُشِيدٌ وطالب علم ، كان يحب الشيخ كثيراً ، والشيخ يُعْجَبُ بِصِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ فِي الْمَحَبَّةِ.

حرف الدال

٤٣ - هذا عبيدك يا مهيمن

مُتَذَلِّلًا يَرْجُو السَّاحَةَ وَالنَّدَى	هَذَا عُبَيْدُكَ يَا مُهَيْمِنُ قَدْ أَتَى
يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى وَالْمُبْتَدَى	لَا يَرْتَجِي أَوْ يَخْتَشِي مِنْ غَيْرِكُمْ
مُتَضَرِّعًا مُتَفَائِلًا يَخْشَى الرَّدَى	قَدْ جَاءَ بِابِكَ تَائِبًا مُسْتَعْتَبًا
حَاشَا رَجَاءَ الْمُرْتَجِي يُلْغَى سُدى	وَجَزَاءَ مَنْ قَصَدَ الْكَرِيمَ كَرَامَةً
لِسُؤَالِهِ عَنْ مَا جَنَى فَقَدْ اهْتَدَى	مَنْ خَافَ مَوْقِفَهُ أَمَامَ إِلَهِهِ
لَا تُرْجَمَانِ لَهُ يُسَاعِدُهُ غدا	كُلُّ سَيِّئَةٍ تَعَالَى وَخُدَّه
ضَلَّ السَّبِيلَ عَنِ الْهَدَايَةِ وَاعْتَدَى	مَنْ شَكَّ فِي هَذَا الْمُثُولِ جِهَالَةً
طَوْبَى لِمَنْ لَبَّى وَقَدْ سَمِعَ النَّدَا	اللَّهُ نَادَى يَا عِبَادِي فَاتَّقُوا
لِنَكُونِ ضِمْنَ الْمُفْلِحِينَ عَلَى هُدَى	يَا رَبُّ أَصْلِحْ حَالَنَا وَتَوَلَّنَا
عِنْدَ اسْتِدَادِ الْحَرِّ إِذْ تَجْلُو الصَّدى ^١	وَاكْتُبْ لَنَا مِنْ حَوْضِ أَحَدِ شَرِبَةٍ

١ الشُّرْبَةُ بِالضَّمِّ: مِقْدَارُ مَا يُرْوَى مِنَ الْمَاءِ، وَبِالْفَتْحِ: الْمَرَّةُ مِنَ الشُّرْبِ، وَالْجُرْعَةُ.

٤٤ - لم توف عهدي

صَحِبْتَ غَيْرِي وَإِنِّي لَمْ أُرِدْ أَحَدًا	لَمْ تُوفِ عَهْدِي وَلَمْ تَسْتَبِقْ لِي جَلَدًا
أَمَا تُرَاقِبُ فِي الْوَاحِدِ الصَّمَدَا	يَا قَاتِلِي بِالتَّوَارِي دُونَ مَرْحَمَةٍ
مَنْ كَفَّ كَفَّكَ عَنِّي شَلَّ مِنْهُ يَدَا	مَدَدْتُ كَفَّ وَدَادِي كَيْ أَصَافِحُكُمْ
تَزِدَادُ مِنِّي بُعْدًا لَمْ يَكُنْ عَهْدَا	أَكْلَمَا زِدْتُ مِنْ عَلَيْكَ مَقْرَبَةً
تُرِيدُ قَتْلِي بِهَجْرَانِي ؟ لَايِّ مَدَى !	فَمَا وَرَاءَكَ قُلُّ لِي أَيَّ عَادِيَةٍ
يَكُونُ عَيْشُكَ بَعْدِي نَاعِمًا رَغْدَا	وَهَلْ إِذَا ذُبْتُ شَوْقًا يَا أَخَا مِقْتِي
فَانْعَمْ وَأَنْجَزْ حُرَّ الْحُبِّ مَا وَعَدَا	إِنْ كَانَ تَعْذِيبُكَ الْعُشَّاقَ أَمْنِيَّةً
يَدَايَ وَالرُّوحَ مِنِّي وَالْفَوَادُ فِدَا	فَقَدْ هَوَيْتُ الَّذِي تَهْوَى، وَمَا مَلَكَتْ

٤٥ - ضيعوني وأي خل أضاعوا

كَيْفَ حَالِي مِنْ بَعْدِ مَا صَرْتُ فَرْدَا	كَلِمَيْنِي يَا دُؤْمِيَّتِي وَسَلِينِي
وَعَزَّتْنِي الْأَحْزَانُ جُنْدًا فَجُنْدَا	وَجَفَانِي أَهْلِي وَخَانَ صَحَابِي

١ كتبها في ١٥/١٢/١٩٥٤م بعد وفاة زوجته الأولى ، وقد كان صورها أخوها فأمسك الشيخ الصورة وخاطبها [المصدر الأول].

كُنْتُ أَخْشَى الْأَعْدَاءَ مِنْ بَيْنِ قَوْمِي
 ضَيَّعُونِي وَأَيَّ خَلٍّ أَضَاعُوا
 وَتَرَكْتُ الْجَمِيعَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ
 وَاخْتَبَرْتُ الْأَصْحَابَ وَضَلًّا وَقَطْعًا
 تَيَمَّمْتَنِي الْكُرُوبُ حَتَّى تَرَانِي
 لَمْ أَجِدْ مِنْ بَعْدِ بَحْثٍ وَصِرٍ
 صَاحِبًا صَالِحًا جَوَادًا وَدُودًا
 فَإِذَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ كَرِيمًا
 أَيُّ حُرٍّ يَبِينُنِي مِنْ وَفٍّ
 وَإِيْمُنٍ الْحَقُّ لَمْ أَصَادِفْ خَلِيلًا
 لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ صَحْبِي
 فَهَنِيئًا لِمَنْ يَمُوتُ جَنِينًا
 وَيَحْ نَفْسِي مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَلَيَّ
 يَعْرِفُونَ الْإِلَهَ رَبًّا قَوِيًّا
 لَوْ يَشَاءُ الْجَلِيلُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ
 كُلُّنَا لَمْ يَقُمْ بِشُكْرِ الْإِيَادِي
 فَتَفَضَّلْ يَا رَبِّ بِالْعَفْوِ عَنَّا
 لَيْسَ صَعْبًا عَلَيْكَ إِصْلَاحُ حَالِي
 وَارْعَ ذُلِّي لَا تَكْشِفِ السُّتْرَ عَنِّي

فَرَأَيْتُ الْأَصْحَابَ وَالْأَهْلَ أَعْدَى
 فَبَدَا لِي أَنْ أَجْعَلَ الْكُلَّ ضِدًّا
 إِذْ رَأَيْتُ الْأَخْصَامَ فِي الْبَحْثِ لُدًّا
 فَرَأَيْتُ الْهَجْرَانَ وَالْبُعْدَ أَجْدَى
 كَفَرَاشٍ بَلْ ذَاكَ لِلنُّورِ أَهْدَى
 مَنْ يَفِي الْوِدْثُمَّ يَحْفَظُ عَهْدًا
 وَلِيَوْمِ الْأَكْثَادِ رِذَاءٌ مَعْدًا
 سَرَّاهُ أَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى
 فَهُوَ بِالرُّوحِ وَالنَّفْسِ يُفْدَى
 بَيِّدَ أَيْ جَرَّبْتُ شَيْبًا وَمُرْدًا
 مِنْ بَنَازِي الْقَرْزَيْنِ بِالْقَطْرِ سَدًّا
 وَهَيْئًا لِمَنْ تَوَسَّدَ لِحْدًا
 وَيُمْدُ الْأَعْدَاءَ بِالْخَيْرِ مَدًّا
 ثُمَّ يَدْعُونَ لِلْمُهَيْمِنِ زِدًّا
 لَمْ يُخْلَفْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ عَبْدًا
 كَسْلَانٌ أَوْ جُحُودًا وَعُنْدًا
 وَتَدَارِكُ يَا فَالِقَ الصَّخْرِ وَرْدًا
 فَاغْفُ عَنِّي يَا مُنِيبَ الشُّوكِ وَرْدًا
 يَوْمَ نَأْتِيكَ فِي الْقِيَامَةِ وَفَدًا

٤٦ - تشطير طرقت باب الرجا

طَرَقْتُ بَابَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا	وَلَيْسَ يُؤْنَسُ إِلَّا الْوَاحِدُ الصَّمَدُ
ذَكَرْتُ هَمِّي وَتَقْصِيرِي وَمَسْكَتِي	وَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مُوَلَايَ مَا أَحَدُ
وَقُلْتُ يَا أَمَلِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ	وَلَيْسَ يَنْفَعُ إِلَّا أَنْتَ يَا أَحَدُ
فَأَنْتَ مَنْ يَرْجِي الْعَانِي عِنَايَتَهُ	وَمَنْ عَلَيْهِ لِكُشْفِ الضَّرِّ اعْتِمَادُ
لَقَدْ بَسَطْتُ يَدِي بِالذُّلِّ خَاضِعَةً	إِلَى الَّذِي يُرَجِّي مِنْ جُودِهِ الْمَدَدُ
مَدَدُهَا وَهِيَ صَفْرٌ وَهِيَ ضَارِعَةٌ	إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
فَلَا تَرُدَّنَّهَا يَا رَبُّ خَائِبَةً	وَأَقْسَمَ لِبَاسِطِهَا مِنْ سَهْمٍ مَنْ سَعِدُوا
إِنْ كَانَ حَرُّ الْأَسَى يُضْلِيهِ مِنْ ظَمَأٍ	فَبَحْرُ جُودِكَ يَرْوِي كُلَّ مَنْ يَرُدُّ

٤٧ - كيف أنسى ١؟

كَيْفَ أَنْسَى فِي الدِّيَارِ عَهْدُ
لَسْتُ أَسْأَلُو وَقَدْ قَضَيْنَا عُقُوداً
مَالاً الْقَلْبَ حُبُّهَا وَاضْطَفَاها
لَا تُحِبُّ الشَّحْنَاءُ ، طَوْعُ بَنَانِي
أَنْجَبَتْ لِي ثَمَانِيَا زَوْجَتَهُمْ
وَبَنَاتِي ضَمَمَنَ لِي مِنْ ذُكُورٍ
كُلُّهُمْ أَوْ كُلُّهُنَّ ذَكِيٌّ
هَكَذَا أَنْعَمَ إِلَهُ عَلَيْنَا
وَأَرَادَ إِلَهُهُ وَهُوَ حَكِيمٌ
وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ رَبُّنَا قَدْ رَضِينَا
خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ وَلَكِنْ
كَتَبَ الرِّزْقَ وَالْمَعِيشَةَ لَنَا
إِنَّ كَأْسَ الْمُنُونِ وَهُوَ زُؤَامٌ
قَدْ خُلِقْنَا لِلْمَوْتِ لَا لِلْخُلُودِ
رَحْلَةً هَذِهِ الْحَيَاةَ وَفِيهَا

ذَكَرِيَّاتٌ إِذَا تَنَاءَتْ تَعُودُ
كُلَّ يَوْمٍ كَانَ الْوِدَادُ يَزِيدُ
كَيْفَ لَا وَهِيَ الْوُدُودُ الْوَلُودُ
وَلَهَا فِي النَّسَاءِ رَأْيٌ سَدِيدُ
أَرْبَعٌ مِنَ الذُّكُورِ أَسْوَدُ
أَرْبَعاً أَرْوَاجُهُنَّ الشُّهُودُ
لَيْسَ فِيهِمْ أَوْ فِي الْبَنَاتِ بَلِيدُ
وَإِذَا شَاءَ رَبُّنَا الْعَطَاءُ يَجُودُ
قَبْضُهَا وَهُوَ فَاعِلٌ مَا يُرِيدُ
إِنَّا لِلْإِلَهِ خَلَقٌ عَيْنِدُ
كُلُّ حَيٍّ فَعْمُرُهُ مَحْدُودُ
كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ الْمُؤْلُودُ
وَهُوَ مُرٌّ لِكُلِّنَا مَوْزُودُ
وَلَوْ أَنَّ الْأَعْمَارَ مِنْهَا الْمَدِيدُ
مُشْكِلَاتٌ نَعِيْمُهَا مَكْدُودُ

١ ترجم على الزوجة نوره. [المصدر الثالث]

هَذِهِ الدَّارُ وَهِيَ دَارُ امْتِحَانٍ
 هِيَ لِلزَّرْعِ وَالْحَصَادِ بَدَارُ
 زَارِعُ الْخَيْرِ قَاطِفٌ مِنْ جَنَاهُ
 مُطْمَئِنٌّ مُنْعَمٌ فِي حُبُورِ
 تِلْكَ دَارِ الْخُلُودِ لَا مَوْتَ فِيهَا
 فَلْأَهْلِ التَّقَى نَعِيمٌ مُقِيمٌ
 يَا إِلَهِي اشْمَلْنَا بِعَفْوِ جَمِيعاً
 وَاجْمَعْ الشَّمْلَ بِالْجَنَانِ فَإِنَّا
 وَالِدُونَا أَرْوَاجُنَا وَأَخُونَا
 لَا تُقَدِّرْ مِنَّا شَقِيئاً بِفَضْلِ
 أَنْتَ يَا رَبُّ عَالِمٌ بِالنَّوَايَا
 إِنَّنَا لَا جِئُونَ لِلْعَفْوِ عَنَّا
 لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ أَيَا مَنْ
 مَنْ تَعَامَى عَنْ نَقْصِهِ وَجَفَاهُ
 كُنُّنَا لِلْغَنِيِّ جَلَّ عُلَاهُ
 فَأَجِرْنَا مِنَ الْعَذَابِ إِلَهِي
 قَدْ لَجَأْنَا إِلَيْكَ إِنَّا ضِعَافُ
 لَا تُخَيِّبْ آمَالَنا يَا رَحِيماً
 قَدْ نَزَعْنَا عَنَّا ثِيَابَ التَّجَنِّي

مَنْ يَعِشْهَا بِلا تُقَى لَا تُعِيدُ
 نَحْنُ فِيهَا بِلا فَنَاءٍ خُلُودُ
 فِي جِنَانٍ وَظِلُّهَا مَمْدُودُ
 وَسِوَاهُ لَمَّا تَلَطَّيْ وَقُودُ
 وَلِكُلِّ حِسَابِهِ الْمَعْدُودُ
 وَلِأَهْلِ الشَّقَا عَذَابٌ شَدِيدُ
 أَنْتَ يَا خَالِقِي الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ
 فَرَقَنْتَنَا الْآجَالَ وَالْمَوْعُودُ
 وَبَنَوْنَا أَعْمَامُنَا وَالْجُدُودُ
 كُنُّنَا إِنْ عَفَوْتَ فَهُوَ سَعِيدُ
 وَلَدَيْنَا دُوماً رَقِيبٌ عَتِيدُ
 مَا أَضَعْنَا وَمَا اقْتَرَفْنَا عَدِيدُ
 يَبْدَأُ الْخَلْقَ لِلْفَنَاءِ وَيُعِيدُ
 طَالِباً لِلنَّعِيمِ فَهُوَ طَرِيدُ
 فُقَرَاءٌ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ
 يَا رَجَانَا أَنْتَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ
 فُقَرَاءٌ وَعَوْنُكَ الْمَقْصُودُ
 فِي رَحَابِ الرَّحْمَنِ إِنَّا قُعُودُ
 وَلِبَاسُ التَّقْوَى لِبَاسٌ جَدِيدُ

٤٨ - مياسة القدّ

دَعِينِي أَزْكِ النَّفْسَ بِاللّهِ غَادِي
دَعِينِي فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى التَّقَى
وَلَمْ أَنْسَ أَنَّ الْوَجْهَ مازَالَ مُشْرِقاً
وَلَكِنِّي أَزَمَعْتُ أَنَّ أَذْكَرَ الْبَلَا
لَقَدْ قَامَ فَوْقَ الرَّأْسِ وَالْخَدَّ مُنْذِرٌ
وَقَدْ هُدِمَتْ مِنْ صَرْحِ عُمْرِي دَعَائِمُ
تُنَادِيهِ أَجْوَاءُ السَّمَاءِ وَدِيكُهَا
وَتُمْسِكُ آلَاءَ الْإِلَهِ بِذَيْلِهِ
فِيهَا هَائِمٌ اسْتَرْجَعَ فَأَنْتَ مَغَامِرُ
عَمِلْتُ مِنَ الطَّاعَاتِ نَزْراً أَعَدُّهُ
وَكَانَ لِنَفْسِي عَنْ دُجَى الْغَيِّ زَاجِرُ
وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ لِلذِّكْرِ وَالتَّقَى
وَقَدْ صَاحَ دَاعِي الْخَيْرِ يَا نَفْسُ فَارْعَوِي
فَقَدْ أَنَا لِي أَنَّ أَسْتَفِيقَ مِنَ الْوَجْدِ
وَإِنْ كُنْتُ نَجَلاً الْعَيْنِ مِيَاسَةَ الْقَدِّ
وَذَاكَ الشَّابُّ الْغَضُّ أَوْ زَهْرَةُ الْخَدِّ
وَأَثَرْتُ حُورَ الْعَيْنِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
يُنَادِي بِأَنَّ الْأَمْرَ آلَ إِلَى الْجَدِّ
وَمَا زَالَ قَلْبِي نَاسِي الْمَوْتِ وَاللَّحْدِ
يَصِيحُ أَفْقُ يَا غُرٌّ مِنْ نَوْمَةِ الْفَهْدِ
وَلَكِنَّهُ الْوُلْهَانُ سَمِعَ بِلا رَدِّ
وَعُدَّ بِالَّتِي أَوَّلَى مِنَ الْمُقْتِ وَالطَّرْدِ
وَلَكِنِّي خَالَفْتُ رَبِّي بِلا عَدِّ
وَلَكِنَّهَا مَا بَيْنَ جَزْرِ إِلَى مَدِّ
مُيَسِّرُهُ يَهْدِي الْجَمِيعَ إِلَى الرُّشْدِ
وَهَذَا أَوَانُ الْجَدِّ وَالشَّدِّ فَاشْتَدِّي

أَشِيجِي عَنِ الْعِصْيَانِ جَهْلًا وَبَدَلِي
وَعُودِي إِلَى خَوْفِ الْإِلَهِ لِتَأْنَسِي
وَسِيرِي عَلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ وَضُوئِهِ
أَلَمْ تَيَأْسِي مِنْ كُلِّ سَعْيٍ وَخِطَّةٍ
أَمَا تَذْكُرِينَ النَّشْرَ وَالْحِشْرَ بَعْدَهُ
وَهَلْ مُحْسِنِينَ اللَّهُ أَنْشَأَ خَلْقَنَا
تَعَالَى عَنِ الْإِنْشَاءِ مِنْ غَيْرِ حِكْمَةٍ
تَعَالَى أَحَاسِبُ إِنَّ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ
تَعَالَى نُقَدِّمُ لِلتَّغَابُنِ فِي غَدٍ
فَرَبِّي كَرِيمٌ قَابِلُ التَّوْبِ غَافِرٌ
وَأَبْوَابُهُ مَفْتُوحَةٌ غَيْرَ أَنَّي
فِي رَبِّ سَاحِجِي وَسَلِّمْ عَقِيدَتِي

أَذَى النَّتَنِ بِالْحِنَاءِ وَالْمِسْكِ وَالنَّدَى
بُنُورِ التَّقَى فَالْأَمْنُ فِي خَشْيَةِ الْفَرْدِ
فَنُورُ الْهُدَى بَادٍ لِمَنْ جَاءَ يَسْتَهْدِي
أَلَمْ تَيَأْسِي أَنَّ التَّخَبُّطَ لَا يُجْدِي
وَأَيَّ سَأَلْتَنِي اللَّهُ يَسْأَلْنِي وَخُدي
سُدَى عِبْنًا مِنْ غَيْرِ رَجْعِي وَلَا نَقْدِ
وَمِنْ مُقْتَضَى الْعَدْلِ الْجَزَاءُ عَلَى الْكَدِّ
هُوَ الْكَيْسُ الْحَاضِي عَلَى طَالِعِ السَّعْدِ
وَحَاشَا يُجَازِي طَالِبُ الْعَفْوِ بِالْصَّدِّ
وَإِنِّي فَقِيرٌ طَالِبُ الْعَفْوِ مُسْتَجْدِي
رَمْتَنِي يَدُ الْعِصْيَانِ بِالذُّلِّ وَالْبُعْدِ
وَبُتَّ جَنَانِي بِالْهُدَى آخِرَ الْعَهْدِ

٤٩ - في أهل الغبانه

رَعَا النَّاسَ كَالْأَنْعَامِ لَكِنْ
وَلَا تَسْقِي لَنَا حَرْثًا زَرَعْنَا
مُسَلَّمَةً إِلَى الشَّيْطَانِ تَجْزِي
ذئَابٌ أَوْ كِلَابٌ قَدْ تَرَدَّتْ
لَقَدْ لَبِسُوا ثِيَابَ الزُّورِ سُودًا
وَمَنْ يَهْدِ إِلَهُ فَلَا مُضِلٌّ
فَلَا تَأْمَلْ بِهِمْ خَيْرًا وَدَعْهُمْ
وَهَلْ تُصْغِي لَكَ الْأَمْوَاتُ سَمْعًا
فَلَسْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الثَّرَى بَلْ
إِذَا أَهْمَلْتَهُمْ سَادُوا وَقَادُوا
وَأِنْ مَا سُقْتَ مَوْعِظَةً تُرْجِي
أَلَا يَأْتِيهِمْ هَدًى خَبَاهُمْ
فَهَذَا مَا حَكَمْتُ بِهِمْ فَلَبُّوا
وَمَا أَنَا بِفَارِضٍ فَيُكْمُ وَلَكِنْ

تُثِيرُ الْأَرْضَ مِنْ قَتَمِ الْفَسَادِ^١
بِهِ كِي نَهْتَدِي حَبَّ الرَّشَادِ
وَهَلْ يُجْنَى الْخَيْرُ مِنَ الْقِتَادِ^٢
بِأَرْذِيَةِ السَّرَّاءِ مِنَ الْعِبَادِ
فَلَا شَيْءَ بِهَا غَيْرُ الْعِنَادِ
وَمَنْ يُضِلُّ فَلَسْتُ لَهُ بِهَادِي
وَأِنْ شِئْتَ الْعَنَافَ صَرِخَ بِوَادِي
وَهَلْ يَشْوِي الْقَرَى نَفْحُ الرَّمَادِ^٣
وَلَسْتُ بِسَابِقِ عَدُوِّ الْجَوَادِ
وَقَدْ حَكَّمُوا بِنَا غَيْرَ السَّادِ
هُدًى سَلَقُوا بِالسَّنَةِ حِدَادِ^٤
وَذُرُّوا طَحْنَهُمْ ذَرَّ الشَّهَادِ
وَقُولُوا جِئْتَ بِالْحَقِّ الْمَفَادِ
عَوَانٌ قَدْ أَبْنَتْ لَكُمْ مُرَادِي^٥

١ الرَّعَاع: الغوغاء من الناس، والقَتَم: الغبار الأسود.

٢ القِتَاد: نبات صلب له شوك كالإبر، يُقال له الخَشَاب، وفي المثل "دونه خرط القِتَاد" يضرب لما لا يُنال إلا بمشقة شديدة.

٣ القرى: طعام الضيفان.

٤ سَلَقَ فَلَانًا بِكَلَامِهِ: آذاه، ومنه قوله سبحانه "فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد".

٥ الحَبَاء بالكسر: بيت من وَبَرٍ أو شعر أو صوف، خيمة، والشَّاد: ماء المطر تحت الرمل، يُذْهِبُهُ حَرُّ الصَّيْف، أو هو ماء قليل.

٦ الفَارِض: من فَرَضَت البقرة: طعنت في السِّنِّ وكَبُرَتْ، والعَوَان: المتوسِّطة في السِّنِّ.

٥٠ - قَللَ أَخِيَّ مِنَ الْمَزَاحِ

قَلَّ أَخِيَّ مِنَ الْمَزَاحِ فَإِنَّهُ
وَالسَّقْطُ يُدْفَنُ فِي الثَّرَى وَعِقَابُهُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ مُخَلَّقٍ وَنَقِيضِهِ
فَالْمَزْحُ مِثْلُ الْمِلْحِ يُصْلِحُ قَلْبَهُ
سَقَطَ الْكَلَامِ وَنَابَشُ الْأَحْقَادِ
أَوْ أَجْرُهُ يُقْضَاهُ يَوْمَ مَعَادِ
وَكُلَاهُمَا لَيْسَا مِنَ الْأَوْلَادِ
وَإِذَا تَكَاثَرَ عَادَ لِلْإِفْسَادِ

٥١ - إِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ

إِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ فَعِشْ وَحِيداً
فإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الشَّرَّ يُرْبُو
لَقَدْ مَرَدَ الْكَثِيرُ عَلَى نِفَاقِ
فإنْ فَشِلَ النِّفَاقُ وَلَمْ يُفْوزُوا
نَعَمْ مُلِئْتُ قُلُوبُ النَّاسِ حِقْداً
فَلَا يُنَارُ بَلْ لَا عَدْلَ حَتَّى
وَلَا تَطْمَعُ بِإِصْلَاحِ الْفَسَادِ
وَأَسْبَابُ الضَّلَالَةِ بَارِذِيَادِ
وَفَازُوا فِي مُصَانَعَةِ الْوِدَادِ
بِهِ سَلَقُوا بِالْأَسِنَّةِ حَدَادِ
وَكُلُّ يَبْتَغِي نَيْلَ الْمُرَادِ
وَلَا سَمْعاً لِمَوْعِظَةِ الرَّشَادِ

كُمُورِي النَّارِ مِنْ نَفْخِ الرَّمَادِ	وَنُصْحِ النَّاصِحِينَ لَهُمْ بَوَارِ
أَوِ الْمُسْتَصْرِخِينَ بِبَطْنِ وادي	أَوِ الرَّاجِي بِيَوْمِ الْقَيْظِ عَيْثًا
لِغَيِّ الْخَاطِئِينَ وَلِلْعِنَادِ	وإنَّ مَحَبَّةَ الدُّنْيَا أَسَاسٌ
فَكَيْفَ إِذَا الْخِرَابُ لَهُ أَيَادِي	إِذَا غَلَبَ الْبُنَاةَ يَدَا خِرَابٍ
فَغِبَّ عَنْهُ وَأَنْكَرُ فِي الْفَوَادِ	فَإِنْ أَغْيَاكَ نُكْرٌ فِي نَدِي
ضَنَى كَرْبٍ دَوَاءُ الْإِبْتِعَادِ	وَأَشْفَى لِلنَّفُّوسِ إِذَا اعْتَرَاهَا
فَسَلَّمَهَا إِلَى رَبِّ الْعِبَادِ	فَمَا لَكَ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْءٌ
وَسَلَّهُ رَحْمَةً يَوْمَ التَّنَادِ	وَسَلْ مَوْلَاكَ تَوْفِيقًا وَيُسْرًا
فَرُبُّكَ وَخَدَهُ كَافٍ وَهَادِي	وَلَا تَطْلُبْ مِنَ الْمُخْلُوقِ عَوْنًا

٥٢ - بَرَحَ الْوَجْدِ فَوَادِي

وَحَبِيبِي فِي تَمَادِي	بَرَحَ الْوَجْدُ فَوَادِي
فَرَّ مِنْ عَيْنِي رُقَادِي	كُلَّمَا وَاْعَدَ وَضَلَّ
رَاصِدًا نَيْلَ الْمُرَادِ	أَسْهَرَ اللَّيْلَ ابْتِهَاجًا
يَتَلَيَّنِي بِالسُّهَادِ	فَإِذَا الْوَعْدُ كَلَامٌ

جَرَرْنِي حَبْلُ الْوَدَادِ
حِينَ انْفَقْتُ فَوَادِي
فَلَهُ عُنْدِي أَيَادِي
رَحْمَةٍ بَيْنَ الْعِبَادِ
فَشَفِيئُهُ بِالْجَمَادِ
وَقَضَيْتُ الْعُمْرَ صَادِي
سَالِكُ دَرْبِ السَّادِ
وَنَعِيمٌ بِطَارِدِ
أَجْرُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ
لَا بِأَكْلٍ وَمِهَادِ
فَنَيْتُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
أَشْغَلَهُ جَمْعُ الْعِتَادِ
مَوْلَعٌ بِالْإِزْدَادِ
ذَهَبَ مِقْدَارُ وَادِي
نَافِخٌ وَسَطَ الرَّمَادِ
وَهَادَانَا لِلرَّشَادِ
عَفْوُهُ يَوْمَ التَّنَادِ
وَمَوَ غَفَّارٌ وَهَادِي

٥٣ - تألبوا حولي يا أحفادي

أَسْأَلُكُمْ بِكُمْ مَسَالِكِ الرَّشَادِ
إِنِّي إِلَى رُؤْيَاكُمْ لَصَادِي
فَاسْتَصِحِّحُونِي فَلَذَّةَ الْأَكْبَادِ
وَأَنْ أَكُونُ أَنْصَحَ الْأَجْدَادِ
لَا تُبْتَلِ بِالزُّهْدِ وَالْكَسَادِ
لَكِنْ عَلَى الْمُهَيِّمِينَ اعْتِمَادِي
وَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ مِنْ حُسَّادِ
وَكُونُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الزُّهَّادِ
رَاجِينَ عَفْوَ بَارِي الْعِبَادِ
حَتَّى تَكُونُوا أَسْعَدَ الْأَوْلَادِ
تَنْحَرَفُوا عَنْ سُبُلِ السَّادِ
أَغْنَى مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَتَادِ
كَمْ بَيْنَ جَرِي النَّمْلِ وَالْجَوَادِ
وَالْفُوزِ وَالْإِسْعَادِ لِلْعَبَّادِ
يَوْمَ الْجَزَا يَا حَسْرَتَاهُ يُنَادِي
وَمِنْهُمْ مَوْفِرُ عَوْنِ ذُو الْأَوْتَادِ
وَاسْتَوْصَلَتْ شَأْفَةُ قَوْمِ عَادِ
وَاسْتَكْثَرُوا الْفُسَادَ فِي الْبِلَادِ

تَأَلَّبُوا حَوْلِي يَا أَحْفَادِي
عَلَيَّ أَرَاكُمْ سَالِمِينَ أَحِبَّةً
تَسْعِينَ عَامًا بِالتَّجَارِبِ عَشْتُهُا
أَمَلُ أَنْ تَنْفَعَكُمْ نَصِيحَتِي
وَأَنْ تَرُوجَ عَنْدَكُمْ بِضَاعَتِي
وَلَيْسَ أَسْلُوبُ الْكَلَامِ عُمْدَتِي
أَحْمَدُ مَنْ عَمَّرَنِي وَخَصَّنِي
كُونُوا حَرِصِينَ عَلَى أَخْرَاكُمْ
عَلَى الصَّلَاةِ كُلِّ وَقْتٍ حَافِظُوا
لَا تَكْسَلُوا ثُمَّ اسْتَقِيمُوا وَاصْبِرُوا
وَاجْتَهِدُوا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَلَا
الْعِلْمُ عِلْمُ الدِّينِ أَعْلَى شَرَفًا
حَاشَا يَنَالُ الْفُوزَ نَذْلَ خَامِلٍ
مَنْ يَجْتَهِدُ يَحْضُلُ عَلَى مَا قَدْ نَوَى
أَمَّا الْمَفْرُطُ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّقَى
قَدْ أَهْلَكَ الطَّاغُونَ فِي دُنْيَاهُمُ
كَذَلِكَ النُّمْرُودُ فِي اسْتِعْلَائِهِ
مَا حَالَهُمْ يَوْمَ الْجَزَا إِذْ قَدْ عَتَوْا

قَدْ مُلَّتْ أَرْضُ الثَّرَى مِنَ الْوَرَى
فَاتَّعَظُوا بِمَنْ مَضَى أَحْفَادِي
وَأَضْمِرُوا الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ لِكَي
لَا تَحْسِبُوا الْأَسْرَارَ تَخْفَى دَائِمًا
يُضْحِكُهَا تَزَا حُمُ الْأَضْدَادِ
وَحَازِرُوا الْوُقُوعَ فِي الْفَسَادِ
تُهِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ الْهَادِي
لَا بُدَّ أَنَّ السَّرَّ يَوْمًا بَِادِي

٥٤ - خَلِّ دَمْعِي يَطْفِي لَهَيْبِ فُؤَادِي^١

خَلِّ دَمْعِي يَطْفِي لَهَيْبِ فُؤَادِي
فَارَقْتَنِي زَوْجٌ وَدُودٌ وَلُودٌ
إِنِّي مُرَهَفُ الْمَشَاعِرِ جَدًّا
وَصَفُّوْا لِي السُّلُوءَ وَالصَّبْرَ عَنْهَا
كَلَّمَا رُمْتُ أَصْرَفَ الْفِكْرِ عَنْهَا
غَلَبَنِي لَوَاعِجُ الْوَجْدِ حَتَّى
أَنَا فِي يَقْظَتِي أَفْكُرُ فِيهَا
هِيَ عِرْسِي فَقَدْتُهَا وَهِيَ أَنْسِي
وَالْتَمَسْتُ لِي عُذْرًا فَلِئِي وَفِيَّ
أَنَا لَا أَجْهَلُ الْحَقِيقَةَ لَكِنْ
فَهُوَ لَا زَالَ زَائِدًا فِي اتَّقَادِ
لَمْ أَذُقْ بَعْدَهَا صِفَاءَ الْوِدَادِ
لَيْسَ قَلْبِي مَكُونًا مِنْ جِهَادِ
وَأَنَا مَعَ عَوَاطِفِي فِي جِهَادِ
زَادَ وَجْدِي وَلَوْعَتِي فِي ارْتِدَادِ
عِشْتُ فِي حَسْرَةٍ لِيَوْمِ التَّنَادِ
وَأَرَاهَا فِي النَّوْمِ عِنْدَ الرُّقَادِ
لَا تَلْمِزْنِي يَا عَاذِلِي فِي التَّمَادِ
وَإِذْ عَلِي بِالْعَوْنِ رَبَّ الْعِبَادِ
مَا بِمَلِكِي قَلْبِي وَأَرْجُو رَشَادِي

١ في رثاء زوجته الحاجة نوره.

٥٥ - خلني يا خلي أخلو بخلي

خَلَّنِي يَا خَلِيَّ أَخْلُو بِخَلِيٍّ	في غياباتِ فِكْرَتِي وفُؤَادِي
أَنْتَ تَلْهُو مِنْ غَيْرِ هَمٍّ بِوَادٍ	وأنا في لظى الغرامِ بِوَادٍ
خَلَّنِي لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ	جَبَلْتُ طَيِّتِي بِمَاءِ الْوِدَادِ
أَنْتَ فِي التَّيِّهِ ثُمَّ تَزْعُمُ عِيِي	مَعَ أَنِّي سَلَكْتُ دَرْبَ الرَّشَادِ
صَحَّحَ الْحُكْمَ إِنَّ حُكْمَكَ جَوْزٌ	سَوْفَ تَهْوَى إِذَا فَهَمْتَ مُرَادِي

٥٦ - دع الصب يا خالي

دَعِ الصَّبَّ يَا خَالِي يَهَيِّمُ مِنَ الْوَجْدِ	ودع لَوْمَهُ فاللَّوْمُ في الحُبِّ لَا يُجِدِي
وخالِطْ أَخِلَاءَ الْغَرَامِ تَكُنْ بِهِمْ	عشيقاً فَإِنَّ الْعِشْقَ سُرْعَانَ مَا يُعْدِي
فَإِنْ ذُقْتَ مَا ذَاقُوا سَلَكْتَ سَبِيلَهُمْ	وهَمَّتْ كَمَا هَامُوا بِوَرْدِيَةِ الْخَدِّ
وَدُوْدٌ شَرُودٌ رُبْعَةُ الطُّولِ بَضَّةٌ	كَعُوبٌ هُضِيمٌ الْكَشْحُ مَمْشُوقَةُ الْقَدِّ

١ الشُّرُودُ: مَنْ تَنَفَّرَ وَتَنَدَّدَ وَتَجَمَّعَ ، فَلَا تَقْبَلُ الْخُضُوعَ ، وَلَا تَسْتَجِيبُ وَلَا تَنْقَادُ.

وَالرُّبْعَةُ: الْمَرْأَةُ مَتَوَسِّطَةُ الطُّولِ ، وَالْبَضَّةُ: مِمْتَلِئَةُ الْجَسَمِ ، نَضْرَةُ الْجِلْدِ ، وَالْكَعُوبُ: مَنْ ارْتَفَعَ صَدْرُهَا ، وَهُضِيمٌ: الْمَهْضُومُ ، وَمِنَ النِّسَاءِ: لَطِيفَةُ الْكَشْحِينَ ، يُقَالُ: هُضِمَ: خُصَّ بَطْنُهُ وَلَطُفَ كَشْحُهُ ، وَالْكَشْحُ: مَا بَيْنَ الْخَاصِرَةِ وَالضُّلُوعِ ، وَقَدْ مَمْشُوقٌ: طَوِيلٌ مَعَ دِقَّةٍ ، وَجَارِيَةٌ مَمْشُوقَةٌ: حَسَنَةُ الْقَوَامِ قَلِيلَةُ اللَّحْمِ ، وَالْقَدُّ: الْقَامَةُ.

وَمُقَلَّتْهَا عَيْنٌ بِخَطِّ ابْنِ مُقَلَّةٍ
وَلَمَّا أَشَارَتْ لِي بِغَمَزِ جُفُونِهَا
وَلَسْتُ بِرِعْدِيدٍ يَهُونُ لِعَارِضٍ
وَلَكِنْ سِهَامُ اللَّحْظِ أَوَدَتْ بِمُهْجَتِي
وَأَنَّ الْهَوَى مِثْلُ الْهَوَاءِ بِلُطْفِهِ
يَجُوزُ بِلَا إِذْنٍ فَلَا تَرْجُ دَفْعَهُ
فَسَلِّمْ إِلَى مَوْلَاكَ فَالْقَلْبُ مِلْكُهُ
وَحَوَاجِبُهَا صِيغَتْ سَيُوفًا مِنَ الْهِنْدِ
رَمْتَنِي بِسَهْمَيَّ مُقَلَّتَيْهَا عَلَى عَمْدِ
وَلَكِنِّي الْمَعْرُوفُ بِالصَّابِرِ الْجَلْدِ
شَبَاهَا دَقِيقُ ذَاتُ حَدٍّ بِلَا حَدٍّ
يَجُولُ بِقَلْبِ الْعَاشِقِينَ بِلَا رَدٍّ
بُرْقِيَا وَطَبٌّ أَوْ بِجُهْدٍ مِنَ الْكَدِّ
وَلَا تَعَرِّضْ يَا عَاذِلِي ثَرَمَ الْبَصْدِ

٥٧ - دعني أفكر فيها^١

دَعْنِي أَفْكِّرُ فِيهَا
يَا نَائِمَ اللَّيْلِ خَلُوهَا
إِذَا مَلَكَتْ نِصَابَا
وَمَا مَلَأْتُكَ إِلَّا
إِنِّي غَلِبْتُ بِوَجْهِ دِي
فَالسَّهْدُ أَنَّكَ جِسْمِي
وَصَرْتُ مِنْ فَرْطِ وَجْدِي
فَالْحُزْنُ حَزْرَ فَوَادِي
مِنْ مَوْجِبَاتِ السُّهَادِ
فَأَمْنٌ بِبَعْضِ الرُّقَادِ
كَتَفَخَّةٍ فِي رَمَادِ
فَلَا تَنْظُنُّوا عِنَادِي
وَشَلَّ مِنِّْي الْأَيْبَادِي
أَقُولُ غَيْرَ السَّادِدِ

١ الشبا جمع شباة: الحد والطرف.

٢ عن زوجته الحاجة نوره.

أَمْثُولَةً فِي الْعِبَادِ
وَيَسْتَعِيدُ رَشَادِي
مُسْتَبْشِرًا فِي الْمَعَادِ
وَاجْعَلْ ثِقَاتَكَ زَادِي
وَاجْعِنَا يَوْمَ التَّنَادِي

وَرَدَّنِي لَوْنُ وَجْهِ ي
وَمَا يُخَفِّفُ كَرْبِي
إِلَّا رَجَاءٌ لِقَائِي
فَاغْفِرْ إِلَهِي ذُنُوبِي
وَارْحَمْ فَقِيرَ دَارِي

٥٨ - علاء يا حفيدي^١

إِحْذَرْ مِنَ التَّشَرُّدِ
فَلَا تُضِيعْهُ فِي دَدِ
لَا تَكُ مَكْتُوفَ الْيَدِ
كُنْ صَاحِبًا لَا تَرْقُدِ
بِنِصَاوِهِ لَمْ يَهْدِدِ
أَكْثَرَ مِنَ التَّهْجُودِ
أَزْمَعْتَهُ إِلَى غَدِ
فَاقْطَعْهُ كَيْ لَا يَعْتَدِي
فَإِنَّهُ كَانَ قَدِيدِي
أَمَانُنَا فِي الْمَوَئِدِ
كَالْبَاتِرِ الْمُجَرَّدِ
وَانْفَرُّ مِنَ التَّوَسُّدِ

عِلَاءُ يَا حُفَيِّدِي
الْعُمُرُ أَغْلَانِ عَمَةٍ
لِكُلِّ سَاعٍ سَعِيَةٍ
الْعُمُرُ حُلُمٌ كُلُّهُ
وَمَا أُسَاسُهُ التَّقَى
إِنْ رُمِتْ نُورًا سَاطِعًا
وَلَا تُوجَّزْ لِحَالِهَا
الْوَقْتُ سَيْفٌ قَاطِعٌ
مَنْ غَرَّهُ طَوْلُ الْمَدَى
أَجَالُنَا سَابِقَةٌ
كُنْ حَازِمًا مُصَمَّمًا
وَأَنْهَضْ بِلا تَكَاثُلِ

١ كتبها وصيَّته لحفيده علاء بن أنس.

النَّارُ إِنِ أَهْمَلْتَهُمَا
فَلْإِنْ بَدَا شَرُّهَا
إِنَّ الْفَنَّا مَوْرِدُنَا
فَلَيْسَ يَجْزِي وَالِدُ
لَوْ يَنْحَثُ الْجَانِي عَلَى
لَا يُقْبَلُ الْفِدَا وَلَوْ
إِذَا انْتَهَتْ أَجَالُنَا
مَنْ أَكْثَرَ الْهَمِّ بِمَا
لَمْ يَسْتَعِدَّ مِمَّا جَنَى
قَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ فِي
مَنْ يَتَّقِي الْمَوْلَى فَلَنْ
مَنْ سَلَّمَ الْأَمْرَ إِلَى
إِصْحَابِ تَقِيٍّ صَالِحاً
إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَ مِنْ
خَلَّ السَّوَى وَازْجَعْ إِلَى
وَمَنْ يَزْغُ عَنْ أَمْرِهِ
فَرُبَّنَا سُبْحَانَهُ
يَوْمَ الْجَزَاءِ مَا لَنَا
سَلَّمَ لَهُ إِنْ شِئْتَ أَنْ
وإِنْ تَكُنْ تَشَاءُ أَنْ
فَصَاحِبِ أَهْلِ التَّقَى
وَحَاصِلُ الْقَوْلِ فَمَا

زَادَتْ مِنَ التَّوَقُّدِ
أَطْفَأَتْهُ فَوْرًا تَهْمَدِ
فَاعْمَلْ لِذَلِكَ الْمَوْرِدِ
فِي حَشْرِنَا عَنْ وَلَدِ
مُتَدَفِّعٍ لَمْ يَجِدِ
كَالْجَوْهَرِ الْمُنْضَرِّدِ
لَيْسَ لَهَا مِنْ مَدَدِ
يُتْرَكُ يَوْمَ الْمَلْحَدِ
غَيْرَ الْأَسَى وَالنَّكَدِ
مَجْمُوعَةٍ مِنْ كَبَدِ
يَعِيشُ عَيْشَ النَّكَدِ
مَوْلَى الْوَرَى لَمْ يُفَادِ
وَاجْعَلْهُ مِثْلَ الْعُضْدِ
ذِي خَمْرَةٍ مُعْرِبِ
الْمَوْلَى الْكَرِيمِ الصَّمَدِ
عَزَّ وَجَلَّ يُطْرَدِ
مِنْ وَاحِدٍ وَآخِ
دُونَهُ مِنْ مُلْتَحَدِ
تَعِيشُ عَيْشَ الرَّغَدِ
تَرْقَى لِأَهْلِ السُّوْدِ
فِي الرَّاكِعِينَ السُّبْحِ
سَوَى التَّقَى كَالزَّبَدِ

٥٩ - في سبيل الهوى

فَهُوَ وَقِفْ مُسَبِّلٌ لِلْوَادِ	فِي سَبِيلِ الْهَوَى بَذَلْتُ فَوَادِي
بَيْدَ أَنِّي سَلَكَتُ دَرْبَ الرَّشَادِ	صَرْتُ صَبَّاءً مُتَمِّمًا فِي هِيَامِ
شَفَّنِي الْوَجْدُ وَاسْتَمَرَّ سُهَادِي	يَا رَعَى اللَّهُ مَنْ سَعَى فِي وَصَالِي
وَمِنْ الْوَصْلِ أَنْ يُرَى فِي الرُّقَادِ	كَمْ تَصَيَّدْتُ طَيْفَهُ فِي نَعَاسِ
ذُو بَهَاءٍ قَرُمٌ طَوِيلُ النَّجَادِ	أَزْهَرُ اللَّوْنِ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَدْرٌ
مَوْلَعٌ بِالنَّدى كَثِيرُ الرَّمَادِ	ذُو جَمَالٍ وَذُو جَلَالٍ شَجَاعٌ
وَبِوَحْيٍ وَحِكْمَةٍ وَجِهَادِ	سَيِّدٌ سَادَنَا بِحِلْمٍ وَعِلْمٍ
وَهُوَ سِرُّ الْخَلَاقِ عَيْنُ الْمُرَادِ	أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ خَلَقًا وَخُلُقًا
وَهُوَ كَنْزُ الثَّقَى بَغَيْرِ نَفَادِ	وَهُوَ يُبْذَوُوعُ كُلِّ خَيْرٍ وَبِرٍّ
مُرْشِدُ الْخَلْقِ حَاكِمُ السَّادِ	وَهُوَ طَهَّ مُعَلِّمُ النَّاسِ خَيْرًا
وَدَعَا لِلْهُدَى جَمِيعَ الْعِبَادِ	أَنْقَذَ الْعُرْبَ مِنْ غَوَايَةِ جَهْلِ
وَانْضَوَى تَحْتَهُ رَفِيعُ الْعِمَادِ	فَاسْتَكَانَتْ لِلْحَقِّ عُرْبٌ أَبَاءُ
أَنْفُسُ الْمُعْرِضِينَ أَهْلُ الْعِنَادِ	وَاسْتَجَابَتْ لَهُ الْمُلُوكُ وَذَلَّتْ
وَعَلَى الْآلِ وَالصَّحَابِ الْجِلَادِ	صَلَوَاتُ الْإِلَهِ تَتَرَى عَلَيْهِ

٦٠ - هذا ضريح الذي أفنى مواهبه^١

في العلم والنصح والإصلاح والرشد	هذا ضريح الذي أفنى مواهبه
أرضى الإله ولم يحقد على أحد	قد كان سمحاً ودوداً ناسكاً فطناً
فعاش وهو يناجي الله في رعد	كم دام يتلو كتاب الله مذكراً
أفاد من وعظه خلقاً بلا عدد	له مواقف لا تحصى محامداً
وراح يطلب عفوَ الواحد الصمد	أنهى الحياة غني القلب صافيه

١ على ضريح المرحوم الشيخ حسين خطاب شيخ القراء ١٩٨٨ . [المصدر الثاني]

٦١ - أحسن ختامي

يا صَحْبُ مَنْ يَرِثِي لِحالِ مُعَذِّبٍ
طالَتْ لِيالي الكُربِ والعُمرُ انْقَضَى
نَهْنَهْتُ أَهْوَائي وَلَكِنْ لَمْ تَزَلْ
أَوَّاهُ لَوْلا أَنْ تَمْلِكَنِي الهوى
وَلَكُنْتُ أَعْمَلُ مُخْلِصاً لِسَعادَتِي
مَنْ ذَا يُحِلُّ عِقَالَ مَأْسُورِ الهوى
يا رَبُّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَرَزَقْتَنِي
فَأَمُنْ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ وَبِعِصْمَةٍ
أَنْتَ القَرِيبُ وَإِنْ رَمَتْنِي زَلَّتِي
لا يَأْسُ عِنْدِي بَلْ بِقَوْلِكَ طامِعُ
حَسْبِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ وَوَقايَةٌ
أَحْسَنُ خِتامي يا كَرِيمُ بِتَوْبَةٍ
وَأَزْرَعُ بُزُورَ الخَيْرِ فِي أَرْضِي لَكِي

لَمْ تَكْتَحِلْ أَجْفاً نُهْ بِرُقْادِ
وَكأَنَّ ذَنْبِي خاضِعٌ لِمَزادِ
تَصَبُّو ونَفْسي لَمْ تَزَلْ بِتَمادي
لَوْ جَدَّتْنِي مِنْ أَعْبَدِ العُبادِ
وَبِزْخُرْفِ الدُّنيا مِنَ الزُّهادِ
ولَهُ جِزاءُ العِتقِ يَوْمَ مَعادِ
وَهَدَيْتَنِي بِالمِصْطَفَى لِرشادي
أُنْجُو بِها مِنْ شِقْوَتي وَفسادِي
فِي خِمْاةٍ وَمِهامِهِ وَوِهادِ
لا تَقْنَطُوا لِلْمُسْرِفينَ تُنادِي
ما قَلَّتْ لِلوَسْواسِ إِنَّ عِبادي
تَسْتَبْدِلُ التَّقْرِيبَ بِالْإِبْعادِ
أَجْنِي جَنّاها عِنْدَ يَوْمِ حِصادِ

حرف الرّاء

٦٢ - رعاك الله يا ابن أخي^١

رَعَاكَ اللَّهُ يَا ابْنَ أَخِي تَصَبَّرْ	فَمَا لَكُنَا الْحَكِيمُ كَذَاكَ قَدَّرْ
وإنَّا سائرُونَ على طَرِيقِ	كَحَدِّ السِّيفِ بَلْ أَنْكَى وَأَخْطَرْ
هَلَاكَ الْكُلِّ مُحْتُومٌ وَلَكِنْ	لِكُلِّ مُقَدَّرٍ أَجَلٌ مُقَرَّرْ
وما الدُّنْيَا مَقَرٌّ بَلْ مَمَرٌّ	سَنَفْنَى ثُمَّ نُنْشَرُ ثُمَّ نُحْشَرُ
وإنَّ حَيَاتَنَا فِيهَا مَتَاعٌ	سَنَخْلَعُهُ وَنَعْرِى ثُمَّ نَقْبَرُ
كَأَنَّ حَيَاتَنَا حُلُمٌ وَقِسْمُهَا	بِمَا ضَيَّ الْعُمُرِ أَحْلَامًا تُعَبَّرُ
وما في هَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ	وَعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَهُوَ أَكْثَرُ
إِذَا قَامَتْ تُصَارِعُنَا الرِّزَايَا	ذَبَحْنَا جَنَدَهَا إِذْ نَحْنُ أَضْبَرُ

١ بمناسبة تعزية لابن أخي بوالدته. [المصدر الثالث]

وإِنَّا مُؤْمِنُونَ بِحَمْدِ رَبِّ
وَمَنْ يُسَلِّمْ لِمَوْلَى الْخَلْقِ يَسْلَمْ
لَقَدْ قَالُوا الْمَكْلَفُ غَيْرُ مُجْبَرٍ
رَضِينَا بِالَّذِي يَرْضَى وَإِنَّا
بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى الزَّرَايِ
عَلَى سُرُرٍ نَعِيشُ عَلَى سُورٍ
بِعَفْوِ اللَّهِ وَالتَّسْلِيمِ حَاشَا
نَعُودُ بِعَفْوِهِ وَرِضَاهُ عَنَّا
تَفَاءَلْنَا بِخَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ
وَمَنْ يَبْأَسْ مِنَ الْغُفْرَانِ يَكْفُرْ
وَمَنْ يُخْلِصْ بِتَوْبَتِهِ وَيُصْلِحْ
خَتَامُ الْقَوْلِ يَا ابْنَ أَخِي تَقَبَّلْ
إِلَيْكَ وَلِلْعِيَالِ وَكُلِّ حَبٍّ
مَحَمَّدٌ مَنْ رَأَى قَبْلَ حَجَّيْ
وَإِنِّي نَاطِرٌ مِنْهُ مَنَاماً
إِذَا اسْتَكْبَرَتْ مُتَتَّظِراً عَسِيراً
وَعَفْوَكُ أَرْتَجِي عَنْ عَيْبِ شِعْرِي

وَذُو الْإِيمَانِ يَرْضَى بِالْمُقَدَّرِ
وَيَأْتُمُّ مَنْ مِنَ الْأَقْدَارِ يَضْجَرُ
وَإِنَّ الْخَلْقَ مَرْبُوبٌ مُدَبَّرُ
سَنَجْتَمِعُ الْمُقَدَّمُ وَالْمُؤَخَّرُ
أَرِيحُ مِيَاهَهَا مِسْكٌ وَعَنْبَرُ
وَرِضْوَانُ الْإِلَهِ هُنَاكَ يُنْشَرُ
يُخَيَّبُ رَجَاؤُنَا وَالْكَسْرُ يُجْبَرُ
مِنَ الْأَثَامِ وَالْوَهْجُ الْمُسْعَرُ
لَأَنَّ الشُّؤْمَ قِسْمَةٌ مَنْ نَطَيْرُ
فَإِنْ زَادَ الضَّلَالَةَ فَهُوَ أَكْفَرُ
فَإِنَّ الذَّنْبَ وَالْإِسْرَافَ يُغْفَرُ
تَحِيَّاتِي وَتَسْلِيمِي الْمُعْطَرُ
خُصُوصاً نَجْلُكَ الشَّيْخُ الْمَوْقَرُ
فَكَانَ مَنَامُهُ صُبْحاً وَأَسْفَرُ
لَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُنَا وَنُحْبِرُ
تَضَيِّقُ بِهِ فَقُلْ: اللَّهُ أَكْبَرُ
بِضَعْفِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى الْمَكْرَرِ

٦٣ - ولن ننساك يا ابن أخي^١

وَضَوَّعَ فِي نَوَادِينَا الْعَبِيرَا	مُبَشِّرَنَا شَفَى مِنَّا الصُّدُورَا
وَقَلَّدَنَا الْبَشِيرَ أَتَى يَسِيرَا	وَلَوْ نُظِمَتْ يَتَامَى الدَّرِّ عَقْدَا
وَلُطِفَ اللهُ كَانَ بِنَا بَصِيرَا	شِفَاؤُكَ يَا حَيِّبُ لَنَا شِفَاءُ
عَلَى مَا لَا نُحِيطُ بِهِ قَدِيرَا	دَعُونَا فَاسْتَجَابَ لَنَا إِلَهَا
وَلِلرَّحْمَنِ سَلَّمَتِ الْأُمُورَا	وَأَخْلَصَتِ التَّوَكُّلَ فِي صَفَاءِ
نَشَرَتْ بِهِ شَرِيعَتَهُ نُشُورَا	أَلَسْتَ بِعَبْدِهِ أَمْضَيْتَ عُمُرَا
وَكُنْتَ لِرَبِّكَ الْأَعْلَى شُكُورَا	صَبَرْتَ عَلَى الْمِلَّةِ إِذْ أَلَمْتَ
وَيَجْزِي رَبُّنَا عَبْدًا صَبُورَا	فَكَانَ ضَنَاكَ إِعْلَاءً وَطَهْرَا
فَقَدْ عَامَلْتَ مُقْتَدِرًا خَبِيرَا	فَأَبَشَرَ بِالْعَنَايَةِ مُطْمَئِنَّنَا
وَكُنْتَ عَلَى حَقَائِقِهِ غُيُورَا	بَنَيْتَ فَضِيلَةً وَنَدَبْتَ عِلْمَا
بِهِ أَجْرًا وَمَا تَبْغِي ظُهُورَا	وَمَا خَلَّدَتْهُ تَبْغِي بِظَنِّي
يُضَيِّعُ مِنْهُ فِي الْعُقْبَى نَقِيرَا	وَعِنْدَ اللَّهِ مُحْفُوظٌ وَحَاشَا
وَصُنْتَ بِهِ عَنِ الْأَعْدَا تُغُورَا	لَقَدْ أَوْفَيْتَ عَنَّا إِذْ وَتَيْنَا

١ رسالة إلى ابن أخي الشيخ عبد الرحمن في دور النقاهة من إجراء عملية له في الكولون. [المصدر

وَكُنْتَ لَجْمَعِنَا ذِكْرًا شَدِيدًا
وَلَنْ نَنْسَاكَ يَا ابْنَ أَخِي فَإِنَّا
فَرُّوْحَانَا قَدْ ائْتَلَفْتَ قَدِيمًا
صَحْبَتِكَ فِي الشَّبَابِ وَكُنْتَ كَهْلًا
وَأَذْكُرُ إِذْ وَلِدْتَ فَرِحْتُ جِدًّا
غَدِينَا بِالْعُلُومِ عَلَى خَوَانٍ
وَقَضَّيْنَا مَجَالِسَ فِي هِنَاءٍ
وَكَمْ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى رِيَاضٍ
نُشَاهِدُ سُنْدُسِيَّ الْأَرْضِ حِينًا
تَسَلَّقْنَا الْجِبَالَ بِلَالُغُوبٍ
وَحُضْنَا فِي الرَّمَالِ وَفِي مِيَاهٍ
وَكُنَّا فِي تَرْحُلِنَا شَبَابًا
نَعْمُ جُبْنَا الْفِيَا فِي نَشَاطٍ
وَقَائِدُنَا الْحَكِيمُ بِنَا رَحِيمٌ
يَهْدِينَا وَيُرْعَانَا بِحِلٍّ
جَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا كُلَّ خَيْرٍ

فَكَانَ بِهِذِهِ الذِّكْرُ فَخُورًا
تَعَايِشُنَا وَكُنْتَ لَنَا سَمِيرًا
وَمَنْ كَانَتْ مُجَنَّدَةً طَهُورًا
وَلَمَّا كُنْتَ مُؤَلُودًا صَغِيرًا
وَكُنْتَ لِحَدِّكَ الْحَانِي بَشِيرًا
وَحُضْنَا فِي مَسَائِلِهَا بُحُورًا
وَكَانَتْ كُلُّهَا تَمْضِي سُورًا
وَنَنْعَمُ فِي مَنَاطِرِهَا كَثِيرًا
وَحِينًا نَجْتَلِي فِيهَا الرُّهُورًا
وَكُنَّا فِي الصُّعُودِ لَهَا نُسُورًا
وَفِي الْفَلَكَاتِ عَانَقْنَا الصُّخُورًا
نَفِيرًا لَا تَرَى فِينَا نُفُورًا
وَإِقْبَالَ وَقَطَعْنَا الْجُسُورًا
نَلُودُ بِحِصْنِهِ شَيْخًا وَقُورًا
وَإِنَّ لَهُ بَذَا فَضْلًا كَبِيرًا
وَزَادَ ضَرِيحُهُ سَعَةً وَنُورًا

وَأَسْكَنَ رُوحَهُ جَنَّاتٍ عَدْنٍ
فَكَانَ جَهَادُهُ فِي اللَّهِ حَقًّا
لَقَدْ شَهِدَ الْجَمِيعُ لَهُ بِهَذَا
مَضَتْ تِلْكَ الْعُهُودُ وَنَحْنُ نَمُضِي
أَرَا جِئْتُ ذِكْرِي بِمَاضِيَاتٍ
كَأَنِّي حَالِمٌ أَرَوِي مَنَامًا
وَلَمْ أَقْصِدْ بِمَا قَدَّمْتُ شِعْرًا
سَأَلْتُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ثَبَاتًا
وَيَجْمَعُنَا عَلَى خَيْرٍ وَرُشْدٍ
فَمَهْمَا نَعْمَ الْإِنْسَانُ عَيْشًا
وَلَمْ يَسْعَدْ هُنَا بِنَجَاحِ سَعْيٍ
وَلَمْ يُخْتَمَ لَهُ بِالْخَيْرِ كَانَتْ
إِلَهِي نَجْنًا مِنْ كُلِّ كَرْبٍ
وَدَارِ كُنَّا بِلُطْفِكَ يَا إِلَهِي

وَبَوَّاهُ بِذَا الْمَأْوَى قُصُورًا
وَكَانَ اللَّهُ خَالِقُهُ نَصِيرًا
وَكَانَ بِنَصْرَةِ الْمَوْلَى شَهِيرًا
وَمَاضِي الْعُمَرِ حَاشَا أَنْ يَحْجُورًا
وَأَفْرَأُ مِنْ لَوَائِحِهَا سُطُورًا
أُسَلِّي فِيهِ أَصْحَابِي بُكُورًا
وَلَكِنِّي كَشَفْتُ بِهَا شُعُورًا
عَلَى التَّقْوَى وَأَحْسَنَهُ مَصِيرًا
لَكِي لَا تَذْهَبَ الْأَعْمَالُ بُورًا
وَعَمَّرَهُ مُكَوَّنُهُ دُهُورًا
سَيَّأَتِي رَبُّهُ يَوْمًا حَسِيرًا
لِذَائِذِهِ وَمَسْعَاهُ غُرُورًا
وَأَحْسِنَ خَتْمَنَا وَاسْدُلْ سِتُورًا
وَوَفِّقْ جَمْعَنَا وَاشْرَحْ صُدُورًا

٦٤ - يا من تلفت يمنية ويسارا^١

خَوْفَ الْوَرَى أَنْ يُلْحِقُوا بِكَ عَارًا ^٢	يَا مَنْ تَلَفَّتْ يَمْنَةً وَيَسَارًا
أَوَلَسْتَ تَرْجُو لِلْإِلَهِ وَقَارًا ^٣	إِحْذَرْ فَإِنَّ إِلَهَكَ الْأَعْلَى يَرَى
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتَ نَهَارًا ^٤	اللَّهُ يُبْصِرُ مَا جَنَيْتَ بِظُلْمَةٍ
إِنْ جِئْتَ تَحْمِلُ فَوْقَكَ الْأَوْزَارَ ^٥	وَهُوَ الْقَدِيرُ عَلَى عَذَابِكَ فِي غَدٍ
يُفْدَى وَلَوْ كَانَ الْفِدَا قِنْطَارًا ^٦	مَا مِنْ حَمِيمٍ أَوْ شَفِيعٍ بَلْ وَلَا
جَهْرًا وَتُبَّ مِمَّا جَرَى إِسْرَارًا	اسْتَغْفِرِ الْمَوْلَى وَتُبَّ مِمَّا جَرَى
مَوْلَى الْجَمِيلِ وَقَدْ عَصَيْتَ جَهَارًا	أَوْ مَا اسْتَحَيْتَ مِنَ الْإِلَهِ وَإِنَّهُ
تُخْفِي الصُّدُورُ وَيَعْلَمُ الْأَسْرَارَ	اللَّهُ مِنْ قَبْلِ الْوُقُوعِ عَلَيْنَا مَا
فَاللَّهُ رَبُّكَ يَكْشِفُ الْأَسْتَارَ	لَا تَسْتَطِيعُ وَلَوْ حَرَضْتَ تَسْرًّا
وَأَنْسَ بِخَشْيَتِهِ تَشْمُ أَنْوَارًا ^٧	فَاعْمَلْ بِطَاعَتِهِ وَفُزْ بِنَعِيمِهَا

١ ضَمَّنَهَا فِي نَصِيحَتِهِ لَطَالِبَ أَعْجَمِي طَلَبَ مِنْهُ النَّصِيحَةُ قَبْلَ سَفَرِهِ.

٢ تَلَفَّتْ: تَتَلَفَّتْ.

٣ وَقَارًا: عِظَمَةً.

٤ جَرَحْتَ: اكْتَسَبْتَ.

٥ الْأَوْزَارُ: الْأَثْقَالُ، وَتُطْلَقُ عَلَى الذُّنُوبِ.

٦ الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ، وَالْفِدَا: الْفِدَاءُ: الْفِدْيَةُ: مَا يُعْطَى لِلشَّخْصِ لِإِنْقَاضِهِ، وَالْقِنْطَارُ: وَزْنُ مِئَةِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ.

٧ شَامَ يَشِيمُ: نَظَرَ وَرَأَى وَحَقَّقَ.

فحلاوة الإيمان وهي تُذاق إن
حاشا يساويها محبة كائن
لا شك تُنشرح الصدور بحبه
الله باقٍ وحده فاعجب لمن
فاعترز بالمولى ولذ بجلاله
العز بالرحمن عز دائم
ولو اعتبرت بما يتم قضاؤه
يا أيها الإنسان أنت مُسير
أو ما تقرّ معي بأنك لم تكن
وإذا أراد فلا مرد لحكمه
الله يفعل ما يشاء لحكمة
يارب وفّقنا لنعمل صالحاً
إنّا طرّقنا باب عفوك خشعاً
خسئ الذي قد حاد عن طرق الهدى
حاشا لجودك أن يخيب رجائنا
يارب صلّ على النبي وآله

أحبّيته ورُسوله المختاراً
وبها تحصل عزة وفخاراً
أمّا السوى فتحصل الأكداراً
ينسى الإله ويألف الأشراراً
فغيره لا تستقرّ قراراً
بدوامه فتجنب الأغياراً
لوجدت ربك عالماً مختاراً
مالي أراك تعاند الأقداراً^١
ولقد خلقت بخلقهِ أطواراً^٢
أوليس ربك قادراً فهّاراً
فافتع وجانب أن دهرَكَ جاراً^٣
أولست ربي راحماً غفّاراً
نرجو رضاك ونحذر الإنذاراً
سلك الردى واستكبر استكباراً
تبنا فكن لعيوبنا ستاراً
نشر السلام وجاهد الكفاراً

١ مُسير أي سيرك بيد الله عز وجل، وليس لك في ظروفك اختيار، وما الاختيار إلا فيما منحك الله فيه ذلك.

٢ الأطوار جمع طور: المرحلة والفترة، والمراد مراحل الخلق نطفة فعلقة فمُضغة....

٣ أي لا تقل: لقد جار عليّ الدهر، وجاز: ظلم.

٦٥ - مرضت فعافاني الإله^١

مَرَضْتُ فَعَافَنِي الْإِلَهُ مِنَ الضَّنَى
إِلَهُ حَكِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ لِحِكْمَةٍ
فَإِنْ جَادَ بِالْإِنْعَامِ جَادَ بِفَضْلِهِ
وَإِنْ شَاءَتْ الْأَقْدَارُ ضَيْقًا وَشِدَّةً
فَنَحْنُ عَبِيدُ صُنْعِهِ وَهُوَ خَالِقُ
سَيَجْمَعُنَا فِي الْحَشْرِ يَجْزِي عَلَى الثَّنَا
إِلَى سَعَةِ الْعَفْوِ التَّجَانُّا إِلَهَنَا
وَنَحْنُ عَبِيدُ مُذْنِبُونَ وَرَبُّنَا
وَلَوْ كَانَ يَجْزِينَا عَلَى سُوءِ فِعْلِنَا
فَيَا أَيُّهَا السَّاعِي ابْتِغَاءَ سَعَادَةٍ
وَمَنْ يَزْرَعِ الْمَعْرُوفَ يَقْطِفْ ثِمَارَهُ
عَلَيْمٌ بِمَا فِي الْقَلْبِ جَلَّ إِلَهَنَا

لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى لَهُ الشُّكْرُ فِي الْآخِرَى
وَنَحْنُ عَلَيْنَا أَنْ تَكُونَ لَنَا ذِكْرَى
لِنَعْرِفَ مَا أَوْلَى وَنُعْقِبَهُ شُكْرًا
لِنَضْرَعَ لِلْمَوْلَى فَمَا فَعَلْتَ نُكْرًا^٢
وَمَا شَاءَ فَلْيَفْعَلْ فَمَا فَعَلَهُ إِمْرًا^٣
وَحَاشَا لِلإِلَهُ الْعَدْلُ أَنْ يَجْحَدَ الصَّبْرَا
فَأَتِمِّمْ عَلَيْنَا الْفَضْلَ وَاعْفِرْ لَنَا طُرَا
عَفُورٌ وَلَوْ لَا ذَاكَ مَا أَنْزَلَ الْقَطْرَا
لَجَرَدَ ظَهَرَ الْأَرْضِ بَلْ أَذْهَبَ الظُّهْرَا
تَكَاثَرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَاسْتَبْعَدَ الشَّرَّا
وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَاتِ يَلْقَ غَدًا خَيْرَا
وَلَكِنَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أَسْبَلَ السَّرَّا

١ بمناسبة الشفاء من مرض. [المصدر الثاني]

٢ النُّكْرُ: المنكر.

٣ إمْرًا: عجيباً منكراً.

ففي هذه الدنيا ستؤزّ وراحم
يذكرنا في كل يوم بحادث
ولكن أشقى الخلق لم يتعظ بها
يؤمن علينا ثم يشكر فضله
ومهما جئنا ثم ثبنا فقابل
ومهما بذلنا الوسع للشكر لم نصل
ولكنه سبحانه جل ذكره
عليه توكلنا لندخل جنة
وما أحد أهل لذلك بسعيه
سمعنا بهذا من حديث نبينا

ويوم التلاقي سوف يمنحنا عفرا
فلم يبق بارينا لمعتذر عذرا
ومن يخش رب الناس تنفعه الذكرى
فكم نشر الحسنى وكم ستر الوزرا
وكبرى المعاصي عند راجنا صغرى
عطاياه لا تحصى وأنعمه تثرى
يريد الذي يستطيع من عمل برا
وننجو مما لا نطيع له حرا
ولكن بفضل الله نغتنم الأجر
ونرجو دخولا في شفاعته الكبرى

٦٦ - في الأحلام

سَهَرْتُ بِلَيْلَةٍ سَهَرًا طَوِيلًا
لَأَنَّ مِنَ الطَّعَامِ مَلَأْتُ بَطْنِي
وَفِي الْأَحْلَامِ زَارْتُنِي فَتَاةٌ
فَعَرَّتْهَا مَلَا حَتُّهَا وَأَبَدَتْ
فَسَلَّتْ مِنْ حَشَايَ سَوَادَ قَلْبِي
تَصَافَيْنَا وَأَبَدَيْنَا هَوَانَا
تَبَادَلْنَا الْحَدِيثَ عَلَى وَدَادٍ
هَمَمْتُ بِهَا وَهَمْتُ بِي وَلَكِنْ
وَلَوْ لَا اللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْنَا
فَتَقَوَّى اللَّهُ كَانَتْ خَيْرَ حُضْنٍ
إِذَا خَافَ الْمَسِيءُ صَرِيرَ بَابٍ
وَإِنَّ اللَّهَ مِنْهُمْ قَدِيرٌ
وَلَا يَخْفَى عَلَى الْقَهَّارِ خَافٍ
فَقُلْتُ لَهَا أَلَا نُنْهِي لِقَانَا

وَنِمْتُ عَقِيبَهُ نَوْمَ السُّكَارَى
وَلَا أَدْرِي شَرَابِي كَيْفَ سَارَا
فَلَا قَتَ مِنْ مُشَاهِدِهَا أَنْبَهَارَا
عَوَاطِفُهَا الرَّقِيقَةُ لِي اغْتَرَارَا
وَعَلَّتْنِي فَلَا أَرْجُو فِرَارَا
وَقَرَّرْنَا بِأَنْ نَرْعَى الْحَوَارَا
وَلَمَّا بَعُدْ أَنْهَيْنَا الْحَوَارَا
خَافَةُ رَبَّنَا كَانَتْ سِتَارَا
يُرَاقِبُ حَالَنَا لَمْ نَحْشَ عَارَا
وَمُعْتَصِمٍ لِمَنْ قَدْ خَافَ نَارَا
فَكَيْفَ إِلَهُهُ يَعْصِي جِهَارَا
وَلَا يَسْطِيعُ عَاصِيهِ اسْتِتَارَا
سَوَاءً كَانَ لَيْلًا أَوْ نَهَارَا
بِعَقْدِ الْعُرْسِ فَاتَّخِذِي قَرَارَا

فَقَالَتْ لِي عَلَى هَذَا اتَّفَقْنَا
وَإِذَا هَذَا اللَّقَاءُ بَهَا مَنَامٌ
هَلِ الْأَزْوَاحُ مُطْلَقَةٌ شُرُودٌ
فَمَنْ بَطَلَ الرَّوَايَةَ لَيْتَ شِعْرِي
حَمِدْتُ اللَّهَ أَنِّي فِي فِرَاشِي
وَأَنَّ عَلَى يَمِينِي الْتِفَاقِي
وَمَهْمَا اسْتَكْثَرَ الْأَصْحَابُ يَوْمًا
عَلَى كُلِّ سَأَلْتَنِي اللَّهَ فَزُدًا
وَاسْأَلْتُهُ الْغَنَاءَ عَنِ الْبَرَايَا
وَيَجْمَعُنِي بِمَنْ يَرْضَاهُ خِلًا
وَيُحْسِنُ بَعْدُ خَاتِمَتِي وَإِلَّا

فَقَرَّ النَّوْمُ مِنْ فَرَحِي وَطَارَا
أَفْكَرُ صَرْتُ تَفْكِيرِ الْخِيَارَى
وَمَنْ يُنْكِزْ لِقَا الْأَزْوَاحِ جَارَا
وَنُحْرُجُهَا لَا مَنَحَهُ النَّضَارَا
وَحِينَذَا لَا أَزْدِيهِارَ وَلَا أَنْكِدَارَا
وَلَمْ تَكُنِ التِّفَاقِي يَسَارَا
سَيُزْكِيهِمْ وَيَنْحَسِرُ أَنْجِسَارَا
فَاسْأَلْهُ عَنِ الذَّنْبِ اغْتِفَارَا
وَيُلْهِمُنِي عَنِ الْكُلِّ اضْطِبَارَا
وَيَجْعَلْ كُلَّ أَصْحَابِي خِيَارَا
يَكُونُ جَمِيعُ أَعْمَالِي خَسَارَا

٦٧ - لذة الكرى

مَتَى يَسْتَرِيحُ الطَّرْفُ بِالْغَمَضِ يَا تُرَى
 وَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرْفُ طِرْفًا أَرْوُضُهُ
 فَكَيْفَ وَإِنَّ الْعَيْنَ مَاءٌ مَرْقَرُقٌ
 إِذَا عَرَبَتْ عَيْنُ النَّهَارِ إِرَاحَةً
 بَذَلْنَا جُهُودًا لِلِإِضَاءَةِ بَعْدَهَا
 وَلَكِنَّ رَبَّ الْكَوْنِ أَحْكَمُ حَاكِمٍ
 وَأَسْرَجَ ضَوْءَ الشَّمْسِ صُبْحًا إِلَى الْمَسَاءِ
 فَيَا لَيْتَنَا إِنْ تَاهَتِ النَّفْسُ ضَلَّةً
 وَنُصْغِي إِلَى هَذِي النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 يُوجِّهُنَا مَنْ لَا يَقُولُ عَنِ الْهَوَى
 وَهَذِي أَحَادِيثُ الرَّسُولِ وَشَرْحُهَا
 فَلَيْسَ عَلَيْنَا بَعْدَ فَضْلِ شَيْوِخِنَا
 سِوَى أَخَذِنَا عَنْهُمْ بِعَقْلِ مُسَلَّمٍ
 وَأَنْ نَحْمِلَ النَّفْسَ الْجُمُوحَ عَلَى الْهُدَى
 وَيَنْعَمَ بِالْأَطْيَافِ فِي لَذَّةِ الْكَرَى
 مَدَاوِمَةً لَأَنْبَتَ فِي السَّيْرِ وَالسُّرَى
 بِشَفَافٍ جِلْدٍ فِي الشَّعِيرَاتِ قَدْ جَرَى
 لَأَعْيِنَنَا كِي لَا نَكِدَّ وَنَسْهَرَا
 لِنَسْتَأْنِفَ الْأَعْمَالَ لَيْلًا وَنَسْمُرَا
 كَسَانَا لِبَاسَ اللَّيْلِ فَضْلًا لِيَسْتُرَا
 لِيَجْعَلَ مَسْعَى الْعَيْشِ سَهْلًا مُيَسَّرَا
 نَعُودُ إِلَى مَا بَارَى الْخَلْقَ دَبْرًا
 وَنَقْرَأُ آيَاتِ الْكِتَابِ تَدَبُّرَا
 إِلَى أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ بَيْعًا وَمُشْتَرَا
 بِرَاحَتِنَا وَالذِّكْرُ أَضْحَى مُفَسَّرَا
 وَأَسْلَفِنَا وَالزَّرْعُ أَصْبَحَ مُثْمِرَا
 وَقَلْبٌ سَلِيمٌ دُونَ رَيْبٍ وَلَا مِرَا
 وَتَطْبِيقِ حُكْمِ الدِّينِ خَالٍ عَنِ الْفِرَا

وَأَنْ نَّصْرِفَ الْأَذَانَ عَنْ زَيْفٍ مَاجِنٍ
لَقَدْ جُرِّبَ الْإِسْلَامُ مُذْ كَانَ حَاكِماً
وَمَا زَالَ مَنْ زَلَّتْ عَنِ الدَّرَبِ رِجْلُهُ
وَتَهْوَى بِهِ الرِّيحُ الْعَقِيمُ لِمَهْلِكٍ
لَقَدْ أَخْطَأَ السَّاعُونَ فِي غَيْرِ دَرَبِنَا
فِيَا رَبُّ ثَبِّتْنَا عَلَى الْحَقِّ وَالتَّقَى
وَأَنْتَ بِنَا أَوْلَى وَأَخْبِرْ بِالَّذِي
وَقَدْ بَيَّتَ الْبَاغُونَ ثُمَّ تَرَبَّصُوا
فَاحْذَهُمْ وَأَيِّدْ عَصْبَةَ الْحَقِّ وَاعْفُ عَنْ
وَيَسِّرْ سَبِيلَ الرُّشْدِ وَاحْفَظْ قُلُوبَنَا
وَأَنْتَ عَلَى جَمْعِ الْقُلُوبِ عَلَى الْهَدَى
بِحَقِّ اسْمِكَ الْأَعْلَى وَحَقِّ مُحَمَّدٍ
وَصَلِّ عَلَى هَادِي الْأَنَامِ مُسَلِّماً

يُرَوِّجُ مَا أَسْمَاهُ شَرْعاً مَقَرَّراً
فَكَانَ مَنَارَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْوَرَى
يَجِدُ بِمَسْعَاهُ وَلَكِنْ إِلَى الْوَرَا
وَيَعْمَهُ فِي أَوْهَامِهِ مُتَحَيِّراً
صِرَاطاً قَوِيماً مُسْتَقِيماً مَنْوَّراً
فَإِنَّا بِحَالٍ يَا إِلَهِي كَمَا تَرَى
دِهَاناً مِنَ الْبَلْوَى وَتَعْلَمُ مَا عَرَا
بِنَا دَائِرَاتِ السَّوْءِ وَالظَّالِمِ أَنْبَرَى
جَرَّائِرُنَا وَاخْذُلْ عَدُوّاً قَدِ افْتَرَى
وَسَامِخْ وَجُدْ مَنْ زَلَّ مِنَّا وَقَصِّرَا
وَإِصْلَاحِ هَذَا الْحَالِ مَا زِلْتَ أَقْدَرَا
وَحَقِّ الَّذِي قَدْ كَانَ لِلدِّينِ نَاصِرَا
وَجُدْ وَاجْزِهِ عَنَّا جَزَاءً مَوْفَرَا

٦٨ - عهدتك عبد الله أتقى^١

عهدتُكَ عَبْدَ اللَّهِ أَتَقَى وَأَصْبَرَ
 عَلَى أَنَّ هَذَا الرُّزْءَ وَاللَّهِ فَادِحٌ
 لَقَدْ قَدَّرَ الْمَوْلَى وَاللَّهُ غُنِيَّةٌ
 قَدْ اخْتَارَهَا مَنْ مَنَّ بِاللُّطْفِ حُقْبَةً
 حَنَانِيكَ إِنَّ الْعُمَرَ لِلْمَرْءِ سَاعَةٌ
 سَتَحْطَى بِهَا عِنْدَ الْإِلَهِ كَلَاكُمَا
 نُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ وَالْمَرْءَ صَاحِبٌ
 وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ فَهِيَ قَصِيرَةٌ
 كَأَنَّ حَيَاةَ الْمَرْءِ حُلُمٌ يَقْصُصُهُ
 فَمَا لِغَزِيرِ الدَّمْعِ فِي الطَّرْسِ قَدْ جَرَى^٢
 وَلَكِنْ ذَا الْإِيمَانِ لَنْ يَتَغَيَّرَا^٣
 رَضِينَا بِمَا يَرْضَى وَفِي اللَّهِ مَا جَرَى
 عَلَيْكَ بِهَا وَالْكَلُّ مَاضٍ إِلَى الثَّرَى
 نَعِمْتَ سَعِيداً فِي الْحَيَاةِ مُعَمَّراً
 عَلَى سُرُرٍ تُسْقَى رَحِيقاً وَكَوْثَرَا
 لِمَحْبُوبِهِ فِي الْخُلْدِ جَبْرِيلُ خَبَرَا
 وَلَيْسَ اضْطِيارُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَقْصَرَا
 وَيَرْقُدُ حَتَّى يَسْتَفِيقَ وَيُنْشَرَا

١ بمناسبة وفاة السيدة زينب المجذوب، زوجة الشيخ عبد الله المسعري، رئيس ديوان المظالم في المملكة العربية السعودية سابقاً، وكانت توفيت سنة ١٣٩٠ هـ، الموافق ١٩٧١ م، في حادث أليم، ورثاها زوجها بقصيدة مطلعها:

أرى الدمع مني ساخناً قد تحدرًا بكاءً على صفو مضى وتكدراً
 فكتب الشيخ هذه القصيدة تعزية له، وحثاً على الصبر الواجب في المصائب، ونشرت القصيدتان في كتاب اسمه " أدب الرثاء " .

— توفيت امرأة الشيخ عبد الله المسعري ، زينب المجذوب ، فبكاها بكاءً مرّاً ، فأرسل إليه الشيخ صادق رسالة قال فيها: فأرجو أن تقبلوا دموع اليراعة معبرة عن مشاركتي لكم ، جبر الله المصاب، وحفظ الأجباب. [المصدر الأول / من كتابتي]

٢ الطَّرْس: الصحيفة.

٣ الرُّزْء: المصيبة، والفادح: الثقيل الشديد.

نَعْدُ اللَّيَالِي وَهِيَ أَنْقَاضُ عُمْرِنَا
تَرَى الْمَرْءَ فِي شَرِّ الشَّبَابِ كَأَنَّهُ
وَتَنْظُرُهُ مِنْ بَعْدِ حِينٍ تَقَاصَرَتْ
يُحْسُ دَيْبَ الْمَوْتِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ
وَمَا هِيَ إِلَّا أُمُسيَاتٌ وَتَقْضِي
فَطُوبَى لِعَبْدٍ صَانَ مَعْيَارَ عُمْرِهِ
وَقَامَ بِجُنْحِ اللَّيْلِ يُسْرِجُ قَبْرَهُ
وَبَاعَ نَفْسَ النَّفْسِ مِنْهُ بِجَنَّةٍ
وَقَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ
وَتَبَّأَ لِمَنْ أَلْهَاهُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ
فِيَا حُرُّ طَبْ نَفْسًا فَإِنَّكَ مُؤْمِنٌ
عَرَفْنَاكَ ذَا عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَعِفَّةٍ
عَرَفْنَاكَ ذَا جُودٍ وَنَفْسٍ زَكِيَّةٍ
سِيرَعَاكَ مَا قَدَّمَتْ مِنْ خَالِصِ التَّقَى
سَيَجْعَلُ رَبِّي فِي لَوْيٍّ وَمَازِنٍ
وَيَعْصُرُ مُزْنَ الْعَفْوِ فَوْقَ تُرَابٍ مَنْ
وَيَشْمَلُنَا الْمَوْلَى جَمِيعاً بِرَحْمَةٍ
وَيَمْنَحُكُمْ طَوْلَ الْبَقَاءِ مَعَ التَّقَى

وَنُمْسِي وَرَسْمُ الْعُمْرِ صَرْحٌ تَبَعْتُمَا
أَمِيرٌ عَلَى الدُّنْيَا قَدِيرٌ عَلَى الْوَرَى
عَزَائِمُهُ عَمَّا نَوَاهُ وَقَدَّرَا
وَيَشْعُرُ بِالدُّنْيَا تَعُودُ إِلَى الْوَرَا
إِذَا بَنَاهُ الشَّيْبُ وَالْعَجْزُ مَنْذِرَا
مِنَ اللَّهْوِ وَالْآثَامِ لِلَّهِ شَاكِرَا
بُنُورُ رُكُوعٍ ذَاكِرًا مُتَفَكِّرَا
وَمَالِكُهَا جَلَّ إِلَهِهُ قَدْ اشْتَرَى
لِيَعْبُدَ رَبًّا قَدْ بَرَّاهُ وَدَبَّرَا
مَشَاغِلُهُ وَاعْتَرَّ جَهْلًا بِمَا يَرَى
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ تَسْتَحْيِبَ وَتُؤْجِرَا
وَخُلِقَ كَرِيمٌ لِلْعِلَاءِ مُشَمِّرَا
وَنَاصِرٌ حَقٌّ مُنْسِيًّا وَمُبَكِّرَا
وَيَحْفَظُ بَلَّ يُعْلِي الْمَوَالِيَ لِلذُّرَى
صَلَاحًا وَيُمْنًا وَائْتِلَافًا وَمَفْخَرَا
قَدْ اخْتَارَهَا وَاللَّهُ يُرَعَى مُيَسَّرَا
وَيُنْصَرُ أَهْلُ الْحَقِّ نَصْرًا مُؤَزَّرَا
وَيُؤَلِّي أَبَاهَا صِحَّةً وَتَصَبَّرَا

١ لؤي ومازن ابنا الشيخ عبد الله المسعري.

٦٩ - شهر الربيع

شَهْرُ الرَّبِّيعِ أَبْنَتَ بَذْراً بَازِغاً
 فَتَهَلَّلَتْ أَهْلُ السَّمَاءِ بِشِراً بِهِ
 حَتَّى النَّسِيمُ بِهِ تَأَرَّجَ مِثْلَهَا
 إِيوَانُ كِسْرَى قَدْ تَكَسَّرَ مُؤْذِنَا
 وَتَسَاقَطَتْ شَرَفَاتُهُ وَتَطَامَنَتْ
 وَالْعَيْنُ قَدْ حَفَلَتْ بِوَضْعِ الْمُصْطَفَى
 إِنْ كُنْتَ تَجْهَلُ مُعْجِزَاتِ مُحَمَّدٍ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمُصْطَفَى خَيْرُ الْوَرَى
 بُشْرَى لَا تَبَاعِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٍ
 وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِلْأَعْمَى الَّذِي
 ذَاكَ الَّذِي لَعِبَتْ بِهِ أَهْوَاؤُهُ
 يَا رَبُّ عَرَفْنَا حَقِيقَةَ قَدْرِهِ
 أَوْ فَاجِزْهُ عَنَّا الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ
 وَاهْدِ الْجَمِيعَ لِكُلِّ خَيْرٍ شِئْتُهُ
 وَكَشَفْتَ عَن سِرِّ الْوُجُودِ سُتُورَا
 وَتَبَاشَرْتَ كُلُّ الْوُحُوشِ سُرُورَا
 حَمَلْتَ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ ذُكُورَا
 فِي آنِ سَيْفِ الْكُفْرِ عَادَ كَسِيرَا
 إِذْ خَرَّ أَحْمَدُ سَاجِداً وَشُكُورَا
 فَازَيَّيَنْتَ وَوَفَيْتَ لِذَاكَ نُذُورَا
 مُتَوَانِيَا فَاسْأَلْ بِذَاكَ خَيْرَا
 وَلَقَدْ أَتَاهُمْ مُنْذِراً وَبَشِيرَا
 يَوْمَ الْجَزَاءِ سَيَلْبَسُونَ حَرِيرَا
 ضَلَّ السَّيْلَ وَلَمْ يُوَالِ بَصِيرَا
 فَعَدَا عَنِ الْحَقِّ الصَّرَاحِ ضَرِيرَا
 حَتَّى نَوَفِّيَ حَقَّهُ تَقْدِيرَا
 فَلَقَدْ لَمَسْنَا عَنْ جَزَاءِهِ قُصُورَا
 حَتَّى نُبَوِّءَ فِي الْجَنَانِ قُصُورَا

٧٠ - جاء وقت الصباح^١

جاء وقت الصَّباحِ يَبْغِي الزَّيارَه	ثم وَلَّى بِلَمَحَةٍ كالشَّرارَه
فإذا بِالفُؤادِ حينَ توارى	عن عُيُوني توقَّدت فيه نارَه
ليس يُطْفِئ سعيَها غيرُ بَرْقٍ	من سناهُ بِغيرِ تلكَ الإشارَه
قُصدي الوُصلُ دائماً دونَ فُصلٍ	فَهُوَ رُوحِي هذا صرِيحُ العِبارَه
عوني اللهُ ما أَشَقَّ جُفاهُ	فَرَّ مني فلا أَشَقُّ غُبارَه ^٢
لَيْتَ شِعْري كَيْفَ الوَسيلَةُ حَتَّى	أُجْتَلِيَه وَمَنْ يُرِينِي مَزارَه
هل عَلِمْتُمْ خسارةً يا رِفاقي	من ذوي الوُدِّ مِثْلَ هذِي الخسارَه
غاب عَنِّي فَهَمْتُ أَبْغِي لِقاهُ	ما فَهَمْتُ اسْمَهُ وَلَمْ أَذْرِ دارَه ^٣
فَهُوَ لِلْعَيْنِ ساجِرٌ وَعَليه	من بَدِيعِ الجِمالِ واللُّطْفِ شارَه
في لِقائي بِهِ حلاوَةُ شَهْدٍ	وبَصْبِري صَبْرٌ شَدِيدُ المَرارَه ^٤

١ خواطر. [المصدر الثالث]

٢ فلا أَشَقُّ غُبارَه: لا أَذْرِكَه.

٣ هام: هام فلان يهيم: خرج على وجهه في الأرض لا يدرى أين يتوجَّه.

٤ الشَّهْد: بضم الشين وفتحها: العسل ، والصَّبْرُ: التحمُّل ، وبكسر الباء وتسكن لضرورة الشعر: عصارة شجر مرّ.

٧١- يا باغي الخير

يا باغي الخير إِنَّ العُمَرَ مَعْيَارُ
 أَخْلَصْ مَتَابِكَ إِنْ آدَتَكَ أَوْزَارُ
 وَاْمْسَحْ دُمُوعَكَ لَا تَقْنَطْ فَرَحْمَتَهُ
 وَاسْتُرْ عُيُوبَكَ وَارْقَعْ كُلَّ وَاهِيَةٍ
 مَا دُمْتَ مُسْتَيَقِنًا تَرْجُو مُسَامَحَةً
 نُفُوسُ أَهْلِ التَّقَى بِالْعَفْوِ طَامِعَةٌ
 مَا أَنْتَ مُتَنْظِرٌ إِنْ كُنْتَ مُتَنْظِرًا
 فَلَا تُضِعْ فُرْصَةً فِي العُمَرِ سَانِحَةً
 يَوْمَ التَّغَابُنِ لَا يُغْنِيكَ وَالِدَةٌ
 فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْفَوْتِ مُبْتَغِيًا
 مَنْ أَمَّ دُنْيَاهُ أَفْشَى اللَّهُ ضَمِيْعَتَهُ
 فَارَ الْمُخْفُوفُونَ وَالْأَرْزَاقُ وَاصِلَةٌ
 وَانْظُرْ لِصُنْعَةِ هَذَا الْكَوْنِ مُعْتَبِرًا
 لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا مَنْ يُقَدِّرُهُ
 وَاسْتَصْفِ أَرْبَحَ مَا يُغْنِيكَ مِنْ عَمَلٍ
 وَارْزُقْ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُرْضِيكَ يَا نِعْمَهُ
 لَا تَبْقَ كَلًّا عَلَى مَنْ لَا غَنَاءَ بِهِ
 وَمَا لِفَائِيهِ عَوْدٌ وَتَكَرَّارُ
 وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفَّارُ
 مَنْشُورَةٌ وَأَنْكَسِرْ فَاللَّهُ جَبَّارُ
 فَالْعَبْدُ يَفْضَحُ وَالِدَيَّانُ سَتَّارُ
 فَاسْتَمْطِرِ الْعَفْوَ إِنْ الْعَفْوَ مِدْرَارُ
 وَالْيَائِسُونَ مِنَ الْغُفْرَانِ كُفَّارُ
 وَالْوَقْتُ يَمْضِي وَحَالُ الْمَرْءِ أَطْوَارُ
 فَإِنَّنَا فِي مَجَالِ الْعَيْشِ تُجَّارُ
 وَلَا يَفِيْدُكَ أَوْلَادٌ وَأَصْهَارُ
 وَجَهَ الْإِلَهِ فَإِنَّ العُمَرَ مَعْيَارُ
 وَالرِّزْقُ وَالْكَسْبُ وَالْأَعْمَارُ أَقْدَارُ
 لَا تُكْثِرِ الْهَمَّ إِنَّ الْهَمَّ بَتَّارُ
 فَفِي عَجَائِبِ هَذَا الْكَوْنِ أَسْرَارُ
 وَالْعَبْدُ فِي حَايِرَةٍ وَاللَّهُ يُجْتَارُ
 لِمَوْقِفٍ لَيْسَ تُغْنِي فِيهِ أَعْدَارُ
 يَوْمَ الْقِطَافِ إِذَا شَاقَّتْكَ أَثْمَارُ
 يَوْمَ الْحِسَابِ وَقَدْ آدَتَكَ أَوْزَارُ

٧٢ - أيها القمر

بَانَتْ شُمُوسُ الْمَحْيَا أَيُّهَا الْقَمَرُ
 وَمِيْضُ وَجْهِكَ عَنَّا غَيْرُ مُنْحَسِرٍ
 نَحْيَا بِجَنَّاتٍ خُلِدَ حَيْنَ نَشْهَدُهُ
 إِنَّا بِدَرْبِ الْهَوَى نَمْشِي عَلَى خَطَرٍ
 نَرَاهُ كَالشَّمْسِ عَنَّا غَيْرِ مُبْتَعِدٍ
 نَسْعَى حَثِيثًا وَنُضْنَى مِنْ مُكَابَدَةِ
 لَقَدْ قَطَعْنَا مَسَافَاتٍ لِنُدْرِكَهُ
 وَفَارَغُ الْقَلْبِ يُؤَلِّينَا نَصَائِحَهُ
 كَأَنَّهُ نَافِخُ كَيْرِ الْغَرَامِ بِنَا
 إِنْ كَانَ لِلصَّيْرِ أَجْرٌ غَيْرُ مُنْحَصَرٍ
 نَدْعُو الْإِلَهَ وَلَيْلُ الْهَمِّ مُعْتَكِرٌ
 فَاللَّهُ خَالِقُنَا وَاللَّهُ رَازِقُنَا
 مَا خَابَ عَبْدٌ بِجَبَلِ اللَّهِ مُعْتَصِمٌ
 هَذِي الْمَظَاهِرُ تَفْنَى لَا بَقَاءَ لَهَا
 وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَالْأَفْلَاكُ فَانِيَةٌ
 وَوَجْهُ رَبِّكَ يَبْقَى لَا شَرِيكَ لَهُ
 وَإِنْ تَكُنْ بِلَيَالِي الشَّعْرِ تَسْتَتِرُ
 وَبَارِقُ الْبَرْقِ يَبْدُو ثَمَّ يَنْحَسِرُ
 وَإِنْ نَكُنْ بِلَهَيْبِ الشَّوْقِ نَسْتَعِرُ
 لَكِنْ بِشَرِّعَتِهِ يُسْتَسْهَلُ الْخَطَرُ
 وَنُورُهَا فَوْقَ سَطْحِ الْأَرْضِ مُتَشَرُّ
 لَوَاعِجُ الشَّوْقِ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ
 وَطَالَ بَعْدَ الْعَنَاءِ بِالْأَيْتَنِ السَّفَرُ
 وَنُصْحُهُ فَوْقَ نَيْرَانِ الْهَوَى شَرُّ
 وَسَوْفَ إِنْ ذَاقَ طَعْمَ الْحُبِّ يَعْتَذِرُ
 فَإِنَّا طَمَعًا بِالْأَجْرِ نَضْطَبِرُ
 مَنْ ذَا سِوَاهُ عَلَى التَّفَرِّيْحِ يَقْتَدِرُ
 مَنْ لَا ذِي فِي حُصْنِهِ مَا مَسَّهُ ضَرَرُ
 وَكُلُّ مُسْتَنْصِرٍ بِاللَّهِ يَنْتَصِرُ
 لَا تَنْخَدِعْ بِبَهَاةِ كُلِّهَا صُورُ
 وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْأَمْلاكِ وَالْبَشَرِ
 الْمَلِكُ لِلَّهِ وَالْأَرْبَابُ تَنْدَرُ

آيَاتُ وَحَدَّثِهِ فِي الْكَوْنِ ظَاهِرَةٌ
طَوْبَى لِعَبْدٍ بَصَّنَعَ اللَّهُ يَغْتَبِرُ
نَلْهُو بِزُخْرُفِ دُنْيَانَا لِغَفْلَتِنَا
وَالْحَادِثَاتِ لَنَا فِي ضَمْنِهَا عِبْرٌ
يَا رَحْمَةً لِّجَمِيعِ الْخَلْقِ جُدْ كَرَمًا
وَاشْفَعْ بِنَا يَوْمَ لَا خِلَّ وَلَا وَزَرَ
فَإِنَّنَا نَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً
وَكُلُّ ذَنْبٍ بِجَنْبِ الْعَفْوِ يُغْتَفَرُ
صَلَّى عَلَيْكَ الَّذِي أَصْفَاكَ تَكْرِمَةً
بِرُؤْيَا لَمْ يَزِغْ مِنْ نُورِهَا الْبَصَرُ

٧٣ - تخميس أراك عصي الدَّمْعِ ١

أَيَا مُغْرَمًا بِالْوَصْلِ طَالَ بِهِ الْهَجْرُ
سَحَابُ حِجَابِ الْعَاشِقِينَ لَهُ قَطْرُ
فَهَالِي وَقَدْ ذُقْتَ النَّوَى وَالنَّوَى مُرٌّ
أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتِكَ الصَّبْرُ
أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

١ هذا التخميس كان الشيخ قد أهداهُ للمنشد الحلبي الشهير الأستاذ حسن حفار، فأنشدها في حلب، ومرةً كان أستاذنا الدكتور البوطي مدعوًا إلى هناك فسمعها منه فأعجب بها أيما إعجاب، وطلبها من الحفار، وكانت المفاجأة حين أعلمه أنها من شعر شيخنا، فعاد الدكتور وعتب على شيخنا أن لم يُخبره بها، ثم أطلَّ موقفًا في الحديث عن شطرةٍ منها في بعض حفلات الشام التي كان يحييها الأستاذ حسن حفار، وهي قول شيخنا: "ومن ليس يهديه الغرام فقد غوى"، وكان الحفار قد أنشدها مرةً في الشام في جامع الشويكة، وكان الازدحام شديدًا وضجَّ الناس بعد أن سمعوها، وكانت خطبة شيخنا الشيخ كريم حولها، وكان فيما قاله: إنها أروع وأجمل من أصلها، ثم أنشدها الحفار في باريس، وكتبت الصحف عنها هناك، لكنَّ الحفار أبى أن يذكر اسم شيخنا للصحافة هناك، وقد رأيت من الناس مَنْ أعجبوا بها كثيرًا، أذكرُ على سبيل المثال: الأستاذ القاضي الشهير: سعدي أبو جيب، وقد كان مرةً في مجلس شيخنا فجعل يقرأها ويتمايل طرباً على هيئته، ومنهم الداعية الإسلامي الشهير: علي الجفري، وغيرهم كثير.

دليلي على أَنَّ الهوى لك شرعةٌ نُحُولٌ وفي دَقَاتِ قَلْبِكَ سُرْعَةٌ
فَقُلْ لي فما في الحُبِّ عَارٌ وَسُمْعَةٌ نَعَمْ أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ
وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ

وَمَنْ لَيْسَ يَهْدِيهِ الْغَرَامُ فَقَدْ غَوَى وَذِكْرِي أَحَادِيثُ الْمِلَاحِ هِيَ الدَّوَا
وَإِنِّي وَإِنْ أَغْلَقْتُ قَلْبِي عَلَى الْجَوَى إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَى
وَأَذَلْتُ دَمْعًا مِنْ خِلَاقِهِ الْكِبَرُ

أَرِيدُ اكْتِتَامَ الْحُبِّ وَالْوَهْنَ فَاضْحِي لَقَدْ دَقَّ أَوْصَالِي وَرَقَّتْ جَوَارِحِي
فِيَا لَيْتَ نَفَحَ الْوَصْلِ يُطْفِئَ لَوَافِحِي تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي
إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ

أَيَا غَادُ لَوْ قَبَلَ الْفَنَاءُ تَرْقُدِيْنَهُ بِلَمْحَةٍ طَيْفٍ مِنْكَ إِذْ تُرْقِدِيْنَهُ
فَيَنْعَمَ عَيْشًا كَمْ بِهِ تَعْدِيْنَهُ مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

مَلِيكَةً رُوحِي كِدْتُ أَفْنَى مِنَ الضَّنَى وَكُنْتُ عَنِ التَّعْذِيبِ وَالصَّبْرِ فِي غِنَى
وَلَكِنَّ قَلْبِي لَسْتُ أَمْلِكُهُ أَنَا فَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا
فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ

مُهِيجَةً الْأَشْوَاقِ كَمْ تَعْدِيْنَهُ وَيَا كَعْبَةَ الْعُشَّاقِ لَوْ تَشْهَدِيْنَهُ
يَذُوبُ وَإِخْوَانُ الْهَوَى يَحْسُدُونَهُ مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ^١

١ تخميس آخر لهذا البيت.

٧٤ - هو الدهر سيماء الخيانة^١

هو الدهر سيماء الخيانة والغدر
وسلم إلى المولى المدبر ولتكن
فما الكرب والضراء إلا مصيبة
لقد قدر المولى فإن تك من ونى
وإن أعمدتك النائبات فبن لها
فكم مستطار اللب روعاً أكدّه
ويا رب برعيسٍ ومستأخذ الضنى
توكل على رب البرية واعتقد

فلا تبتئس إن مس جانبك الضر
حليف اضطبار، يؤهن الأزمة الصبر
لئمحي بها الإذنب أو ينمو الأجر
هلوعاً جزوعاً يثخن الإثم والإصر^٢
بقلب جسور أو تطأطأ لما يعرو^٣
عياء وأحزان وأرمضه الذعر^٤
أتاح له الرحمن برءاً وجا النصره
بأن الذي يكفيك بارؤك البر^٥

١ الكلام عن الدهر ، والوصية بالصبر [المصدر الثالث]

٢ الونى: التعب ، والهلوع من الهلع وهو شدة الجزع ، وإن الإنسان خلّق هلوعاً: يجزع ويفزع من الشر ، ويحرص ويشح على المال ، والجزوع كثير الجزع وهو نقبض الصبر. وأثخن فلاناً: أوهنه وأضعفه ، وأثخن في العدو بالغ الجراحة فيهم ، والإصر: الذنب والثقل.

٣ أعمد الأشياء: أدخل بعضها في بعض ، والنائبات: كارثة وحادثة مؤلمة ، وبان: ظهر ، والجسور: الشجاع ، تطأطأ: انخفض ، ويعرو: يصيب ، ويقال عراه الأمر: ألم به.

٤ اشتطير: دُعر وأفزع ، واللب: القلب ، والروع: الخوف ، أكدّه: أتعبه. والعياء: شدة التعب ، وأرمضه الحر: أحرقه ، وأرمض الشيء فلاناً: أوجعه.

٥ البرعيس: الصبور على اللاؤاء.

ألم تستمع ما قصَّ سُبْحَانَهُ عَلَى
تذكَرَ خَلِيلَ اللَّهِ بِالنَّارِ قَدْ رُمِيَ
وكانت بِأَمْرِ اللَّهِ كَافِي خَلِيلِهِ
وهذا ابنُ يَعْقُوبَ مَلِيكَ وَمُرْسَلٌ
نعمُ سامه إخوانه شرَّ هُلْكَه
وعُدَّ بِمَدِيرِ الْكَوْنِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ
ولا تأسَّ مِنْ قَوْلِ الْحَسُودِ مَذْمَةً
يَكُنْ بِأَعْمَاقِ الْفُؤَادِ عِدَاوَةً
ولا بدَّعٍ إِنْ أَبَدَى الْعَدُوُّ بَشَاشَةً
وجانب بليد الطبع لا ترعَ ودَّه
وكن مُغْضِيًّا لِلطَّرَفِ عَنْ كُلِّ عَثْرَةٍ
ولا تَنْبَشِ الْأَخْطَاءَ يُوْذِيكَ رِيْجُهَا
وَإِذَا تُرْحَ عَيْنُكَ مِنْ هَوْلِ شَكْلِهَا

خَلِيقَتِهِ وَالْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ الْعِبْرُ
فطاح الذي ألقاه وانتابه الوزرُ
سلاماً وبرداً لا حرورَ ولا قرُ
وقد كان مَظْلُوماً وَمَسْكَنَهُ الْبِئْرُ
فكيدوا بما كادوا وللذَّقْنِ قَدْ خَرُوا
إِذَا أَظْهَرَ الْأَضْغَانَ يَكْذُمُهُ الشَّرُّ^١
فَلِلْقَدْرِ تَصَوُّيْتُ إِذَا شَفَّهَا الْحَرُّ^٢
ويكشف عن أقصى نواجذه البِشْرُ
فَلِلنَّيْبِ تَكْشِيرِ إِذَا هَالَهَا الْبَبْرُ^٣
فإنَّ بليدَ الطَّبْعِ عَيْرٌ وما العَيْرُ
سَمُوحاً سَتُوراً فَالْقَدِيرُ لَهُ سَتْرُ
وفي البَحْثِ عَنْهَا صَاحِبِي يَنْصَبُ الْفِكْرُ
لِذَا تُدْفَنُ الْمَوْتَى لِذَا يُخْفَرُ الْقَبْرُ^٤

١ كدم يكدم بالضم والكسر: عض.

٢ الشفيف: شدة الحر.

٣ النيب: جمع أنيب: العظيم الناب، الببر: حيوان مفترس من الفصيلة السنورية.

٤ إدها: من واد بمعنى دفنها وهي حية.

أَجَلْ أَنْتَ خَطَاءٌ كَمَا النَّاسِ كُلَّهُمْ
فَإِنْ تُغْضِرْ مِنْ جَفْنِيكَ غَضُوا جَفُونَهُمْ
أَعِزُّ أَدْنَكَ الْيُمْنَى الْوُشَاءُ مُمَحَّصًا
وَإِنْ رَامَ مِنْكَ الرُّوحُ خَلًّا مُنَاصِحٌ
وَكُنْ فِي اتِّخَاذِ الْخَلِّ حَرًّا مُنْقَبًا
وَلَا تَصْحَبِنْ يَوْمًا سَرَّ نَدَى مُسَارِعًا
تَسْمَى رِجَالَاتُ بَحْرِ وَنِعْمَةٍ
لَقَدْ خَالَفُوا نَهْيَ النَّبِيِّ وَمَا دَرَوْا
خَلِيقَةَ هَذَا الدَّهْرِ جَوْرٌ وَخُدَعَةٌ
فَكَمْ خَالِعٍ ثَوَّبَ التَّقَى فِي عَضَاضَةٍ
وَكَمْ جَاهِلٍ يَبْنِي صَرُوحًا شَوَاحِخًا
وَكَمْ عَاقِلٍ تَعْجَابَةٍ فِي أُمُورِهِ
وَكَمْ صَالِحٍ يَقْضِي الْحَيَاةَ مَرَارَةً

سوى الأنبياء لَكِنْ مِنَ الْأَنْعَمِ الدُّثْرُ^١
وَإِنْ تَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ تَنْتَفِي الْأُزْرُ^٢
وَكُنْ غَيْرَ ذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ لِمَا يُطَرِّوْا
فَهَبْهُ وَلَا تَبْخُلْ فَدَيْنُ الْهَوَى يُسْرِ
وَجَرَّبُهُ وَاسْأَلْ عَنْهُ كَيْ يُسْفِرَ الْفَجْرُ
وَلَوْ كَانَ مِعْطَاءً وَمَا عِنْدَهُ بُثْرُ^٣
فَغَابَ الَّذِي سُمِّيَ فَقِيلَ انْتَفَى الْخَيْرُ
بِأَنَّ الْجَمِيلَ الْفَالِ يَعْقُبُهُ الطَّيْرُ
فَإِنْ ذُقْتَ مِنْهُ الْغَدَرَ فَهِيَ لَهُ عُذْرُ^٤
وَكَمْ هَالِكٍ بُورٍ وَمِيرَانُهُ التَّيْرُ
وَكَمْ طَائِعٍ لِلَّهِ يُدْفِعُهُ الْفَقْرُ
مَفْنٌ وَبَعْدَ الْجُحْدِ أَعْوَزَهُ الطَّمْرُ
وَقَدْ نَيْبَ الْأَوْدَاجِ ظَلَمًا لَهُ الدَّهْرُ

١ الدثر: الغفلة والستر.

٢ الأزر: جمع إزار: ما يستر العورة من اللباس.

٣ السر ندى: المتسرع، والبثر: الثراء.

٤ خليقة: طبع، والخليقة عذر، أي عذر الدهر أن ذلك من طبيعته وطبعه.

وَيَطْرَحُهُ فِي نَكْبَةٍ بَعْدَ نَكْبَةٍ	فَيُمْسِي وَيُضْحِي مِنْ عَنَاهُ لَهُ بُهْرٌ ^١
وَكَمْ حَازِقٍ لَا يُزْدَهَى بِخَدِيعَةٍ	يَتَبَرَّرُ تَبِيرًا وَيُلْحَقُهُ الضَّيْرُ
وَعُمُرٍ رَخِي الْبَالُ فِي خَيْرِ عَيْشَةٍ	صَحِيحٍ مَعَانِي وَالْمُنَاتُ لَهُ عُمُرُ
وَيَحْتَالُ مَزْهَوًا وَيُطْرِي مُبَاهِيًا	وَفِي كُلِّ حَالٍ شِيْمَةُ الْأَهْقِ الْكِبَرُ
وَكَمْ أَوْقَةٍ جُودٍ شَوَى مِنْ لُحُومِهِمْ	مُسَفَّدَةً يَقْرِي وَأَضْيَافُهُ الْعُثْرُ ^٢
وَقَدَّمَ فِي الْأَكْوَابِ شَرِبًا دِمَاءَهُمْ	لِيُثْنِيَ عَلَى إِكْرَامِهِ ذَلِكَ الزَّوْرُ
وَذَرَّ رُفَاتَ الْعِظَمِ فِي الْجَمْرِ مُنْعَشًا	ضِيُوفًا بِخُورًا فَاسْتُطِيبَ بِهِ الْأُورُ
فَلَا تَعْرِضْ وَأَقْضِ الْحَيَاةَ مُسَلِّمًا	وَنَاجِ الَّذِي سَوَّاكَ فَهُوَ لَهُ الْأَمْرُ
سَتَمْضِي إِلَى الْخَلَاقِ وَالْعَيْشُ يَنْقُضِي	وَيَرْضَى الَّذِي يَرْضَى فِي الْجَنَّةِ الْخُبْرُ

١ النكبة: المصيبة ، والنُّهْرُ: انقطاع النفس من الإعياء.

٢ الأوقة: محضن الطائر على رؤوس الجبال ، والتسفيد: وضع اللحم على السَّفُود وهو عود من حديد يوضع عليه اللحم ليشوى. والغثر: جمع أغثر، وهو الأحمق.

٧٥ - هي الدنيا متاع الغرور

هِيَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ لِلْغُرُورِ
وَحَفِّفْ فَالْحِسَابُ بِهَا عَسِيرٌ
وَمَهْمَا سَيِّقَ لِلْإِنْسَانِ مِنْهَا
قَلِيلُ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ
أَلَيْسَ إِلَى الْفَنَاءِ نَسِيرٌ طَرًّا
سَمَضِي كَالَّذِينَ مَضَوْا وَبَادُوا
وَكَمْ دَاعٍ يَقُولُ أَلَا ارْعَوَاءُ
فَمَا تُبْنِئْنَا وَكَمْ تُبْنِئُ قُبُورُ
لَقَدْ كَانُوا وَكَانَ لَهُمْ قُصُورُ
نَعَمْ عَاشُوا بِأَيَّامٍ سُرُورِ
لَقَدْ سَتَرُوا عَنِ الْمَخْلُوقِ عَيْبًا
وَلَا يَخْفَى عَلَى الْخَلْقِ شَيْءٌ
وَلَا يَعْنِيكَ أَنْ تَرْضَى الْبَرَايَا
فَقُمْ وَانْهَضْ إِلَى قَوْمِ الْمَعَالِي
فَلَا تَطْلُبْ إِذَا غَيْرَ الضَّرُورِي
وَقَدْ يَنْجُو الْمُخِفُّ مِنَ الْعَسِيرِ
فَلَا يَكْفِيهِ فَاقْنَعْ بِالْيَسِيرِ
إِذَا مَا الْمَرْءُ فَكَّرَ بِالمَصِيرِ
وَلَا يُبْنِئُ عَلَى دَرْبِ الْمَسِيرِ
أَلَيْسَ نَظِيرُنَا أَهْلُ الْقُبُورِ
عَنِ الْأَوْزَارِ عَنْ كُلِّ الشُّرُورِ
لَنَا وَلِمِثْلِنَا أَهْلُ الْغُرُورِ
فَلَمْ يَبْقُوا بِهَاتِيكَ الْقُصُورِ
فَلَمْ يَهْنُوا بِأَيَّامِ السُّرُورِ
وَلَكِنْ لَا اسْتِتَارَ عَنِ الْبَصِيرِ
أَمَّا رَبُّ الْبَرِيَّةِ بِالْخَيْرِ
وَفُوزُكَ فِي رِضَا الرَّبِّ الْقَدِيرِ
وَلَا تَكْسَلْ وَتَخْلُدْ لِلْفُتُورِ

فَأَنْتَ مُيَمِّزُ بِالْعِلْمِ فاعْلَمْ
 نِهَا الْجِسْمِ لِلدَّيْدَانِ لَكِنْ
 فَلَا تَكُ كَالْبُعَاثِ ضَعِيفَ كَيْدٍ
 وَأَنْتَ بِأَصْغَرِكَ فَكُنْ نَبِيهَا
 وَلَيْسَ الْمَالُ يُعْلِي مِنْكَ قَدْرًا
 فَإِنَّ الْمَالَ تَتْرُكُهُ حَلَالًا
 وَيَوْمَ الْحِشْرِ لَا يُغْنِيكَ نَسْلٌ
 وَكُلُّ شَأْنِهِ يُغْنِيهِ عَمَّا
 وَعُمُرُكَ يَا صَدِيقِي رَأْسُ مَالٍ
 وَلِلْآخِرَى تِجَارَاتٌ فَتَاجِرُ
 وَصَاحِبٌ مَنْ هُوَ الْآتِقَى فَيَوْمًا
 أَخْلَاءُ الْحَيَاةِ بِيَوْمِ حَشْرِ
 سَأَلْتُ اللَّهَ يُخَيِّرْ لِي خِتَامِي
 فَلِيَّ مُذْنِبٌ ضَيَّعْتُ عُمْرِي
 وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْبَارِي تَعَالَى
 وَذُلِّي وَأَنْكِسَارِي وَافْتِقَارِي

وَلَا تَضَعِ السَّجِيرَ مَعَ الْعَصِيرِ
 صَفَاءُ الرُّوحِ يَنْفَعُ فِي التُّشُورِ
 وَحَلَقٌ لِلْعُلَا مِثْلَ النُّسُورِ
 فَلَا تَغْتَرَّ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ
 وَلَوْ جَمَعْتَهُ مِثْلِي نَبِيرًا
 لَغَيْرِكَ مِنْ كَفُورٍ أَوْ شَكُورٍ
 وَلَا أَصْلٌ وَمَالِكَ مِنْ نَصِيرِ
 سِوَاهُ فَأَكْثَرَنَّ مِنَ الْأَجُورِ
 فَلَا تَصْرِفْهُ بِالشَّيْءِ الْحَقِيرِ
 وَلَا تُفْلِسْ وَتَاجِرٌ بِالْكَبِيرِ
 سَيَنْضُمُ النَّظِيرُ إِلَى النَّظِيرِ
 بَلَا تَقْوَى عُدَاةُ يَا سَمِيرِ
 وَيَكْفِينِي غَدًا حَرَّ السَّعِيرِ
 بَلَا نَفْعٍ وَلَا عَمَلٍ مُجِيرِ
 وَحَسَنُ الظَّنِّ بِالْمَوْلَى نَصِيرِ
 وَحُبُّ الْمُصْطَفَى الْهَادِي الْبَشِيرِ

١ ثبير: جبل قرب مكة.

٧٦- أَطَلَّ عَلَيَّ

أَطَلَّ عَلَيَّ مِنْ طَرَفِ السَّتَارِ فَأَوْقَدَ فِي الْفُؤَادِ لَهَيْبَ نَارِ
لَهُ وَجْهٌ كَبَدُرٍ فِي سَنَاةٍ وَوَجَّتُهُ بِلَوْنِ الْجَلَنَارِ
وَعَمَزَةُ مُقْلَتَيْهِ عَلَى فُؤَادِي كَغَمَزَاتِ السَّهَامِ بِكَفِّ بَارِي

٧٧- أَطَلَّتْ عَلَى الْعُشَّاقِ

أَطَلَّتْ عَلَى الْعُشَّاقِ مِنْ جَانِبِ السَّرِّ فَقَالُوا أَهَذَا اللَّيْلُ أَمْ مَطْلَعُ الْفَجْرِ
وَقَالُوا سَعِدْنَا بَعْدَ طُولِ تَصَرُّرٍ وَلَا شَكَّ أَنَّ السَّعْدَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ
تَجَلَّتْ لَهُمْ ذَاتُ الْجَمَالِ بِوَجْهِهَا فَهَامُوا وَدَقَّتْ الْقُلُوبُ بِلَا حَصْرِ
سَرَوْا نَحْوَهَا لَمَّا اسْتَضَاءُوا بِنُورِهَا كَشَمْسِ الضُّحَى وَالْكُلُّ يَسْرِي وَلَا يَدْرِي
لَهَا قَامَةٌ كَالْغُصْنِ لِينًا وَمُقْلَةٌ بِهَا سَحَرُ هَارُوتَ وَوَجْهٌ كَمَا الْبَدْرِ
بِهَا هَيْفٌ وَالرَّدْفُ يُنْقَلُ خَصَرُهَا يُحِيطُ تَلَاقِي الرَّاحَتَيْنِ عَلَى الْخَصْرِ
وَعُرَّتُهَا غَرَاءٌ غَرَّتْ بِضَوْوِهَا صِنَادِيدَ لَكِنْ لَيْسَ بِدَعَاً عَلَى السَّحْرِ
وَوَجَّتُهَا كَالْوَرْدِ حُسْنًا جِيئُهَا عَلَيْهِ ضِيَاءٌ مِثْلُ الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ

فَمَا شَاهَدَتْ عَيْنِي بَهَاءَ وَبَهْجَةً
وَلَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا احتَجَبَتْ وَقَدْ
فَأَصْمَتَ أَنَاسًا عُلَّقُوهَا وَخَلَّفَتْ
لَقَدْ لَوَّعَتْهُمْ ثُمَّ غَابَتْ وَمَا ارْتَوُوا
وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ أَبْصَرُوهَا تَحَرَّجُوا
لَنَالُوا رِضَاءَ اللَّهِ وَهُوَ مَفَازُهُمْ
وَلَمْ يَحْمِلُوا هَمًّا وَلَمْ يُحَرِّمُوا نَوْمًا
وَلَمْ يَشْرَبُوا خَمَرَ الْغَرَامِ وَمَا عَوَّوْا
فِيَا رَبِّ عَرَّفْنَا الْحَقِيقَةَ وَاهْدِنَا
حَنَانِيكَ يَا رَبَّاهُ أَحْسِنْ خِتَامَنَا
وَقَدِّرْ لَنَا خَيْرًا وَيَسِّرْ أُمُورَنَا
أُولَئِكَ أَتْبَاعُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقُ
كَذَلِكَ سَلَامٌ مِنْ مُحِبِّ مَعَذِّبِ

وَلَا عَيْنٌ غَيْرِي مِثْلَهَا سَائِرَ الْعُمَرِ
أَعَادَتْ عَلَى ذَاكَ الْبَهَا طَرَفَ السَّيْرِ
كَثِيرًا مِنَ الْقَتْلِ عَلَى جَانِبِ الْقَبْرِ
وَإِنَّ عَذَابَ الْمُغْرَمِينَ مِنَ الْهَجْرِ
وَعَصَّوْا مِنَ الْأَبْصَارِ وَالْعِشْقِ وَالْهَجْرِ
وَأَيْضًا أَجَارُوا نَفْسَهُمْ مِنْ لُظَى الْجَمْرِ
وَنَالُوا بِهَذَا رَاحَةَ الْقَلْبِ وَالْحِجْرِ
وَلَمْ يَكْسِبُوا ذُلًّا مُهِينًا مِنَ الْوُزْرِ
وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا بِالْعَفَافِ وَبِالْأَجْرِ
وَحَلَّصْنَا مِمَّا قَدْ جَنَيْنَاهُ بِالْغَفْرِ
وَقَفْنَا مَعَ الْأَخْيَارِ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ
وَسَيِّئَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْغُرِّ
وَمَا أُتْبِعَ الْعُسْرُ الْمَكْدُرُّ بِالْيُسْرِ
بِأَوْزَارِهِ يَرْجُو الشَّفَاعَةَ بِالْصَّبْرِ

٧٨ - أعلن الحب

أعلن الحب أيها المتواري	فالهوى واضح وضوح النهار
دمع عينيك دائماً في انسجام	وكذا الجلد قاحل في اصفرار
حبك الله واجب وفخار	وكذا حب سيّد الأبرار
كل حب مقدس ذو ظهور	وهوى الغير واجب الاستار
فهو سبحانه أفاض علينا	نعماً جمّة بغير انحصار
ورسول الهدى دعانا لنحيا	بعد موت القلوب بالأغيار

٧٩ - إليك سلمت أمري

إليك سلمت أمري	فأغفر إلهي وزري
فقد قسا القلب مني	وضيع اللهو عمري
عجزت عن حرب نفسي	فاشد بعزك أزي
نفس بجلّمك كربي	واشرح بجودك صدري
قد انتبت بذت بعيداً	ومسّني كل ضرر
عسى بعفوك عني	يخزني حرف جر
وسامني الذنب ذلاً	فازفع بغفرك قدري
بكيت من ظلم نفسي	كما بكت أخت صخر

وضاقَ صَدْرِي وَصَبْرِي
 كَأَنِّي فَوْقَ جَمْرٍ
 كَأَنَّهَُا صَلْدُ صَخْرٍ
 قَدْ ابْتَلَاهَا بِوَقْرِ
 مَا بَيْنَ طَبَلٍ وَزَمْرِ
 شَكَّوتُ لِهْ أُمْرِي
 مُسْتَعْتَبًا فَاْمَحْ شَرِّي
 وَاخْتِمَ حَيَاتِي بِخَيْرٍ

وَجَفَّ دُمْعِي وَرَيْقِي
 تَقَلُّبِي فِي فِرَاشِي
 وَسَادَتِي وَهِيَ قُطْنٌ
 صَوْتُ الصَّافِرِ بِأَذْنِي
 كَأَنِّي فِي ضَجِجٍ
 تَشَعَّبَتْ بِي أُمُورِي
 إِنِّي اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي
 وَالطُّفْ فَاِنِّي ضَعِيفٌ

٨٠ - بعد طول الجفا

حَصَلَ الْوَصْلُ وَاللِّقَاءُ بِدَارِي
 وَأَنَا يَائِسٌ مَعَ الْإِصْرَارِ
 حَانَ وَقْتُ اللَّقَا وَكُشِفَ السَّتَارِ
 كَابْتِغَاءِ الرَّضِيعِ حَلَّ الصَّرَارِ
 وَتَوَالِي إِعْثَارُهُ وَعِثَارِي^١
 قَمَرٌ شَمْتُ لَيْلَتِي كَالنَّهَارِ^٢

بَعْدَ طَوْلِ الْجَفَا وَبُعْدِ الْمَزَارِ
 جَاءَنِي طَارِقًا عَلَى غَيْرِ وَعْدٍ
 قُلْتُ مَنْ؟ قَالَ مَنْ تُحِبُّ وَتَهْوَى
 قَمْتُ كَالْبَرْقِ مُسْرِعًا أَبْتَغِيهِ
 قُلْتُ حُلُمٌ كَعَادَتِي فِي اللَّيَالِي
 ثُمَّ لَمَّا فَتَحْتُ بَابِي بَدَا لِي

١ الإِثَار مِنْ أَعَثَرَ بِمَعْنَى أَطْلَعَ ، أَوْ جَعَلَهُ يَعْثُرُ ، وَالْعِثَارُ: مُصْدَرُ عَثَرَ: كَبَا وَزَلَّ.

٢ شَامَ: نَظَرَ وَرَأَى ، يُقَالُ: شَامَ السَّحَابَ: نَظَرَ إِلَيْهِ يَتَحَقَّقُ أَيْنَ يَكُونُ مَطَرُهُ.

مَدَّ كَفَّيْهِ بِاسْمٍ وَطَوَانِي
خِلْتُ أَنِّي بِجَنَّةٍ وَنَعِيمٍ
قُلْتُ نَارُ الْمَشُوقِ بَعْدَ اصْطِبَارٍ
أَظْفَرِ الْحُبِّ بَعْدَ صَبْرِي بِوَصْلِ
إِنَّ مَنْ كَانَ ذَا صُمُودٍ وَصَبْرٍ
فَاصْطَبِرْ لِلصَّلَاحِ وَاسْعَ حَيْثُ
لَا تَقُلْ قَدْ عَجَزْتُ عَنْ طَهْرِ ثَوْبِي
فَانُوا خَيْرًا وَاطْلُبْ مِنَ اللَّهِ عُونًا
وَتَخَلَّصْ مِنَ الْهَوَى تَبَقَّ حُرًّا
لَا تَكُنْ لِغَيْرِ رَبِّكَ عَبْدًا
لَا تُعَلِّقْ بِغَيْرِ مَوْلَاكَ قَلْبًا
لَسْتَ تَجْنِي مِنْ حَبِّ دُنْيَاكَ إِلَّا
أَكْثُرُ الْهَمِّ وَالْعَنَاءِ وَالتَّوَانِي
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُمِّنَ بِعَفْوٍ
فَأَلَا قِيَّهَ رَاقِعًا وَهَيَّ ثَوْبِي

فَتَنَعَّمْتُ فِي لَذِيذِ الْحَوَارِ
قَدْ أَعِدَّتْ بِالْمُشْتَهَى وَالْحَوَارِي
بُدِّلْتُ بِالْجَنَانِ بَعْدَ انْتِظَارِ
بَشَرِ الصَّابِرِينَ بِالْإِظْفَارِ
سَيَحُتُّ الْجِبَالُ بِالْأَظْفَارِ
دُونَ يَأْسٍ وَكُنْ مِنَ الْأَبْرَارِ
مُبْتَغِي الْخَيْرِ خَيْرُهُ الْأَطْهَارِ
وَتَنَعَّمْ بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ
لَيْسَ عَبْدُ الْهَوَى مِنَ الْأَحْرَارِ
إِنَّمَا أَنْتَ صَانِعُ الْقَهَّارِ
وَتَسْتَرُّ بِسُتْرَةِ السُّتَارِ
بَعْدَ مَسْعَاكَ كَثْرَةَ الْأَوْزَارِ
وَالْتَدِلِّي مِنْ صَحْبَةِ الْأَغْيَارِ
وَيُحْسِنِ الْخِتَامَ عِنْدَ السَّرَارِ
وَيُجَازِي بِرَحْمَةٍ وَاعْتِفَارِ

١ سرار الشهر - بالفتح والكسر -: آخر ليلة فيه.

٨١ - أبا أيمن أبشراً

جُزِيتَ بِأَوْفَى مَا يُجَازَاهُ مُحْسِنٌ
تَمَنَّ بِلَا مَنْ عَلَى غَيْرِ طَالِبٍ
وَلَا بَدَعَ فَالْمَعْرُوفُ مِنْ صُنْعِ أَهْلِهِ
أَبُوكَ الَّذِي مَا ضَنَّ يَوْمًا بِرِّهِ
أَضَاءَتْ لِيَالِيهِ بُنُورُ صَلَاتِهِ
وَلَوْعُ بَدَلِ الْعِلْمِ وَالنُّصْحِ وَالْهُدَى
كَرِيمٌ بِمَا يُعْطِي مِنَ الْخَيْرِ زَاهِدٌ
لَقَدْ كَانَ خَيْرَ النَّاسِ إِذْ طَالَ عُمُرُهُ
نَعَمْ عَاشَ قَرْنًا بِالْعِبَادَةِ وَالتَّقَى
لَقَدْ حَفِظَ الْمَوْلَى بِحُسْنِ صِلَا حِهِ
أَبَا أَيْمَنِ أَبْشَرَ فَأَنْتَ مَوْفَّقٌ
لِبَسْتِ مِنَ الْأَخْلَاقِ ثَوْبًا مُبْهَجًا
لَقِيتَ مِنَ الْأَصْحَابِ مَا لَسْتَ تَرْجِي
وإِنِّي إِلَيْكُمْ صَادِقُ الْحَبِّ مُحْلِصٌ

وَأُولِيتَ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ
وَتَكْسُوهُ فَوْقَ الْفَضْلِ مِنْ حُلَلِ السَّيْرِ
وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ طَيْبِ النَّشْرِ
وَمِنْ ذِكْرِ مَوْلَاهُ مَضَى عَاطِرَ الذِّكْرِ
وَكَمْ كَانَ يَسْعَى لِلْمَحَارِبِ فِي الْفَجْرِ
وَيَدْعُو إِلَى الْحُسْنَى وَيَنْهَى عَنِ النُّكْرِ
قَرِيبٌ مِنَ الْأَتَقَى بَعِيدٌ عَنِ الْكِبْرِ
وَأَفْنَاهُ بِالْإِزْشَادِ وَالْعِلْمِ وَالْبِرِّ
وَلِلْعِلْمِ وَالْإِحْسَانِ مُحْتَسِبًا يُجْرِي
لِمَوْلُودِهِ كُنْزًا كَمَا جَاءَ فِي الذِّكْرِ
وَحَاشَا يَضِيعُ الْبِرُّ يَوْمًا لَدَى الْبَرِّ
فَكُلُّ الَّذِي تَلْقَاهُ تَلْقَاهُ بِالْبِشْرِ
وَمَنْ كَانَ مِقْدَامًا تَدْرَعُ بِالصَّبْرِ
وَلَيْسَ عَلَى أَمْثَالِكُمْ يَخْتَفِي عُذْرِي

١ ضمن كتاب لوزير الأوقاف الأسبق الأستاذ محمد - أبو أيمن - الخطيب. [المصدر الرابع]

أَتَاكَ لَكَ الْمَوْلَى سَبِيلًا مُيَسَّرًا
وَمُلِّكَتَ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ دَائِمًا
فَمَنْ عَاشَ لَا يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ مُؤْمِنًا
وَحَسْبِي وَحَسْبُ النَّاسِ لِلْوَعْدِ وَالْهَدَى
أَنَاجِيكَ يَا رَبَّاهُ فِي السِّرِّ خَالِيًا
وَتَجْعَلُ مَا يُرْضِيكَ عَنَّا حَلِيفَنَا

إِلَى قِمَّةِ الْإِصْلَاحِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
وَإِنْ رِضَاءَ اللَّهِ مِنْ أَثْمَنِ الذُّخْرِ
وَلَمْ يَجْتَهِدْ فِي الصَّالِحَاتِ لَفِي خُسْرِ
مِنْ الذِّكْرِ مَا نَتْلُوهُ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ
تُعِينُ أَخِي فِي اللَّهِ مُسْتَكْثِرَ الْأَجْرِ
وَتَحْفَظُ قَلْبَيْنَا إِلَى آخِرِ الْعُمَرِ

٨٢ - ماتت شريكة عمري^١

مَاتَتْ شَرِيكَةُ عُمَرِي
فَهَلْ أَعِيشُ وَحِيدًا
مَنْ ذَا يَكُونُ أَيْنَسِي
وَهَلْ تَطُولُ حَيَاتِي
ظَنِّي وَمَا خَابَ ظَنِّي
نِعِمْتُ بِالْوَضَلِ حَتَّى
فَكَيْفَ يَأْكُلُ وَدِّي
يَحِقُّ لِي بَعْدَ هَذَا
أَرْثِي وَدودًا وَلَوْ دَا

فَغَابَ فِي التُّرْبِ شَطْرِي
أَمْضَى بَقِيَّةَ عُمَرِي
مَنْ غَيْرُ عَيْنٍ وَحْظَرِ
مَنْ بَعْدَهَا؟ لَسْتُ أَدْرِي
وَقَعْتُ فِي شَرِّ شَرِّ
شَاءَ الْمُقَدَّرُ بِتُرِي
يَفْتَرُّ نَغْمِي بِشَرِّ
أَرْثِي الْفَقِيرَةَ دَهْرِي
كَمَا رَثْتُ أَخْتُ صَخْرِي

١ في رثاء زوجته الحاجة نوره.

مَا مِثْلُهَا فِي صَفَاءٍ
 إِنْ غِبْتُ تَحَفُّظُ غَيْبِي
 وَصِيَّتُهَا بَيْنَ قَوْمِي
 قَدْ أَنْجَبَتْ لِي بَنَاتٍ
 وَهِنَّ أَرْبَعُ غُرُرٍ
 إِذَا رَأَيْتَنَ هَلَالاً
 وَمِثْلُهُنَّ شَبَاباً
 إِنَّ الْمَصَابَ عَظِيمٍ
 فُجِئْتُ قَبْلًا بِزَوْجٍ
 مَا أَنْجَبَتْ لِي وَلَكِنْ
 ظَنَنْتُ أَنِّي سَأَقْضِي
 وَعِشْتُ عَيْشَ الْأَيَّامِ
 أَمْضَىٰ يَتَهَا ثَلَاثَ عَقَدٍ
 بَقِيَتْ فِيهَا غَرِيْبًا
 أَظُنُّ أَنَّ زَوَاجِي
 لَكِنَّ رَبِّي حَكِيمٌ
 أَرَادَ طَوْلَ حَيَاتِي
 وَحَطَّ عَنِّي كُرُوبًا
 وَكَانَ فِي الصُّلْبِ نَسْلٌ
 أَدْرَكْتُ سَبْعًا حَفِيدًا

وَفِي ذِكْرَاءٍ وَبِرِّ
 أَوْ قُلْتُ تَكُنْ سِرِّي
 كَالْعِطْرِ فِي طَيْبِ نَشْرِ
 ذَوَاتِ حُسْنٍ وَطُهُرِ
 مِثْلُ الْكَوَاكِبِ تَسْرِي
 يَقْلُنَ قَصَّةُ ظُفْرِي
 شَجَعَانِ مِثْلَ الْهَزْبِ
 سَلَّمْتُ لِلَّهِ أَمْرِي
 قَدْ جَمَعْتُ كُلَّ خَيْرٍ
 كَانَتْ بِلَيْلِي كَبْدُ
 مِنْ بَعْدِهَا بَعْدَ شَهْرِ
 لَا أَشْتَهِي قَوْلَ صَهْرِي
 مِنْ غَيْرِ شَفْعٍ لَوْ ثَرِي
 لَمْ أَلْفِ مَنْ شَدَّ أَرْزِي
 مِنْ بَعْدِهَا كَانَ يُزْرِي
 مَا شَاءَ فَهُوَ يَجْرِي
 وَشَاءَ يَرْفَعُ ذِكْرِي
 قَدْ أَنْقَضَتْ صُلْبَ ظَهْرِي
 فَشَاءَ يُفْرِغُ قَدْرِي
 وَالسَّبْطَ مِنْ فَوْقِ عَشْرِ

يَا لَيْتَ رَبِّي تَعَالَى
وَأَنْ يَكُونَ حَسَابِي
وَأَنْ يُحِيطَ ذُنُوبِي
أَرْجُوهُ حُسْنَ خَتَامِي
وَأَنْ يُعِفَّ لِسَانِي
وَأَنْ يُطَهِّرَ قَلْبِي
قَدْ ضَاقَ صَدْرِي إِلَهِي
وَارْزُقْنِي صَبْرًا جَمِيلًا
يَا رَبُّ وَاذْخُمْ وَكْرَمُ
زَوْجِي خَيْرُ نِسَاءٍ
وَاجْمَعْ هُنَالِكَ شَمْلِي
مَعَ زَوْجَتِي وَصَاحِبِي
أَنْعِمْ بِجَنَّاتِ خُلْدٍ
الْحَوْرُ فِيهَا حِسَانُ
الْجَوْوُ فِيهِ مُنِيرُ
لَا زَمَهَرِيَّ نَرَاهُ
فِيهِ رِاضَاؤُكَ رَبِّي
تَوَلَّنِي يَا إِلَهِي
إِنِّي أُرَانِي بَعِيدًا
عَسَى إِلَيْكَ إِلَهِي

فِي الْحَشْرِ يَرْفَعُ قَنْدَرِي
حِسَابَ عَفْوٍ وَيُسْرِ
مَهْمًا تَوَالَّتْ بِغْفَرِ
وَأَنْ يُعْظَّمَ أَجْرِي
عَنْ قَوْلِ زُورٍ وَهَجْرِ
دُومًا وَيُضْلِحَ جَهْرِي
فَاشْرَحْ إِلَهِي صَدْرِي
مَنَافَقَ كُلِّ صَبْرِي
يَا أَهْلَ فَضْلِ وَجَرِ
أَوْدَعْتُ كُفْلًا بِقَرِ
فِي دَارِ حُورٍ وَدُرِّ
وَأَسْرَقِي لَكَ شُكْرِي
خَطَبْتُهَا دُونَ مَهْرِ
وَالشَّهْدُ يُجْرِي بِنَهْرِ
مِنْ غَيْرِ شَمْسٍ وَحَرِّ
وَلَا بِهَا بَرْدٌ صَرِّ
أَنْعِمْ بِخَيْرِ مَقَرِّ
وَأَصْلِحِ الشَّانَ إِثْرِي
قَدْ سَمْتُ صُلْحِي بِهَجْرِي
يُحَرِّنِي حَرْفُ جَرِّ

حَتَّى أَكُونَ سَعِيداً
لَيْسَ السَّعِيدُ بِإِلٍ
إِنْ لَمْ تُغْنِنِي بَعْفُو
دَارِكَ عُيَيْداً ضَعِيفاً
وَاسْتَأْسَرْتَنِي الْخَطَايَا
وَحَجَّجَ الْكَرْبُ حَوْلِي
لَقَدْ سَأَمْتُ حَيَاتِي
وَابْيَضَ بِالشَّيْبِ شَعْرِي
وَصَارَ سَمْعِي ضَعِيفاً
وَصِرْتُ أَنْسَى كَثِيراً
وَكُلَّ سَاقِي وَزْنِي
قَدْ هَاجَمْتَنِي عِدَاتِي
نَفْسِي أَلَدُّ عَدُوِّ
أَنْتَ الْقَدِيرُ وَحَسْبِي
قَدْ جِئْتُكُمْ بِانْكِسَارٍ
مُسْتَعْتَباً مِنْ دُنُوبِي
إِنْ اعْتَذَرِي بِضَعْفِي
قَدْ أَشْكَرْتَنِي دُنُوبِي
أَنْجَيْتَ يُؤْنَسُ رَبِّي
إِنِّي اعْتَرَفْتُ بِظُلْمِي
وَتُوبَ عَلَيَّ فَلِي

مِنْ بَيْنِ أُنْبَاءِ عَصْرِي
بَلْ بِالتَّقَى كُلُّ فَخْرٍ
وَالْعَصْرِ إِنِّي بِخُسْرٍ
قَدْ شَفَّهَ مَسُّ ضَرْ
فَامُنْ بِإِطْلَاقِ أَسْرِي
فَأفْكَكَ بِجُودِكَ حَجْرِي
وَعَفْتُ حُلُوبِي وَمُرِّي
وَأَوْهَنَ الْهَمُّ عَظْمِي
وَمَا بِهِ دَاءٌ وَقُرٍ
وَسِيمَ بِالْوَهْنِ فَكْرِي
وَضَاعَ كَرِّي وَفَرِّي
بِكُلِّ زَهْوٍ وَكِزْبٍ
فِعْلُ الْهَوَى فِعْلُ خَيْرٍ
إِذَا تَوَلَّيْتَ نَصْرِي
فَاجْبُرْ إِلَهِي كَسْرِي
فَاغْفِرْ بِحِلْمِكَ وَزْرِي
فَأَقْبَلْ بِقُضْلِكَ عُذْرِي
فَاعْقَبَ الصَّخْوَ سُكْرِي
مِنْ بَطْنِ حُوتٍ وَبَحْرِ
مَسْبَحاً فَاجِلُ عُسْرِي
خَتَمْتُ بِالتَّوْبِ شَعْرِي

٨٣ - اختر لنفسك^١

يا مَنْ تُقْضِي سَوَادَ اللَّيْلِ بِالسَّمَرِ	لَا تَنْسَ أَنَّكَ مُوعودٌ عَلَى سَفَرٍ
فاجْمَعْ لَهُ الزَّادَ قَبْلَ الْفَوْتِ مَجْتَهِدًا	فَوْقَ عَمْرِكَ يَمْضِي غَيْرَ مُنْتَظَرٍ
إِذَا أَتَيْتَ بِيَوْمِ الْحَشْرِ ذَا فَلَسٍ	ضَاعَ النِّعِيمُ وَكَانَ الْخُلْدُ فِي سَقَرٍ
نَهَايَةُ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ لَمَعَتْ	إِمَّا وَفَاةً وَإِمَّا أَرْذَلَ الْعُمُرِ
أَرَاكَ تَجْمَعُ مَا لَا لِسْتَ مُفْنِيَهُ	وَكَمْ مِنَ الْمَالِ مَالٌ عَادَ بِالضَّرِرِ
أَلَيْسَ يَكْفِيكَ قَوْتُ أَنْتَ أَكَلُهُ	فَقَدْ تَكَفَّلَ فِيهِ خَالِقُ الْبَشَرِ
إِنَّا لَنَبْنِي بِنَاءً سَوْفَ نَرْكُضُهُ	وَالْقَبْرُ غَايَةُ سُكْنَى كُلِّ مُنْقَبِرٍ
أَلَا ارْغَوَاءً وَقَدْ مَرَّتْ بِنَا عِبْرٌ	وَمَوْتُ سَابِقِنَا يَكْفِي مِنَ الْعِبَرِ
مَاذَا اسْتِفَادَ مِنَ الْأَمْوَالِ جَامِعُهَا	إِلَّا الْهَمُومَ وَإِلَّا الْمَوْتَ فِي كَدَرٍ
إِنَّ الْغِنَى جَرَبٌ يَلْتَدُّ صَاحِبَهُ	بِالْحَكِّ حَتَّى وَلَوْ أَدْمَاهُ بِالظُّفْرِ
فَازِ الْمَخْفُونِ فِي الدُّنْيَا بِرَاحَتِهِمْ	مِنَ الْكُرُوبِ وَمِنَ إِرْهَاقَةِ الْفِكْرِ

١ موعظة للحرص على الوقت. [المصدر الثاني]

وَفِي الْقِيَامَةِ مَيْسُورٌ حَسَابُهُمْ	يُجْزَوْنَ أَيْضاً عَلَى صَبْرٍ لَهُمْ صَبْرٌ ^١
إِيَّاكَ أَنْ تَصْحَبَ الْأَرْدَى فَتَرَدَّ بِهِ	وَاصْحَبٌ تَقِيّاً وَلَا تَغْتَرَّ بِالْصُّورِ
فَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ تَشَمَّ لَهُ	رِيحاً كَرِيهاً وَيُؤْذِي الثَّوْبَ بِالشَّرْرِ ^٢
وَحَامِلُ الْمَسَكِ يُجْذِي مَنْ يُصَاحِبُهُ	أَوْ تَطْرُبُ النَّفْسُ مِنْهُ بِالشَّدَا الْعَطْرِ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحْلُو لَهَا خُذْناً	بَعْدَ الْبَيَانِ فَلَيْسَ الْخَبْرُ كَالْخَبْرِ ^٣
النَّاسُ مِنْهُمْ سَلِيمٌ ذَوْقُهُ فَطِنٌ	يَهْوَى الْوَرُودَ وَيَهْوَى طَيْبَ الزَّهْرِ
وَأَخْشَمٌ لَمْ يُفَرِّقْ أَنْفَهُ أَبَداً	بَيْنَ الْبُخُورِ وَبَيْنَ النَّتْنِ مِنْ بَحْرِ ^٤
يَا رَبُّ سَدِّدْ خُطَانَا إِنَّنَا فِتْنَةٌ	ضَلُّوا الطَّرِيقَ فَلَا نَمْشِي عَلَى خَطَرٍ

١ الصَّبْرُ: عَصَاةٌ شَجَرٌ مُرٌّ.

٢ الكَبِيرُ: جِهَازٌ مِنْ جِلْدٍ أَوْ نَحْوِهِ يَسْتَعْمَلُهُ الْحَدَّادُ وَغَيْرُهُ لِلنَّفْخِ فِي النَّارِ لِإِشْعَالِهَا.

٣ الْخَبْرُ: مَا يَنْقَلُ مِنَ الْأَقْوَالِ ، وَبِالضَّمِّ: الْحَبْرَةُ ، وَمَعْرِفَةُ الْأَمْرِ عِلْماً وَمَعَانِيَةً.

٤ الْأَخْشَمُ: مَنْ لَا يَكَادُ يَشُمُّ شَيْئاً. وَالبُخُورُ: مَا يَتَبَخَّرُ بِهِ مِنْ عُودٍ وَنَحْوِهِ ، وَالطَّيِّبُ الْمَعْرُوفُ ، وَالبَخْرُ بِالتَّحْرِيكِ: النَّتْنُ فِي الْفَمِ ، وَرَائِحَتُهُ الْكَرِيمَةُ.

حرف السين

٨٤ - إلهي عافني من شر نفسي

وَأَصْلِحْ قَبْلَ إِيْدَاعِي بِرْمَسٍ ^١	إِلَهِي عَافِنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي
وَتَغْفِرْ لِي فَيَا خُسْرَانَ نَفْسِي	وَإِنْ لَمْ تَغْفُ عَنِّي يَا إِلَهِي
وَمَا تُثْلِي يَرَاعَاتِي وَنَفْسِي ^٢	قَدْ اسْتَخْدَمْتُ فَقْرِي لِي شَفِيعاً
لِسَانِي يَرْجِي وَسُطُورُ طَرْسِي ^٣	وَإِنَّكَ خَالِقِي أَوَّلِي بِحَالِي
فَخَيْرٌ مِنْهُ مَنْ أَمْسَى بِأَلْسٍ ^٤	إِذَا مَا الْعَقْلُ لَمْ يَكُ لِي رَشِيداً
وَعَيْشُ الْمُجْرِمِينَ حَيَاةٌ تَعْسٍ	حَيَاةُ الصَّالِحِينَ حَيَاةٌ سَعْدٍ
وَلَا تَجْعَلْ بَصَائِرَنَا بِطْمَسٍ ^٥	أَنْزِيَارُ رَبِّ مَهْيَعَنَا بِرُشْدٍ

١ الرَّمْسُ: القبر.

٢ اليراعات: جمع يراعة: القلم ، والنَّقْسُ: المداد ، الحَبْرُ.

٣ الطَّرْسُ: الصحيفة.

٤ الأَلْسُ: اختلاط العقل ، الجنون.

٥ المهيع: الطريق البين.

وَأَحْسَنَ خَتْمَنَا وَاجْعَلْ لِقَانَا
أَلَا إِنَّ الدُّنُوبَ لَنَا كُرُوبٌ
نَخُوضُ بِفُلْكَنَا وَالْعَجْزُ بَحْرٌ
لَقَدْ أَعْمَرْتَنِي مَوْلَايَ قَرْنًا
أُمَزَّقَ تَوْبَتِي لَيْلًا وَصُبْحًا
وَهَبْنِي تَوْبَةً رَبِّي نَصُوحًا
لَقَدْ أَنْزَلْتَ قُرْآنًا مُبِينًا
وَلَوْ أَنَّا وَعَيْنَا مَا وَقَعْنَا
فِيَا مَوْلَى الْوَرَى اجْعَلْهُ شَفِيعًا
غُرُورُ النَّفْسِ بِالشَّهَوَاتِ جَهْلٌ
وَإِنَّ مَنَاصِبَ الدُّنْيَا زَوَالٌ
فَهَيِّئْ مَوْطِنًا بِحِنَانٍ خُلْدٍ
وَلَا تُذْهِبْ حَيَاتَكَ فِي طَعَامٍ
وِإِلَّا فَالْجَمِيعُ إِلَى فَنَاءٍ
كَأَنَّ الْغَافِلِينَ لَقَدْ أَصَابُوا
وَلَوْ أَنِّي عَضَضْتُ عَلَى بَنَانِي

وَأَيَّامَ الْوَدَاعِ كَيَوْمِ عُرْسٍ
وَذَاكَ مُسَلَّمٌ وَالْأُمُرُ حِسِّي
وَلَكِنْ مَوْعِدُ الْآجَالِ مُرْسِي
فَخُذْ بِيَدِي قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِي
فَسَاحِنِي بِمَا أَضْحَى وَأُمْسِي
وَبَارِكْ فِي جَنَى زَرْعِي وَغَرْسِي
يُنَادِينَا جَهَارًا لَا يَهْمُسُ
وَلَمْ نُشْغَلْ بِأَنْغَامٍ وَجَرَسِ
لَنَا يَوْمَ التَّغَابُنِ وَالتَّأَسِّي
وَإِنْ سَيِمَتْ تُسَاوِي رُبْعَ فَلَسِ
فَلَا تُغْرِبْكَ طَاوِلَةٌ وَكُرْسِي
وَأَمِنْ مُوقِنًا إِيْمَانِ لَمْسِ
وَشُغْلٍ بَيْنَ طَنْجِيرٍ وَطَسِّ
وَنَجْمُ ذَوِي الْبِطَالَةِ نَجْمُ نَحْسِ
مِنَ الشَّيْطَانِ كُلَّهُمْ بِمَسِّ
لَايَ نَادِمٌ لَبَّزْتُ حَمْسِي

٨٥ - راحة القلب في خلاف النفوس^١

راحة القلب في خلاف النفوس
نحْنُ في مَعْهَدِ التَّجَارِبِ نَبْنِي
رَسَمَ الخَطَّ خَطَّاطُهَا بَعْلِي
جَاهِدِ النَّفْسَ إِنْ أَرَدْتَ هُدَاها
تَرْكَبُ النَّفْسَ وَهِيَ طِرْفُ جَمُوحٍ
هِيَ أَعْدَى الأَعْدَاءِ فَاصْرِفْ هَوَاها
لَا تُحَسِّنْ بِنَفْسِكَ الظَّنَّ يَوْمًا
إِنَّ مَنْ يَأْتِلِي غُرُورًا وَيُنْزِي
زَكَّهًا بِالْخُضُوعِ لِهَلِّهِ وَاعْبُدْ
لَا تُرْخِهَا مِنَ اللِّجَامِ وَرَوْضِ
كُنْ عَلَيْهَا كِفَارِسِ الصُّحْبِ حَزْمًا
مَهْنِهِ النَّفْسَ وَاسْتَقِمْ وَتَبَتَّلْ
ذَاكَ يَوْمٌ عَذَابُهُ قَمَطَرِيْرٌ
فَامْشِ تَوًّا إِلَى الْهُدَى مُسْتَقِيمًا
وَاشْرَبِ الْعِلْمَ صَافِيًا كَزُلَالِ
قَدْ عَلِمْنَا وَمَا عَمَلْنَا وَتَبًّا
إِنَّ مَنْ يَعْرِفُ الصَّحِيحَ وَيَزُوي
رَبِّ إِنْی انْحَرَفْتُ عَنْهُ فَصَلْنِي

قَدْ تَلَقَّيْنَاهُ فِي خِلَالِ الدُّرُوسِ
حِكْمًا عَلَى أَسَاسِ الطُّرُوسِ
لَا نَرَاهَا إِلَّا بِرَفْعِ الرُّؤُوسِ
وَمَهْيًا مِنْهَا لِحَرْبِ ضُرُوسِ
لِتُلَاقِي غَزْوًا كَحَرْبِ البُسُوسِ
لَا تُنْهَلْهَا دَلَالُ الْعَرُوسِ
غِيْهَا وَاضِحٌ وَضُوحُ الشُّمُوسِ
حَالِفٌ فِيهِ بِالْيَمِينِ الْغَمُوسِ
رَبِّهَا ثَابِتًا لِيَوْمِ الرُّمُوسِ
وَتَنَاوَلَ سِهَامَهَا بِالتُّرُوسِ
فَهِيَ بَسْتُ مِثْلَ الْحِصَانِ الشَّمُوسِ
وَأَفْعَلَ الْخَيْرَ قَبْلَ يَوْمِ عَبُوسِ
لَيْسَ يُفْدَى الَّذِي جَنَى بِالْفُلُوسِ
ثُمَّ حَاذِرْ أَنْ تُبْتَلَى بِالْعُكُوسِ
وَتَنَاوَلَهُ مِنْ نَقْيِ الْكُؤُوسِ
لِأَنَاسٍ عَنِ الْجِهَادِ جُلُوسِ
عَنْ سَبِيلِ الصَّحِيحِ مِثْلُ الْمَجُوسِ
مَعَ أَنِّي عَرَفْتُهُ مِنْ أَمُوسِ

١ موعظة. [المصدر الثاني]

٨٦ - لئن أدميت أصبوعي^١

لَا نَ أَدْمَيْتَ أَصْبُوعِي بِهَرَسٍ	فَلَا تَحْزَنْ عَلَيَّ فِدَاكَ نَفْسِي
قَدْ احْتَسَبَ النَّبِيُّ إِذْ اشْتَكَاها	وَإِنَّ لَنَا بِهِ حُسْنَ التَّأْسِي
وَأَرْجُو اللَّهَ مَغْفِرَةً وَصَوْنًا	فَتَوْبِي جِدُّ مُفْتَقِرٍ لِقُدْسٍ
وَمَا أَنْتَ الَّذِي سَبَّبْتَ هَذَا	وَلَسْتَ مُحَرِّكَاً كَفًّا بِخَمْسٍ
وَلَكِنْ مُظْهِرُ التَّقْدِيرِ قِداماً	لِخَالِقِنَا سَلِمْتَ بِغَيْرِ بُؤْسٍ
إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ بِكُونَ شَيْءٍ	فَإِنَّا نَسْتَعِيرُ لِسَانَ خُرْسٍ
فَلَا حَذَرٌ يُفِيدُ وَلَا اخْتِطَاطٌ	وَلَا يُفْدَى بِدِينَارٍ وَقُلْسٍ
وَلَسْتَ بِخَالِدٍ لِصَفَاءِ عَيْشٍ	فَرُبَّ مُجْنَدٍ بِزَفَافٍ عُرْسٍ
كَذَا الْأَعْمَارُ أَطْوَارُ فَطَوْبَى	لِتَوَّابٍ وَلَمْ يُغْمَدِ بِرَمْسٍ
وَكَمْ تُبْنَا وَعُدْنَا لِلْمَعَاصِي	جِهَاراً أَوْ بِإِسْرَارٍ وَهَمْسٍ
لَقَدْ عَشْنَا طَوِيلًا غَيْرَ أَنَا	عَلَى ذِي الْحَالِ نَضِيجُ ثُمَّ نُمْسِي
وَإِنَّ سَفِينَةَ الْأَقْدَارِ تَجْرِي	عَلَى حَمَأِ الذُّنُوبِ بِغَيْرِ مُرْسِي

١ الشيخ كريم راجع أغلق باب السيارة فهرست إصبعي ودميت فقلت فوراً: [المصدر الثاني]

وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَعْمَالِ بِرٌّ
فَلَا حَوْلَ عَنِ الْعِصْيَانِ مَهْمَا
وَخَوْفُ اللَّهِ لِلطَّاعَاتِ رَأْسٌ
وَلَمْ نَبْذُرْ بِحَرْثِ الصَّدْرِ خَوْفًا
فَهَبْنَا يَا إِلَهِي مِنْكَ عَفْوًا
وَلَا تُزِغِ الْقُلُوبَ عَنِ اهْتِدَاهَا
وَجُدْ وَاجْعَلْ تُقَاكَ لَنَا مَفَازًا
وَعَفْوُكَ وَاسِعٌ مَا ضَاقَ يَوْمًا

وَإِخْلَاصٌ بِهِ مِنْ غَيْرِ لَبْسٍ
تَرَى الْمُسْتَعْتَبِينَ رِجَالَ بَأْسٍ
وَهَلْ جِسْمٌ يَعِيشُ بِغَيْرِ رَأْسٍ
وَلَيْسَ بِنَابِتٍ إِلَّا بِغَرَسٍ
وَعَافِيَةٌ لَنَا مِنْ غَيْرِ نُكْسٍ
فَقَدْ تَعَمَّى فَتُنَكِّرُ ضَوْءَ شَمْسٍ
وَلَا تَجْعَلْ طَوَالِعَنَا لِنَحْسٍ
وَإِنْ تَكُنِ الذُّنُوبُ عَدِيدَ طَيْسٍ

حرف العين

٨٧ - وداعاً زهرة الدنيا وداعاً

وداعاً زَهْرَةَ الدُّنْيَا وداعاً	فإنَّ سَفِينَتِي طَوَتْ الشَّرَاعَا
مَضَى قَرْنٌ وَمَا أَحْسَنْتُ فِيهِ	كَكَنْزٍ صَارَ مِلْكَ يَدِي وَضَاعَا
أَقْصُ عَلَيَّ مِنْ أَحْلَامِ نَفْسِي	بِلا صَوْتٍ وَلَا أُلْقِي اسْتِيعَا
كَأَفْلَامٍ أَشَاهِدُهَا فَاسَى	فَقَدْ كَانَ الْهَوَى فِيهَا مُطَاعَا
لَقَدْ مَلَكَ الْهَوَى وَالنَّفْسُ كُلِّي	بِدُونِ خُصُومَةٍ مِلْكَاً مَشَاعَا
وَلَمْ أَخْتَرْ صَحَاباً أَهْلَ جِدٍّ	وَحَزْمٍ كَانَ أَكْثَرُهُمْ رَعَاعَا
وَسُوْرُ الْعُمَرِ مُنْصَرِّمٌ قَرِيباً	أَرَى أَيَّامَهُ تَمْضِي سِرَاعَا
كَأَنِّي وَالْأَنَامَ قَطِيعٌ ذَبَحٍ	إِلَى قَصَابِنَا نَعْدُو تَبَاعَا
وإنَّ الْقَبْرَ أَسْكُنُهُ بِلَحْدٍ	ظِلَامٌ لَا أَشِيمُ بِهِ شُعَاعَا
وَمَنْ لَا قَبْرَ يَسْكُنُهُ سَيَفْنِي	بِأَكْثَلٍ كَانَ أَكْلُهُ السَّبَاعَا
إِلَهِي لَيْسَ لِي إِلَّاكَ عَوْنٌ	إِذَا مَا قُلْتُ لِلدُّنْيَا وَدَاعَا

حرف الغين

٨٨ - لله در أبي فراس^١

قَرَمًا بِمِيدَانِ الْمَعَارِفِ وَالْوَغَى ^٢	لِلَّهِ دُرُّ أَبِي فِرَاسٍ فَارِسًا
طُوبَى لِمَنْ قَدْ كَانَ عَنْهُ مَبْلَغًا	عَشِقَ الرَّسُولَ فَهَبَّ يَنْشُرُ قَوْلَهُ
أَحْصَى الْمُرَادَ وَنَالَ مِنْهُ الْمُبْتَغَى	فِي عَرَضِ سِيرَتِهِ وَجَمَعَ حَدِيثِهِ
لَكِنَّ حِفْظَ الدِّينِ أَسْمَى مَبْلَغًا	حِفْظَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا مَتَحَتَّمٌ
سِيمَا إِذَا كَانُوا ثَعَالِبَ رُوَّغَا ^٣	صَدُّ الْعُدَاةِ الْغُشْمِ شُغْلٌ شَاغِلٌ

١ كتبها في الثناء على وزير الدفاع الأسبق السيد العماد مصطفى طلاس ، وكان بينهما مودَّة خاصة ، وله فيه وفي عائلته قصائد عدَّة ، اخترت منها هذه القصيدة ، وكان السيد العماد قد نشرها في كتاب سَمَاءِ الرِّفَاقِيَّاتِ (كلمات من القلب مهداة إلى العماد أول مصطفى طلاس) ص ٦٥ ، وقد وقع فيها خطأ مطبعي في البيت الخامس .

٢ القرم: السيد ، الوغى: الحرب .

٣ الغُشْم: الظَّلَمَة ، رُوَّغَا: مخادعين .

فَمَنْ انْتَضَى قَلَمَ الْعُلُومِ وَسِيفَهُ
رَجُلٌ حَوَى مَعْنَى الرَّجُولَةِ كَامِلًا
يَا وَيْلَ أَهْلِ الظُّلَمِ مِنْهُ إِذَا انْبَرَى
شَاهِدَتُهُ لَا تَزِدْهِ مِنْهُ خَدِيعَةً
مُتَوَاضِعٌ مُتَحَلِّمٌ مُتَكَلِّمٌ
فَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْكَلامِ مُقَوَّةٌ
وَإِذَا تَبَصَّرَ فِي الْأُمُورِ وَجَدَتُهُ
اللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَهُ
فِي جَيْدِ أَهْلِ الْبَغْيِ دَوْمًا مُوَلِّغًا^١
يُحْمِي الذَّمَّارَ وَلَا يَلِينُ لِمَنْ بَغَى
فَعَلَيْهِمْ سَقْبُ السَّمَاءِ لَقَدْ رَغَا^٢
وَعَلَيْهِ سِرْبَالُ الْمَهَابَةِ مُسْبَغَا
يُضْغِي لِمَنْ بَدَأَ الْكَلَامَ وَلَوْ لَغَا
وَجَدَ الْعِمَادَ إِذَا تَكَلَّمَ أَبْلَغَا^٣
نَذْبًا وَمَا زَاغَ الْفَوَادُ وَمَا طَغَى
وَعِيَالُهُ وَاللُّطْفَ فِيهِمْ يُفْرِغَا

١ انتضى السيف: أخرجه من غمده ، مولغاً: ساقياً.

٢ الرُّغَاء: صوت البعير ، والسَّقْب: ولد الناقة ، وسقب السماء المراد به سقب ناقة صالح ، وهو مأخوذ من قول علقمة بن عبده الفحل: رغا فوقهم سقب السماء.... في قومٍ أُغِيرَ عليهم فاستوصلوا.

٣ أبلغ منه في الكلام.

حرف الفاء

٨٩- يا رب رَحْمَاكَ

وَاسْتَأْخَذَتْكَ اللَّطَائِفُ	إِنْ خَادَعَتْكَ الزَّخَاوِفُ
وَاحْسِبْ لِنَلِّكَ الْمَوَاقِفُ	فَاذْكُرْ حِسَابَكَ عَنْهَا
مَا لَ تَلِيْدٌ وَطَارِفُ	هِيَ هَاتِ يُغْنِيكَ فِيهَا
ضَيَّعَتْهُ بِالسَّفَاسِفُ	يَا لَهْفَ نَفْسِي لَعْمَرِ
لَا يَصْرَفَنَّكَ صَارِفُ	قَالَتْ هَوَاتِفُ قَلْبِي
رُفِّقْتُ إِلَيْهِ الْمَعَارِفُ	مَنْ أَخْلَصَ التَّوْبَ يَوْمًا
مِنْ حَرِّ نَارِكَ خَائِفُ	يَا رَبُّ رَحْمَاكَ إِنِّي
بِبَابِ عَفْوِكَ وَاقِفُ	مُسْتَعْتَبٌ مِنْ ذُنُوبِي
شَفِيعَ يَوْمِ الْمَخَاوِفُ	مُسْتَشْفِعًا بِرُسُولِ
إِنِّي بِنَفْسِي عَارِفُ	مَا لِي بِسَعْيِي رَجَاءُ
وَعَبْدُ جُودِكَ غَارِفُ	لَكِنْ عَفْوِكَ بَخْرُ
مِنْ يَنْعِ فَضْلِكَ قَاطِفُ	فَاثْمَنُ عَلَيَّ فَلَانِي

٩٠ - عَج بالركاب^١

عَجَّ بِالرَّكَابِ لِنَحْوِ سَاحِ الْمَصْطَفَى
هُوَ أَضَلُّ كُلِّ مُكْوَنٍ وَضَمِيرُهُ
هُوَ فِي الضَّرِيحِ مُنْعَمٌ فِي رَوْضَةٍ
فَاقْصُدْهُ وَاطْلُبْ مِنْ نَدَاهُ شِفَاعَةً
فِي حِينٍ يُعْطَى ذُوو الضَّلَالَةِ كُتُبُهُمْ
إِذْ تَذْهَلُ الْأُمَمَاتُ عَمَّنْ أَرْضَعَتْ
وَتَرَى الْخَلَائِقَ كَالسُّكَارَى دَهْشَةً
لَا تَسْتَشِقُّ الْخَوْضَ فِي حَرِّ الرَّمَا
أَوْ فِي الظَّلَالِ عَلَى الْمِيَاهِ بِمَرْكَبٍ
وَاعْجَبْ لِصُنْعِ اللَّهِ آيَةً عَزَّ
لَوْ حُمِّلَ الْأَمْوَاهُ حَبَّةً فَلُفِّلَ
سِرٌّ فِيهِ وَاعْجَبْ مِنْ صَنِيعِ مَلِيكِهِ
لَا تَخْشَ سُوءَ الْمَوْتِ فِيهِ فَإِنَّهُ
وَسَوَائِقُ الْأَقْدَارِ حَتْمٌ وَعُدْهَا
يَأْتِي وَإِنْ يَسْكُنْ بُرُوجاً شَيْدَتْ

بُعْدُ الْمَحَبِّ عَنِ الْحَبِيبِ مِنَ الْخَفَا
وَلَهُ تَعَالَى قَبْلَ آدَمَ شَرِّفَا
حَيٌّ يُحْيِي مَنْ أَتَاهُ تَلَطُّفَا
يَوْمَ الْجَزَا إِنْ كُنْتَ بِمَنْ أَسْرَفَا
مَنْشُورَةً بِشَاهِلِهِمْ وَمِنَ الْقَفَا
وَسَيَجْعَلُ الْوِلْدَانَ تَخَكِّي الْكُرْسُفَا^٢
مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ الَّذِي قَدْ أَرْجَفَا
لِ وَلَا ظِلَالٍ وَلَا مِيَاهَ مَعَ الْخَفَا
كَسَفَيْنِ نُوحٍ فَوْقَ مَوْجٍ جَرَفَا
عَلِمٌ وَفِيهِ أَلْفُ نَفْسٍ قَدْ طَفَا
أَضْحَى لَفِيضِ الْمَاءِ مِنْهَا أَجْوَفَا
فَبِمِثْلِ هَذَا عَنْهُ قَدْ نَفِي الْخَفَا
فِي الْبَرِّ أَوْ فِي الْبَحْرِ لَنْ يَتَخَلَّفَا
بِهَلَاكِ نَفْسٍ حَيَّةٍ لَنْ يُخَلَّفَا
أَوْ بِالْجُنُودِ وَبِالْحُصُونِ مُكَنَّفَا

١ بمناسبة زيارة المصطفى ﷺ. [المصدر الأول]

٢ الكرْسُف: القطن، أي تشبه القطن في بياض شعرها، إشارة لقوله تعالى: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}.

وَلَا نَ يَكُونُ مَمَاتُهُ بِمَسِيرِهِ
 خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ خِتَامُهُ
 أَمَّا الْمَشَقَّةُ فَهِيَ ظِلٌّ زَائِلٌ
 يَنْسَى الْمُتَاعِبَ مَنْ يَوْفَى أَجْرَهُ
 وَالصَّانِعُ الْمُحْتَاجُ يَحْزَنُ عِنْدَمَا
 طَمَعًا يَتَخَصَّلُ الْمَعَاشِ وَبِالَّذِي
 هَذَا وَمَنْ يَهْوَى يُعَالِجُ فِي الْهَوَى
 مَنْ وَدَّ رِيَاءً أَوْ مَهَاءً ضِلَّةً
 وَاسْتَعَذَّبَ التَّعْذِيبَ فِي سُبُلِ الْغَرَا
 وَلِهَذَا مُحِبًّا لِلتَّفَرُّدِ وَالْخِلَا
 وَالظَّبْيُ يَنْفِرُ عَنْهُ بَعْدَ هَيْبَةٍ
 هَبَّ أَنَّهُ وَافَاكَ طَوْلَ حَيَاتِهِ
 أَوْ أَنَّ عُمْرَكَ قَدْ تَقَضَّى قَبْلَهُ
 إِنَّ الْغَوَانِي حَيْتُ عَوْرُ حُبِّهَا
 تَتَعَارَفُ الْأَرْوَاحُ لَا الْأَجْسَادُ وَالشَّ
 حُبُّ النَّبِيِّ مُبَاعِدٌ وَمُقَرَّبٌ

لِلْحَجِّ أَوْ بَيْنَ الصَّافَا وَالْمُصْطَفَى
 مَا بَيْنَ حَانَاتِ الْمَلَاهِي وَالْهَفَا^١
 وَزِيَادَةُ فِي أَجْرِهِ يَوْمَ الْوَفَا
 عِنْدَ الْفَرَاغِ مَتَمًّا وَمُضَاعَفًا
 يُلْفِيكَ فِي عَمَلٍ سِوَاهُ مُكَلَّفًا
 يَكْفِي الْعِبَادَ بَغَيْرِ كَدٍّ مَا اكْتَفَى
 غُصَّصًا وَمِنْ كَلَفٍ يَزِيدُ تَكَلَّفًا
 هَجَرَ الْفِرَاشِ وَرَاحَ يَفْتَرِشُ الصَّافَا^٢
 مِ وَلَا يَزَالُ لِمُخْلِفِيهِ مُلْحِفًا
 أَرْقًا غَزِيرَ الدَّمْعِ أَصْفَرَ مُدْنَفًا
 وَلَوْعِدِهِ بِالْوَصْلِ يُمَسِّي مُخْلِفًا
 إِنَّ مَاتَ مَا لِحُرُوحِ قَلْبِكَ مِنْ شِفَا
 أَيْنَ النَّجَاءُ إِنْ الْمُهَيِّمُ مَا عَفَا
 لَا تَرْجِي مِنْ حُبِّهِ لَكَ الصَّافَا^٣
 هَوَاتُ عُرْفًا مِنْ أَلَسْتُ مُعْرِفًا
 طُوبَى لِمَنْ عَنِ حُبِّهِ لَنْ يَصْدِفَا

١ الهفاء: الغلط والزَّلَل.

٢ الصفا: الحجارة المساء، أو الصخور.

٣ الخيتعور: السراب، وكل ما لا يدوم على حال، والغول، والدَّاهية، ويجمع معانيها: ما يُخيفُ، وما لا بقاء أو لا وفاء له، ويُقال: امرأةٌ خيتعور: لا يدوم ودها.

٤ إشارة للحديث الأرواح جنود مجنَّدة، وقوله: أَلَسْتُ: إشارة لقوله تعالى: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، أي عندما خاطب الله الأرواح مُعْرِفًا لهم صِفَتَهُ، أو مُعْرِفًا بينهم، فعالم الذر هو وقت تعارف الأرواح، وهو وقت خطاب الله لها، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

فَهُوَ الَّذِي عَنْهُ الشَّرُورُ مُبَاعِداً وَمِنَ التَّجَاعِ مَعَ السَّعَادَةِ مُزْلِفَا

٩١ - دمع عيني سخينا وكفا

دَمْعُ عَيْنِي سَخِيناً وَكَفَا	حَسْبِيَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَفَى
فَارَقْتَنِي أَخْتُ رُوحِي بَعْتَهُ	كَدْتُ أَتْلُوَهَا وَرَبِّي لَطَفَا
لَمْ يَطْبُ لِي الْعَيْشُ رَغِداً بَعْدَهَا	بَلْ لَأَبْقَى لِفُرُوعِي خَلَفَا
فَإِذَا مَا مِتُّ فَوْرًا خَلَفَهَا	نَالَ أَوْلَادِي الْأَسَى مُضْغَعَا
كَأَنَّ لِي رُوحَانِ أَحْيَا بِهِمَا	ذَهَبَتْ رُوحٌ فَقَلْبِي وَجَفَا
فَأَنَا أَحْيَا بِرُوحٍ ذَابِلٍ	وَعِدَا جِسْمِي لِهَذَا دَنِفَا
وَعِدَا الْإِشْرَاقُ مِنِّي كَاسِفٌ	كَالشَّهَاءِ يَغْلِبُ فِيهِ الْاِخْتِنَا
وَأَرَى الدَّهْرَ كَبْخَرٍ مَائِجٍ	وَفُؤَادِي فَوْقَ مَوْجٍ قَدْ طَفَا
يَا لَطِيفَ الصُّنْعِ أَنْسَ وَخَشْتِي	إِنَّ قَلْبِي صَارَ بِحُكْمِي نَفْنَفَا
يَا رَحِيمَ الْخَلْقِ وَارْحَمْ عَزَبَتِي	لَسْتُ أَرْجُو مِنْ أَخِلَائِي الْوَفَا
لَمْ أَذُقْ صَفْوٍ وَدَادٍ خَالِصٍ	قَدْ جَفَا الْكُلُّ وَنَوْمِي قَدْ جَفَا
لَيْسَ مَنْ يُبْدِي وَدَاداً ظَاهِراً	إِنْ رَأَى مِنِّي وَدَاداً قَدْ صَفَا
كَالَّذِي يُخْلِصُ حُبّاً مُطْلَقاً	فِي كَلَا حَالِي لَنْ يَخْتَلِفَا
كَالَّتِي أَقْصَى مُنَاهَا رَاحَتِي	وَهِيَ دَوْمَاتُ تَسْأَلُ اللَّهَ الشِّفَا
ذَاتُ لُطْفٍ ذَاتُ عَطْفٍ دَائِمٍ	خَيْرٌ مَنْ رَقَّ وَمَنْ قَدْ عَطَفَا

١ في رثاء زوجته الحاجة نوره الخطيب الكسواني.

أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ أَنْ يَرْحَمَهَا

غَافِرِ الذَّنْبِ وَأُولَى مَنْ عَفَا

٩٢ - دين المساواة

وَالْإِخْتِصَاصُ بِمَا عَظَّمَ النَّدَى جَنَفُ	دَيْنُ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ النَّاسِ مَحْرَقَةٌ
تَبًّا لِقَوْمٍ عَنِ الْإِسْلَامِ قَدْ صَدَفُوا	دَيْنُ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَاءِ مُرَحَّمَةٌ
وَهُوَ السَّوِيُّ فَيَا طُوبَى لِمَنْ زَلَفُوا	كُلُّ الطَّرَائِقِ دُونَ الشَّرْعِ فِي عَوَجٍ
كَأَنَّهُ دُرُّهَا إِذْ كُلُّهَا صَدَفُ	وَإِنَّهُ وَسَطٌ عَدْلٌ بِمَا شَطَطُ
رَامُوا الْوُصُولَ إِلَى الْمَرِيخِ فَانْكَسَفُوا	حُبُّ النَّهْيِ بِزَعْمِ الْفَضْلِ مَنَقَصَةٌ
نَهَايَةُ الشَّحِّ يَا أَهْلَ الْغِنَى تَلَفُ	إِنَّ التَّمَسُّكَ بِالْأَمْوَالِ مَفْسَدَةٌ
مَنْ غَيْرِ مَالٍ وَلَا ثَوْبٍ فَيَلْتَحِفُ	مَنْ لِلوَلَدِ إِذَا أَلْقَتْهُ هَامَتُهُ
مَنْ لِلْيَتَامَى وَلِلْأَصْلَحِينَ مَا عَرَفُوا	مَنْ لِلْفَقِيرِ إِذَا أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ
مَنْ لِلْجِيَاعِ إِذَا الْمُثْرُونَ مَا عَظَفُوا	مَنْ لِلْقَطِيعِ وَمَنْ شَلَّتْ مَفَاصِلُهُ
وَيَهْلِكُ الْكُلُّ إِنْ أَغْيَاهُمُ الْقَرْفُ	أَيَّجَمْعُ الْمَالَ قَوْمٌ جَدَّ جَدُّهُمْ
عَلَيْهِ سُرَّاقُهُ إِنْ مَسَّهُمْ شَظَفُ	مَنْ يَحْفَظُ الْمَالَ غَيْرُ الْجُودِ إِنْ هَجَمَتْ
حُرَّاسُهُ قَلَّةٌ فِي الْعَيْشِ فَاَنْصَرَفُوا	مَنْ يَحْفَظُ الْمِلْكَ غَيْرُ الْبَذْلِ إِنْ سَمِمَتْ
بَلْ يُدْفَعُ الْبَعْضُ بِالْجُدْوَى إِذَا اقْتَرَفُوا	لَا تَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى دُونَ مَمْلَكَةٍ

١ تفضيل القانون السماوي على غيره. [المصدر الرابع]

لولا التَّفَاضُلُ بَيْنَ النَّاسِ لاشْتَعَلَّتْ	نَارُ الْحُرُوبِ وَقَدْ كَانُوا لِيَخْتَلِفُوا
وَلَوْ تَسَاوَوْا لَمَا نَالُوا وَمَا بَدَلُوا	وَلَا أُثِيَّبُوا وَلَا طَاعُوا وَلَا احْتَرَفُوا
إِنْ كُنْتَ أَنْتَ كَمِثْلِي طَاعِمًا مَرَحًا	فَفَيْمٍ أَنْصِبُ أَعْضَائِي وَأَعْتَسِفُ
لَوْ لَمْ يَكُونُوا شُعُوبًا خَامِلٌ دَنَسٌ	وَطَاهِرٌ عَاقِدُ الرَّايَاتِ مَا اعْتَرَفُوا
الْشَّرْعُ مُنْصَفٌ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ غُصَصِ	وَرَوْضِ أَهْلِ الثَّرَى فِي شَرَعِنَا أَنْفُ
أَبْقَى الْحَقُّوقَ لِأَهْلِهَا وَحَثَّهْمُ	عَلَى الزَّكَاةِ لَيْسْتَغْنُوا وَيَأْتَلِفُوا

٩٣ - قريضي

قَرِيضِي مَا لِقَافِلَةِ الْقَوَافِي	تَرَدَّدُ دُونَ رَاعٍ فِي الْفِيَا فِي
تَرَكْتَ زِمَامَهَا وَغَفَلْتَ عَنْهَا	كَأَنَّكَ قَدْ خَرَّتَ مِنَ السُّلَافِ ١
تُرَى اسْتَعْصَمْتَ وَنَدَّتْ عَنْكَ حَتَّى	هَمَمْتَ عَنِ الْمَنَابِرِ بِأَنْصَرَفِ
هَلِ اسْتَحْيَيْتَ مِنِّي بَعْدَ هَذَا	وَأَنْتَ أَخُو الْحَيَاءِ بِلا تَجَافِي
أَمْ اسْتَكْبَرْتَ وَاسْتَغْنَيْتَ عَنِّي	وَأَنْتَ أَخُو الْإِبَاءِ بِلا خِلَافِ
لَقَدْ كَانَتْ تُوَاتِيكَ الْمَعَانِي	وَتَعْنُو حِينَ تَنْظِمُهَا الْقَوَافِي

١ خَيْرٌ: خَيْرٌ: أَصَابُهُ خُمَارٌ، فَهُوَ خَمُورٌ، وَالْخُمَارُ: مَا يُصِيبُ شَارِبَ الْخَمْرِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْصَّدَاعِ، وَالسُّلَافُ: السُّلَافَةُ: الْخَمْرُ.

وَكُنْتَ تَرْزُقُنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ
وَقَدْ صَاحِبْتَنِي وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ
فَلَا تَتْرُكُ وِدَادَكَ وَاضْطِحَابِي
وَلَمْ أَبْلُغْ حُدُودَ الشَّيْبِ حَتَّى
لَقَدْ كُثِرَتْ دَوَاعِي الشَّعْرِ فَاجْلِسْ
إِلَامٍ وَأَنْتَ مُتَكَيِّئٌ جَبَانٌ
تَجَاوَزَ عَنْ حَدِيثِ اللَّهِ وَانْفَرَّ
وَدَعَانَا مِنْ تَقَالِيدِ الْمَعَانِي
فَلَا تَسْلُكُ طَرِيقَ النَّاسِ فِيهَا
فَقُلْ كَأَنْتَ مِثَالًا لَا يُبَارَى
يُقَرُّ بِذَلِكَ الْأَعْدَاءُ فَضْلًا
نَعَمْ كَأَنْتَ خَلُوقًا ذَاتَ وُدٍّ
وَقَدْ مَاتَتْ صِدُوقًا ذَاتَ زُهْدٍ
إِذَا مَا الرُّمْدُ قَدْ نَكَرُوا سَنَاها
وَأَخِرُ أَمْرِهَا تَرَكَتْ طَعَامًا
وَقَدْ عَبَدْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ شُكْرًا
لَقَدْ فَارَقْتَ رَاضِيَةَ فَطِيئِي

صَبَاحَ مَسَاءٍ أَوْ تَحْتَ اللَّحَافِ
وَحَوْلَيْنِ تَحْيِيٍّ بِلاَ اغْتِسَافِ
فَأَنْتَ مُزِيلُ هَمِّي وَاخْتِلَافِي
تَصُدُّ الْكَأْسَ عَنِّي وَهُوَ صَافِي
وَجَافٍ يَدِيكَ عَنْ حَرِّ الْمَدَافِي
أَلَمْ تَكُنِ الْهَزْبَ بَرَبَلاَ تَخَافِ
مَعَ الْأَجْنَادِ عِصْبَتِكَ الْخِفافِ
وَمَا وَضَعُوا لَهَا فَوْقَ الْغِلَافِ
وَحَدَّثَ عَنْ مَعَانِيهَا اللَّطَافِ
بِكُلِّ فَضِيلَةٍ مَعَ الْإِتْلَافِ
عَنِ الْأَصْحَابِ أَهْلِ الْإِعْتِرَافِ
وِإِنْصَافِ وَلَيْنَ مَعِ عَفَافِ
وَسَلْ عَنْ ذَاكَ أَصْحَابَ الْمَشَافِي
فَنُورُ الشَّمْسِ عَنَّا غَيْرُ خَافِي
وَنَوْمًا. وَالْكَلَامُ بِالْإِنْجِرَافِ
كَمَا اتَّصَفْتَ بِأَخِرِ الْإِتْلَافِ
فَإِنَّ اللَّهَ حَسْبُكَ وَهُوَ كَافِي

٩٤ - بمولد خير الخلق

بِمَوْلِدِ خَيْرِ الْخَلْقِ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ
 إِذَا كَانَتْ الْأَقْوَامُ تَجْعَلُ عِيْدَهَا
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ نَجَلُ عِتْرَةٍ
 أَوْ الْمَالُ أَعْلَاهُ وَسُودَ أَهْلُهُ
 فَمَا بَالُنَا لَا نَحْتَفِي بِمُحَمَّدٍ
 إِمَامٍ عَظِيمٍ أَصْلُ كُلِّ مُكَوَّنٍ
 لَهُ يَوْمَ تَحْيِصِ الذُّنُوبِ مَزِيَّةٌ
 تَنْصُلُ كُلَّ الرُّسُلِ إِذْ تَلَجَأَ الْوَرَى
 يَرُدُّوهُمْ لِلْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ
 فَيَبْتَذِرُ الْمُخْتَارُ لِلَّهِ سَاجِدًا
 هُنَاكَ تَرَى الرَّحْمَنَ يُوضِحُ لِلْوَرَى
 يُجِيبُ إِلَّا فَارَقَ فَقَدْ نَلَتْ مَآرِبًا
 نَعَمْ أَنْتَ يَا مُخْتَارُ أَعْظَمُ كَائِنٍ
 وَطُوبَى لِمَنْ يُجِيبِي طَرِيقَةَ أَحْمَدٍ
 هَنِيئًا لِسَمَاعٍ بِذِكْرِ حَبِيبِهِ
 جَدِيرٌ بِنَا أَنْ نَعْتَنِي ثُمَّ نَحْتَفِي
 يَوْمَ تَوَلَّى فِيهِ ذُو الْمَجْدِ أَوْ شُفِي
 لَهُمْ عِزَّةٌ أَوْ نَجَلُ مَلِكٍ بِهِ قُفِي
 أَوْ الضَّمِيمُ يَأْبَاهُ أَوْ الدَّمُّ قَدْ نُفِي
 عَرِيقٍ بِمَجْدٍ بَلْ بِكُلِّ مُشْرِفٍ
 شَرِيفٍ وَمِنْ بَيْنِ الْجَمِيعِ قَدْ اضْطَفِي
 بِهَا يَعْرِفُ التَّمْيِيزَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ
 إِلَيْهِمْ وَكُلُّ يَدْعِي ذَنْبَ مُسْرِفٍ
 إِمَامٌ شَفِيعُ الْمَذْنُونِ بِمَوْقِفٍ
 يُنَادِي إِلَهِي بِالْبَرِيَّةِ فَارَافٍ
 مَعَانِي سِرِّ الْخَلْقِ مِنْ بَعْدِ مَا خَفِي
 وَقَدْ بَانَ فَضْلُ الْأَلَمَعِيِّ لِمُجْحَفٍ
 فَطُوبَى لِعِشَاقٍ وَلِلشَّرْعِ أَلْفِ
 وَتَبَّأَ لِأَعْمَى جَاحِدِ الْفَضْلِ صَادِفٍ^١
 وَمِنْ بَعْدِ هَذَا بِالتَّحِيَّاتِ هَانِفٍ

١ صَدَفَ: أَعْرَضَ.

حرف القاف

٩٥ - لم يُعد للصبر طاقة

خُلِّتِي إِنَّ أَشْـتِيَاقِي	زَادَ عَنْ حَدِّ الإِطَاقِـهُ
أَنْتَ فِي الْبَذْلِ كَرِيمٌ	وَكَرِيمٌ فِي الرَّشَاقِـهُ
جُدْ لَصَبِّ مُسْتَهَامٍ	مُغْرَمٌ يُبِيدِي أَشْـتِيَاقِـهُ
شَاقَهُ سَخَرُ الْمَعَانِي	وَسَلِيمُ الذَّوْقِ شَاقِـهُ
لَمْ يَجِدْ مِثْلَكَ فِي	لُطْفِ قَوَامٍ وَأَنَاقِـهُ
جَابَ أَطْرَافَ الْبُوَادِي	عِنْدَكُمْ حَاطَ نِيَاقِـهُ
فَقَرُّهُ بِوَصَالِ	إِنَّكُمْ أَهْلُ اللَّبَاقِـهُ
لَا تَرُدُّهُ غَرِيباً	مُبْعِداً يَأْوِي زُفَاقِـهُ
مُؤْتَقاً مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ	رَحْمَةً حُلُّوا وَثَاقِـهُ

ذاقَ آلامَ التَّنْـسائي
لم يُعِدْ لِلصَّـبْرِ طاقَه
هَلْ وَجَدْتُمْ يَالَ وُدِّي
لَوْمُ أَهْلِ الحُبِّ غَيِّ
كانَ في نَوْمٍ عَمِيقِ
طالَ لَيْلُ البُعْدِ لَكِنْ
لَوْ عَلا الحُبُّ الثَّرِيَّا
أَوْ نَأَى عَنْهُ بُرَاقُ
وَإِذا لم يُلْـفَ ظَهْرُ

ومريرَ الصَّـبْرِ ذاقَه
فافتحوا لِلوَصْلِ طاقَه
مُغْرَمًا يَخْشَى رِفاقَه
إِنَّهُ عَيْنُ الحِماقَه
فَدَنَتْ مِنْهُ الإِفاقَه
أَعْلَنَ البَدْرُ اتِّساقَه
لَعَلَّ الصَّـبَّ بُراقَه
رَكِبَ الرِّيحَ وَساقَه
رَكِبَ المَشْتاقُ ساقَه

٩٦ - سبل الحقيقة^١

تعالوا فاسألُوا سُبُلَ الْحَقِيقَةِ	أَيَا مُتَنَكِّبِينَ عَنِ الطَّرِيقَةِ
عَلَى الْمُتَفَاخِرِينَ بِهِ وَثِيقَهُ	سَمَاعِ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ
وَلَا نُطَقَّأَ بِأَقْوَالٍ أَنْيَقَهُ	فَلَيْسَ الْقَصْدُ حِفْظاً لِلْقَضَايَا
وَأَوْرَثَكَ الثُّقَاةَ وَلَوْ دَقِيقَهُ	وَلَكِنْ مَا نَهَاكَ عَنِ الْمَعَاصِي
مِنْ اسْتِنْبَاطِ حُكْمٍ أَوْ دَقِيقَهُ	فَذَلِكَ عِنْدَ رَبِّ النَّاسِ أَجْدَى
تَفُوقُ عَلَى مَوَاعِظِكَ الرَّقِيقَهُ	وَفِكْرَةُ سَاعَةٍ مِنْ بَعْدِ ذِكْرِ
لَدَى الْمُغْتَرِّ مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقَةِ	كَمَا أَنَّ الْجَهَالََةَ وَالِدَعَاوَى
وَعُجْبٌ كَانَ إِبْلِيسَ رَفِيقَهُ	عُدُوْلٌ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ حَقًّا
وَأَذْكَارٌ وَأَفْكَارٌ عَمِيقَهُ	طَرِيقُ الْمُصْطَفَى عِلْمٌ وَحِلْمٌ
وَجُودٌ وَانْبِسَاطٌ لِلْخَلِيقَةِ	وَنَصْحٌ لِلْوَرَى مِنْ غَيْرِ كِبَرٍ
بِمَا يَبْقَى وَذَاكَ هُوَ الْحَقِيقَةُ	وَزُهْدٌ فِي الَّذِي يَفْنَى وَجِدُّ

١ مقارنة بين متفقه وذاكر [المصدر الأول]

٩٧ - سلام على المحبوب

سلامٌ على المحبُوبِ والوجهُ مُشرقٌ
وبَيْنَ الذي أهوى وبَيْنِي مَنَازِلُ
فَوَادِي بَجَنَاتِ الهوى مُتَنَعِمٌ
ولا بَدَعَ إن ما هَمَّتْ فِيهِ مُتِيماً
مواعِينُهُ بِالْوَصْلِ كالْبَرْقِ خُلْباً
وَمَنْ أَخْلَفَ الْمِيْعَادَ عَمْداً مُشَاهِداً
وَلَسْتُ كَمَنْ قَدْ أُوجِرَ الْحَبُّ مُكْرَهاً
سَلُّوا أُمَّ عَمْرٍو كَيْفَ بَاتَ أَسِيرُها
فلا هُوَ مُقْتُولٌ فِي القَتْلِ رَاحَةً
ولَكِنِّي اسْتَعَذَبُ الرِّقَّ والأَسَى
فلا زِلْتُ مَأْسُوراً فِي الأَسْرِ عِزَّةً
وما ضَرَنِي أَنْ يَسْلُقَ الْوَجْدُ فَلَذِي
فَمَنْ كانَ رِغْدِيْداً فلا يَدْعِ الهوى
فَدَرَبُ الهوى حَزْنٌ وَحُزْنٌ وشائِكُ

سلامٌ مَشَوْقٍ كادَ بِالرِّيقِ يَشْرِقُ
وَمَنْ يَمْتَطِي مَتْنَ الهوى يَتَسَلَّقُ
وَجِسْمِي بِنيرانِ النَّوى يَتَحَرِّقُ
ولَكِنْ جَمِيلُ الصَّبْرِ بِالصَّبِّ أَلْيَقُ
وإِعَادُهُ بِالْبَيْنِ وَعَدُّ مَوْتَقُ
ضَنَى الصَّبِّ مَرَّاتٍ فَحاشا يُصَدِّقُ
فَقَالَ يَبْتُ الضَّنْكَ وَالْكَرْبُ مُطْبِقُ
تُفَكُّ الأَسارى دُونَهُ وَهُوَ مَوْتَقُ
ولا هُوَ مَمْنُونٌ عَلَيْهِ فَيَعْتِقُ^١
وما أَنَا مِنْ غَبِّ الصَّبَابَةِ مُشْفِقُ^٢
ولا أَشْتَهِي أَيْ مِنَ الرِّقِّ أَطْلُقُ
وما ضارني أَنْ ذُو السَّلاطَةِ يَسْلُقُ^٣
ومن كانَ صَبَّاراً يُحِبُّ وَيَعْشَقُ
وَيَسْلُكُهُ ذُو الدَّوْقِ لا حِبُّ أَخْرَقُ^٤

١ البيتان مقتبسان.

٢ الغَبِّ: العاقبة، والصَّبَابَةُ: حرارة الشَّوق، والإشفاق: الخوف والحذر مِنَ الشَّيْءِ.

٣ سَلَّقَ اللحم: أغلاه بالماء الحار، وسَلَّقَهُ بِلِسَانِهِ: آذاهُ، والفِلْدَةُ: القطعة من الكبد.

٤ الحِبُّ: المخادع، السَّاعِي في الإفساد، والأَخْرَقُ: الأحمق.

٩٨ - تنعم أيها الصب المشوق

فَكَمْ فِي الْبُعْدِ كُنْتَ لَهُ تُتَوَقُّ	تَنَعَّمَ أَيُّهَا الصَّبُّ الْمَشُوقُ
مَحَبَّتُهُ إِلَى عَذَنِ طَرِيقُ	أَلَمْ تَخْلُلْ بِمَسْجِدِ خَيْرِ هَادٍ
وَكَانَ الْجَهْلُ بِالدُّنْيَا يُحْيِقُ	نَبِيٍّ جَاءَ يَهْدِينَا بِعِلْمٍ
لِسَلْبِ الْمَالِ غَازِيهِمْ يُرِيقُ	وَكَانَ الظُّلْمُ مُتَشَرًّا وَفَخْرًا
وَمَا فِيهِمْ عَلَى الْأُنْثَى شَفِيقُ	أَلَمْ يَتَدَوَّ الْبَنَاتِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ
وَرُبَّ مُعَرَّبٍ قَدْ لَا يُفِيقُ	وَكَانَ السُّكْرُ يَدْفَعُهُمْ لِفُحْشٍ
وَعِلْمٍ فَالْغَيْبِ مِنْهُمْ أَنْيَقُ	فَهَذَّبَهُمْ وَحَضَّرَهُمْ بِحِلْمٍ
يُكَلِّفُ كُلَّ فَرْدٍ مَا يُطِيقُ	وَدِينُ الْمُصْطَفَى سَمَحٌ وَيُسْرُ
فَمَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا صَدِيقُ	فَصَارُوا إِخْوَةً مِنْ بَعْدِ حَقْدٍ
بِجَنَّاتٍ وَشَافِعُنَا رَفِيقُ	سَأَلْتُ اللَّهَ يَجْمَعُنَا جَمِيعًا

٩٩ - قد صار بدري هلالاً

قَدْ صَارَ بَدْرِي هِلَالاً	مُؤْذِنًا بِالْمَحَاقِ
الْكُلِّ مَيِّتٌ وَفَانٍ	وَوَجْهُ رَبِّكَ بَاقِي
يَا مَنْ شُغِلَتْ بِدُنْيَا	لَا تَنْسَ يَوْمَ التَّلَاقِ
طَلَّقَ هَوَاهُ ثَلَاثًا	مُسْتَمْسِكًا بِالطَّلَاقِ
لَا تَبْقَ دَوْمًا أُسِيرًا	أَعْيَاهُ شَدُّ الْوَثَاقِ
أَلَمْ تُعَاهِدْ عَلَى أَنْ	تَعُودَ بَعْدَ الْإِبَاقِ

١٠٠ - من مجري

أَكْحَلِ الطَّرْفِ فَوْقَ خَصَرِ دَفِينِ
وَمَلِينِ فِيهِ الْجَمَالِ الْحَقِيقِ
وَبَعَيْنِ الْمَحْبُوبِ عَمَزَ نَطُوقِ
وَتَشَنُّ وَخَدُهُ كَالشَّقِيقِ
لَيْتَهُ فِي الْوُدَادِ يُمَسِّي رَفِيقِ
وَمِنَ الْإِشْتِيَاقِ جَفَّتْ عُرُوقِ
وَفُؤَادِي قَدْ ابْتُلِيَ بِالْحَرِيقِ
فَوُدَادِي طَبَعٌ وَخُلِقَ سَلِيقِ
وَلَطُولِ الْجَفَا شَرِيقُ بَرِيقِ
فَهَلِ الصَّبْرُ يَا تُرَاهُ مُطِيقِ
لَمَحَاتِ لَمَحْتُهَا كَالْبُرُوقِ
فَأُنَادِي لِلْعَيْنِ أَنْ لَا تُفِيقِ
بِمَنَامِي خَيْالَ ذَاكَ الْأَيْنِقِ
وَشُمُوسُ الْحُبِّ آذَنْتْ بِالشُّرُوقِ
وَأَنَا مُحْرِمٌ بَيْتِ الْعَيْنِقِ
وَرَقِيقُ لِيذِي الْقَوَامِ الرَّقِيقِ
فَتَعَطَّفَ فَضْلاً لَصَبِّ مَشُوقِ
وَبِهَذَا سَلَكَتُ خَيْرَ طَرِيقِ

مَنْ مُجْرِي مَنْ ذِي الْقَوَامِ الرَّشِيقِ
إِنَّ فِي الرَّيْمِ خَفَّةً وَجَمَالاً
لَيْسَ فِي عَيْنِي الْغِزَالِ كَلَامٌ
شَعْرُهُ مُسْتَرْسَلٌ فِي سَوَادِ
أَهْدَبُ الْأَشْفَارِ وَالْتَغَرُ أَلَمَى
هُوَ فِي الدَّلِّ وَالِدَلَالِ مُقِيمٌ
شَاطَ شَعْرِي مِمَّا أَلَا قِي بَصْرِي
لَيْسَ حُبِّي تَكْلُفًا أَوْ رِيَاءً
أَجْرَعُ الصَّبْرَ عُلْقًا وَهُوَ مُرٌّ
لَسْتُ لِلصَّبْرِ فِي جَفَاهُ مُطِيقًا
لَمْ أَكْحَلِ طَرْفِي بِرُؤْيَاهُ إِلَّا
أَهْ لَوْ بِالْمَنَامِ أَحْظَى بِوَضَلِ
قَدْ حَلَا لِي التَّرْنِيقُ عَلَيَّ أَلَا قِي
عَلَّ تَأْوِيلَ ذَاكَ قَرُبُ لِقَاهُ
حَلَّ صَيْدُ الْخِيَالِ فِي النَّوْمِ حَتَّى
أَنَا رَهْنُ حَبْلِي بِكَفِّي خَلِيلِي
لَسْتُ أَبْغِي غَيْرَ الْوَصَالِ حَبِيبِي
لَقَدْ اخْتَرْتُ مَذْهَبَ الْحُبِّ دَرْبًا

حرف الكاف

١٠١ - اترك أحاديث السوى

اترك أحاديث السوى ليسواكا	وابحث عن الباري الذي سواكا
فكر بنفسك قبل أي مكوّن	فإذا بصرت فقد بلغت هداكا
إن جرد العقل السليم رمى إلى	صيد الحقائق والعُلم شباكا
الله خالق كل شيء رازق	عدل حكيم هاهنا وهناكا
أيؤود من أنشاك أول مرة	وهو المريد بقول كن إنشاك ^١
لا ترج غير الله وارجع دائماً	في كل مشكلة إلى مولاكا
فله تصاريف القضاء كما يشا	وسواه في حكم القضاء ساواكا
يا رب وفقنا وثبت قلبنا	وارحم عسى أن نستحق رضاكا

١ آفة: أثقله وصعب عليه، أو أعجزه، ومنه قوله تعالى: {ولا يؤوده حفظها}.

١٠٢ - يا غصنة البان^١

يا غُصْنَةَ البانِ بَانَتْ فِي مُحْيَاكِ
بَيْنَ العُرُوسِينَ كَانَ السَّحَرُ تَفْرِقَةً
يا رِيْمَةً لَوْ رَنْتَ أَصَمْتَ وَلَوْ نَفَرْتَ
مُنِّي بِلَثْمِي مَا تَحْتَ اللِّثَامِ أَرْخُ
قَدْ شُقِّقْتَ عَنْهَا أَكْهَامُ وَجَنَّتِهَا
لَوْلَا الحَوَاجِبُ فَوْقَ العَيْنِ تَحْرُسُهَا
لَكِنَّهَا أَمِنْتَ وَابْوَيْ عَقْرِهَا
عَجِبْتُ مِنْ أَفْحَوَانٍ مَاؤُهُ عَسَلٌ

شَمْسُ الحُمَيَّا فَأُسْكِرْنَا لِرُؤْيَاكِ^٢
وَبَيْنَ جِسْمِي وَرُوحِي حَالٌ طَرْفَاكِ
لَطَارَدَتْ عَقْلَ عُدَّالٍ وَنُسَاكِ
مِنْ وَرَدَتَيْنِ هُمَا وَاللَّهِ خَدَاكِ
وَاسْتَأْثَرْتُ بِذُبُولِ الْوَرْدِ عَيْنَاكِ
هِنْدِيَّةً سَامَهَا بِاللَّدَغِ صُدْغَاكِ^٣
فَاسْتَعَذَبَ النَّعْسَ وَالتَّزْنِيْقَ جَفْنَاكِ
وَلَوْلَوْ نُضِّدَتْ مِنْهُ ثَنَائَاكِ^٤

١ - إجابة لطلب خاطب يُقدِّمها لخطيبته عام ١٩٤٠. [المصدر الثاني]

- في الكعبة المشرفة تغزلاً. [المصدر الأول - المصدر الرابع]

- بيتان لأخي الشيخ حسن رحمه الله في الكعبة المشرفة وهما:

يا كعبة الحسن إن القلب يهواك والركب يطوي الفلا شوقاً لرؤياك
يستعذب الخوض في حر الرمال لما يلقيه بعدئذٍ من طيب رياءك

نسجت على منوالها هذه القصيدة الغزلية. [المصدر الثاني]

٢ البان: ضرب من الشجر سبط القوام، لين، ورقه كورق الصفصاف ويُشبه به الحسان في الطول واللين، الحميا: الشدة والحدة والنشاط، وتطلق على الحمير.

٣ الصُدْغُ: جانبُ الوجه من العين إلى الأذن.

٤ الثنايا: الأسنان الأربعة في مقدم الفم، ثنيتان فوق، وثنيتان تحت.

لا تحزني من ثلاث حاولوا عبثاً
الغصنُ في ميسَةٍ والرَّيمُ في حَوْرٍ
وإن تُريدي عَجِيباً مِنْكَ يا عَجَباً
لاماكِ لاماكِ فوقَ الصَّدغِ إذْ هَمَزَا
وعَيْنِي ذاكَ هَمَزَ الوصلِ لي وخذي
حُبِّيكَ صادفَ قلباً لم يُدَقْ أبداً
كانتَ لَهُ بَعْضُ صَبَوَاتٍ موزَّعةً
حتى أَطافَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ
وبات وهو جميعَ الليلِ مُدَكِّراً
سَامَرْتُ تَحْتَ نِقَابِ الليلِ مِنْ شَعَرٍ
وَحَقٌّ مَنْ نَظَّمَ الْأَسنانَ مِنْ بَرَدٍ
فراقبي اللهَ في رَهْنِ الهوى وصلي

تشبُّهاً فُضِّحُوا أَنَّى وحاشاكِ
والبدرُ ظَنَّ سَناءَهُ التَّمَّ حاكاكِ^١
حوريَّةُ الخُلْدِ لَكِنْ ماتَ مُضْناكِ^٢
باللامِ لا تعطِفي لا فارحِجي الباكي
باللين لا اليُبْسِ، لِلْمَفْتُونِ رُحماكِ
خَمَرَ الغرامِ ولمْ يَتَبَلَّهْ لولاكِ
فاضْافَرَتْ وربَّتْ مُذْ عادَ يَهْواكِ
ما شَفَّهْ بالهوى العُذْريَّ إلَّاكِ
ليالي الأُنْسِ إذْ بانَتْ مُحْيَاكِ
بدرًا بأَعْلَاكِ ضاءَتْ مِنْهُ دُنياكِ
لا يَعْرِفُ الصَّخْوَ إلَّا عِنْدَ لُقْيَاكِ
وارعِي ودادَ فُؤادِ باتَ يَرعَاكِ

١ التَّمَّ: الشَّيْءُ النَّامُ، وَتَمَّ يَمُّ: كَمُلَ، وَتَمَّ الْقَمَرُ: امْتَلَأَ فَبَهَّرَ.

٢ مَنْ كُنَتْ سَبَباً فِي مَرَضِهِ وَهَزَالِهِ.

حرف اللام

١٠٣ - جاءني في الدجى

يَتَشَّى كَالْغُصْنِ لَدُنَا دَلالاً ^١	جاءني في الدجى كَبَدْرٍ تَلالاً
مُظْهِرٌ أَنَّهُ يُرِيدُ الْوَصَالَ ^٢	في ثيابٍ كَغَرَقَى الْبَيْضِ بَيْضاً
كَانَ غَيْرَ الْكَلَامِ مِنْهُ مُحالاً	نَلْتُ مِنْهُ وَنَالَ مِنِّْي وَلَكِنْ
فَاتَهُ أَنَّنِي عَشِيقْتُ الْجَمَالَ	دام كالْبَرْقِ ثُمَّ قَدْ غَابَ عَنِّي
وَكَسَا حُسْنَهُ الْفَرِيدَ جَلالاً	أَعْقَبَ الْبِشْرَ وَالتَّبَسُّمَ جِداً
لَا يُرِينَا فِي كُلِّ شَهْرٍ كمالاً	أَشْبَهَ الْبَدْرَ بِالسَّيْنِ فَلَمَّا ذَا
لَا وَلَا فِي الْقَدِّ مِنْهُ اعْتِدالاً	لَا يُرِي الْعَاشِقِينَ فِي الْحُكْمِ عَدلاً

١ اللدُنُّ: اللين ، أي كالغصن في لينه ، أو غصناً لِيناً.

٢ الْغَرَقَى: القشرة الرقيقة الملتزمة ببياض البيض.

قَدْ غَدَا حَشَوَ جِلْدِهِ الْغَضُّ لِمَا
 مَا يَمْلِكِي أَحَبِّتُهُ كَيْفَ أَسْلُو
 أَرْقُبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِعَلِّي
 وَأَجُرُّ الْكُرَى وَيَهْرُبُ مِنِّي
 وَيُكَأَنَّ الْغَرَامَ كَالْخَمْرِ لَكِنْ
 أَكْسَبَ الْوَاهِيْنَ فِيهِ هُزَالًا^١
 حُبَّهُ قَدْ أَنَالَ عَقْلِي خَبَالًا
 قَبْلَ مَوْتِي أَشِيمُ مِنْهُ هَلَالًا^٢
 فَلَعَلِّي أَصِيدُ مِنْهُ خِيَالًا
 شَرِبْتُ كَأْسَ الْغَرَامِ يَخْلُو حَلَالًا

١٠٤ - يَا مَنْ تَكَبَّرَ فِي الْوَرَى

يَا مَنْ تَكَبَّرَ فِي الْوَرَى وَتَعَالَى
 أَنَسَيْتَ أَضْلَكَ ذَرَّةً فِي نُطْفَةٍ
 إِنْ كَانَ ذَا فَادْكُرْ بِأَنَّكَ طُعْمَةٌ
 الْيَوْمَ تَمْشِي فِي الْأَنَامِ مُعْظَمًا
 لَا تَنْسَ خَالِقَكَ الَّذِي أَثْشَاكَ مِنْ
 وَرَعَاكَ فِي رَحِمٍ بِقَدْرِكَ ضَيِّقٍ
 وَهَذَاكَ لِلنَّجْدَيْنِ تَرْضَعُ مِنْهُمَا
 وَمَشَى يُجِرُّ إِزَارَهُ مُحْتَالًا
 مَقْدُوفَةً مِمَّا يَعْدُ مَبَالًا
 لِلدُّودِ حَتَّى لَا تَعُودَ خِيَالًا
 وَغَدًا سَتَبْقَى قِصَّةً وَمَقَالًا
 عَدَمٍ وَلَوْ لَا ذَاكَ كُنْتَ مُحَالًا
 ضَمَنْ الْمَشِيمَةَ لَا تُطِيقُ مُحَالًا
 لَبَنًا شَهِيًّا سَانِعًا سَيَالًا

١ غدا حَشَوَ جِلْدِهِ: صار ممتلئ الجسد، الغض: الطَّري، الواله: مَنْ بِهِ وَلَهْ: تحيَّر من شدة الوجد،
 وَحَزَنَ حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُهُ.
 ٢ أَشِيمُ: أَنْظَرُ مُدَقَّقًا وَمَتَابِعًا.

وَحَرَجْتَ لَيْسَ لَدَيْكَ أَيُّ دَرَابَةِ
 أَنْتَ الْفَقِيرُ إِلَيْهِ فَاشْكُرْ فَضْلَهُ
 مَنْ كَانَ ذَاكَ رَ رَبِّهِ لَمْ يَعْصِهِ
 إِنْ تُبِتَ فَاصْدُقْ فِي الْمَتَابِ وَلَا تَكُنْ
 فَإِذَا صَدَقْتَ التَّوْبَ كُنْتَ مُقَرَّبًا
 تَعِسَ الَّذِي يَعْصِي وَيَنْسَى رَبَّهُ
 اللَّهُ يَقْبَلُ مَنْ يُنِيبُ لِرَبِّهِ
 أَقْبَلْ وَلَا تَيْأَسْ فَرُبُّكَ غَافِرٌ
 حَاشَا يَحْنِبُ الْمُسْتَحِيرُ بِرَبِّهِ
 اللَّهُ أَكْرَمُ وَهُوَ أَرْحَمُ رَاحِمٍ
 فَالْجَأُ إِلَى الْمَوْلَى بِكُلِّ مُلَمَّةٍ
 لَا تَقْصِدِ الْعَبْدَ اللَّئِيمَ فَإِنَّهُ
 وَإِذَا مَدَدْتَ إِلَيْهِ إِنْ صَافَحْتَهُ
 الشُّحُّ طَبَعَ لِلْعَبِيدِ لَأَنَّهُمْ
 اللَّهُ لَا تَفْنَى خَزَائِنُهُ وَإِنْ
 أَوْلَيْسَ مِنْ ضَعْفِ النَّفُوسِ وَذُلِّهَا
 إِنَّ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَانُوا مَعًا
 اللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ

بِهَدَاهُ صِرْتَ مُعَلِّمًا قَوَّالًا
 دَوْمًا يَزِيدُ بِشُكْرِهِ إِفْضَالًا
 فَتَجَنَّبِ النَّسِيَانَ وَالْإِغْفَالَ
 كَفْتَى تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَيَا لَا
 مِنْهُ كَأَنَّكَ مَا حَمَلْتَ وَبَا لَا
 مُتَمَادِيًا فَكَأَنَّهُ مَا بَالِي
 وَهُوَ الْكَرِيمُ فَلَا تَخَفْ إِقْلَالًا
 وَلَوْ اخْتَمَلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ جِبَالًا
 مَنْ أَمَّ ذَا كَرَمٍ يَنَالُ نَوَالًا
 وَهُوَ الَّذِي آوَاهُ تَتَوَالِي
 فَاللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَ
 إِنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا يُرِيكَ مَلَالًا
 يُمْنِي يَدَيْكَ يَمُدُّ مِنْهُ شِمَالًا
 فَقَرَاءُ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ تَعَالَى
 أَعْطَى الْعِبَادَ كَمَا تَشَاءُ مَنَالًا
 أَنْ تَسْتَكِينَ لِمِثْلِهِمَا إِذْ لَا لَا
 مِنْ قَبْلِ قِسْمَةِ رَبَّنَا أَمْثَالًا
 سَلَّمَ فَرُبُّكَ هَكَذَا قَدْ قَالَا

١٠٥ - جاء وقت الأصيل

جاء وقت الأصيل والعمر ولى
كل يوم يأتيك منك نذير
إن في الموت واعظاً ونذيراً
كم عهد لم يستطيعوا وفاء
قطعت دون ما أرادوا المنايا
لم يقدر ربّ الخلود لحَيٍّ
قد حملنا من الذنوب حملاً
اكتسب بلغه لنفسك واقنع
إن زاد الدنيا رخيص ويفنى
من حوى المثلوك نذل ذليل
لا تضيع سُور الحياة بلهـو
إن يوم الحساب يوم عسير
فترود من التقى خير زاد
إن من يستهين بالعمر عمر

فارعوي يا نفس حسبك ذلاً
سوف يُردى الهوى إذا ما تولى
كم صديق يُنعى إليك فهلاً
إنه الموت ليس يرقب إلا
كلهم كان آملاً أن سيملى
هل ترى خالداً من الناس كلاً
ساء يوم الحساب للمرء حملاً
لا تكن عالّة على الناس كلاً
فترود من الذي هو أعلا
بيد أن الحاوي لباقيهِ أعلا
واملاً الوقت بالذي هو أولى
تتمنى أن تجعل الفدا فيه أهلاً
لا تحمل من همّ ذنباك ثقلاً
وعبي أولى له ثم أولى

عَامِلِ النَّاسَ بِالْوَفَاءِ وَأَصْلِحْ
 لَا تُصَاحِبْ إِلَّا خَلِيلًا تَقِيًّا
 إِنَّ عَدُوَّ الْأَخْلَاقِ أَسْرَعُ فَتْكَأَ
 طَعْمُ حَالِ الْفِرَاقِ حُلُوٌّ وَلَكِنْ
 إِنَّ عُمْرِي وَعِشْتُ عُمْرًا مَدِيدًا
 قَدْ تَصَابَيْتُ فِي الشَّبَابِ وَشَيْخًا
 وَإِذَا بَتَّ مِنْنِي الْقَوَى حَسَرَاتِي
 أَنَا عَبْدٌ قَصَرْتُ طُوقَ حَيَاتِي
 غَيْرَ أَنِّي مَهْمَا تَقَاسَمْتُ ذُنُوبِي
 رَحْمَةُ اللَّهِ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
 يَا إِلَهِي أَصْلِحْ فُسَادَ فُؤَادِي
 هَبْ عَلَى النَّفْسِ قُدْرَةً لِي فَإِنِّي
 وَمِنَ الْخَوْفِ حَاجِزًا عَنِ ذُنُوبِي
 رَبِّ وَاجْمَعْ جَمِيعَنَا فِي جَنَّاتِ
 اسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحِلَّ وَثَاقِي

لَا تُخَلِّفْ لِلنَّاسِ فِي الْقَلْبِ غِلًّا
 رَبِّ خَلِّ إِنَّ ذُقْتَهُ ذُقْتَ خَلًّا
 مِنْ عُمُومِ الْأَمْرَاضِ مِنْ غَيْرِ إِلَّا
 مَا سَيَجْنِيهِ صَاحِبُ الْجَدِّ أَخْلًا
 فُرْصَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْلَا
 وَتَصَابَيْتُ حِينَما كُنْتُ كَهْلًا
 وَلَوْ آتَى وَلَيْتَنِي وَلَعَلَّ
 لَمْ أَجِدْ لِي فِي الْجَاهِلِيَّينَ مِثْلًا
 أَجِدُ الْعَفْوَ مِنْ إِلَهِي سَهْلًا
 وَوُقُوعِي فِي الذَّنْبِ قَدْ كَانَ جَهْلًا
 لَسْتُ أَطِيعُ يَا إِلَهِي طَوْلًا
 عَاجِزٌ لَا أَطِيقُ وَخُدي حَوْلًا
 وَأَعْضُنِي عَنِ الْقَطِيعَةِ وَصَلًا
 لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ الْأَحَبَّةِ شَمْلًا
 لَا يَدْعُ لِلْهَوَى بِعُنْقِي غِلًّا

ويقينني وأن يزيدي يقيني
كم يزهّد في هذه الدار ربّي
فتدبر أي الكتاب وفكّر
وتمسّك بحبله والتزمه
وأمّر بأمره فهو نصيح
إن في القول حكمة من حكيم
إن تكن محسناً تقيّاً نقيّاً
وختاماً ياربّ أحسن ختامي
غافر الذنب قابل التوب برّ
يرزق الكلّ كلّ عاتٍ وبرّ
وهو عدلٌ سبحانه ذو امتنانٍ
وإذا عامل المسيء بعفوٍ
لست أقوى على العذاب إلهي
وإذا ما أتيت بي يوم حشر

وجميع الأهلين فرعاً وأصلاً
ومن اغترّ أو غوى سوف يصلّي
أنزل الذكر مستبيناً ليُتلى
فهو يكفيك وهو أبلغُ قولاً
وليكن منهجاً إذا شئت فعلاً
وكتاب المولى أجلُّ وأعلاً
قلت للموت يوم يأتيك أهلاً
أنت ربّي ونعم مولاي مولى
محسّن للمسيئين عزّ وجلّ
فهو يأيّنه رزقه حيث حلاً
من يُعمّه فهو يحبّوه فضلاً
فهو فضلٌ وإن يعذب فعذلاً
فأسقني من غيث عفوك طلاً
ضمّني لمن أطاع وصلى

١٠٦ - عودوا إلى الدين^١

يَا أُمَّةَ الْخَيْرِ شُدُّوا أَزْرَكُمْ أَفْلا
 الْبِرُّ كَانَ رَخِيصًا فِي مَوَائِدِهِ
 وَلَيْلَةٌ مِنْ لَيَالِيهِ مُفْضَلَةٌ
 قَدْ عَادَ مِنْ بَعْدِ عَامٍ زَائِرًا لِيَرَى
 فَسَارِعُوا يَا أُولِيَ الذِّكْرِ لِمَغْفِرَةٍ
 عُودُوا إِلَى الدِّينِ إِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ
 يُخَيِّنِي جَنَى غَرَسِهِ وَالْكُلُّ مُرْتَهَنٌ
 عُودُوا إِلَى الشَّرْعِ فَالْقُرْآنُ يُرْشِدُنَا
 بِالْعَدْلِ وَالصِّدْقِ وَالْإِحْسَانِ يَا مُرْنَا
 سَاسَ الْجَمِيعِ بِدِينِ اللَّهِ أَسْوَتُنَا
 فَاسْتَكْمَلَ الْعَرْبُ بِالْإِسْلَامِ عِزَّتَهُمْ
 يَا رَبِّ أَصْلِحْ شُؤُونََ الْمُسْلِمِينَ وَهَبْ
 وَزِدْ شَفِيعَ الْبِرَايَا مِنْكَ مَكْرَمَةً
 تَذُرُونَ أَنَّ هِلَالَ الصَّوْمِ قَدْ أَفْلا
 مَبْسُوطَةً لِمُرِيدِ الْبِرِّ ثُمَّ غَلا
 عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ بِهَا الْقُرْءَانُ قَدْ نَزَلَ
 مُسْتَعْتَبًا تَائِبًا أَوْ طَالِبًا أَمَلا
 فَمَوْسِمُ الْخَيْرِ عَذَّ السَّيْرِ مُرْتَحِلًا
 كُلُّ امْرِئٍ سَوْفَ يُجْزَى بِالَّذِي عَمِلَا
 بِمَا جَنَّتُهُ يَدَاهُ جَارًا أَوْ عَدَلَا
 وَقَدْ أَنَارَ لِمَنْ يَبْغِي الْهُدَى سُبُلَا
 طَرًّا وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ مَنْ جَهَلَا
 طَهَّ وَكَانَ لِأَمْرِ اللَّهِ مُتَثَلَا
 وَحَضَرُونَا فَكَانُوا لِلْوَرَى مَثَلَا
 لَنَا الْمَتَابَ وَزِدْنَا عِزَّةً وَعُلا
 وَجَازَهُ خَيْرٌ مَا تَجْزِي بِهِ الرُّسُلَا

^١ تلبية لأحد قراء مصر في وداع رمضان. [المصدر الأول]

١٠٧ - أجمل بساعات اللقاء

جاءت تجرُّ تدللاً أذياها	أجملِ بساعاتِ اللقاءِ ويا لها
لله ما أحلى عليّ دلاها	وأنتِ تتينه تسامياً بجماها
سَترت ليالي شِعْرِها إهلاها	هَلَّت وما تحي الظلامِ بنورها
يا عاذلي لَعَذَرْتَنِي إقبالها	قَدْ أَقْبَلْتَ نَحْوِي نَمِيسُ وَلَوْ تَرَى
لَكِنْ بَاهَاتٍ هَدَيْتُ ضلالها	وأضلَّها عَنِّي الهُزالُ ورِقَّتِي
قَدْ هَزَّهَا نَسَمُ الهوى فأمالها	وَحَنَتْ عَلَيَّ وَقَدْ حَنَتْ أَعْطافُها
وجَعَلْتُ رُوحِي والفؤادَ حلالها	فَشَرَعْتُ فِي اسْتِقْبَالِها بِتَلَهُّفٍ
فإِذَا بَنُومِي قَدْ رَأَيْتُ خيالها	قَدْ هَمَّتُ لَمَّا أَنْ وَهَمْتُ وَصالها
يا حَسْرَتِي لَمَّا فَقَدْتُ وَصالها	أَوَاهُ لَوْ دَامَ الرُّقَادُ بِوَصْلِها
لَكِنَّها لا تُشْترى أُولَى لها	لو تُشْترى الأَحْلامُ كُنْتُ شَرِيئُها
وَبِفَضْلِ ذِكْراها مَلَكْتُ مُحالها	الوَصْلُ فِي الأَحْلامِ وَصْلُ مُؤَنَسٍ
وَلَوْ أَنها عِنْدَ الثَّرِيّا طالها	الغَمَضُ يَخْطِفُها وَيُثْبِتُ ظِلَّها
قَطَعْتَ جِبالي ما قَطَعْتَ جِبالها	لا أَنتَهِي عَنْ حُبِّها أَبَداً وَلَوْ
وعواذلي لَدَّ وَصَرِي هالها	قَدْ غَرَّها أَنِّي بِها مُتَعَلِّقٌ

فَنَوَتْ مُحَادَعَتِي وَطَابَ لِنَفْسِهَا
قَالَتْ أَعَذَّبُهُ بِوَعْدٍ خُلِبِ
الْيَأْسُ وَاحِدَةً كُلَّ مُحْرُومٍ وَلَمْ
وَأَكَادُ أَفْتَحِمُ الصَّعَابَ تَوْصِلاً
أَخَذْتُ فُؤَادِي خِلْسَةً مِنِّي وَهَلْ
لَا تَسْأَلُونِي مَا لَهَا بِلِحَازِهَا
وَسَلُّوا عُيُونَ الظُّبِّيِّ عَنْ رَشَقَاتِهَا
فَلَهَا عُيُونَ تَيَمَّتْ وَلَهَا بِهَا
فِي جِيدِهَا صَيْدٌ لَصِيدٍ أُولَى النُّهَى
إِنِّي لِيَحْجُبُنِي مَخَافَةُ رَبِّنَا
وَلَكُم طَرَفْتُ دِيَارَهَا وَتَفَتَّحَتْ
لَكِنِّي مِمَّا يَهْجُجُ تَوَاجُدِي
إِنِّي غَرِيبٌ وَالْغَرِيبُ يَظُنُّنِي
حَرُّ الْهَوَى يُطْفِئُهُ بَرْدُ تَوَقُّعِي
لَا أُخْتَشِي ظَمَأً بِنَارِ غَرَامِهَا
هِيَ كَعْبَةُ الْحَجَّاجِ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى

مَرَأَى الْمُؤَلَّهِ وَالْعَذَابُ حِلَاةَا
مَا صَدَّنِي أَنِّي سَمِعْتُ مَقَالَهَا
أَيَّاسٌ وَأَرْجُو فِي الْمَنَامِ مَنَاهَا
لِحِمَاهَا لَكِنْ أَخَافُ جَلَاهَا
أَحْيَا بِلَا قَلْبٍ يُكِنُّ مِثَالَهَا
تَسْبِي فِيَّ جَمَاهَا أَوْحَى لَهَا
هَيْهَاتَ مَنْ ذَا يَسْتَطِيعُ سُؤَالَهَا
مَنْ كَانَ فِي مَجْرَابِهِ وَبِهَا لَهَا
مَهْمَا تَابَّوْا حَقَّقَتْ آمَالَهَا
عَنْ أَنْ أَدَاخِلَ أَوْ أُحِسَّ ظِلَالَهَا
لَوْلَا تُقَى الْمَوْلَى لُجُستُ خِلَالَهَا
بِأَحْيَا الْمُسْعَى أَطُوفُ حِيَالَهَا
مِنْ رُؤْيَا حَوْلَ الدِّيَارِ عِيَالَهَا
صَدَقَ الْوَعْدُ وَإِنْ نَكِرْتُ مَقَالَهَا
كَأْسُ الْمَحَبَّةِ قَدْ شَرِبْتُ زُلَالَهَا
رَبِّ الْبَيْتَةِ أَرْحَمُكَ نَوَالَهَا

١٠٨ - أتذكر حين همت بحب ليلي

أَتَذْكُرُ حِينَ هَمْتَ بِحُبِّ لَيْلَى
 وَشَاقَتَكَ الْوُرُودَ عَلَى خُدُودِ
 أَتَذْكُرُ جَيِّدًا أَمْ أَنْتَ نَاسِ
 أَمَا كَانَتْ تَهْزُكُ ذِكْرِيَاتِ
 أَمَا كُنَّ الْعَوَازِلُ وَاللَّوَاحِي
 فَمَاذَا أَيْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا
 نَهَيْتَ النَّفْسَ قُلِّ لِي عَنْ هَوَاهَا
 نَعَمْ حُبُّ الْمَعَالِي حَالٌ بَيْنِي
 وَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَبْقَى أُسِيرًا
 وَلَيْلَانَا وَسَلَمَى وَالْغَوَانِي
 إِذَا أَبَدَيْتَ حُبَّكَ وَهُوَ صَافٍ
 وَتُبْدِي عِزَّةً وَتُرِيكَ كِبْرًا
 وَإِنْ أَكْثَرْتَ مَدْحَكَ عَنْ حَلَاهَا
 وَلَا يَرْضَى بِهَذَا الدُّلُّ حُرًّا
 وَصَادَكَ ذَلِكَ الطَّرْفُ الْكَحِيلُ
 وَغَرَّكَ ذَلِكَ الْخَصَرُ النَّحِيلُ
 أَلَمْ تَشْهَدْكَ هَاتِيكَ الطَّلُوعُ
 وَيُضْنِي جِسْمَكَ السَّهَرُ الطَّوِيلُ
 وَكَمْ هَاجَ الْأَسَى قَالَ وَقِيلُ
 أَمِنْهَا الصَّدُّ أَمْ مِنْكَ الْعُدُولُ
 وَأَنْسَاكَ الْهَوَى الصَّبْرُ الْجَمِيلُ
 وَبَيْنَ غَرَامِهَا وَكَذَا يَجُولُ
 وَدَرَبُ الْعِشْقِ فِي ذُلِّ طَوِيلُ
 إِنَّكَ حُبُّهُنَّ لَنَا ضَائِلُ
 لِإِحْدَاهُنَّ رَاحَتْ تَسْتَطِيلُ
 وَتُظْهِرُ أَنْ وَصَلَكَ مُسْتَحِيلُ
 تَرَى أَنَّ الْكَثِيرَ هُوَ الْقَلِيلُ
 وَلَا يَهْوَانُهُ إِلَّا النَّزِيلُ

ولا يَـذْري سَلامَتَهُ المُعافى
لقد ضَيَّعْتُ عُمْري في هواها
غُرُوراً بَعْتُ لِلأَهْواءِ نَفْسي
ولو كانَ الجَبِينُ كَبَذَرِ نَمٍّ
وكلُّ مُغامِرٍ في العِشقِ غُرٌّ
ومَن أَمْضى الحِياةَ على ضلالٍ
يَعَذَّبُ مَرَّةً في دارِ دُنْيا
ومَن خَتَمَ الحِياةَ بِنُصْحِ تَوْبٍ
وَيَدْخُلُ بَعْدَها جَنّاتِ عَدْنٍ
لِذاكَ أَلُوذُ بِالمولى تَعالى
وَأَسأَلُهُ تَعالى وَهُوَ بَرٌّ
وَأَسْتَجِدِّي مِنَ الرَّحْمَنِ عَفْواً
وهذا ضُبُحُ عُمْري قَدْ تَقضى
ولا عَظْفُ عَلى ولا لِقاءُ
أَجَلٍ أَنْفَقْتُ عُمْري في هواها
ولَـكِن في نُحُولي وَاصْفِراري

وَيَعْرِفُ فَضْلَها الدَّنْفُ العَليْلُ
فَلا أَذْري لِرَبِّي ما أَقُولُ
لَعَلَّ المُشْتَرى مِنِّي يُقْبِلُ
مُضِيئاً سَوْفَ يَعْقُبُهُ الأَفْوُلُ
لَهُ مِنْ بَعْدِ إِفْدامِ قُفُولُ
فَإِنَّ عَذابَهُ بِغَدٍ وَبِئِلُ
وفي الأُخْرى لَهُ خِزْيٌ مَهِيلُ
فَسَوْفَ يُظْلِلُهُ الظِّلُّ الظِّلِيلُ
وعَيْنُ الشَّرْبِ فيها سَلْسَبِيلُ
عسى مِنْ عَثَرَتِي فَضْلاً يُقِيلُ
مَتاباً قَبْلَ ما يَدْنُو الرَّحِيلُ
عَنِ المَاضِي وَمَرْجَاتي القَبُولُ
وولَّى عَصْرُهُ وَأَتى الأَصِيلُ
ولا وَعْدٌ بِخَيْرٍ أَوْ وُصُولُ
وليس لَدَيَّ صَكٌّ أَوْ وُصُولُ
ونَسِاني على عِشْقِي دَلِيلُ

على أن الدّلالَ بلا نوالٍ
ولو أنّي سَعَيْتُ إلى جِهاها
وكَيْفَ وصولُ صَبِّ مُسْتَهامٍ
إذا ما كان أشهادي عُذُولاً
لَقَدْ أَخْلَصْتُ حِينَ خَلَصْتُ مِنْهَا
وعاد تَفَكُّري أعلا وأغلا
ولَسْتُ أَهْيَمُ في قَدِّ وَخَدِّ
ولَكِنْ حُبُّ طَهَ فِيهِ فَخْرُ
رَسُولُ جَاءَنَا فَأَزَاحَ عَنَّا
وكنّا في ضلالٍ وأفترِاقٍ
لَقَدْ جَمَعَ القُلُوبَ على هُداهُ
وقد نَشَرَ الفضيلةَ في البرايا
وأضْبَحْنَا ونُورُ الحقِّ بادٍ
فَشُكْرًا لِلإِلهِ على هُدانا
فَوَفَّقْنَا إلهي لِلْمَعَالِي

وُخْلِفَ وُعودُها طَبَعُ أَصِيلُ
فَرَسِخَ أَعْلَنْتَ مَسْعَاكَ مِيلُ
إلى مَنْ لا يُحِبُّ ولا يَمِيلُ
فخَيْرٌ لي على هذا العُدُولُ
نَجِيًّا وانزوى عَنِّي الدُّهُولُ
فَلَيْسَ يَهْمُنِي قِصَرُ وطُولُ
ووردُ الخَدِّ يَعْرِوهُ الدُّبُولُ
ويكفي أَنَّهُ الهادي الرَّسُولُ
ظلامُ الشَّرِكِ فاندَحَرَ الجَهُولُ
إذا بِالوَدِّ لَيْسَ لَهُ مَثِيلُ
وسادَ الحُبُّ واندَثَرَ الغُلُولُ
وجَمَعَ الشَّمْلِ كانَ لَهُ شُمُولُ
ودربُ الهاشميِّ لَنَا سَبِيلُ
ومُرْشَدُنَا لَهُ الأَجْرُ الجَزِيلُ
وَأَهْمُنَا يَقِينًا لا يَزُولُ

١٠٩ - أيها القمر المطل

أَلَا يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمَطْلُ
 وَأَنْتِ مُدَكِّرُ وَالشَّمْسُ أَنْثَى
 وَتَبْدُو حِينَ تَبْدُو دُونَ سِتْرِ
 وَتَطْلُعُ عِنْدَ رَاحَتِنَا بَلِيلٍ
 وَتَكْمُلُ فِي لَيْالٍ مُبْهَجَاتٍ
 تُرَبِّيكِ اللَّيَالِي كُلَّ يَوْمٍ
 تَرِيدُ مَحَبَّةً وَتَزُورُ غَيْبًا
 تَرَى النَّدَمَانَ تَسْمُرُ فِي اللَّيَالِي
 وَلَيْسَ بِعَائِبٍ أَنْ كُنْتَ فَرَعًا
 وَمَا فِي الْأَصْلِ لِلْأَشْجَارِ أَكْلٌ
 عَلُوُّ فُرُوعِهَا طِيبٌ وَعِزٌّ
 وَإِنَّ أَصْوَلَهَا تَمْتَدُّ سُفْلًا
 وَإِنَّ الْفَرْعَ يُورِقُ فِي زُهُورٍ
 وَمَرَأَى الْأَصْلِ أَخْشَابٌ وَصَمْعٌ
 فَحْيَا وَجْهَكَ الْوَضَاءَ بَدْرًا
 بُزُوعُكَ مُؤَنِّسٌ إِذْ لَا يَمَلُ
 سَنَاها مُحْرِقٌ وَسَنَاكَ ظِلٌّ
 وَنَأْنُسُ ثُمَّ مِنْهَا نَسْتَظِلُّ
 وَيَكْثُرُ عِنْدَهَا الْعَمَلُ الْمَكْلُ
 وَفِي الْأُخْرَى تَذُوبٌ وَتَضْمَلُ
 وَتَبْدُو كَالْقَلَامَةِ إِذْ تُرْمَلُ
 وَنُورُ الشَّمْسِ وَهَّاجٌ يَمَلُ
 لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي الشَّمْسِ شُغْلُ
 وَأَنْ ضِيَاءَهَا لِسَنَاكَ أَضْلُ
 وَحَمْلُ فُرُوعِهَا لِلنَّاسِ أَكْلُ
 وَدَفْنُ أَصْوُلِهَا فِي التُّرْبِ ذُلُّ
 وَإِنَّ فُرُوعَهَا تَزْهُو وَتَعْلُو
 وَإِنَّ الْأَصْلَ أَجْرَدٌ وَهُوَ مَحْلُ
 وَمَرَأَى الْفَرْعِ بِالْأَزْهَارِ يَحْلُو
 وَحَيْثُكَ النَّدَامَا إِذْ تُطْلُ

١١٠ - على مولاي أتكلم

فَقَدْ ضَاقَتْ بِي الْحِيلُ	عَلَى مَوْلَايَ أَتَكِلُ
بِرَّعْمِي أَنَّنِي بَطُلُ	لَقَدْ أَعْمَلْتُ طَاقَاتِي
وَسَعْمِي كَانَ يَتَّصِلُ	فَمَا قَصَّزْتُ فِي جُهْدٍ
سَرِيعاً كُنْتُ أَهْتَبِلُ	وَمَا مِنْ فُرْصَةٍ إِلَّا
وَفِي الْإِصْبَاحِ أَعْتَمِلُ	قَتَلْتُ اللَّيْلَ تَفَكِيرًا
فَلِيَّ عَلَيْكَ أَتَكِلُ	فِيَا رَبَّاهُ كُنْ عَوْنِي
وَفِي الْأَرْحَامِ أَنْتَقِلُ	لَطُفْتُ بِمُهْجَتِي طِفْلاً
عَلَيَّ اسْتَعَصَتِ السُّبُلُ	وَقَدْ مَلَكَتْنِي أُمُورِي
بِأَنِّي سَامَنِي الشَّلَلُ	رَجَعْتُ إِلَيْكَ مُعْتَرِفاً
فَإِنْ مُصِيبَتِي جَلَلُ	فَأَنْقِذْنِي بِمُسْعِفَةٍ
وَكُلُّ سَعَايَتِي خَلَلُ	فَتَذَمِّرِي بِتَذَمِيرِي
لَجَأْتُ إِلَيْكَ أَشْتَمِلُ	عَلَى ضَعْفِي وَإِفْلَاسِي
تَوَالَّتْ نَحْوُهُ الْعِلَالُ	وَأَنْتَ رَجَاءٌ مُلْتَحِجِي
وَمُرُّكَ سَيِّدِي عَسَلُ	فَخَيْرٌ مَا تُقَدِّرُهُ
وَمَنْ شَكُّوا فَمَا عَدَلُوا	قَضَاؤُكَ كُلُّهُ عَدْلُ

لَقَدْ آمَنْتُ يَا رَبِّي
وَوَفَّقَنِي بِمَا أَسْعَى
تُنَادِينَا لِتُسْعِدَنَا
إِلَهِي أَنْقِضْ بُنْيَانِي
وَجَفِّ مِدَادُ أَقْلَامِي
كَمَا أَعْمَرْتَنِي قَرْنًا
فَأُصْلِحْ نَقِضْ أَعْمَالِي
وَكَمْ عَمَلٍ قَدْ اسْتَعَصَى
دُنُوبِي لَوْ عَلَى جَبَلٍ
وَلَوْ وُضِعَتْ عَلَى جَبَلٍ
دِمَاغِي ذَابَ مِنْ أَسَفٍ
مَعَ الْغُفْرَانِ لَا ذَنْبُ
إِذَا مَا كُنْتَ مَتَّقِيًّا
سَتَعْلُو بِالتُّقَى شَرَفًا
إِذَا أَمَّنْتَ رَبِّي
وَإِنِّي مُذْنِبٌ عَبْدٌ
وَجَلَّ إِلَهُنَا حَاشَا

فَأَوْصِلْنِي كَمَا وَصَلُوا
فَمَا أَمْسَيْتُ أُحْتَمِلُ
وَأَنَا أُمَّةٌ مُطْلُ
فَلَا رَسْمٌ وَلَا طَلْلُ
فَلَمْ يُصْبِحْ بِهِ بَلَلُ
وَكِدْتُ الْيَوْمَ أَنْ تَحِلَّ
فَلَا مَهْلٌ وَلَا هَمْلُ
وَبِالتَّوْفِيقِ يَسْتَهْلُ
لِنَاءٍ بِحِمْلِهِ الْجَمْلُ
لَمَّا دَلَّ جِلْهُ الْجَبَلُ
وَقَلْبِي كَادَ يَشْتَعِلُ
وَلَا إِصْرٌ وَلَا زَلْلُ
وَأَمْرَ اللَّهِ تَمْتَحِلُ
وَبِالْأَبْرَاجِ تَنْتَعِلُ
فَلَا خَذَرٌ وَلَا وَجَلُ
إِلَى الْغَفَّارِ أَنْتَحِلُ
يُخَيِّبُ عَنْدَهُ الْأَمْلُ

وَكُلُّ سَعَاتِي عَلَلٌ
 مَضَى عُمْرِي عَلَى عَرَجٍ
 عَسَى أَضْحُو بِآخِرِهِ
 غَزَلْتُ الشَّعْرَ إِذْ أَهْوَى
 مَضَى السَّادَاتُ قَدْ مَلَكُوا
 نَعُدُّ الدَّهْرَ أَيَّاماً
 نَعِيشُ بِغَفْلَةٍ لِكِنْ
 لَنَا الْآمَالُ دَائِمَةٌ
 بِحَارِ الْأَرْضِ وَاسِيعَةٌ
 هِيَ الْأَعْمَارُ سَائِرَةٌ
 وَتَارِيخُ الَّذِينَ مَضَوْا
 وَعَبْدُ هَوَاهُ كَالْحُنْثَى
 نَقَشْتُ الْفِكَرَ فِي جَمَلٍ
 وَخَفَّتْ عُرْسُهَا شِعْرٌ
 إِذَا مَا قُلْتُ مَرْتَحِلاً
 بِحَارِ الْأَرْضِ وَاسِيعَةٌ
 وَأَضْعَبُ مَا يُلَاقِيهِ

وَثَوْبِي تَالِفٌ سَمِلٌ
 كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمَلٌ
 وَيُشْفِي ذَلِكَ الْقَزْلُ
 فَضَاعَ الْغَزْلُ وَالْغَزْلُ
 فَمَا أَخَذُوا وَلَا قَفَلُوا
 كَذَا الْأَعْمَارُ تُخْتَزَلُ
 سَيُنْهِي عَيْشَنَا الْأَجَلُ
 وَإِنَّ الْعُمَرَ يَكْتَمِلُ
 وَحَسْبُكَ دُونَهَا الْوَشَلُ
 وَلَكِنْ مَشِيهَا رَمَلُ
 وَقَصَّصَتْهُمْ لَنَا مَثَلُ
 وَذَوِ التَّقْوَى هُوَ الرَّجُلُ
 فَمَهْرُ بَنَاتِهِ جَمَلُ
 وَمَاذَا يَنْقَعُ الزَّجَلُ
 فَبَعْضُ الْوَقْتِ أَرْجَلُ
 وَبَحْرُ قَصِيدَتِي رَمَلُ
 عُمُولُ سَامَةِ الْفَشَلُ

١١١ - لا تنسَ لحدك أيها المتغافل^١

لَا تَنْسَ لِحَدِّكَ أَيُّهَا الْمُتَغَاوِلُ
أَهْلَاكَ طُوْلَ الْعُمْرِ عَنْ ذِكْرِ الْفَنَاءِ
الْعُمُرُ مِنْهُمَا طَالَ يَوْمًا يَنْتَهِي
الْمَوْتُ مُوعِظَةٌ لَنَا إِلَى مَتَى
اعْمَلْ لِمَا يُنْجِيكَ يَوْمَ الْمُلتَقَى
يَكْفِيكَ شَغْلًا بِالَّذِي لَا يَنْتَهِي
اِحْمِلْ يَوَاقِيَتًا غَلَّتْ أَثْمَانُهَا
قَدْ يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ قَوْلٌ مُفْرَدٌ
إِنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْفَوَادِ وَإِنَّمَا
أَخْلَصَ إِلَى رَبِّ الْعِبَادِ عِبَادَةٌ
فَلَقَدْ خُلِقْنَا لِلْعِبَادَةِ وَالتَّقَى
وَالْمُتَّقُونَ الْآمِنُونَ مِنَ الرَّدَى
لَا تَحْسَبِ الْإِنْسَانَ مَتْرُوكًا سُدَى
لَمْ يُنْشَأِ الْخَلْقَ - حَاشَا - خَلْقَهُ
كُلُّ الْأُمُورِ مِنَ الْإِلَهِ لِحِكْمَةٍ
يَا رَبُّ عَرَّفْنَا الْحَقِيقَةَ وَاهْدِنَا

وَاعْلَمَ بِأَنَّكَ عَنْ قَرِيبٍ رَاحِلُ
يَفْنَى الزَّمَانُ وَكُلُّ شَيْءٍ زَائِلُ
مَا قَدَّرَ الْخَلْقَ فَهُوَ الْحَاصِلُ
يَا سَائِرَ أَنْحَوَ الْفَنَاءِ تُمَا طِلُ
عِنْدَ الْحِسَابِ وَكُلُّ حَالٍ حَائِلُ
مِنْ تَرَهَاتٍ لَيْسَ فِيهَا طَائِلُ
وَدَعَ الصُّخُورَ لِيَسْتَرِيحَ الْكَاهِلُ
وَيَكُونُ أَكْثَرُ مَا يَقُولُ قَلِيلُ
أَعْمَالُنَا صُورٌ وَشُغْلٌ شَاغِلُ
تَنْجُو بِهَا وَالْمُخْلِصُونَ قَلَائِلُ
إِنَّ التَّقَى كُلَّ الْمَرَاغِقِ شَامِلُ
يَوْمَ الْجَزَا وَالْخَيْرُ فِيهِمْ هَاطِلُ
كُلُّ سَيَجْزَى وَالْمُهَيِّمُنُ عَادِلُ
عَبَثًا وَلَكِنَّ الْكُفُورَ يُجَادِلُ
كُلُّ اعْتِقَادٍ غَيْرِ هَذَا بَاطِلُ
مِنْكَ الْهُدَى وَإِلَيْكَ كُلُّ آيِلُ

١ منبثقة من الإعلام بوفاة الشيخ يوسف عرار . [المصدر الثاني]

١١٢ - سُبِّحْ إلهك أيها المتأمل

سُبِّحْ إلهك أيها المتأمل
الحقُّ أن الله حقُّ ظاهرٌ
يَبْقَى الإلهُ وكُلُّ شيءٍ هَالِكٌ
الملكُ والملكوتُ ملكٌ يَمِينُهُ
اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ قَادِرٌ
يا وَيْحَ مَنْ قَدْ عاشَ عَيْشَ سَوَائِمٍ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ كَيْفَ نَحِيدُ عَنْ
نَقْضِي الحَيَاةِ بِغَفْلَةٍ وَبَطَالَةٍ
وَمَنْ اسْتَمَلَّتْهُ المَيُولُ مَعَ الهَوَى
وَالْعَاقِلُ النَّدْبُ الَّذِي مَا فَاتَهُ
وَكَسَاهُ أَثْوَابَ المَهَابَةِ فِي الِوَرَى
فَالزَّمْ مُخَالَفَةَ النَّفْسِ فَإِنَّهَا
وَأَعْمَلْ لِمَا يُحْيِيكَ وَأَعْلَمْ أَنَّهَا
وَالرِّزْقُ مَكْتُوبٌ فَلَا تَقْلُقْ لَهُ
وَاحْذَرْ مُحَادَعَةَ النَّسَاءِ فَإِنَّهَا
وَأَجْعَلْ رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنَ أُسْوَةٍ
صَلَّى وَسَلَّمْ مَنْ حَبَاهُ عَلَيْهِ مَا

فَهُوَ الإلهُ وكُلُّ شيءٍ بَاطِلٌ
ومَظَاهِرُ الأَكْوَانِ ظِلٌّ مَائِلٌ
وَلَهُ الدَّوَامُ وكُلُّ حَالٍ حَائِلٌ
فَهُوَ المَلِكُ وكلُّ مُلْكٍ زَائِلٌ
يَقْضِي بِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ العَادِلُ
هُوَ نَائِمٌ هُوَ شَارِبٌ هُوَ آكِلٌ
دَرْبِ المَهْدَى وَهُوَ الضِّيَاءُ الشَّامِلُ
وَبِزْرَاتٍ لَيْسَ فِيهَا طَائِلٌ
تَهْوِي بِهِ فَهُوَ الجَبَانُ الخَامِلُ
مِمَّا عَلَيْهِ فَرَائِضٌ وَنَوَافِلُ
وَحُلَى الِودَادِ فُضَائِلُ وَفَوَاضِلُ
بَيْنَ الفُضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ فَاصِلُ
حَصَلَتْ مِنْ دُنْيَاكَ فَهُوَ الحَاصِلُ
وَأَنْتَعَ بِمَا يُعْطِيكَ فَهُوَ الوَاصِلُ
تُرْدِي وَلِلشَّيْطَانِ هُنَّ حَبَائِلُ
فَمَكَارِمُ الأَخْلَاقِ فِيهِ شَمَائِلُ
لَمَعَ الصَّبَاحُ وَصَاحَ فِيهِ بِلَابِلُ

١١٣ - يا خليلي

يا خَلِيلِي وَأَنْتَ أَحْمَدُ خَلٍّ
لَكَ بِالْعِلْمِ لَا بِمَالٍ وَلُؤْعٍ
كَيْفَ أَحْوَبَكَ فِي فُؤَادٍ مُعَنَّى
لِي فِي وَدَّكَ النَّزِيهِ غَنَاءٌ
مَا شُعُورِي بِأَنَّكَ عَنِّي غَرِيبٌ
عَادِلِي بَعْدَ شَيْبِ رَأْسِي شَبَابِي
عَنْ لِي الْيَأْسُ قَبْلَ مِنْ كُلِّ مَسْعَى
يَبْدَأَنِي لَمَّا رَأَيْتُكَ شَهْمًا
دَأْبُكَ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ دَوَامًا
هَزَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْكَ لِحْدًا
قَدْ بَلَوتُ الْحَيَاةَ حُلُوءًا وَمُرًّا
وَتَقَضَّى سَبْعُونَ عَامًا كَأَنِّي
كُلُّ مَا اكْتَسَبْتُهُ مِنْ عُلُومٍ
أَنْتَجَ الصَّالِحُونَ مِثْلَ النُّوَاوِي

لَكَ رُوحِي وَذَاكَ جَهْدُ الْمُقِلِّ
لَسْتُ تَرْضَى مَعَ الثَّرَاءِ بِجَهْلٍ
مَا عَسَانِي أُعْطِيَ لِمَا لَكَ كُلِّي
فِي بَقَايَا الْحَيَاةِ عَنْ كُلِّ خِلٍّ
بَلْ شُعُورِي بِأَنَّكَ أَقْرَبُ أَهْلِي
فَعَسَى أَبْدَأُ التَّقَى وَلَعَلِّي
وَنَفَضْتُ الْأَكْفَ مِنْ كُلِّ حَوْلٍ
تَرْضَى كُلَّ مَا أُرِيدُ لِأَجْلِي
لَا تُقَضِّي الْفَرَاغَ مِنْ غَيْرِ شُغْلٍ
مِنْ جَدِيدٍ وَقُلْتُ أَجْدَرُ مِثْلِي
وَتَقَلَّبْتُ بَيْنَ جِدٍّ وَهَزَلٍ
ابْنُ سَبْعٍ إِذَا نَظَرْتَ لِدَخْلِي
وَصَلَاحٍ أَقَلُّ مِنْ كُلِّ قِلٍّ
وَالسُّيُوطِي وَالْهِتَمِي وَالْمَحَلِّي

١ الخطاب في هذه القصيدة للمؤلف.

مَعَ أَنِّي قَدْ عَشْتُ ضِعْفَ النَّوَاوِي
قَدْ أَفَادُوا عُصَارَةَ الْخَيْرِ صِرْفًا
لَوْ يُعَادُ الزَّمَانُ دَوْرًا جَدِيدًا
لَتَرَسَّمْتُ فِي سُلُوكِي خُطَاهُمْ
فَإِذَا مَا أَرَادَنِي عَبْدٌ سُوءٍ
لَيْسَ يُجِدِي تَعْلِيلُ نَفْسِي بَلَوٌ
وَمِنَ الْغُبْنِ صَرَفُ سُورِ حَيَاتِي
لَسْتُ أَذْرِي لَعَلَّ عُمْرِي مَدِيدٌ
فَمِنَ الْحَزْمِ أَنْ أَبَدَّلَ عَيْي
وَأَرَى أَنْ سَاعَتِي بَدءُ عُمْرِي
فَإِذَا اسْتَضَعَبْتَ عَلَيَّ أُمُورٌ
وَإِذَا مَا دَعَانِي قَوْمٌ لِسُبُلِ
بَعْضُ صَاحِبِي دُرْدِي حَلٌّ وَشَهْدِ
قَدْ رَكِبْتُ الْهَوَى كَبَغْلَةٍ سُوءٍ
لَيْسَ مِنْ شِيَمَتِي وَإِنْ شَخْتُ يَأْسُ
إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ جِهَادٌ
وَإِذَا مَا خَتَمْتُ عُمْرِي بِخَيْرِ
يَا إِلَهِي وَفَّقْ وَيَسِّرْ وَسَدِّدْ

وَأَتَاخَ الْإِلَهِ لِي كُلَّ فَضْلِ
وَحَيَاتِي مَضَتْ بِقَشْرِ وَثْقَلِ
وَيُعِيدُ الشَّبَابُ وَالْأَيْدُ وَضَلِي
وَتَرَفَعْتُ عَنْ دَدٍ لِلْأَجَلِ
لِلتَّلَهِهِ أَكُونُ عَنْهُ بِشَغْلِ
وَمِنَ الْمُسْتَحِيلِ إعْطَاءُ سُؤْلِي
بِالتَّمَنِّي وَحَسْرَةِ وَبِعَذْلِ
جَاوَزَ الْقَرْنَ وَالِدِي الْبَرُّ قَبْلِي
بِصَلَاحٍ وَأَنْ أَحَسَّنَ فِعْلِي
رَاجِيًا أَنْ يُصَدِّقَ الْقَوْلَ فِعْلِي
أَهْبُ الصَّعْبَ مِنْ أُمُورِي لِسَهْلِي
نَائِيَاتٍ أَقُولُ وَحَدَّثْتُ سُبُلِي
كَمْ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ شَهْدٍ وَخَلِّ
قَدْ نَعَاهَا أَبُو دُلَامَةِ نَذْلِ
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحَقِّقَ فِئَالِي
لِي فِيهِمَا سَهْمٌ وَإِنْ كُلَّ نَضْلِي
فِي بَابِ السَّلَامِ قَدْ حَطَّ رَحْلِي
خُطُواتِي مُلَاطِفًا بِالتَّجَلِّي

١١٤ - شرع الغرام

هُوَ جَدِّي مِنْ وَافِدَاتِ اللَّيَالِي^١
 فَرَمْتَنِي بِاللَّحْظِ عَيْنُ الْغَزَالِ
 فَبِمَاذَا مِنْ بَعْدِ هَذَا أَبَالِي
 لَسْتُ أَسْعَى لِقَصْدِ صَوْبِ بَيَالِي
 بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ وَشَمَالِ
 إِنْ رَأَيْتُ صَرْنَ جَعْبَةً لِلنَّبَالِ^٢
 بِسِهَامٍ رِيْشَتْ بِبَعْضِ اغْتِلَالِ
 لَا وَرَبَّ الْغَرَامِ لَسْتُ بِسَالِي
 كَعَشِيْقٍ مُسْتَمْتِعٍ بِالْوِصَالِ
 مُسْتَبِدُّ مُحَرَّمٍ لِلْحِلَالِ
 وَجَمَالُ مُكَدَّرٍ بِالْجَلَالِ^٣
 وَيَعُدُّ الْحَرَمَانَ عَيْنَ النَّوَالِ
 لَيْسَ نَحْبُوبَ بَلْ دَائِمًا بِاشْتِعَالِ
 يَتَسَلَّى بِالذَّلِّ أَوْ بِالذَّلَالِ؛

لَا تَلْمَنِي عَلَى الْهَوَى يَا خَالِي
 كُنْتُ لَا أَعْرِفُ الْغَرَامَ سَلِيًّا
 صَرَعْتَنِي مُضَرَّجًا بِدِمَائِي
 تَيْمَمْتَنِي فَصُرْتُ أَمْشِي هِيَامًا
 حَرَمْتَنِي الْمَنَامَ بَلْ هَيَّجْتَنِي
 عَجَبًا لِلْعُيُونِ وَهِيَ مَرَاضُ
 سُدَّ الْقَوْسُ فَوْقَهَا فَهِيَ تَرْمِي
 كَيْفَ أَسْلُو وَالنَّارُ تَسْلِي فُؤَادِي
 لَيْسَ مَنْ يُحَرِّمُ الْوِصَالَ مُشَوِّقًا
 إِنَّ شَرَعَ الْغَرَامِ شَرَعَ غُلُوًّا
 فِيهِ رِقٌّ مَا فِيهِ رِقَّةُ قَلْبٍ
 يَسْتَحِلُّ التَّعْذِيبَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ
 فِي قُلُوبِ الْعُشَّاقِ نَارٌ تَلْظَى
 وَالَّذِي يَعْشَقُوهُ فِي هَنَاءٍ

١ جدِّي: حظِّي.

٢ مراض جمع مريضة ، والعين المريضة هي العين التي فيها فتور: ضعف في الجفن وانكسار في الطرف ، وكانوا يستحسنونه في المرأة. ورنا: أدام النظر في سكون طرف ، والجعبة: وعاء السهام والنبال.

٣ الرِّق: العبودية ، والذي فيه رقة القلب هو المُحِبُّ ، والجمال والجلال للمحجوب.

٤ الذَّلُّ: دُلُّ المرأة: تدللها على زوجها ، تربه جراءة عليه في تغنُّج كأنها تخالفه وما بها خلاف.

فَسَلُّوا اللَّهَ يَا رِفاقي شِفاءً
وخلِصاً مِنْ قَيْدِهِمْ وَغَمٍّ
واطْلُبُوا حُبَّ راحِمٍ وَغُفُورٍ
إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ سِوَاهُ
كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِهِ وَهُوَ عَدْلٌ
خَلَقَ الْعَالَمِينَ كَيْ يَعْبدُوهُ
ثُمَّ يَجْزِي سُبْحانَهُ عابِدِيهِ
يا إلهي إِنِّي عُيْبٌ ضَعِيفٌ
أَرْتَجِي العَفْوَ عَنْ جَمِيعِ ذُنُوبِي
يا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّ حَقِّقْ رِجائِي
أَنْتَ بَرٌّ فَلَيْسَ لِلْيَأْسِ دَوْرٌ
لَا تُخَيِّبْ مَنْ ظَنَّ فِيكَ جَمِلاً
راحِمُ الخاطِئِينَ أَحْسَنُ خِتامِي
إِنَّ قَلْبِي يَرِفُ مِنْ خَوْفِ يَوْمٍ
لَسْتُ أَقْوَى عَلَى العَذابِ وَإِنِّي
غَيْرُ أَنِّي طَرَفْتُ بَابَ كَرِيمٍ
قائِلُ إِنَّنِي لَدَى ظَنِّ عَبْدِي
إِنَّ ظَنِّي بِاللَّهِ يَقْبَلُ تَوْبِي

مِنْ جُنُونٍ وَدَاءٍ عَشِقٍ غُضالٍ
وفكاكاً مِنْ خانِقِ الأَغْلالِ
إِنَّ حُبَّ الأَغْيَارِ عَيْنُ الضَّلالِ
مُنْعَمٌ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ السُّؤالِ
ومتاعُ الدُّنيا سَرِيعُ الزَّوالِ
كُلُّهُمْ عَنْ حِياتِهِمْ فِي ارْتِجالِ
جَنَّةِ الخُلْدِ أَجْرُهُمْ فِي ظِلالِ
صَلَحَتْ نَيْتِي وَساءَتْ فِعْالي
فَتَقَبَّلْ مِتابَتِي واغْتَسِالي
قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ المَحاقَ هِلايِ^١
واجْتِرائي بالسُّؤالِ مِنْ حُسْنِ فالي
أَنْتَ رَبِّي سُبْحانَكَ المُتوالِي
لا تَدْعِنِي أَزِيعُ عِنْدَ الكِمالِ
قَمَطَرِيْرٍ وَدَمْعَتِي فِي انْهِمالِ^٢
أَخْتَشِي مِنْ إِساءَتِي والنَّكالِ^٣
خَيْرُهُ لِلْفَقِيرِ سَهْلُ المِمالِ
ومقالُ الإلهِ أَصْدَقُ قالِ
حَسْبِيَ اللَّهُ مِنْ مُعِينٍ ووالي

١ المحاق: غياب القمر آخر الشهر.

٢ قمطريِر: شديد العبوس.

٣ النِّكال: العذاب.

١١٥ - أيا عمار

أَيَا عَمَّارُ جِئْتَ وَصَرْتُ شَيْخاً
فَأَنْتَ بِمَقْدَمِ هُنْتِ عَيْشاً
فَهَذَا الرَّأْسُ أَمْسَى فِي اشْتِعَالِ
قَطَعْتُ بِرَحْلَتِي شَوْطاً طَوِيلاً
لَقَدْ زَادَتْ عَلَى سِتِّينَ عَاماً
سَبَحْتُ بِيَمِّ هَذَا الْعُمَرِ جَهْدِي
وَأَشْغَلَنِي عَنِ الْأَرْبَاحِ لَهْوُ
حَفِيدِي إِنَّ جَدَّكَ قَدْ تَوَانَى
وَلَيْسَ لَهُ سِوَى الْإِهْمَالِ عَذْرُ
لَقَدْ تَمَّتْ لَهُ الْمَلَكَاتُ فَضْلاً
وَأَمْسَى نَادِماً مَنْ غَيْرِ يَأْسٍ
نَعَمْ ضَاعَتْ حَيَاتِي يَا غَلَامِي
أَعِدُّ الزَّادَ لِلسَّفَرِ الطَّوِيلِ
وَجَدُّكَ فِي مِهْمَاتِ الرَّحِيلِ
وَهَذَا الْجِلْدُ أَضْحَى فِي قُحُولِ^٢
وَلَيْسَ الرِّيحُ بِالشَّوْطِ الطَّوِيلِ
حَيَاتِي ثُمَّ لَا أَذْرِي مَقِيلِي^٣
وَلَمْ أَصْطَدْ سِوَى جِلْدِي الْبَلِيلِ^٤
رَعَاكَ اللَّهُ لَا تَسْلُكُ سَبِيلِي
وَقَصَّرَ بِالْعَظِيمِ وَالضَّئِيلِ
سِوَى الْخَلْقِ مَا هُوَ بِالْعَلِيلِ
مَنْ الْمَوْلَى وَإِمَكَانُ الْحُصُولِ^٥
يُرْجِّجِي رَحْمَةً اللَّهِ الْجَلِيلِ
مَعَ الْأَصْحَابِ فِي قَالٍ وَقِيلِ

١ خطاب الجد صادق حنكة لحفيده محمد عمار بن أنس عند ولادته عام ١٩٨٥ . [المصدر الرابع]

٢ قحول: جفاف ويس.

٣ مقيلي: مصيري ومرقدي.

٤ اليم: البحر، على التشبيه، أصطد: من الصيد، لم أرجع بشيء.

٥ الملكات: المواهب.

وَفِي جَمْعٍ وَتَفْرِيقٍ وَجَمْعٍ
لَوْ اسْتَقْدَمْتُ مِنْ أَمْرِي آخِرِي
وَعِيرِي لَمْ يَعِشْ مِثْلِي وَأَجْرِي
وَلَمْ يُفْنِ الْحَيَاةَ بغيرِ نَفْعٍ
إِذَا كَانَ الضَّيْنُ بِصَرْفٍ وَقْتٍ
فَأَعْمَارُ الْأَنْامِ رُؤُوسُ مَالٍ
وَمَنْ لَمْ يَسْعَ يُفْلِسْ عَنْ قَرِيبٍ
فَلِلْأَمْوَالِ تَعْوِضٌ وَكَسْبٌ
وَلَا تُغْنِيكَ يَوْمَ الْحِشْرِ شَيْئاً
وَحَسْبُ الْمَرْءِ بُلْغَتُهُ وَيَكْفِي
وَإِنَّ الْمَالَ مَتْرُوكٌ لغيرِي
وَحَسْبِي مِنْ قَرَاحِ الْمَاءِ قَدْرٌ
قَلِيلُ الْأَكْلِ فِيهِ قَوَامٌ صُلْبِي
لِذَا اخْتَارُ أَهْلُ الزُّهْدِ صَحْباً
وَأَتْرَكَ عَبْدٌ شَهْوَتَهُ خُصُوصاً

وَلَمْ أَفْلَحْ وَلَا مِقْدَارَ مِيلٍ^١
مَعَ التَّوْفِيقِ لَمْ تَجِدُوا مِثْلِي
مِنَ الْخَيْرَاتِ مِثْلَ السَّلْسَبِيلِ
وَلَمْ يُصْرَفْ بِضِدٍّ أَوْ خَلِيلٍ
مِنَ الْبُخْلَى فَانْعَمَ بِالْبَخِيلِ
فَلَا تَغْتَرَّ بِالرَّيْحِ الْقَلِيلِ
وَلَيْسَ الْمَالُ يَا طُفْلِي مُمِيلٍ
وَمَا لِلْوَقْتِ يَذْهَبُ مِنْ بَدِيلٍ
وَلَوْ كَانَتْ تَدْفُقُ كَالسَّيُولِ
كَفَافُ الْعَيْشِ لِلرَّجُلِ الْمُعِيلِ^٢
إِذَا نَالَ السَّلَامَةَ مِنْ جَهَوْلٍ
يَسِيرٌ قَدَرَ مَا يَشْفِي غَلِيلِي^٣
وَيَسْرِي الدَّاءُ لِلشَّرِّهِ الْأَكُولِ
وَلَا أَرْضَى بِمَبْطُونٍ أَكِيلِي^٤
مَنْ اسْتَهْوَاهُ شَرِبُ الزَّنَجِيلِ^٥

١ الميل: عشر السانتي متر.

٢ المعيل: صاحب العيال.

٣ الغليل: حر العطش.

٤ أكيلي: مؤأكلي.

٥ الزنجيل: هنا الخمر.

سَتَسْقِينِي يَدُ الْغُفْرَانِ كَأْساً
وإن ناءت بي الحسنات عنها
وحبُّ الخير والأخيارِ درعي
وإن كانت بي العثرات تترى
سأبغني للسلامة خيرَ دَرَبٍ
وحاشا تَبُبْتُ الْأَقْدَامُ إنْ ما
وهل يرجو قرارَ النفسِ سارٍ
مسحتُ الطينَ عن ثوبي حفيدي
لَقَدْ أَحْصَيْتُ مِنْ عُمْرِي دُرُوساً
أَفْدُ مِمَّنْ يُفِيدُ بِلا ضجيجٍ
ولا يغرُّركَ مهذارٌ عليم

لقد مُزجت بِعِطْرِ الزَّنَجِيلِ^١
فَعَفُوَ اللهُ عَنْ ذَنْبِي وَكَيْلِي^٢
وحصنُ شفاعَةِ الهادي كفيلي
فإنَّ عنايةَ المولى مُقيلي^٣
ولا أمشي على خطِّ المسيلِ^٤
عدا العادي على الرَّمْلِ المهيلِ^٥
بمَسْبَعَةٍ إلى قُلَلِ الْغُيُولِ^٦
فحاذِرُ أنْ تَزْلَقَ بِالوُحُولِ
أَلْقَنَهَا فَخُذْهَا بِالْقَبُولِ
ولا تهتج بأصواتِ الطُّبُولِ^٧
بلحنِ القولِ أو جمعِ النُّقولِ^٨

١ الزنجيل: هنا خشب يعطر به الشراب.

٢ ناءت: قصرت.

٣ تترى: متتابعة. مقيلي: منقذي.

٤ المسيل: مكان سيل الماء.

٥ المهيل: الرمل المتراكم المزلق.

٦ المسبعة: مكان السباع. الغيول: أجمت الأسود من الجبال.

٧ أفد: استفد.

٨ مهذار: ثرثار كثير الكلام.

فليس لِرَنَّةِ الْأَوْتَارِ جَدَوَى
لِسَانِ الْإِسْتِقَامَةِ مِنْ صَدُوقِ
دَعَاةِ الْخَيْرِ وَالْإِخْلَاصِ شَتَّى
كَلَامِ النَّاصِحِينَ بِهِ دَوَاءً
فُلُذْ بِمُجَانِبِ رَيْبٍ أَوْ عَيْبٍ
وَمَنْ أَحْوَالُهُ شَهْدَاءُ صِدْقِ
وَمَوْرَدُهُ كِتَابُ اللَّهِ حَقًّا
وَحَازِرُ أَنْ تُلَمَّ بِكُلِّ شَيْءٍ
وَمَحْضُ وَانْتِقِ الْأَعْلَى مَرَدًّا
وَأِنْ وَفَّقْتَ فِي نَهْجِ فَتَايَعِ
وَلَا تَلْوِي عَلَى أَحَدٍ وَشَمَّرِ
وَلَا تُسَلِّمْ إِلَى الْأَهْوَاءِ وَجْهًا
فَمَنْ يَحْفَرُ بَقَاعٍ فِي بَقَاعِ

وَأِنْ طَابَتْ وَلَا نُوحِ الْهَدِيلِ^١
أَدْلُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَى دَلِيلِ
فَخُذْ مَا تَبْتَغِيهِ مِنَ الْعُدُولِ
وَتَنْبِيءُ لَنَا عِنْدَ الْغُفُولِ^٢
حَلِيفِ مُرُوءَةٍ شَهْمِ خَجُولِ
عَلَى أَقْوَالِهِ عَفَّ الذُّبُولِ^٣
وَمَنْ يَهْدِي لِمَنْهَاجِ الرَّسُولِ
فَتُفْنِي الْعَمَرَ فِي طَلَبِ الشُّمُولِ^٤
فَلَيْسَ الدُّرُّ كَالصَّخْرِ الثَّقِيلِ
وَسِرَّ تَوًّا لَتَسْعَدَ بِالْوُصُولِ^٥
وَلَا تَقْعُدْ مَعَ الْوَانِي الْكَسُولِ^٦
كَذَا الْأَهْوَاءُ تَلْعَبُ بِالْعُقُولِ
يَنْلُ جَدَوَاهُ تُرْبًا بِالْحُمُولِ^٧

١ الهديل: ذكر الحمام.

٢ الغفول: الغفلة.

٣ عف الذبول: كناية عن التقي.

٤ الشمول: الإحاطة.

٥ تواء: مستقيماً بدون التفات ولا تعريج.

٦ الواني: الضعيف.

٧ القاع: السهل الواسع المستوي ، والبقاع: جمع بقعه القطعة من الأرض.

وَمَنْ يَلْزَمْ مَكَانًا إِذَا صَلَاحٍ
وَيَسْقِي الْأَرْضَ مِنْ مَاءٍ نَمِيرٍ
وَلَا تَغْلُلْ إِذَا سُلِّمَتْ مَالًا
سَنَمُثِّلُ لِلْحَسَابِ أَمَامَ رَبِّ
وَمَارِسْ مَا قَنِعْتَ بِهِ بِجِدٍ
وَلَا تَسْأَمْ إِذَا أَعْيَاكَ صَعْبٌ
وَلَا يَرْضَى بِحَمْلِ الضِّمِيمِ مَيْلًا
وَكَمْ مَا بَيْنَ مَنْ يَسْعَى لِفَضْلٍ
فَاتَّرَ أَنْ تُصَعَّدَ فِي الْمَعَالِي
وَأَنْ يَمَسَّكَ ضَرٌّ أَوْ لُغُوبٌ
وَمَهْمَا أَشْتَدَّ إِنَّ أَشَدَّ مِنْهُ
وَلَفْحُ النَّارِ لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ

يَنْلُ مَاءً كَأَمْوَاهِ الشَّلِيلِ ١
وَيَنْعَمُ بَعْدُ بِالظِّلِّ الظَّلِيلِ ٢
فَمَنْ يَغْلُلْ سَيَأْتِي بِالْغُلُولِ
بَلَا وَزَرَ فَهِيَ لِلْمُثُولِ ٣
فَإِنَّ الْحَزَمَ مِنْ خُلُقِ النَّبِيلِ
فَإِنَّ الْخُسْرَ مِنْ حَظِّ الْمَلُولِ
إِلَى دَعَا سِوَى الْعَبْدِ النَّذِيلِ ٤
يُحْصِّلُهُ بَعْزٌ وَالذَّلِيلِ
وَأِنْ طَالَتْ عَلَى ذِكْرِ النُّزُولِ
بَسْعِيكَ فَادْكُرْ يَوْمَ الْقُفُولِ ٥
عَذَابُ اللَّهِ ذِي الْبَطْشِ الْوَيْلِ ٦
إِذَا شَاءَ الْكَرِيمُ سِوَى الْوَسِيلِ ٧

١ الشليل: وسط الوادي فيه معظم الماء.

٢ نمير: نبع عذب.

٣ الوزر: الملجأ.

٤ الدعة: البطالة وترك العمل ، والنذيل: الموصوف بالنذالة وهي السفالة.

٥ اللغوب: مشقه العمل. أدكر: تذكر ، القفول: الرجوع.

٦ الويل: الثقل الشديد.

٧ الوسيل: جمع وسيلة.

وأعلاها رضى المولى تعالى
وباب الله مفتوح فطهر
وأكثر ذكره واشكر وأخلص
فإن الله يعطي من دعاه
ولا تغفل رضا أبويك واذكر
وسوف تعول مولوداً وتذري
ولا تحش الصعاب وكن عمولاً
وأل إن أعجزتك إلى قدير
وخذ رأس الحقائق والتزمها
وكل الكائنات إلى زوال
ولا تقنع بعيش أولي مجنون
من الأقوام من يحا شريداً
وإن دخلته أوهام رواها

وإن رضاه في فعل الجميل
ثيابك ثم أسرغ في الدخول
دعاءك كي تفوز بكل سؤل^١
ويجزي البر بالأجر الجزيل
حنان الأصل للطفل السليل^٢
صدى شفقتك في الخد الأسيل^٣
فإن الصعب يعنو للعمول^٤
فليس لصارخ غير الوؤول^٥
ولا تصرف حياتك بالفضول
فلا تحدعك ألوان الشكول^٦
رماهم ما اعتراهم بالخمول^٧
ولا يدري دبيراً من قبيل^٨
كحق ليس يشعر بالدخيل

١ سؤل: تسهيل سؤل، وهو الطلب.

٢ السليل: المسلول، والولد يخرج من بطن أمه.

٣ الأسيل: الأملس المستوي، والأسيل من الحدود: الطويل المسترسل.

٤ يعنو: يخضع.

٥ أل: ارجع، والوؤول: الرجوع.

٦ الشكول: الأشكال.

٧ المجون: الهزل.

٨ الشريد: المتشرد، والدبير والقبيل: المقصود الإدبار والإقبال.

وإنَّ الحقَّ لا يَخْفَى كشمس
(وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ
ولا تُنظَرُ شبابك وهو غَضٌّ
وما يدريك ما الأيامُ تُبدي
ولا تُمهِّلُ لتسلُّك في حُزونٍ
ألمْ تعلمْ بأنَّ الشيخَ يُمنى
فما ثوبٌ جديدٌ ذو بهاءٍ
ستندمُ إنْ أضعتْ نَقِيَّ نَضْجِي
وليس يعودُ فائتُنا بحُزنٍ
فكُنْ طفلي كما أوصيتُ واغْلَمْ
غلامي أنتَ قد أسلمتَ قلباً
فلا تشنِ البياضَ بلونِ سوءٍ

ولكنْ لا يُعَيَّرُ بالأفولِ^١
إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلٍ^٢
لِتَنَشِطَ حينَ تُمسي في الكُهولِ^٣
لعلَّ السيفَ يُنمى بالكلولِ^٤
وتتركَ طائعاً فَنَحَ السُّهولِ^٥
بِضَعْفٍ ثُمَّ يُمنى بِالنُّحولِ^٦
كَثُوبٍ حينَ يوصَفُ بالسُّمُولِ^٦
وتُزِرُّ سَحْبٌ دَمْعَكَ للهُطُولِ
وليس يغيضُ دمعَكَ بالكُحُولِ^٧
فَعَلِمُ المرءُ بِالْقَلْبِ العُقُولِ
نَقِيَّ اللونِ كالثوبِ السُّحولِ^٨
فَشَيْنَكَ ليس يُنقَى بالغَسِيلِ^٩

١ الأفول: الغياب والغروب.

٢ البيت بين قوسين مقتبس، وهو رابع أربعة أبياتٍ للمتنبي، ومطلَعُها: أتيتُ بمنطقِ العربِ الأصلِ.

٣ تُنظَرُ: تُمهِّلُ فتُهْمِلُ.

٤ يمني: يصاب ويبتلى.

٥ الحُزون: الأرض الصلبة الغليظة.

٦ السمل: الخلق من الثياب.

٧ يغيض: يحف.

٨ السحول: الأبيض.

٩ تشن: تعب، والشين العيب.

ولا تعدل به واسلكت سواء
وعذ بالله من وسواس إنس
وكن بالبرتقال لزارعيه
أطفلي بعد هذا كن نصيحي
فإن اللحد يدلف كل يوم
لقد شاب الغراب على أديمي
وليس لوانني أبداً مفيدي
وأزجو الله يرفعني لعلو
ويمسح رقدتي الطولى بصحو
لعلّي أزع الواهي منيباً
وأنعم بالسكينة في فؤادي
وتشملني شفاعته خير هادٍ
عليه صلاة ربّي مع سلام

فإن فوات حظك بالعدول^١
ولا تسمع لأقوال العدول
ظليلاً مورقاً كل الفصول
بقولك لا تكن مثل الفيل
وئذني بتقريب الحلول^٢
وباص فلا يدأوى بالنطول^٣
وليس لعل أو لئتي منيلي
ويأخذ في يدي من الشفول
لأخلص من متاهات الذهول^٤
وألقي الله بالوجه الصّقل^٥
ويُنعمي جيش همي بالفلول^٦
بيوم الحشر ذي الحرّ المهيل^٧
مع الأصحاب والآل العدول

١ العدول: الميل عن الاستقامة.

٢ بدلف: يزدلف ويتقرب ، والحلول: المراد النزول باللحد.

٣ شاب الغراب: ابيض الشعر الأسود على جلدي ، والنطول: الماء المخلوط بالأدوية.

٤ رقدتي: نومتي ، والمراد الغفلة.

٥ الواهي: الضعيف، والمقصود لباس التقوى.

٦ الفلول: الانهزام.

٧ المهيل: المخوف، ذو هول.

١١٦ - أَجَدِّي^١

أَجَدِّي زَادَكَ الْمَوْلَى عَطَاءً
وَمَتَّعَنَا بِعَيْشِكَ فِي هَنَاءٍ
لَقَدْ أَخْلَصْتَ نَصْحَكَ لِي فَشُكْرًا
عَرَضْتَ عَلَيَّ صُورَةَ نِصْفِ قَرْنٍ
وَقَسَّمتَ الْأَنْهَامَ إِلَى فَنَاتٍ
سَأَسْعَى لِانْتِقَاءِ رَفِيقٍ رَشِيدٍ
وَأُبْذِلُ كُلَّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ
وَأَبْذُلُ هِمَّتِي وَجَمِيعَ جَهْدِي
وَأَقْرَأُ سِيرَةَ الْهَادِي بِفَهْمٍ
وَأُدْرُسُ بَعْدَهَا الْأَحْكَامَ حَتَّى
وَأَعْمَلُ مُخْلِصًا لِلَّهِ كَيْفًا
قَبُولُ النَّصِيحِ تَطْبِيقُ وَسَمْعِي
فَأَرْجُو مِنْكَ يَا جَدِّي دُعَاءً

وإِخْلَاصًا لِجِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ
وَنَحْنُ بِظُلْمِكَ الرَّطْبِ الظَّلِيلِ
كَإِخْلَاصِ الْخَلِيلِ إِلَى الْخَلِيلِ
وَضَعْتَ يَدِي عَلَى جَمْعِ الْأُصُولِ
وَذَلِكَ بَعْدَ تَجْرِبِ طَوِيلٍ
لَعَلِّي أَنْ أَعَانَ عَلَى الْحُصُولِ
وَبَطَّالٍ وَمُضْيَاعٍ كَسُولِ^٢
لِحِفْظِ كَلَامِ خَالِقِنَا الْجَلِيلِ
فَسِيرَتُهُ عَلَى التَّقْوَى دَلِيلِي
أُجَنَّبَ وَضَمَّةَ الْوَغْدِ الْجَهُولِ^٣
يَرَانِي سَالِكًا أَهْدَى سَبِيلِ
بِدَرْبِ الصَّالِحَاتِ بِلَا تُهْمُولِ
وَأَرْجُو خَالِقِي حَسَنَ الْقَبُولِ

١ على لسان عمار في الجواب على القصيدة المتقدمة.

٢ أفاك: كذاب منحرف.

٣ الوغد: الدنيء الجاهل.

١١٧ - ذبلت زهرة الحياة

ذَبَلْتُ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ فَمَا لِي
غَيْرَ أَنِّي أَخَافُ سُوءَ خِتَامٍ
لَسْتُ أَخْشَى فَوَاتَ عَيْشٍ رَغِيدٍ
لَا وَلَا أَشْتَكِي لِمِثْلِي حُزْنِي
إِنَّ قَلْبِي مِنَ الْكُرُوبِ مَرِيضٌ
سَوْفَ أُلْقَى عَلَى التُّرَابِ وَحِيداً
لَيْسَ لِي كَسْبٌ وَلَا ضَوْءٌ عِنْدِي
أَسَفْتَنِي وَكَدْتُ أَبْتَرُّ خَمْسِي
قَدْ مَضَى لِي تَجَارِبٌ فِي حَيَاتِي
كُلُّ حَالٍ إِلَى الزَّوَالِ وَلَكِنْ
إِتِّكَالِي عَلَى سِوَاهُ هُرَاءٍ
يَا عَشِيقَ الْجَمَالِ أَقْصِرْ وَصَحِّحْ
اسْأَلْ اللَّهَ أَنْ يُحَسِّنَ خَتْمِي
ذِكْرِيَّاتُ الْمَاضِي تَعَكَّرُ صَفْوِي

مِنْ مُقَامٍ فِيهَا وَلَسْتُ أَبَالِي
وَأَخَافُ الْإِرْتَاجَ عِنْدَ السُّؤَالِ
أَوْ فِرَاقَ الْأَصْحَابِ وَالْأَمْوَالِ
إِنَّ رَبِّي هُوَ الْعَلِيمُ بِحَالِي
وَعَلَى رَبِّنَا شِفَاءُ اغْتِلَالِ
مُبْتَلَى بِالْفَقْرِ وَالْإِقْلَالِ
وَبِمَوْتِي تَقَطَّعَتْ أَمَالِي
ضَيْعَةُ الْعُمُرِ فِي مَقِيلٍ وَقَالَ
وَعُهُودٌ فِي الصُّبْحِ وَالْأَصَالِ
خَوْفُ رَبِّي مِنْ أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ
كَاسْتِنَادِي إِلَى جِدَارٍ مُمَالٍ
فِي رِضَاءِ الْقِيُومِ كُلِّ الْجَمَالِ
وَيَوْفَقُ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وَبِذِهْنِي كَمْ أَحْدَثْتُ مِنْ كَلَالِ

مُشْتَهَانَا وَالصَّفْوُ عَيْنُ الْمَحَالِ	إِنَّ صَفْوَ الْحَيَاةِ مِنْ غَيْرِ كَرْبٍ
فِي خِيَالِي وَفِي صَفَائِي وَمَالِي	مَا لِيْلِكَ الْأَفْلَامِ تُعْرَضُ دَوْمًا
وَتَوَلَّيْتُ وَكُلُّهَا لِلزَّوَالِ	قَدْ تَلَاشَتْ وَمَا لَهَا مِنْ بَقَاءٍ
أَبَدًا وَلَمْ تَكُنْ فِي خِيَالِي	لِيَتَنَيَّ أَنْسِيَّتُهَا دُونَ ذِكْرِ
وَتَحَلَّفْتُ فِي حُقُودِ الْجَمَالِ	غَابَ مِنْ طَابَ مَعْدِنًا وَسَلُوكًا
بَيْدَ أَنِّي فِي الضَّعْفِ مِثْلُ الْغَزَالِ	صَرْتُ بَيْنَ السَّبَاعِ أَخْشَى عُثْوًا
وَكَثِيرٍ مِنْهُمْ شَبِيهُ الْبَغَالِ	إِنَّ بَعْضَ الْأَقْوَامِ كَالرَّيْمِ لُطْفًا
فَاتَنِي الْحِظُّ مِنْ رَخِيصٍ وَغَالِي	وِيَحَ نَفْسِي فَرَطْتُ فِي مَلَكَاتِي
وَلِصْحَبِ الصَّافَا وَكُلِّ عِيَالِي	رَبِّ هَبْ لِي سَعَادَةً وَصَلَاحًا

١١٨ - بَرَّحَ الْوَجْدَ بِكُلِّي

يَا مَلِيكَ الرُّوحِ كُنْ لِي	بَرَّحَ الْوَجْدُ بِكُلِّي
مُسْعِفًا أَنْعِمَ بِوَضْلِي	دُبْتُ مِنْ نِيرَانِ شَوْقِي
أَنْتَ فِيهِ بِالتَّجَلِّي	سَاكِنَ الْقَلْبِ أَجْرُهُ
أَنْتَ فِي بَرْدِ التَّسْلِي	لَسْتُ أَسْلُوكَ وَلَكِنْ

لَا يَرَى خَلِيَّ خَلِيلاً
أَنَا فِي الْوُدِّ غَنِيٌّ
قَاضِي الْعُشَّاقِ عَدْلًا
أَفْرَطَ الْحُبِّ بَيْنِي
جِئْتُ أَسْتَجِدِّي بِذُلِّ
لَيْسَ لِي إِلَّا رِضَا
أَنَا فِي الشَّمْسِ حَرِيْقُ
هَلْ مِنْ الْإِنْصَافِ هَذَا
إِنَّنِّي أَسْعَى لِيَوْضَلِ
فَإِذَا جَادَ بَوَضَلِ
وَهُوَ فِي الْحُسْنِ غَنِيٌّ
وَأَنَا جَلْدٌ صَبُورٌ
نَاطِرٌ مَا سِيرَاهُ
لَسْتُ أَدْرِي مُبْتَغَاهُ
أَنَا لَا أَطْلُبُ جَوْرًا
أَنَا لَا أَطْلُبُ غِيثًا
اسْأَلُ الْغَفَّارَ لُطْفًا

صَادِقًا فِي الْحُبِّ مِثْلِي
فِي غِنَى الرَّحْمَةِ هَلْ لِي ؟
قُلْ لَهُ يُرْضَى بِقَلِي
وَضَلُّهُ غَايَةُ سُؤْلِي
عَلَّاهُ يَرْحَمُ ذُلِّي
غَايَةُ تَجَمُّعِ شَمْلِي
وَهُوَ فِي مَاءٍ وَظِلِّ
حَاكِمَ الْعُشَّاقِ قُلْ لِي
لَا لِظُلْمٍ أَوْ لِغِلِّ
فَلَهُ أَضْرَبُ تَمْلِي
مَالَهُ يُزْدَادُ مَطْلِي
أَطْلُبُ الْعُطْفَ لَعَلِّي
سِيرَانِي خَيْرَ خَلِّ
عَلَّاهُ يُرْغَبُ قَتْلِي
أَطْلُبُ الْحُكْمَ بِعَدْلِ
وَإِلَّا أَرْضَى بِطَلِّ
وَعَلَى الْهَادِي أَصْلِي

١١٩ - خلني يا خلي

فخِالي بِمَا خَلَا الْخِلَّ خَالِي	خَلَّنِي يَا خَلِيَّ أَخْلُو بِخِلِّي
لَا أَبَالِي بَلَاءِ بَلْبَالِ بَالِي	قَدْ سَلَانِي سُلوهُ مِمَّا سَلَانِي
يَا دَعِيًّا وَلَسْتُ عَنْهُ بِسَالِي	وَدَعَانِي لِلصَّبْرِ لِمَا دَعَانِي
وَجَفَا الْحَبِّ مُوجِفٌ لِلْخِيَالِ	وَقَلَّتْنِي نَارُ النَّوَى مَذْقَلَانِي
إِنَّ لَيْلَى قَدْ أَسْهَرَتْهُ اللَّيَالِي	لَا تَقْسِنِي بِقَيْسٍ لَيْلَى عَذُولِي
وَصَلَّتُهُ بِحَرٍّ وَعْدِ الْوِصَالِ	وَعَدْتُهُ بِوَصْلِهَا وَعَدْتُهُ
إِنَّ عَقْلِي لَمْ يَنْفَلِتْ مِنْ عِقَالِي	لَسْتُ ذَاكَ الْمَجْنُونَ طَاشَتْ حَصَاهُ
وَحَبَّاتُ الْهَوَى بِسِثْرِ احْتِمَالِي	إِنْ جَفَّانِي جَفَا الْمَنَامُ جُفُونِي
فهُوَ رَبِّي سُبْحَانَهُ ذُو الْجَلَالِ	حَسْبِيَ اللَّهُ مُؤْنِسًا وَمُعِينًا

١٢٠ - دعاني أسفح العبرات ١

عَلَى أَهْلِ الْوَفَاءِ مِنَ الرِّجَالِ	دَعَانِي أَسْفَحُ الْعَبْرَاتِ حَرَّى
وَلَا الْخُنْسَا تُعَدُّ مِنَ الثَّكَالِ	فَمَا قَيْسٌ وَلَا الزَّبَاءُ عُنْدِي
بُقُوبًا بَيْنَ الْحَقُودِ مِنَ الْجَمَالِ	وَلَكِنَّ الثَّكَالَ ذُو وَعُقُوقٍ
حِدَادًا قَدْ مَضَى أَهْلُ الْكَمَالِ	أَدُمُ يَا دَهْرُ ثَوْبَكَ مِنْ سَوَادٍ

١ بعض أبيات تذكرتها من قصيدة ضائعة. [المصدر الثاني]

ولولا أنَّ في الدُّنيا بقايا
سيطحتُهم بكلِّ كَلِهٍ ثراه

لما مُدَّتْ شُمُوسُكَ بِالْحِبَالِ
ويَقْرِنُنا بِأشْلاءِ الْبِغَالِ

١٢١ - لأمر الله قد فوضت أمري

لأَمْرِ اللَّهِ قَدْ فَوَّضْتُ أَمْرِي
سَعَيْتُ مُجَاهِدًا بِصَلَاحِ حَالِي
مَضَى عُمْرِي وَمَا جَمَعْتُ ذُخْرًا
مُلِمَّاتُ الْكُرُوبِ سَلَّتْ فُؤَادِي
يَطُولُ أَلَمٌ أَهْلُو فِي نَهَارِي
أُجَامِلُ مَعْشَرِي وَجَمِيعَ أَهْلِي
يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَنَيْلًا
وَمَا شَاهَدْتُ مِنْ أَحَدٍ كَمَا لَا
وَكَمْ لَا قَيْتُ لَوْمَاتٍ لَوْمًا
وَسَوْءُ الظَّنِّ يَغْمُرُ كُلَّ قَلْبٍ
فَهُمْ لَا يَحْمَدُونَ بِكُلِّ حَالٍ
فَيَجْعَلُ جِيَهَ بئْرًا مَلِيئًا
فَإِنْ سَاءَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ يَوْمًا
فِيَارْبَاهُ خَلَّصَنِي فَإِنِّي

وَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى عَنْ سُؤَالِي
فَكِدْتُ أَرَاهُ مِنْ بَعْضِ الْمَحَالِ
سَوَى مَا كَانَ مِنْ قَيْلٍ وَقَالَ
وَطَوَّلُ نَدَامَتِي أَوَدْتُ بِبَالِي
وَبِالتَّفَكُّيرِ أَقْطِطِعُ الْيَلِي
وَلَكِنْ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ سَالِي
وَمَيْسَرَةً وَمَا يَذُرُونَ حَالِي
تَبَارَكَ مَنْ تَقَرَّدَ بِالْكَامِلِ
وَأَغْلَبَهُمْ حَرِيصٌ عَبْدٌ مَالٍ
لِمَا يَعْتَادُ مِنْ سُوءِ الْفِعَالِ
سَوَى مَلِيقٍ يَجُودُ بِكُلِّ غَالٍ
وَيَجْعَلُ كَفَّهُ سَجْلَ النَّوَالِ
وَقَصَّرَ شَيْعُوا سُوءَ الْمَقَالِ
عَجَزْتُ وَضَاقَ صَدْرِي وَاحْتِيَالِي

فإن تغفرُ فإني لا أبالي
وعفوك واسعٌ سهلُ المنال
وليس يليقُ أو يُجدي جدالي

وقال الناس عني عبدُ سوء
فأنتَ خلقتني وعلمتَ ضِعفي
أبوءُ إليك معترفاً بذنبي

١٢٢ - لداتي قد قضاوا

وهُمَّ في عَفْلَةٍ مِثْلِي^١
فَمَا لي عَنْهُ في شُغْلٍ
فَمَا لِلْوَعْدِ مِنْ مَهْلٍ
وإنَّ إلهنَا يُمْلِي
وقَدْ خَابَتْ لِمَنْ قَبْلِي
وَنُؤُتُ بِذَلِكَ الْحَمْلِ^٢
وَأَعْمَلُ صَالِحاً عَلِيَّ
عَسَى آوِي إلى الظُّلِّ
فَحَلَّصَهُ مِنْ الْقَتْلِ
وَيَجْمَعُ مُنْعِماً شَمْلِي

لِدَاتِي قَدْ قَضَوْا قَبْلِي
أَلَيْسَ الْمَوْتُ مَوْعِظَةً
إِذَا مَا جَاءَ مَوْعِدُهُ
ظَلَمْنَا نَحْنُ أَنْفُسَنَا
لَقَدْ غَرَّتْنَا آمَالُ
وَكَمْ مَحْمَلَتْ أَوْزَاراً
مَتَى يَا هَلْ تُرَى أَضْحُو
أَفُوزُ مَعَ الْأَلَى فَازُوا
كَمَا آوَى كُلُّنِيُمُ الله
سَأَلْتُ اللهَ يَرْحَمْنِي

١ اللدة: من وُلِدَ معك في وقت واحد ، والجمع لدات ، وقضوا: ماتوا.

٢ الأوزار جمع وِزْر: الحِمْل الثقيل ، وناء بِحَمْلِهِ: نهض به مُثْقَلاً ، أو أَثْقَلَ بِهِ فَسَقَطَ .

وَيَحْمِي مِن لَّظَى كُلي ^١	وَيَرَأَب صَدْعَ أَغْمَالِي
وتولي الجَدَّ بِالْهَزَلِ	إلهي أَنْتَ تَرْحُمُنَا
فَهَبْنِي التَّوْبَ لِلْغَسَلِ	لباسُ ثَقَايَ مَتَسَخِّحُ
وفيهَا السَّمُّ كَالصَّل ^٢	وَنَفْسِي أَغْدَى أَعْدَائِي
وَتُشْطِنِي مِنَ الْغُل ^٣	رَجَوْتُكَ أَنْ تُزَكِّيَهَا
فَأطف النار بِالطَّل ^٤	جَهَادِ النَّفْسِ مَسْتَعِر
أَيَا مَوْصُوفٍ بِالْعَدْلِ	أَلَسْتَ لِعَاجِزٍ مِثْلِي
وإِنَّكَ صَاحِبُ الْفَضْلِ	وإِنِّي إِلَيْكَ مُفْتَقِرٌ
وَمِنْ شَيْطَانِي السُّفْلِي	أَجْرَنِي مِنْ هَوَى نَفْسِي
فَحَلَّضَنِي مِنَ الدَّلِّ	فَفِي تَقْوَاكَ عَزَّتْنَا
كِتَابِكَ كَانَ خَيْرًا لِي	وَلَوْ أَنِّي هُودِيْتُ إِلَى
مِنْ الْمِزْمَارِ وَالطَّبْلِ	مِنْ الْأَشْعَارِ أَنْظُمُهَا
سَمَاهُ سَيِّدُ الرُّسُلِ	فَإِنَّ الشَّعْرَ مِزْمَارٌ

١ رَأَب الصَّدْع: أصلحه وسَوَّى شقه ، واللظى: نار جهنم.

٢ الصَّل: الحية من أحبَّت الحَيَّات.

٣ أنشط العقدة: حلَّها وفكَّ أنشوطتها، وأنشط الدَّابَّة من عقَّالها: أطلقها مِنْهُ، الغُل: القيد ، وجمعه أغلال.

٤ الطَّل: المطر الخفيف.

١٢٣ - نهنه النفس

نَهْنِه النَّفْسَ جَاءَ وَقْتُ الْأَصِيلِ
لَيْسَ يُغْنِيكَ فِي الْقِيَامَةِ شَيْءٌ
خَالَفَ النَّفْسَ وَالْهَوَى وَتَدَرَّغَ
رَاحَةُ الْقَلْبِ بِالصَّلَاةِ فَفِيهَا
وَحْضُورٌ مَعَ الْمُهَيِّمِينَ نُورٌ
عُدَّ إِلَى اللَّهِ مُلْجَأً وَمَلَاذًا
وَاعْتَنِمِ فُرْصَةَ الْحَيَاةِ وَشَمِّرْ
لَا يُفِيدُ الْأَسَى إِذَا مَا تَقَضَّتْ
اسْأَلِ اللَّهَ عَوْنَهُ وَهُدَاهُ
وَتَزَوَّدْ مِنَ التَّقَى لِلرَّحِيلِ
غَيْرُ تَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ
بِكَثْرِ الصَّلَاةِ وَالتَّهْلِيلِ
إِنْصِرَافٌ عَنْ كُلِّ قَالٍ وَقِيلِ
تَهْتَدِي بِهِ لِأَهْدَى سَبِيلِ
وَتَبَّهْ مِنَ السُّبَاتِ الطَّوِيلِ
وَازْرَعْ الْخَيْرَ قَبْلَ صَرْمِ النَّخِيلِ
وَكِتَابُ الْإِلَهِ أَقْوَى دَلِيلِ
وَامْتِنَانًا لَنَا بِحُسْنِ الْقَبُولِ

حرف الميم

١٢٤ - عشت الحياة مربياً^١

عِشْتَ الحَيَاةَ مُرِيَّاً وَمُعَلِّماً	وتركتها حَسَنَ الخِتَامِ مُكْرَماً
قَدْ كُنْتَ مُرْصَداً لِكُلِّ ضَلَالَةٍ	وَبَقَمَعَ فِتْنَتِهَا حَكِيماً مُلْهِماً
جَاهَدْتَ فِي الرَّحْمَنِ حَقَّ جِهَادِهِ	وَبَلَغْتَ مَنْزِلَةَ الشَّهِيدِ وَأَعْظَمَهَا
أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ بِالنَّصِيحَةِ وَالتَّقَى	وَعَدَلْتَ مَا بَيْنَ الْخُصُومِ مُحْكَمًا
قَدْ كَانَ هُمُكَ أَنْ تَفُوزَ بِجَنَّةٍ	فَاهْنَأْ بِرِضْوَانِ الْإِلَهِ مُنْعَمًا

١ على ضريح المرحوم الشقيق الشيخ حسن حبنكة المتوفى في ١٤ ذي القعدة ١٣٩٨ و ١٦ تشرين الأول ١٩٧٨ . [المصدر الثالث]

١٢٥ - أيا إلف الصفا

رَأَيْتُكَ قَدْ جَفَوْتَ تُرَى عَلَامَا	أَيَا إلفَ الصَّفا وَمِلْيَكَ نَفْسِي
شَكَّوْتُكَ لِلَّذِي خَلَقَ الْغَرَامَا	تَرَكْتَ مَحَبَّتِي مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ
فَأَعَيْتَ عَيْنُ قَلْبِي أَنْ تَنَامَا	خَطَفْتَ بَصِيرَتِي يَا بَرَقُ مِنِّي
وَقَدْ أَوْقَدْتَ فِي قَلْبِي ضَرَامَا	لَعِبْتَ بِمُهْجَتِي وَفَرَزْتَ مِنِّي
وَدِدْتُكَ قُمتَ قَوَّضْتَ الْخِيَامَا	ظَهَرْتَ بِوَدِّكَ الصَّافِي فَلَمَّا
وَكَانَ ضَمَادُهَا مِنْكَ الْكَلَامَا	أَسَلْتَ بِبَعْضِ قَوْلِكَ لِي كُلُّومَا
مَتَى كَانَ الدَّوَاءُ إِذَنْ حَرَامَا	بَكَفِّكَ عَلَّتِي وَبِهَادَوَائِي
نَقِي الدَّيْلِ مِنْ بَيْنِ النَّدَامِي	نَعَمْ أَهْوَائِكَ لَكِنِّي عَقِيفٌ
إِلَيْكَ وَلَسْتَ تَسْمَعُ لِي خِصَامَا	فَلَمْ أَرْفُثْ وَلَمْ أَفْسُقْ بِحَجِّي
وغير هَواكَ لَمْ أَخْتَرْ إِمَامَا	لَأَنَّكَ كَعْبَةُ الْعُشَّاقِ مِثْلِي

١ عندما كان الشيخُ يَجْمَعُ بعضَ ما تناثر من شعره افتقد هذه القصيدة، فكتب ما تذكَّرَ منها، ثم أضاف لها أبياتاً من عنده، ولما أخبرته بوجودها عندي طلب إليَّ أن أجمع بين القصيدتين، فظهرت بعضُ المعاني المتكرِّرة، وتشابهت بعضُ القوافي، فوفَّقْتُ بين القصيدتين ما استطعتُ لذلك سبيلاً، ثم إنَّ الشيخَ أجرى عليها تعديلاً فكانت خلاصة ذلك هذه الأبيات.

تُعَامِلُنِي وَبَعْدَ صَفَاءٍ وَدٍّ
لَقَدْ أَمْضَيْتُ عَهْدًا لَوْ تَجَلَّلتِ
وَلَا أَفْرَغْتُ وَدِّي فِي كَقْمَعٍ
وَلَا حَمَلْتُ نَفْسِي فَوْقَ طَوْفِي
وَلَكِنِّي أَخَذْتُ بِغَيْرِ كَسْبٍ
وَقَدْ طُرِحَ الْحَشَى بِسَعِيرِ عَشِقٍ
فَكَانَ بِبَعْضِ وَصْلِكَ بَرْدُ نَارِي
وَلَكِنِّي تُرَكِّتُ بِهِ حَنِذَاً
أَتْرَكُنِّي بِرَجْلِكَ غَيْرَ آسٍ
عَهْدَتُكَ بِي رَوْفًا غَيْرَ قَاسٍ
عَرَفْتُكَ بِي شَفُوقًا ذَا وَدَادٍ
نَسِيتَ مَحَبَّتِي وَصَحْبَتَ غَيْرِي
وَشَابَتْ لِحْيَتِي وَابْيَضَّ رَأْسِي

كَمَنْ يَلْقَاكَ فِي سِنَةِ لَمَامَا
مَعْبِيَّةً لَمَّا ذُقْتُ الْمَدَامَا
لَقَدْ تَرَكْتُ الْمَوَدَّةَ وَاسْتَهَامَا^١
وَلَمْ أَجْمِلْ لِعُدَالِي مَلَامَا
وَسُدَّدَ فِي فُؤَادِي فَاسْتَنَامَا
وَهَيَّجَهُ الْهَوَى حَتَّى اسْتَدَامَا
أَلَا يَا حَبَّذَاكَ لَوْ اسْتَقَامَا
أَقْلَبُ يَمْنَةً حِينًا وَشَامَا^٢
وَتَرْقُبُ أَنَّي أَلْقَى الْحِمَامَا
وَلَمْ أَعْدُدْكَ فِي عُنْفِي حُسَامَا
تُرى كَانَتْ مَحَبَّتُكُمْ مَنَامَا
فَعِشْتُ خِلَالَهَا عَيْشَ الْيَتَامَا
كَأَنِّي قَدْ زَرَعْتُ بِهِ الثَّغَامَا^٣

١ الكاف في قوله: " كَقْمَع " اسمٌ، بمعنى مثل، أي في مثل قِمَعٍ، والمقصود مَنْ لَا يَحْفَظُ الْوَدَّ، كالقَمْع لَا يَحْفَظُ الْمَاءَ.

٢ حَنِذَاً: مَشُوبًا، أي كَالْمَشْوِي، أَقْلَبُ عَلَى السَّفُودِ عُودَ مِنْ حَدِيدٍ يَنْظُمُ فِيهِ اللَّحْمُ لِئُشْوَى .

٣ الثَّغَام: جَمْعُ الثَّغَامَةِ: شَجَرَةُ بِيضَاءِ الثَّمَرِ وَالزَّهْرِ، إِذَا يَبَسَتْ أَزْدَادَ بِيَاضِهَا.

صَحِبْتَ سِوَايَ يَا خِلِّي وَإِنِّي
تُرى مَنْ قَدْ صَحِبْتَ أَجَلَ قَدْرًا
تُرى اسْتَبَدَلْتَ بِي أَوْفَى عُهُودًا
أَغَرَّكَ مِنْهُمْ وَلَفْظُ رَقِيقُ
وَإِنِّي مِنْكَ يَا سُؤْلِي فَصَلْنِي
رُضِيعُ فَصَالِكُمُ وَرَيْبُ حَجَرٍ
مَلَلْتُ مُحَبَّتِي أَفْلا تَرَانِي
أَلَا عُذَّ لِلْمُحَبَّةِ يَا حَبِيبِي
وَبَعْدَ ظَلَامِ هَجْرِكَ عُذَّ لِرَوْضِي
وَجَدَّدَ عَهْدَ صُحْبَتِنَا وَأَخْلَصَ

وَحَقُّ هَوَاكَ لَمْ أَفْعَلْ أَثَامَا
عَدَلْتَ بِهِمْ رَعَاعًا أَوْ طَغَامَا^١
وَلَمْ أَخْفِرْ لَكُمْ يَوْمًا ذِمَامَا
وَلَمْ تَفْرِضْ لِلْفَظْهِمُوا أَتَامَا
وَنَحَّ عَنِ السَّنَا مِنْكَ الْغَمَامَا
فَخَذَ بِيَدِي، أَعْجَلْتَ الْفِطَامَا
رَحِيبَ الصَّدْرِ إِذْ تُلْقِي السَّلَامَا
وَلَا تُشْمِتُ بِنَا هَمَجًا لَنَامَا
لِتَمُحُو شَمْسُ جَبْهَتِكَ الظَّلَامَا
كَمَا كُنَّا بِهَا قَوْمًا كِرَامَا

١ الرَّعَاع: الطَّغَام: الأوغاد من النَّاس، أو الأحداثُ الذينَ لا شَأْنَ لَهُمْ ولا عقل.

١٢٦ - على أبيات الشافعي^١

أَغَالِبُ أَمْرَ النَّفْسِ وَالْأَمْرِ غَالِبِي وَأَخْشَى مَقَامَ اللَّهِ وَهُوَ مُحَاسِبِي
تَقَضَّتْ حَيَاتِي بَيْنَ مُقْصِرٍ وَجَازِبٍ وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا

فَأَطْمَعَنِي لَا تَقْنَطُوا مُذْ قَرَأْتُهُ وَقُلْتَ عِبَادِي وَهُوَ لُطْفٌ عَرَفْتُهُ
وَلَمَّا تَذَكَّرْتُ الَّذِي قَدْ جَنَيْتُهُ تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

إِلَهِي لِرَاجٍ فِي رِحَابِكَ قَدْ نَزَلَ وَلَمْ يَعْتَمِدْ عِنْدَ الْحِسَابِ عَلَى عَمَلٍ
وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا بِعَفْوِكَ مِنْ أَمَلٍ فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
تَجُودُ وَتَعْفُو مِنِّي وَتَكْرُمَا

تسديس أبيات الشافعي

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي وَدَفَّ دَبِيبُ الْمَوْتِ بَيْنَ جَوَانِبِي
نَفَضْتُ يَدِي مِنْ أَقْرِبَائِي وَصَاحِبِي وَعُدْتُ إِلَى الْمَوْلَى بِقَلْبِي وَقَالِبِي
وَقُلْتُ إِلَهِي لَيْسَ ذَنْبِي بِحَاجِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِرَحْمَتِكَ الْعُظْمَى دَوَى فَاثْمَتَتْهُ

^١ كتب الشافعي رحمه الله وهو على فراش الموت ثلاثة أبيات، وكان أستاذنا الدكتور البوطي طلب من شيخنا تخميساً لها، فخمسها الشيخ، ثم عمل عليها أصنافاً من الشعر، وهذا بعض عمله عليها.

وَأَطْمَعَنِي لَا تَقْنَطُوا إِذْ تَلَوْتُهُ
تَقُولُ عِبَادِي قِسْتُ ذَنْبًا جَنِيَّتُهُ
فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
وَهَلْ يُعْرِفُ الْغُفْرَانُ إِلَّا مِنَ الْخَلَلِ
إِذَا اسْتَعْتَبَ الْعَاصِي اعْتِرَافًا بِمَا حَصَلَ

تُنَادِي ذَوِي الْإِسْرَافِ لَمَّا سَمِعْتُهُ
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
غُفُورًا ثَقِيلُ التَّائِبِينَ مِنَ الزَّلَلِ
وَمَنْ ذَا سِوَى الْمُعْصُومِ يَنْجُو مِنَ الْعِلَلِ
تَجُودُ وَتَعْفُو مِنْهُ وَتَكْرُمَا

تشطير أول لأبيات الشافعي

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
وَأَهْبَطَنِي الْعِصْيَانُ عَنْ رُبَّةِ التَّقَى
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
وَلَوْ قِسْتُ مِلءَ الْأَرْضِ مِنِّي خَطِيئَةً
فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
وَإِنِّي وَأُمَثَالِي ضِعَافٌ وَإِنَّمَا

وَجَالَ بِفِكْرِي كَمْ تَحَمَّلْتُ مَا ثَمَا
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
بِمَغْفِرَةِ الْمَوْلَى اسْتِنَامَ وَأَسْلَمَا
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
وَمَا زِلْتُ أَخْطِي ثُمَّ أَرْجِعُ نَادِمًا
تَجُودُ وَتَعْفُو مِنْهُ وَتَكْرُمَا

تشطير ثانٍ لأبيات الشافعي

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
وَلَمَّا أَرَدْتُ الرَّتْعَ فِي رُبُوعِ التَّقَى
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
وَمَهْمَا رَبًّا بِالْيَأْسِ ذَنْبِي وَقِسْتُهُ

رَأَيْتُ دُعَاءَ الْكَرْبِ أَنْجَا وَأَسْلَمَا
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
بِرَحْمَتِكَ الْعُظْمَى اسْتِكَانَ وَأَحْجَمَا
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

لِمَنْ تَابَ غَفَّاراً وَبِالْعَبْدِ أَرْحَمَا
تُجَوِّدُ وَتَعْفُو مِنْهُ وَتَكْرُمَا

فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
وَأَنْتَ عَلَى مَا نَسْتَحِقُّ بِظُلْمِنَا

تشطير ثالث لأبيات الشافعي

وَأَيَّقَنْتُ أَنَّ النَّحْلَ قَدْ صَارَ مُصْرَمَا
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْماً
بِأَنْعَمِ رَبِّي كَانَ أَنْكِي وَأَنْمَا
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
تَقُولُ أَلَا مِنْ تَائِبٍ قَدْ تَأْتَا
تُجَوِّدُ وَتَعْفُو مِنْهُ وَتَكْرُمَا

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَزَاهِبِي
وَأَثْقَلَنِي الْعِصْيَانُ عَنْ مُرْتَقَى التَّقَى
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
وَسَاوَرَنِي يَأْسٌ فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
وَلَسْتُ لِنَيْلِ الْعَفْوِ أَهْلاً وَإِنَّمَا

تسبيح أبيات الشافعي

وَأَسْرَفْتُ فِي أَمْرِي وَأَنْتَ مُرَاقِبِي
وَأَغْفَلْتُ دَاعِيَ الْحَقِّ وَهُوَ مُعَانِي
وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَزَاهِبِي

إِلَهِي لَقَدْ فَصَّرْتُ عُمْرِي بِوَاجِبِي
وَهَزَّتَنِي الْأَهْوَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وَأَنْسَيْتُ أَمْرَ الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ طَالِبِي

جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْماً

وَعَرَّيَ الْإِكْرَامَ جَهْلًا فَخَشْتُهُ
وَلَكِنْ مُطْلِيَ التَّوْبِ ظُلْمَ حَمَلْتُهُ
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ

طَمِعْتُ بِغَفْرِ اللَّهِ لَمَّا عَرَفْتُهُ
وَحَاشَانِي لَمْ أَشْرِكْ بِمَنْ قَدْ عَبْدْتُهُ
وَإِنِّي إِلَهِي أَشْتَكِي مَا أَفْتَرْتُهُ

بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

إِذَا كَانَ إِسْعَادِي قَضَاءً مِنَ الْأَزَلِ وَانْسَأَتْ لِي يَا مَالِكَ الْمُلْكِ فِي الْأَجَلِ
 وَأُخْفِيتُ تَقْصِيرِي فَطَالَ بِيَ الْأَمَلُ فَوْفَّقَنِي يَا رَبِّي إِلَى صَالِحِ الْعَمَلِ
 وَنَزَّهَ بِعَفْوِ سُورِ عُمْرِي عَنِ الْخَلَلِ فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
 تُجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكْرُمًا

تذييل لأبيات الشافعي

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَاءَ مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
 تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
 فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ تُجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكْرُمًا
 وَعَوَّدْتَنِي اللَّطْفَ الْخَفِيَّ وَلَمْ أَكُنْ وَاسْكَنْتَنِي بَيْتًا مِنَ الرَّحْمِ مُظْلِمًا
 وَمَا زِلْتَ تَرْعَانِي وَقَدْ كُنْتُ نُطْفَةً وَأَخْرَجْتَنِي خَلْقًا سَوِيًّا وَسَلَامًا
 وَسَخَّرْتَ لِي أُمَّاً رَوْوَمَاً وَوَالِدًا حَرِيصًا عَلَى نَفْعِي شَفِيقًا وَرَاحِمًا
 وَأَمَدَدْتَنِي مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ بِقُوَّةٍ وَعَلَّمْتَنِي فَضْلًا وَمَا كُنْتُ عَالِمًا
 فَلَمَّا بَلَغْتُ السَّعْيَ وَاشْتَدَّ سَاعِدِي تَغَافَلْتُ حَتَّى صِرْتُ لِلنَّفْسِ ظَالِمًا
 فَيَا رَبِّ سَاعِدَنِي عَلَى النَّفْسِ وَاهْوَى عَسَانِي فِي الْأُخْرَى أَكُونُ مُنْعَمًا
 وَيُسْعِدْنِي فِيهَا مَحَبَّةٌ سَيِّدٍ

١٢٧ - إن الفراق أليم^١

يا رفاقي إنَّ الفراقَ أليمٌ
هي أمُّ الأولادِ عِرسِي وأنسي
أمتي طاعةً وأُمِّي حناناً
هي في الحِفظِ لبوَّةٌ في عَرينِ
لم تكن تألّفُ الجِدالَ، وتُصغِي
لم تُغادرِ بَيْتي بغيرِ رضائي
يلدُ الدَّهرُ مثلاً قُلْتُ حاشا
زَرَعْتَ لي وأثْمَرَ الزَّرْعُ لِكِنْ
أَكْبَرُ الهَمِّ عِنْدَها خِدْماتي
كَمْ تَمَيَّيْتُ بُرْأها وشفاها
كُلُّ أَمْرٍ يَجْرِي وكُلُّ قِضاءٍ
حِينَ كَانَتْ كَانَتْ لِمَا وَايَ نُورِهِ
مَا أَلَذَّ الطَّعامُ إِنْ طَبَخْتَهُ
صَرْتُ يَوْمِي أَعَافُ كُلَّ شَيْءٍ
كُنْتُ يا صَاحٍ في نَعِيمٍ وَخَيْرٍ
كُنْتُ مَعَهَا في جَنَّةٍ وَهِيَ حُورٌ

وَمُصَابِي بِهَا مُصَابٌ عَظِيمٌ
قَلْبُهَا فِي النِّسَاءِ قَلْبٌ سَلِيمٌ
وَهِيَ فِي رِقَّةِ الْخِطَابِ النَّدِيمُ
وَهِيَ فِي اللَّطْفِ وَالرَّشَاقَةِ رِيمٌ
لِحَدِيثِي، وَسِرُّنَا مَكْتُومٌ
وَبَيْتِي طُولَ الْحَيَاةِ تُقِيمُ
إِنَّ دَهْرِي عَنْ مِثْلِهَا لَعَقِيمٌ
حَائِطِي الْيَوْمَ قَاحِلٌ وَصَرِيمٌ
وَأَنَا الْيَوْمَ مُهْمَلٌ مُحْرُومٌ
وَتَضَرَّعْتُ، وَالْقَضَا مُحْتَمٌ
فِي كِتَابٍ مَقْدَرٍ مَرْقُومٌ
فَالسُّرَى بَعْدَ نُورِهَا التَّعْنِيمُ
فَهُوَ طِبٌّ وَهَانِيٌّ مَهْضُومٌ
وَأَرَاهُ كَأَنَّهُ الزَّقُّومُ
فَأَنْزَوِي الْخَيْرُ وَاسْتَحَالَ النَّعِيمُ
وَحَيَاتِي مُذْ فَارَقْتَنِي بَحِيمٌ

١ في رثاء زوجته السيدة نوره رحمها الله.

كُنْتُ فِي حَظْوَةٍ وَحَظٌ سَعِيدٍ
سَكَنِي زَالَ فَالْحَيَاةُ اضْطَرَابُ
قَدِ عَرَانِي كَرَبٌ مُخَضٌّ وَإِنِّي
نَدَبُ الْقَلْبِ قَدْ كَوْنَتِي بِنَارٍ
لَا تَلْمِزِي يَا عَاذِلِي فِي بُكَائِي
كَيْفَ أَسْأَلُو فِي الدَّمَاعِ حَدِيثُ
لَيْسَ بِدَعَا لَوْ مَي فَكَمْ مِنْ خَلِيٍّ
أَنْتَ يَا عَاذِلِي سَلِيمٌ وَلَكِنْ
فَهِيَ كَانَتْ مِنَ الْوَفَاءِ مِثَالاً
مَنْ دَعَا لِي بِالصَّبْرِ فَهُوَ صَدِيقُ
إِنَّ يَعْقُوبَ لَجَّ وَهُوَ نَبِيٌّ
لَيْسَ نَذْبِي لَهَا اغْتِرَاضاً وَإِنِّي
وَلَهُ الْحُكْمُ جَلَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ
يَتَجَلَّى فِي كُلِّ يَوْمٍ بِشَأْنٍ
لَيْسَ فِي الشَّرْعِ شِدَّةٌ وَعَسِيرٌ
قَادِرٌ رُبَّنَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
هُوَ رَبِّي وَخَالِقِي وَإِلَهِي
مَعُولُ الرِّبِّ وَالتَّكَاسُلِ أَبْلَى
أَنَا عَبْدٌ مُكَبَّلٌ بِذُنُوبِي
غَافِرُ الذَّنْبِ قَابِلُ التَّوْبِ لَكِنْ

فَإِذَا بِي مُتَمِّمٌ مَشُورُومُ
وَإِذَا الْقَلْبُ فَارِغٌ وَكَلِيمُ
مَعَ كُلِّ الَّذِي اغْتَرَانِي كَظِيمُ
أُطْفِئْهَا يَا رَبِّ إِنِّي سَقِيمُ
وَنَحْيِي فَلِإِنِّي مَكْلُومُ
كَيْفَ أَتَسَى فِي الْفُؤَادِ كُلُّومُ
لَائِمُ الْوَاجِدِينَ وَهُوَ مُلِيمُ
أَنَا فِي حَسْرَتِي وَحُزْنِي سَلِيمُ
إِنَّ نَسِيَانَ ذِي الْوَفَاءِ ذَمِيمُ
وَلَهَا بِالْجِنَانِ فَهُوَ حَمِيمُ
إِنَّ مُوسَى قَدْ خَافَ وَهُوَ كَلِيمُ
لِإِلَهِي عَبْدٌ وَرَبِّي حَكِيمُ
وَأَنَا بِالْفَنَاءِ غَدًا مُحْكُومُ
وَشَدِيدُ الْعَذَابِ حَاشَا يَدُومُ
مَا بَدَيْنِي حَاءً وَرَاءً وَجِيمُ
وَعَسَاهُ يُتَيْحُ لِي مَا أُرُومُ
وَأَنَا عَبْدُهُ ضَعِيفٌ أَثِيمُ
رُكْنُ عُمْرِي فَصْرَحُهُ مَهْدُومُ
وَهُوَ سُبْحَانَهُ غُفُورٌ رَحِيمُ
رَحْمَةُ اللَّهِ لِللَّوَرَى تَقْسِيمُ

أَرْتَجِي عَفْوَهُ وَإِصْلَاحَ حَالِي
 كَمْ مِنَ الْعُسْرِ قَدْ جَلَّاهُ يُسْرِ
 خَلَقَ الْخَلْقَ عَزَمَ مِنْ لَا وَجُودٍ
 أَذْنِي يَا قَدِيرُ تَقْوِيْمُ نَفْسِي
 كَمْ عَقَدْتُ الْمَتَابَ مِنْ سَيِّئَاتِي
 أَنَا لِلْوَحْشِ وَالطُّيُورِ إِذَا مَا
 وَإِذَا مَا انْحَرَفْتُ أَوْ ضَلَّ سَعْيِي
 إِنَّ مَنْ حَادَّ عَنْ صِرَاطِ سَوِيٍّ
 قَدْ تَمَادَيْتُ بَعْدَ عِلْمِي جَهْلًا
 لَمْ أَفِرِّقْ مَا بَيْنَ عَطْرِ وَثُومٍ
 لَوْ تَفَهَّمْتُ وَاجِبِي بَيِّقِينَ
 فَاثْتَشَقُّ أَطْيَبَ الْخَلَائِقِ رِيحًا
 طَالَ ظَفْرُ الْهَوَى فَخَدَّشَ قَلْبِي
 نَظَرِي لِلْمَهَاةِ وَالظَّبْيِ سَهْمٌ
 وَكَذَا النَّفْسُ لِي عَدُوٌّ لَدُوٌّ
 فَكُفِّنِي يَا رَبِّ شَرَّ عِدَاتِي
 وَخَتَامًا يَا رَبِّ أَحْسَنَ خَتَامِي
 وَارْحَمِ السَّابِقِينَ مِنَّا جَمِيعًا

إِنَّهُ قَادِرٌ جَوَادٌ كَرِيمٌ
 وَمِنَ الْكَرْبِ وَهُوَ كَرَبٌ جَسِيمٌ
 وَسَيَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ
 بَعْدَ جُحْدِي فَحَاجَتِي التَّقْوِيْمُ
 وَنَوَيْتُ التَّقَى وَرَبِّي حَلِيمٌ
 خُذْتُ عَنْ مَهْيَعِ الصَّلَاحِ قَسِيمٌ
 فَلَعَلِّي بِهِدِيهِ أَتَتَقِيْمُ
 بَعْدَ عِلْمٍ لَظَالِمٍ مَظْلُومٌ
 فَادَّعَائِي تَفْهَمِي مَزْعُومٌ
 لَسْتُ أَذْرِي لَعَلَّنِي مَزْكُومٌ
 لَيْسَ يَكْفِي يَا خُلَّتِي التَّفْهِيْمُ
 فَخَلُّوقُ الْأَخْلَاقِ ذَا مَشْمُومٌ^١
 وَهُوَ عَيْبٌ إِصْلَاحُهُ التَّقْلِيْمُ
 جَارِحُ الْقَلْبِ فَاتِكَ مَسْمُومٌ
 وَهَوَاهَا خَصْمٌ أَلَدُ خَصِيْمٌ
 فَإِذَا الدَّاءُ بِالْأَدْوَا مُحْسُومٌ
 فَلِحُسْنِ الْخِتَامِ قَلْبِي يَرِيْمٌ
 فَعَسَى أَنْ يَنَالَنِي التَّعْمِيْمُ

١ الخَلُوقُ: نَوْعٌ مِنَ الطَّيِّبِ.

١٢٨ - مدح أولي الإحسان^١

أُخَاطِبُ مَنْ أَرْتِي لَعَلَّ خِطَابَهُ
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
وَلَكِنْ رِثَائِي مِنْ وَفَائِي لِحُسْنِ
أَيَا رَاحِلًا عَنَّا وَلَكْتَ بِغَائِبِ
وَنَحْنُ ضُيُوفُ اللَّهِ فِيمَا بَنِيَّتُهُ
إِذَا جَادَ فِي عَهْدِ الْجَهَالَةِ حَاتِمُ
وَإِنْ كَانَ غَيْثُ الْمُزْنِ لِلزَّرْعِ مُنْبِتًا
لَقَدْ غَبَتْ نِصْفَ الشَّهْرِ يَا بَدْرُ مُشْرِقًا
فَهُمْ خُلَفَاءُ الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ وَالْهُدَى
لَقَدْ أَخَذُوا عَنْكَ الشَّجَاعَةَ وَالنَّدَى
وَأَسْقَيْتَهُمْ كَأْسَ السَّاحَةِ صَافِيًا
وَعَرَفْتَهُمْ حُلُوهَ الْحَيَاةِ وَمُرَهَا

يَكُونُ بِهِ لِلْجُرْحِ بِالْقَلْبِ مَرَهُمْ
وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ جَلَدٌ وَمُسْلِمُ
وَمَدْحُ أُولَى الْإِحْسَانِ حَقُّ مُسَلِّمُ
فَإِنَّا بِمَبْنَاكَ الَّذِي لَيْسَ يَهْدَمُ
وَإِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ ضَيْفٌ مُكْرَمُ
فَأَنْتَ بَعْضُ الْعِلْمِ أَتَقَى وَأَكْرَمُ
فَأَنْتَ لَهُ فِي مَدِّكَ الْخَيْرَ تَوْأَمُ
وَمَا غَابَ عَنَّا مِنْ ضِيَائِكَ أَنْجُمُ
لِبَاسُهُمُ التَّقْوَى قَشِيبٌ مُنْمَنُ
وَإِنَّ وَلِيدَ الْأُسْدِ فِي الْحَقِّ ضَيْغَمُ
فَكُلُّ إِلَى الْمَعْرُوفِ يَدْعُو وَيَعِزُّمُ
فَمَا فِيهِمْ إِلَّا ذِكْرِي وَمُلْهُمُ

١ في رثاء أكرم العجة.

وَسَلَّكَتْهُمْ دَرْبَ الصَّالِحِ مُعَبِّدًا
 قَدْ اخْتَرْتَ لِلْإِصْهَارِ نَاهِدَ مَاجِدٍ
 مَفْنٌ وَحَاشَا يُزْدَهِي بِخَدِيعَةٍ
 لَقَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ أَنَّكَ مُؤْمِنٌ
 وَمَشْفَاهُ لِلْمَرْضَى الْمُقْلِّينَ مَوْئِلٌ
 وَقَاعَتُهُ لِلذِّكْرِ وَالْوَعْدِ مَعْهَدٌ
 فَحَيَّاكَ رَبِّي تَاجِرًا لَا يَفْوُتُهُ
 حَنَانُكَ يَا اللَّهُ أَكْرَمُ قَدْ قَضَى
 فَأَنْزَلَهُ يَا رَحْمَنُ لُطْفًا وَمِنَّةً
 وَأَفْرَغَ عَلَيْنَا الصَّبْرَ بَعْدَ فِرَاقِهِ
 وَعَوَّضَ ذَوِيهِ الْأَجَرَ وَاشْرَحَ صُدُورَهُمْ
 رَضِينَا بِمَا تَرْضَى وَأَنْتَ مَلِكُنَا

فَلَمْ يُغْرِهِمْ بَعْدَ التَّبَصُّرِ مَا أَنْتُمْ
 حَلِيمٌ كَرِيمٌ لِلْمَبْرَةِ يَنْسُمُ
 يَحْيِيكَ الْإِلَهِ بَلْ عَلَى الْمَاءِ يَرْقُمُ
 بَنَيْتَ لَهُ بَيْتًا وَنَعَمَ الْمُقَدَّمُ
 يُعَالِجُ فِيهِ مَا يَضُرُّ وَيُؤَلِّمُ
 وَفِيهَا بِنَاءُ الْعَائِلَاتِ يُتَمَّمُ
 بِسُوقِ عُكَاظِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ مَوْسِمُ
 وَأَنْتَ بِهِ يَا بَاسِطَ الْجُودِ أَرْحَمُ
 بِمَقْعَدِ صِدْقٍ فِي الْفَرَادِيسِ يَنْعَمُ
 فَإِنَّ جَمِيلَ الصَّبْرِ لِلْعَفْوِ سُلَّمُ
 وَمَنْ سَالَمَ الْأَقْدَارَ يَسْلَمَ وَيَغْنَمُ
 وَأَنْتَ بِنَا أَوْلَى وَأَمْرُكَ أَحْكَمُ

١ زَوْجَتُهُ هِيَ السَّيِّدَةُ نَاهِدُ بِنْتِ وَزِيرِ الدِّفَاعِ الْأَسْبِقِ الْعِمَادِ أَوَّلِ مُصْطَفَى طَلَّاسِ .

١٢٩ - أيا غيداء

وراق لعاذلي فيه الملام
فحاذرها وما اصطيد المنام
فيسكن باللقاء به الهيام
وما نظري لصنعته أثام
أم الأشواق للحننا حرام
ونار الحب في الأحشا غرام
هياما ليس تفعله المدام
فإن زكاة ما ملكت لزام
وقومك غادتي قوم كرام
تزيدي بهجة ولي المرام
فمزق فروتي فئة طغام^١
فليس لغير مالكه مقام
فقير الحال أعياه السقام
بمرحمة وما حرم الحمام
سيغمر بالصباية ذا القوام
وعافية ويضحك السلام

أيا غيداء تيمني الغرام
نصبت شباك أجفاني لنومي
عساني أن أرى في النوم طيفاً
وإن الحسن من صنعات ربي
فهل وصلي أيا غيداء عار
أليس الحب مكتوباً وقسراً
ويفعل في الحجا فعلاً عجيباً
إذا الحسناء قد ملكت نصاباً
حسان الوجه آية كل خير
فإن أكرمتني بفضول وصل
خطفت ببرق وجهك لي فؤاداً
فرديته علي وأنت فيه
أليس بواجب إسعاف عان
فإن أزمعت إتلافي فديني
ولا فاضربي فالله عدل
وإني مشفق أزجوه لطفاً

١ الطغام: أوغاد الناس.

١٣٠ - محمد أنت أصفى من زلال

سَأَلْتُ اللَّهَ وَالْمَوْلَى كَرِيمٌ	يُبَارِكُ فِي زَوَاجِكَ يَا عَظِيمٌ
مَحَمَّدُ أَنْتَ أَصْفَى مِنْ زُلَالٍ	وَبَيْنَ ضُلُوعِكَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ
فَعَرُسُكَ وَالشَّامِلُ طَيِّبَاتٌ	يَكُونُ مَوْفَقاً وَأَنَا زَعِيمٌ
تُزَفُّ لَكَ الْعُرُوسُ هَتَّتَ فِيهَا	وَتَوْفِيقُ الْإِلَهِ هُوَ النَّعِيمُ
دُعَاءُ الْغَيْبِ مِنْ قَلْبٍ مُجَابٌ	وَمَنْ نَدَّعُوهُ مَنَّانٌ عَلِيمٌ
عَرَفْتَ مُحَدَّثاً وَرِعَاءَ تَقِيّاً	وَأَنْتَ عَلَى الْهَدَايَةِ مُسْتَقِيمٌ ^٢
وَتَلْقَى الْحَادِثَاتِ وَأَنْتَ لَيْثٌ	وَلَكِنْ فِي الرَّشَاقَةِ أَنْتَ رِيمٌ
رِضَا أَبُوبِكَ حَسْبُكَ فَهُوَ حِصْنٌ	مَنْعٌ ثَابِتٌ حَاشَا يَرِيمٌ
وَأَنْتَ الشَّيْخُ فَضْلاً وَابْنُ شَيْخٍ	فَمَا نَجْمٌ لِسَعْدِكَ بَلْ نُجُومٌ
أَبُوكَ أَقَامَ لِلْمَيْدَانِ صِرْحاً	بِمَكَّةَ فَهُوَ ذُو جِدٍّ حَكِيمٌ
وَخَلَدَ مِنْ مَآثِرِهِ شُهُوداً	يَعِي الْمَضْمُونُ مِنْهَا مَنْ يَرُومُ

١ في رسالة مباركة لابن الشيخ عبد الرحمن حبنكة بمناسبة عرسه، قال له في مطلعها:

بسم الله الرحمن الرحيم

للمتنبي: لَا خَيْلَ عِنْدِي أُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ الْقَوْلُ إِن لَّمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

مباركة للشيخ محمد نجل ابن أخي المحبوب فضيلة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الأكرم رعاهما

الله... وفي آخرها: في ١٤ تشرين ٢٠٠٢، ٨ شعبان ١٤٢٣، مُحِبُّكُمْ صَادِق.

٢ المُحَدَّث: الصَّادِقُ الظَّنَّ، كَأَنَّا حَدَّثَ بِمَا ظَنَّ.

ففِي التَّوْحِيدِ أَحْسَنَ مَا انْتَقَاهُ
 وَفِي التَّفْسِيرِ أَبَدَعَ إِذْ أَتَانَا
 وَفِي فَنِّ الْبَيَانِ أَجَادَ سَفَرًا
 وَحَاجِيَ فِي رِسَائِلِهِ عَتَاةً
 وَفِي تَأْلِيلِهِ لِلْحَقِّ نَصْرًا
 وَسَائِرُ مَا أَعَدَّ لَنَا شَهِيًّا
 هُوَ ابْنُ أَخِي تَقِيٍّ وَهُوَ رَاضٍ
 وَإِنِّي عَمُّهُ لَكُنْ زَمَانِي
 رَجَوْتُ لَهُ مُعَافَاةً وَعُمْرًا
 وَحَاشَا يَعْجُزُ الْمَوْلَى وَإِنَّا
 لِدَائِكَ خَلٌّ قَدْ كَتَبُوا كَثِيرًا
 صَدِيقِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ عَفْوًا
 وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ لَطِرْتُ لَكِنْ
 إِذَا مَا كَانَ جُثْمَانِي بَعِيدًا
 رَضِينَا بِالْمَحَبَّةِ خَيْرَ كَنْزٍ
 سَيَجْمَعُنَا الرِّضَا مِنْ بَعْدِ بُعْدٍ

بِصَوْنٍ نَفَعُهُ حَقًّا عَمِيمٌ
 بِشَكْلِ أَمَّةٍ أَبَدًا عَقِيمٌ
 كَشَمْسٍ لَيْسَ يَسْتُرُّهَا الْغَيُومُ
 فَمَنْ حَاجَاهُ مَفْلُوجٌ ذَمِيمٌ
 وَعِلْمٌ نَفَعُهُ أَبَدًا يَدُومُ
 كَثِيرُ النَّفْعِ مَأْكُلُهُ هَضِيمٌ
 بِحُكْمِ اللَّهِ صَبَّارٌ حَلِيمٌ
 لَقَدْ ضَيَّعْتُهُ وَأَنَا الْغَرِيمُ
 مَدِيدًا لَا تَكْذُرُهُ الْهَمُومُ
 عَيْدٌ وَهُوَ جَلٌّ بِنَا رَحِيمٌ
 وَلَكِنْ أَنْتَ لِلدَّهْرِ الْيَتِيمُ
 عَنِ التَّقْصِيرِ لَكِنِّي حَمِيمٌ
 حَدِيثُ الْعُذْرِ يَعْلَمُهُ الْقَدِيمُ
 فَرُوحِي عِنْدَكُمْ أَبَدًا مُقِيمٌ
 وَإِنْ كَانَ الْبِعَادُ لَنَا أَلِيمٌ
 وَنَرَجُو رَبَّنَا وَهُوَ الْكَرِيمُ

١٣١ - أوصيتكم^١

أَوْصَيْتُكُمْ حِينَما قَدْ كُنْتُ عِنْدَكُمْ
وَهَا خِيَالِي عَلَيْكُمْ شَاهِدٌ فَإِذَا
وإن نسيتم عُهُودِي وانمحي أثري
أَنْ تُصَلِّحُوا بِكِتَابِ اللَّهِ شَأْنَكُمْ
كُنْتُمْ يَدًا تَجِدُونَ اللَّهَ عَوْنَكُمْ
فليس يَنْفَعُ أَنَّ الرَّسْمَ بَيْنَكُمْ

١٣٢ - هَيَّا لِنَتْلُو آيَ الذِّكْرِ^٢

مَنْ فَارِسُ الشَّعْرِ قَدْ لَانَتْ أَعْيُنُهُ
الْحُزْنُ أَرْقَنِي وَالْيَأْسُ حَرَّقَنِي
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ غَيْرْتُ الطَّرِيقَ وَلَمْ
قَدَّمْتُهُ بِيَدِي مِنْ غَيْرِ مَعْرَكَةٍ
فِي رَاحَتِيهِ فَيُطْفِئِي حَرَّ مُضْطَرِمٍ
وَالْخَوْفُ غَرَّقَنِي فِي أَدْمَعِ النَّدَمِ
أُسْلِمَهُ حَتَّى وَلَوْ أَدَّى لِسْفِكَ دَمِي
حَتَّى تَغْمَدَنَا كَهْفٌ مِنَ الظُّلَمِ^٣
قَدْ كَانَ يُمَكِّنُنَا وَاللَّهُ حَارِسُنَا
فِرَارُ مُوسَى وَلَوْ سَعِيًّا عَلَى الْقَدَمِ

١ كتب خلف صورة له وصية لأولاده.

٢ من وحي السَّجْن - كما عَوتَها الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ -.

٣ قال الشَّيْخُ: "وأعني بذلك أَنِّي أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَخَذْتُ أَخِي لِقَابَلَةِ وَزِيرِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ سِجْنِنَا".

لَكِنْ قَضَى اللَّهُ وَالْأَقْدَارُ سَابِقَةً
 إِنْ قَادَنِي قَدَرٌ أَوْ سَاقَنِي فَأَنَا
 إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِالْحُكَّامِ حَارِسَةٌ
 تَرَى الْإِنْسَانِيَّ كَالْأَغْنَامِ فِي يَدِهِمْ
 قَوْمٌ يَهْمُهُمْ وَتَحْقِيقُ مَأْرَبِهِمْ
 غَضُّوا عَنِ الْعُطْفِ وَالْإِحْسَانِ أَعْيَاهُمْ
 كَانُوا يَعْضُّونَ مِنْ غَيْظٍ أَنَا مِلَهُمْ
 إِنْ يَلْقَفُونَا فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُنَا
 إِنَّا لَجَأْنَا إِلَى التَّهْلِيلِ مُقْتَرِنًا
 فَهُوَ الَّذِي سَوْفَ يُنَجِّنُنَا بِحُكْمَتِهِ
 فَاَنْفُضْ يَدَيْكَ مِنَ الْأَسْبَابِ مُعْتَصِمًا
 أَعْبُدْهُ مُتَكِلًا وَاطْلُبْهُ مُبْتَهِلًا
 يَا رَبُّ لَيْسَ لَنَا إِلَّا تَذَلُّلُنَا
 إِنَّ الْخُضُوعَ إِلَى الْمَوْلَى لِمُتَبَيِّدٍ
 لَمْ يَعْرِفِ اللَّهُ مَنْ أَهْلَاهُ زُخْرُفُهُ

فَكُفَّتِ الْكَفُّ، وَالتَّفَكِيرُ فِي سَدَمٍ^١
 أَمْشِي وَمُتَكَيِّي الْعُكَّازُ فِي صَمَمٍ
 وَحَسُنُ ظَنُّكَ فِيهِ زَلَّةُ الْقَدَمِ
 يَذْبَحُونَ وَيَسْتَحْيُونَ بِالْأُمَمِ
 مَهْمَا تَعَقَّدَتِ الْأَسْدَاءُ بِاللَّحْمِ
 وَاسْتَنْبَطُوا كَامِنَ الْأَحْقَادِ وَالنَّقَمِ
 وَقَدْ أَحَاطُوا بِنَا كَالْحَوْتِ بِالْبَلَمِ
 كَصَاحِبِ النَّوْنِ نَادَى كَاشَفَ الْغَمِّ
 بِخَالِصِ الذِّكْرِ مَعَ تَسْبِيحِ ذِي الْكَرَمِ
 كَمَا أَرَادَ لَنَا طَهْرًا مِنَ اللَّمَمِ
 بِإِلَهِ الْمَلِكِ مُنْشِي الْخَلْقِ مِنْ عَدَمِ
 وَنَادِيهِ دَارِكِ الْآرَامِ فِي الْأَجَمِ^٢
 فَذَلُّنَا الْعِزُّ يُعْلِينَا إِلَى الْقِمَمِ
 أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ بَلْ أَرَوَى مِنَ الدَّيَمِ
 وَدَلَّلْتُهُ يَدَ الْأَطَافِ وَالنَّعَمِ

١ السَّدَمُ: الهمُّ والحُزْنُ.

٢ الآرَام: الظُّبَاءُ، والأَجَم: جمع أَجَمَةٍ: الشجر الكثير المُلْتَفِّ.

المَالُ يُطْغِي وَطَيْبُ الْعَيْشِ مَشْغَلَةٌ
 لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ كَرْبٍ يَعُودُ بِهِ
 هَيَّا لِنَتْلُوَ آيَ الذِّكْرِ إِنْ بِهِ
 اقْرَأْ نَجِدْ أَنَّهُ سَاقِ الْقَضَاءِ إِلَى
 إِخْوَانٍ يُؤَسِّفُ الْقَوَّةَ بِلا سَبَبٍ
 وَضَمَّهُ السِّجْنَ أَعْوَاماً لِعِفَّتِهِ
 وَادَّكَّرَ إِذَا شِئْتَ إِبْرَاهِيمَ كَيْفَ رَمَى
 وَذَبَحَهُ وَلَدًا بَرًّا يُسَاعِدُهُ
 ثُمَّ ابْتَدَى بِلَطْيِ النَّمْرُودِ مُحْتَسِبًا
 لَا تَطْلُبِ الصَّفْوَةَ مِنْ دَارٍ خُلِقَتْ بِهَا
 وَكَيْفَ تَصْفُو حَيَاةً لَا تُفَارِقُهَا
 لَذَاتُهَا لَا تُسَاوِي مَا يَحِيطُ بِهَا
 لَا طَيْبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةً
 فَاطْلُبِ رِضَا اللَّهِ فَاللَّذَاتُ أَجْمَعُهَا
 يَا رَبِّ فَاجْعَلْ فَوَادِي ذَاكِراً أَبَدًا

وَالْجَاهُ يُغْوِي وَيُنْسِي جُعْبَةَ الرِّمَمِ
 إِلَى الْخُلُوصِ عَنِ الْأَسْبَابِ وَالنَّسَمِ
 لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ وَالْحَكَمِ
 يَعْقُوبَ مَعَ وَلَدَيْهِ لِإِذْعِ الْأَلَمِ
 فِي الْجَبِّ وَانْصَرَفُوا عَنْ رَحْمَةِ الرَّحِمِ
 كَيْدُ النِّسَاءِ رَمَى الصَّدِيقَ بِالنَّهَمِ
 بِزَوْجِهِ وَابْنِهِ فِي مَوْضِعِ الْحَرَمِ
 وَالْعُطْفُ قَدْ عَمَّهُ وَالشَّيْبُ فِي اللَّمَمِ
 وَقَائِلًا عِلْمُهُ يُغْنِي عَنِ الْكَلِمِ
 لَتُبْتَلَى ثُمَّ تُجْزَى فَارْضَ وَاسْتَتِمِ
 مُذَكَّرَاتُ الْفَنَاءِ وَاللَّحْدِ وَالْهَرَمِ
 مِمَّا يُنْغِصُهَا وَالْهَمُّ فِي الْهَمَمِ
 لَذَاتُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ
 مَجْمُوعَةٌ بِرِضَا الْمَوْلَى لِمُغْتَنِمِ
 وَاجْعَلْ لِسَانِي إلهِي ذَاكِراً بِفَمِي

١ مقتبس ، من شواهد النحو ، لا يُعرَفُ قائله ، والمقصود بالطيب هنا اللذة والارتياح ، والتنغيص :
 التكدير ، والادِّكار : التذكُّر .

١٣٣ - سبي عقلي

سبي عقلي وأحرمني منامي
سكرت بنظرة من غير شرب
كحيل العين في خديه ورّد
جميل الشكل ألقى الأنف ألقى
وجبهته وقد أرخى لثاماً
قد استحييت حين أردت لثماً
ولم أفخر بأولادي ومالي
ولي فخر بأن أحببت شيخاً
وشيئته لقد زادت حُسنًا
وقوراً كاملاً من غير عجب
أقبل رجله لو كان يرضى
تراه لخشية المولى أسيفاً
وما أحلاه تربيّة ونصحاً
يهدبني بحال قبل قال
ينهنّني عن التقوى رياء
جزاه الله عنّي كلّ خير

لطيف القد ممشوق القوام
ويفعل عشقه فعل المدام
نحيل الخصر حاجبه حسامي
كثير اللحم من فوق العظام
كبدّر قد تلقّع بالغمام
ولكن لا حياء بهذا المقام
وأجدادي ولكنّي عصامي
كبدّر طالع ليل التمام
كنور ساطع بعد الظلام
وهيئته لقد زادت هيامي
ولي شرف بتعظيم الكرام
وأذمعه دواماً بانسجام
يناديني تأدّب يا غلامي
فلا تجدي النصيحة بالكلام
ويضرب لي مثلاً بالعظام
وأجزل أجره يوم الزحام

ووفَّقَنِي وألهمَنِي مَتَاباً
وأَصْلَحَ عَلَيَّ وأَقَامَ أُمَّتِي
سَأَلْتُ اللهَ يَجْمَعُنِي وشيخي
غَرَامِي بِالَّذِي يَهْدِي لِرُشْدٍ
وليس يَضِيرُنِي التَّشْرِيبُ جَهْلًا
وَنِيْلُ الْعِلْمِ والتَّقْوَى مَرَامِي
حَرَامٌ أَنْ أَلَامَ عَلَى رَشَادٍ
عَطِشْتُ إِلَى المَعَارِفِ فِي أَوَامٍ
وَلَسْتُ تَكْبُرًا أَرْضَى بِجَهْلٍ
وَلَكِنِّي أَطَاعْتُ مُسْتَعِدًّا
خُصُوصًا والمُعَلِّمُ مِثْلُ شَيْخِي
وَإِنِّي قَانِعٌ فَمَا أَرَاهُ
سَأَبْقَى مَا حَيِّتُ عَلَى سَبِيلِي
وَتَحْصِيلُ الْعُلُومِ بَغَيْرِ تَقْوَى
يَعِيشُ الْعَالِمُونَ حَيَاةَ صَحْوٍ
إِلَهِي أَرْزُقْنِي عَيْشًا هَنِيئًا

نصوحاً خَالِصاً قَبْلَ الْحِمَامِ
وَكَفَّرَ مَا جَنَيْتُ مِنَ الْأَثَامِ
وَكُلَّ الصَّحْبِ فِي دَارِ السَّلَامِ
فَهَلْ صَحْبِي أَلَامٌ عَلَى غَرَامِي
إِذَا مَا جَاءَ مِنْ قَوْمٍ طَعَامٍ
وَهَلْ فِي الْبِرِّ أَشْرَفٌ مِنْ مَرَامِي
وَلَا يَرْضَى المِهْدَبُ بِالْحَرَامِ
وَمَاءُ الْعِلْمِ يُطْفِئُ لِي أَوَامِي^١
يُمَزَّقُ فَرَوْتِي بَيْنَ الْأَنَامِ
لَأُخَذِ الْعِلْمِ وَالتَّهْذِيبِ هَامِي
وَفَائِدَتِي عَلَى طَرَفِ الثَّمَامِ^٢
فَلَيْسَ يَهْمُنِي أَبَدًا مَلَامِي
وَأَرْجُو اللهَ عَوْنًا بِالتَّزَامِي
كَشَرِبِ الْمَاءِ بِالسُّمِّ الزُّوَامِ^٣
وَأَمَّا الْجَاهِلُونَ فَكَالْنِيَامِ
وَأَرْجُو بَعْدَهُ حُسْنَ الْخِتَامِ

١ الأوام: حرارة العطش.

٢ الثَّمَامُ عُشْبٌ طَوِيلٌ، ويقولون: هُوَ مِنْكَ عَلَى طَرَفِ الثَّمَامِ: أَي قَرِيبَ سَهْلِ التَّنَاوُلِ.

٣ مَوْتُ زَوَامٍ: عَاجِلٌ.

١٣٤ - عاذلي كُفَّ ملامي

واَمْضِ عَنِّي بِسَلامٍ	عاذلي كُفَّ ملامي
لَمْ تَذُقْ طَعْمَ الْغَرَامِ	خَلَّنِي إِنَّكَ خَلَوُ
ذَائِقُ طَيْبِ الْمَنَامِ	أَنْتَ يَا هَذَا خَلِيٍّ
رَمِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامِي	إِنَّ مَا بِي مِنْ غَرَامِ
قَدْ رَمَتْنِي بِسِهَامٍ	سَحَرُ عَيْنَيْهِ كَنَانِهِ
كَانَ مِنْ لُطْفِ الْكَلَامِ	إِنَّ مَا بِي مِنْ كِلَامِ
لَيْسَ مِنْ شَرِّ الْمَدَامِ	إِنَّ سُكْرِي فِي هَوَاهُ
عَنْهُ زَادَتْ فِي الْهَيْامِ	كُلَّمَا نَهْنَهْتُ نَفْسِي
بَانَ مِنْ فَوْقِ الْغَامِ	يَا لَهُ بَذْرٌ مِنْيرٌ
طَابَ عَيْشِي بِالتَّمَامِ	أَنَا إِنْ جَادَ بَوْضَلِ
كَحَيِّي بِاللَّثَامِ	إِنَّ بَذْرًا فَوْقَ غَنِيمِ
فَلَقَدْ زَادَ أُوَامِي	لَيْتَهُ يُحْيِي فُؤَادِي
أَمْ بِجَوْزٍ إِنْغَدَامِي	لَسْتُ أَذْرِي أَبْعَدِلِ

١ الذي في دفتر الشيخ بِحَطِّهِ: سَحَرُ عَيْنَيْهِ كَنَا، وظاهرُ أَنَّ هناك حرفُ منونٍ على الأقل قد سقطَ لسببين: الأولُ أَنَّ القصيدة من مجزوء الرَّمَل، ولا بُدَّ في هذه الشطرَةِ مِنْ حَرْفٍ منوّنٍ ليكتمِلَ الوزنُ أو حرفين ثانيهما ساكن، والثاني أَنَّ المعنى غير واضح دون إضافة حرف، ولعل المثلث هو الصواب، والله أعلم.

إِنَّنِي سَلَّمْتُ نَفْسِي
 هُوَ فِي قَلْبِي حَيَاتِي
 إِنْ أُمْتُ مِنْ غَيْرِ وَضَلِ
 لَسْتُ خَلَوْاً أَوْ حَظِيَّاً
 لَيْسَ طَيْراً أَوْ بَعِيراً
 يَا مَلِيكَ الْحَبِّ رَفَقاً
 إِنَّنِي صَبَّبْتُ مَشُوقُ
 دَمْعُ عَيْنِي سَخِينُ
 لَوْ مِنْ الْخَيْلِ عَذُولِي
 كَذْتُ أَحْظَى بِوَصَالِ
 وَاعِدُ الْوَصْلِ وَلَكِنْ
 إِنَّ خُلْفَ الْوَعْدِ طَبْعُ
 أَهْ لَوْ أَنْجَزَ وَعْدِي
 عَلَيْهِ يُسْعِفُ سُقْمِي
 لَيْسَ عَذَالِي كِرَاماً
 وَنَشِيدِي فِي يَدَاتِي

لَحِينِي كَالرَّئَامِ
 وَلَهُ طِينُ الْمَقَامِ
 لَمْ يَكُنْ تَمَّ مَرَامِي
 بَلْ شَبِيهُهُ بِالنَّعَامِ
 شَبِيهُهُ كُلُّ بَوَسَامِ
 بَعَثَ يَاقُ مُسْتَهَامِ
 وَفَوَادِي فِي اضْطِرَامِ
 فِي هُطُولٍ وَأَنْسِجَامِ
 كُنْتُ أَعْمَلْتُ لِحَامِي
 كَانَ فِي جَنْبِ الثَّمَامِ
 صَدَّهُ عَذْلُ اللَّئَامِ
 شَائِعٌ بَيْنَ الْأَنَامِ
 لَشَفَى مِنِّي سَقَامِي
 قَبْلَ أَنْ أَلْقَى جِهَامِي^١
 بَلْ مِنَ الْقَوْمِ الطَّغَامِ^٢
 عَاذِلِي كُفَّ مَلَامِي

١ الحِجَامُ: قَدَرُ الْمَوْتِ.

٢ الطَّغَامُ: الْأَوْغَادُ.

١٣٥ - سلامٌ على الدنيا

وعيشٌ خَلِيّ البَالِ عيشُ السَّوَامِ	سلامٌ على الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ هَوَى
به أَرْتَجِي فَوْزِي بِخَيْرِ الْمَغَانِمِ	تَخَيَّرْتُ فِي حُبِّي حَبِيباً مُشْرِفاً
ويصفو فؤادي مِنْ رَقِيبٍ وَلَائِمِ	أَطِيبُ بِهِ عَيْشاً وَأَحْيَا مَنْعَماً
نِفَارٌ وَإِخْلَافٌ وَجَفْوَةٌ ظَالِمِ	وَلَيْسَ بِهِ عَيْبُ الَّذِي يَعْشَقُونَهُ
حَرِيصٌ عَلَيْنَا شَافِعٌ خَيْرٌ رَاحِمِ	وَلَكِنَّهُ بَرٌّ وَصُورٌ وَمُحْسِنٌ
رَسُولٌ أَتَانَا بِالْهُدَى وَالْمَكَارِمِ	حَبِيبٌ إِلَيْهِ الْجِدْعُ حَنَّ تَشَوُّقاً
فَجَبِّي لَهُ ذُخْرِي لِيَوْمِ الْعِظَائِمِ	رَجَائِي بِأَنْ أَبْقَى مُحِبّاً وَمَوْمِناً
وَيَمْسَحُ بِالتَّقْوَى غِشَاءَ الْمَحَارِمِ	فِيَا فَوْزَ مَنْ يَهْوَى الرَّسُولَ وَيَهْتَدِي
وَأَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ أَهْلَ الْعِزَائِمِ	صَلَاةً وَتَسْلِيماً عَلَيْهِ وَآلِهِ

١٣٦ - تَمِينِ لِبَيْتِي الْبَرْدَةَ الْأَوَّلِينَ

وَكُنْتَ بَيْنَ النَّدَامَى غَيْرِ مُنْسَجِمِ	عَلَى مَحْيَاكَ لَاحَتَ لَفْحَةُ الْأَلَمِ
لَمْ يُلْهِكَ اللَّهُوْ عَنْ حُزْنٍ وَعَنْ نَدَمِ	وَلَا لِنَفْسِكَ رَاقَتْ رِقَّةُ النَّعَمِ
قَدْ كُنْتَ فِينَا وَلَمْ تَنْسَ بَيْنَتِ فَمِ	كَأَنَّ فِي الْقَلْبِ جُرْحاً غَيْرَ مَلْتَمِ
مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ	أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ

تهوى هُمُولَكَ نفسٌ غيرُ آثِمَةٍ
وإنَّها بهِواهُمُ جِدُّ ناعِمَةٍ
لأنَّها في هواها غيرُ راغِمَةٍ
أم هبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقاءِ كاظِمَةٍ
لذا لستَ تخشى لَوَمَ لائِمَةٍ
لاقتَ عَناءً وَلَكِنْ غيرُ نادِمَةٍ
هلُ هاجَها يا تُرى صوتُ لَئِمَةٍ
وأومَضَ البرقُ في الظَّلَماءِ مِنْ إَضَمِ

١٣٧ - يا ربِّ أحسن ختامي

لَئِنْ بَقِيتُ وحيداً لَيْسَ يُؤْنِسُنِي
لسوفَ أودعَ لَحْداً تحتَ أَثَرِ بَةِ
الدودُ يُخَلِّقُ مِنْ جِسْمِي ويأْكُلُهُ
وإنْ كَشَفْتَ عَلَيَّ قَبْرِي تصادِفُنِي
منها خُلِقْنَا وفيها بعدُ عودُنَا
لو أنَّنا حينَ نَفْئى لا نَعادُ إلى
لَكَانَ بِالْمَوْتِ يَشْفَى كُلُّ ذِي سَقَمٍ
لَكِنْ سَنَسأَلُ عَمَّا كانَ مِنْ عَمَلٍ
فإنَّنا نَسأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً
فَكَمْ أَفْءاءَ عَلَيْنَا مِنْ مُضاعِفَةٍ
هُوَ الرَّحِيمُ فلا تُحْصِ مَنائِحُهُ
إلاَّ الْيَراعَةُ فَوْقَ الطَّرْسِ فِي الظَّلَمِ
وإنْ صرَخْتُ فإنَّ النَّاسَ فِي صَمَمِ
والأَرْضُ تَأْكُلُ ما لا قَتَ مِنَ الرَّمَمِ
أَمْسَيْتُ كَلِّي تراباً عُدْتُ لِلْقَدَمِ
وسوفَ نُخْرِجُ بَعْدَ المَوْتِ والعَدَمِ
يَوْمَ الحِسابِ بِذاكَ المَوْقِفِ العَمَمِ
وصاحِبُ الهَمِّ يَنْجُو مِنْ لَظَى العُمَمِ
وَسِرِّ قَلْبٍ وَعَنْ هَمَزٍ وَعَنْ كَلِمِ
وأنْ يَعامِلَنا بِاللُّطْفِ وَالكَرَمِ
مِنَ النَّعِيمِ وَكَمْ أَوْلَى مِنَ النِّعَمِ
وَعَفْوَهِ سَابِقِ التَّعْذِيبِ وَالنِّقَمِ

١ الهُمُولُ: سيلان الدَّمْعِ بِشِدَّةٍ.

وَاکْتُبْ سَعَادَتَنَا بِاللُّوحِ وَالْقَلَمِ
 طَرَقْتُ بِابِكَ فِي تَوْبٍ وَفِي نَدَمٍ
 أَنْتَ الْغَنِيُّ عَنِ التَّعْذِيبِ وَالْأَلَمِ
 لَا فَرْقَ فِي الْعَفْوِ بَيْنَ الْكِبَرِ وَاللَّيْمِ
 مِمَّا اعْتَرَاهُ بِجَاهِ الْمَفْرَدِ الْعَلَمِ
 مُحَمَّدٍ صَاحِبِ الْآيَاتِ وَالْحُكَمِ
 وَإِلَيْهِ وَجَّعِ الصَّحْبِ كُلَّهُم

يَا رَبِّ أَحْسِنْ خَتَامِي أَنْتَ ذُو كَرَمٍ
 إِنِّي فَقِيرٌ مُسِيءٌ مُفْلِسٌ وَجِلٌّ
 أَنْتَ الْغَنِيُّ فَلَا تَفْنَى خَزَائِنُهُ
 إِنَّ الذُّنُوبَ مَعَ الْغُفْرَانِ فَايِنُهُ
 قَلْبِي مَرِيضٌ فَأَرْجُو أَنْ تَعَافِيَهُ
 هَبْنِي شِفَاعَةً مَنْ تُرْجَى شِفَاعَتُهُ
 يَا رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ مَا جَرَى نَفْسٌ

١٣٨ - لَا تَنْسَ لِحَدِّكَ مُغْتَرًّا

تَأْتِي الْمَنِيَّةُ أَخْيَانًا بِلَا سَقَمٍ
 إِنْذَارِ ذِي غَفْلَةٍ يَلْتَذُّ بِالْحُلُمِ
 وَفَيْلَسُوفٍ وَكَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ نَسَمٍ
 وَكِبْرِيَاءٍ وَقَدْ صَارُوا مِنْ الرَّمَمِ
 ظَنُّوا الْخُلُودَ وَقَدْ آلَوْا إِلَى الْعَدَمِ
 حَاشَا يَزِيدُ عَلَى الْمَكْتُوبِ فِي الْقِدَمِ
 مِنَ الْقُرُونِ وَمَا أَجْرَاهُ فِي الْأُمَمِ
 فَلَنْتَعِظَ بِمَعَانِي أَصْدَقِ الْكَلِمِ

لَا تَنْسَ لِحَدِّكَ مُغْتَرًّا بِذِي النِّعَمِ
 كَذَلِكَ السُّقْمُ يَأْتِي لِلصَّحِيحِ بِلَا
 يَا أَيُّهَا الْأَرْضُ كَمْ أَهْلَكْتَ مِنْ مَلِكٍ
 كَانُوا يَجُولُونَ فَوْقَ الْأَرْضِ فِي تَرْفٍ
 كَمْ عُمِّرُوا وَبَنَوْا بَلْ كَمْ طَغَوْا وَبَغَوْا
 نَحْيَا كَمَا قَدَّرَ الْخَلْقُ مِنْ عُمُرٍ
 كَمْ أَوْضَحَ اللَّهُ فِي آيَاتِهِ مَثَلًا
 يَا إِخْوَتَاهُ أَلْسَنَا مِثْلَهُمْ بَشَرًا

إِنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَكْفِيهِ مَوْعِظَةٌ
 نَهَتْهُ نَفْسِي عَنِ الْعِصْيَانِ مُرْتَجِيًا
 كَمْ نَسَمِعُ النَّعْيَ لِلْأَمْوَاتِ يُنْذِرُنَا
 يَا رَبُّ إِنِّي ضَعِيفٌ أَنْتَ تَعْلَمُنِي
 أَحْسِنْ خِتَامِي إِلَهِي أَنْتَ تَرْحَمُنِي
 لَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ إِلَّا عَوْنُ سَيِّدِهِ
 وَاجْعَلْ شَفِيعِي رَسُولَ اللَّهِ يَا أَمَلِي
 عَلَيَّ أَفُوزُ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ غَدًا
 بِالْمَوْتِ قَبْلَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ^١
 عَوْنَ إِلَهِ عَلَيْهَا مُلْقِي السَّلَامِ
 وَنَحْنُ عَنْ كُلِّ هَذَا الْوَعْظِ فِي صَمَمٍ
 رُحَاكَ أَرْجُو وَلَا أَرْجُو مِنَ الرَّحِمِ
 مَالِي سِوَاكَ فَفَرِّجْ مُظْلِمَ الْغَمِّ^٢
 أَحْسِنْ مَتَابِي فِي بَدْءٍ وَفِي خَتَمٍ
 يَوْمَ التَّغَابُنِ وَالْمَجْمُوعِ فِي وَجَمٍ
 وَنَجِّنِي مِنْ لَظَى يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ

١٣٩ - اللَّهُ دُرُّكَ صَالِحًا^٣

اللَّهُ دُرُّكَ صَالِحًا مُتَوَاضِعًا
 تَرْتَادُ مَجْمَعَ كُلِّ خَيْرٍ ثَابِتًا
 لَا تَبْتَغِي فِيمَا تُخَلِّدُ سَمْعَةً
 وَلَقَدْ عَرَفْتُكَ زَاهِدًا إِلَّا بِمَا
 عَفَا عَزِيزًا مُحْسِنًا يَتَكَلَّمُ
 تُصْغِي بِحُسْنِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُمٍ
 فَارْفُلُ بِثَوْبِ الْعَارِفِ الْمُتَعَلِّمِ
 يُدْنِيكَ مِنْ حُبِّ إِلَهِ الْأَكْرَمِ

١ الْعَمَمُ: العام.

٢ الْغَمُّ: جمع غُمَّة: الغم والكرب.

٣ لَأَخٍ - رحمه الله - صالح عفيف فقير قَدَمَ لي مبلغاً بسيطاً من المال فكافأته بأكثر. [المصدر الثاني]

فَقَبِلْتُهُ بِالشُّكْرِ أَطْيَبِ مَغْنَمٍ	قَدَّمْتَ لِي مَا لَيْسَ لِي طَمَعٌ بِهِ
لِلْيَمْنِ دَرَاهِمُهُ بِأَلْفِي دَرَاهِمٍ	وَحَفِظْتُهُ بَيْنَ الثُّقُودِ بَظَرَفِهِ
رَدُّ عَلَى الْمَوْلَى الْكَرِيمِ الْمُنْعَمِ	مَا سِيقَ دُونَ تَعَرُّضٍ فِإِبَاؤُهُ
بِالطَّبْعِ لَا مُسْتَكْثِرٍ وَمُذَمَّمٍ	لَا سِيماً مِنْ مَخْلَصٍ مُتَفَضِّلٍ
فِي وُدِّهِ وَالْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ	فَاقْبَلْ هُدَيْتَ هَدِيَّةً مِنْ صَادِقٍ
أَضْعَافَ مَا تَخْتَارُهُ مِنْ أَنْعَمِ	جَازَاكَ مَوْلَانَا الْحَمِيدُ بِمَنْنِهِ

١٤٠ - يَا سَلُوتِي عَنْ هُمُومِي

وَأَنْتَ أَكْبَرُ هَمِِّي	يَا سَلُوتِي عَنْ هُمُومِي
مِنْ بَيْنِ سَائِرِ قَوْمِي	لَقَدْ شَغَلْتَ فُؤَادِي
مِنْ فَرْطِ صَدِّ وَلَوْمْ	رَفَقاً بِصَبِّ نَحِيلٍ
الشَّهْدُ مِنْ بَيْنِ سُمَّ	لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرّاً
عَلَى رِضَاءٍ وَعِلْمٍ	إِنِّي وَهَيْتُكَ رُوحِي
فَوَراً أَصِيبْتُ بِسَهْمٍ	لَمَّا مَحْتُوكَ تَرَنُوءِ
كَالْأَكْلِ مِنْ غَيْرِ طَعْمٍ	الْحُبُّ مِنْ غَيْرِ جُهِدٍ

حرف النون

١٤١ - تَاهَبُ لِلرَّحِيلِ

تَاهَبُ لِلرَّحِيلِ وَلَا تَوَانِي	فَإِبَّانُ الرَّحِيلِ أَظُنُّ أَنَا
وَتُبُّ مِمَّا مَضَى تَوْبًا نَصُوحًا	تَجِدُكَ عَلَى هُدَى التَّقْوَى مُعَانَا
وَبَادِرُ وَاسْتَعِينِ بِاللَّهِ حَقًّا	فَنِعْمَ اللَّهُ رَبُّكَ مُسْتَعَانَا
إِذَا مَا خِفْتَ عُقْبَى الدَّارِ فَارْجِعْ	إِلَى مَوْلَاكَ كَيْ تَجِدَ الْأَمَانَا
وَعَجَّلْ فَاَلْمَنُونَ لَهَا سِهَامٌ	تُصَوِّبُهَا إِلَيْكَ فَلَا تَوَانِي
فَإِنْ أَخْطَاكَ سَهْمٌ فِي زَمَانٍ	يُصِيبُكَ سِوَاهُ لَا وَزَرَ زَمَانَا
وَلَمْ يُكْتَبْ لِلْإِنْسَانِ خُلُودٌ	وَلَوْ عَشْنَا لَمَانِلْنَا مُنَانَا
تَعَالَى اللَّهُ لَا يَبْقَى سِوَاهُ	خُلِقْنَا لِلتُّرَابِ كَمُبْتَدَانَا
وَمَنْ عَادُوا تُرَابًا هُمْ كَثِيرٌ	سَتَأْكُلُنَا التِّي أَكَلَتْ سِوَانَا

فَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَقَاءٌ
وَكَمْ مِنْ مَيِّتٍ مِنْ غَيْرِ دَاءٍ
فَلَا تَعْقُلْ فَتَفْجَأُكَ الْمَنَايَا
نَظْنُ الْمَوْتِ يَعْنِي مَنْ عَدَانَا
وَلَيْسَ بِمُخْلِفٍ لِلْمَوْتِ حِرْزٌ
سَنَذْهَبُ مُفْلِسِينَ كَمَا أَتَيْنَا
عَلَى أَرْوَاحِنَا تَعْدُو الْمَنَايَا
عَلَى مَا قَدَّرَ الدَّيَّانُ نَمْضِي
فِيَّ مَا عِزَّةٌ نَلْقَى وَفَوْزاً
سَنَعْمَلُ لِلسَّعَادَةِ مَا اسْتَطَعْنَا
وَنَسْأَلُ رَبَّنَا مَدَداً وَعَوْناً
دَعْوَانَاهُ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدٌ
وَلَيْسَ لَنَا سِوَى الْغُفْرَانِ مُنْجٍ
إِذَا فُزْنَا بِمَغْفِرَةٍ وَعَوْنٍ

وَمَا مِنْهَا نَفَوزٌ بِمُبْتَغَانَا
وَلَمْ تَشْهَدْ حُرُوباً أَوْ طِعَانَا
وَكَمْ جَلَدٍ بِثَانِيَتَيْنِ لَنَا
رُبَّ بَفْجَاءَةٍ حِيناً عَنَانَا
وَلَا يُغْنِي الطَّيِّبُ وَلَا دَوَانَا
وَنَتْرُكُ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أَتَانَا
إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ فَمَا عَدَانَا
وَلَيْسَ الْأَمْرُ مَا يَهْوَى هَوَانَا
وَأَمَّا - عُدْتُ - أَنْ نَلْقَى هَوَانَا
عَسَاهُ يَكُونُ مَاوَانَا الْجِنَانَا
رَجَوْنَاهُ فَلَا يَقْطَعُ رَجَانَا
وَنَرْجُو أَنْ يُجِيبَ لَنَا دُعَانَا
تَعَالَى اللَّهُ نَسْأَلُهُ حَنَانَا
وَجُنَّبْنَا الْعَذَابَ فِيهَا هَنَانَا

١٤٢ - جفَّ ريق اليراع^١

جفَّ ريق اليراعِ فاختنقَ الشَّعْـ
 عِلَّ حَبْرًا يَمُدُّهُ بِمِدَادٍ
 يَصِفُ الشَّاعِرُ الكُـمَاءَ فَيُوجِي
 وَإِذَا لَطَفَ النَّسِيبَ أَرَانَا
 وَإِذَا مَا هَجَا ظَنَنْتَ عِدَاهُ
 فَعَسَى شَاعِرٌ يُخَفِّفُ عَنِّي
 يَصِفُ السَّجْنَ خَلْوَةً لِمُرِيدٍ
 وَالَّذِي نَحْنُ فِيهِ فِي ظَاهِرِ الأَمْرِ
 أَمْ كُلُّنَا رَدَدَتْ شِعْرَ شَوْقِي
 وَالْجَمَاعَاتُ فِي ابْتِهَاجٍ أَصَاخُوا
 كُلُّ هَذَا فِي سَاحَةِ الدَّارِ أَمَّا
 وَإِذَا رُمْتَ أَنْ تُكَلِّمَ فَرْدًا
 هُمْ أَرَادُوا اصْطِيَادَنَا بِاحْتِيَالٍ
 فَفَرَّانَا بِمَكْرِهِ وَشَكَّكْنَا
 وَمَكَّنَا مَا شَاءَ رَبِّي وَقُلْنَا
 قَدْ رَغَتِ نَفْسُنَا فَأَرْجُوكَ رَبِّي
 رُبِّ صَدْرِي فَأَخَذَتْ الْخَفَقَانَا
 كَمْ قَرِيبٌ يُقَرِّضُ الْأَحْزَانَا
 أَنَّهُ النَّصْرُ كَانَتْ مَا كَانَا
 جَنَّتَيْنَا وَالْحَوْرَ وَالْوَلَدَانَا
 جُرْبُ أَجْرٍ قَدْ اكْتَسَتْ قِرْدَانَا^٢
 فَيُجِيدُ التَّخْوِيلَ وَالْإِفْتِنَانَا
 عَيْنَ اللَّهِ شَيْخَهُ السَّجَّانَا
 رَحِيَّةٌ قَدْ أَشْبَهَتْ مَوْتَانَا
 وَفَرِيدٌ مُغَايِلٌ أَسْمَهَانَا
 وَأَدَارُوا كَوْوَسَهُمُ الْوَانَا
 نَحْنُ خُلِيٌّ فَمُظْلِمٌ مَا حَوَانَا
 بَيْنَ عَيْنِهِ قَدْ لَوَى خَيْرَانَا
 وَخِدَاعٍ فَأَرْسَلُوا شَاهِينَا
 ثُمَّ سَرْنَا وَقَدْ أَلَّنَا الْعِنَانَا
 غَالِبٌ عُسْرُنَا غَدًا يُسْرَانَا
 فَرَجَاءٌ عَاجِلًا لَنَا وَأَمَانَا

١ من وحي السجن، يقول الشيخ: ولما جفَّ القلم سقيته بعض ماء، وكتبت هذه:

٢ الجرب جمع جراب: وعاء الزاد، أجر جمع جرو: الكلب الصغير، والقردان: جمع القرد، دويبة

متطفلة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور.

١٤٣ - ألقى اللثام وحيانا

أَلْقَى اللِّثَامَ وَحَيَّانَا فَأَحْيَانَا
فَقُمْتُ مِنْ فَرْطِ وَجْدِي كَيْ أَصَافِحَهُ
لَوْ كَانَ جَفْنَايَ رَتْقًا مَا فَتَقْتُهَا
مَنْ كَانَ فِي النَّوْمِ مَسْرُورًا بِمَشْهَدِهِ
يَا رَبِّ نَظْرَةً مَنْ أَهْوَاهُ فِي سِنَةٍ
لَا تُنْكِرُوا لَهْفِي وَالشَّوْقُ أَرَقَّنِي
الْوَجْهَ مِنْهُ كَبَدْرٍ تَمَّ مَطْلَعُهُ
فِي خَدِّهِ وَرَدَّةٌ لَيْسَتْ بِذَابِلَةٍ
فِي جِيدِهِ صَيْدٌ يَرُنُّو بِمُقْلَتِهِ
هَلْ حُبُّهَا هُوَ ذَنْبٌ وَالهَوَى قَدَرٌ
إِنَّ الْمَوَدَّةَ قُرْبٌ وَهِيَ مَكْرُمَةٌ
لَا نَبْتَغِي مِنْهُ غَيْرَ الْوَصْلِ فِي مَقَةٍ
لَيْسَ الْغَرَامُ بَدَاءٍ اسْتَطَبَّ لَهُ

تُحْيِي التَّحَايَا ظِهَاءَ الْوَجْدِ أَحْيَانَا
فَوْرًا وَإِذْ بَانَ أَنِّي كُنْتُ وَسْنَانَا
عَلِيَّ أَتَابِعُ هَذَا الْحُلْمَ نَشْوَانَا
مَنْ يَمْلِكُ الْقَلْبَ مِنْهُ كَانَ يَقْظَانَا
أَلَدٌ مِنْ سَنَةٍ أَصْحُو إِذَا بَانَا
قَدْ بَانَ عَنِّي طَوِيلًا لَيْتَهُ بَانَا
وَقَدُّهُ فِي التَّشْيِ مُشْبِهٌ بَانَا
لَكِنَّهَا أَذْبَلَتْ طَرْفًا وَأَجْفَانَا
وَاللَّهُ أَعْطَى عَيُونََ الطَّبَّيِّ إِنْسَانَا^١
فَمَا الَّذِي قَدْ جَنَيْنَاهُ فَجَافَانَا
يَا لَيْتَهُ بِصَفَاءِ الْحُبِّ أَصْفَانَا
فِيهِ سَعَادَةُ دُنْيَانَا وَأُخْرَانَا^٢
لَكِنِّي سَائِلٌ عَطْفًا وَتَحْنَانَا

١ الحيد: العنق، والصَّيْدُ: داءٌ بالعنق لا يستطيع أن يلتفت معه، ويُقال: مَلِكٌ أَصِيدٌ: لا يلتفت من

زهوه وكبره .

٢ المقة: الحب.

أَظْلُّ أَدْعُو مُلِحَّاً رَاجِياً أَبَداً
 إِنَّ الرَّجَاءَ وَصَالَ لَسْتُ أَقْطَعُهُ
 اسْتَمْنِجُ اللَّهَ صَبْراً وَالثَّبَاتَ عَلَى
 إِنِّي خَبِيرٌ بِطَعْمِ الْحَبِّ ذَائِقُهُ
 لَيْتَ الَّذِينَ يَلُومُونِي عَلَى مِقَّتِي
 الصَّبْرُ مُرٌّ وَآمَالِي مُعَسَّلَةٌ
 مَنْ عَاشَ مِنْ غَيْرِ حُبِّ هُمَّةٍ أَبَداً
 مَنْ لَازَمَ الْقَرْعَ نَالَ الْإِذْنَ إِذَا
 وَاللَّهُ خَصَّصَ لِلْإِسْعَادِ إِبَانَا
 مَا قَدْ هَدَانِي إِلَيْهِ جَلَّ مَوْلَانَا
 أَمْضَيْتُ فِي الْحَبِّ أَحْوالاً وَأَزْمَانَا
 يُجَرَّبُونَ عَسَى يُمَسُونَ أَعْوَانَا
 قَدْ ذُقْتُ فِي الْحَبِّ أَشْكَالاً وَأَلْوَانَا
 أَكُلْتُ وَشَرَبْتُ وَنَوْمُ عَاشٍ حَيَوَانَا

١٤٤ - في ذمة الرحمن^١

لَبَّتِ نِدَاءَ إِلَهْهَا وَجَدَانُ
 اللَّهُ يَرْحُمُهَا وَيَحْفَظُ زَوْجَهَا
 بِرِعايَةِ الرَّحْمَنِ مَنْ قَدْ خَلَفَتْ
 كَانَتْ وَدُوداً لِلْجَمِيعِ بِشَوْشَةٍ
 يَا طِيبَ مَعْشَرِهَا وَحُسْنَ وَفَائِهَا
 فَاسْتَحْكَمَتْ مِنْ بَعْدِهَا الْأَحْزَانُ
 وَكَذَلِكَ الْأَخَوَاتُ وَالْإِخْوَانُ
 بَيْنَهُنَّ هُمُ وَثَلَاثَةُ صَبِيَانُ
 حَتَّى وَلَمَّا جَاءَهَا الْمَوْتَانُ
 لَمْ يَبْتَئِسْ مِنْ خُلُقِهَا إِنْسَانُ

١ في رثاءِ ابنته وجدان.

عاشت وسيماها الصّلاح وعِفَّةُ
 أرَضتُ معارفَها وأرَضتُ ربَّها
 أرجو لها عندَ الإلهِ كرامةً
 هذا وأرجو أنْ نفُوزَ جميعُنا
 فهنالِكَ الفوزُ الكَبيرُ وعيشُنا
 مِنّا المَعمرُ والفناءُ مَصيرُهُ
 أمّا فقيدُنا فعاشتِ سِتَّةَ
 جاءَتْ تودِّعُني وغابَتْ مُدَّةَ
 كُنّا نعلَلُ نفْسَنا بِشِفائِها
 فقَضَتْ وفي قَلْبِي عليها حَسْرَةٌ
 لكنّني استَرَجَعْتُ أرَضِي بالقَضَا
 صَبْرٌ جَميلٌ كُنّا لمصيرِها
 تَرَكْتُ لَدَيْنَا ذِكْرِيَّاتٍ خُلِدَتْ
 وإلى اللقا في ظِلِّ عَرْشِ إلهنا
 لا شَكَّ أَنّا مُذنبُونَ جميعُنا
 إِنّا نقولُ مودِّعِينَ مَعَ الأَسَى

وعلى كرامةِ ربِّها التَّكْلانُ
 فَعسى لَذاكَ يَعْمُّها الرِّضْوانُ
 ولها مِنَ المولى الكَرِيمِ جِنانُ
 بِجِنانٍ خُلِدَ زانِها الدِّيانُ
 في هَذِهِ الدُّنْيا بِهِ الأَدْرانُ
 مَهما حوى أو طالَتِ الأَزمانُ
 وثلاثَ عَشْرَاتٍ بِها إِحْسانُ
 عَن وَعِها وَجِيعُنا يَقْظانُ
 فاخْتارَها لِجِوارِهِ الرَّحْمَنُ
 واشْتَدَّتِ الأَلامُ والأَشْجانُ
 عَزَّانِي الأَهْلُوانَ والجيرانُ
 ومَصيرُها عِنْدَ الإلهِ جِنانُ
 حاشا يُنْسِي ذِكْرَها السَّلْوانُ
 نرجو الرِّحيمَ وَكُنّا رَجْوانُ
 لَكِنْ عَساهُ يَعمُنّا الغُفْرانُ
 في ذِمَّةِ الرَّحْمَنِ يا وَجْدانُ

١٤٥ - ذكرى المولد

ذِكْرِي وَلَادَةِ سَيِّدِ الْأَكْوَانِ
 وَالشُّكْرُ لِلْخَلَّاقِ أَوَّلُ وَاجِبِ
 فَإِذَا نَسِيتَ مِنَ الْمُنْعَمِ بَعْضَهَا
 وَانْظُرْ تَبَارَكَ إِسْمُ رَبِّكَ بَعْدَهَا
 أَفَلَا يَحِقُّ بِأَصْلٍ كُلِّ مُكَوَّنِ
 وَلَأَجْلِهِ خُلِقَ الْعَمُومُ وَلَمْ يَكُنْ
 مِنْ نُورِهِ كُلِّ مُحَاسِنٍ أَشْرَقَتْ
 إِذَا جُفَاءَ الْعُرْبِ سَمَّوْا عَامَهُ
 وَرَأَوْا مِنْ الْإِرْهَاصِ مَا لَوْ وَفَّقُوا
 هَذَا نِسَاؤُهُمْ حَمَلْنَ كَرَامَةً
 وَالنَّارُ نَارُ الْفَرَسِ تُعْبَدُ أَخْمَدَتْ
 وَكَذَا بَحِيرَةٌ سَاوَةٌ قِيلَ ابْلَعِي
 حَتَّى وَلَمْ يُتْرَكْ سَرِيرُ مُمْلَكِ
 أَوْ مَا هَدَانَا بَعْدَ طُولِ جَهَالَةٍ
 هَذَا أَبُو هَبٍ يُخَفِّفُ يَوْمُهُ

شُكْرٌ لِنِعْمَةِ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ
 وَبِهِ صَرِيحُ الْأَمْرِ فِي الْقُرْآنِ
 فَادْكُرْ مِثْلِي سُورَةَ الرَّحْمَنِ
 نَادَى الْجَمِيعَ بِأَيِّهَا الثَّقَلَانِ
 أَنْ يُقْتَدَى بِالنَّفْسِ وَالْأَنْثَمَانِ
 لَوْلَاهُ وَمُضُّ الْبَرْقِ وَالْقَمَرَانِ
 حَتَّى خِيَامُ الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ
 عَامَ ابْتِهَاجِ النَّفْسِ بِالْإِحْسَانِ
 لِلْفَوْزِ لاسْتَهْمُوا عَلَى الْإِيمَانِ
 لَوْلَادَةٍ بِأَكْرَامِ الذُّكْرَانِ
 مُذْ ذَبَّ دَاءُ الصَّدْعِ بِالْإِيْوَانِ
 مَا فَيْكَ مِنْ مَاءٍ بَغِيرِ تَوَانِ
 إِلَّا وَنُكَّسَ بِأَدْيِ الْخِذْلَانِ
 وَغَوَايَةِ وَالْعِلْمِ فَضْلُ ثَانِي
 لِلْحَفْلِ فِيهِ مِنْ أَدَى النَّيرَانِ

١٤٦ - يا إلهي^١

وَبِأَيِّ الْجِهَاتِ وَهُوَ يَرَانِي
وَمَكَانِي مِنْ مَلِكِهِ وَزَمَانِي
وَحَبَانِي مِنْ فَضْلِهِ وَغَذَانِي
مَنْ إِذَا شَاءَ فِي الْعَذَابِ رَمَانِي
فَإِذَا مَا انْقَضَتْ حَيَاتِي طَوَانِي
أَعْرِفَ الْخَالِقَ الَّذِي أَحْيَانِي
اسْتَحَقَّ النَّعِيمَ ضَمَنْ الْجَنَانِ
بِلِبَاسِ التَّقَى مِنَ النَّيِّرَانِ
وَهُوَ قَدْ أَلْهَمَ الدُّعَاءَ لِسَانِي
فَهُوَ يَقْضِي بِالرَّبِّحِ وَالْخُسْرَانِ
بِمَتَابٍ يُحَاطُ بِالْغُفْرَانِ
وَأَغْنِنِي مِنْ عَادِيَاتِ الزَّمَانِ
وَرَمْتَنِي كَفُّ الْهَوَىٰ بِالْهَوَانِ
كَسَبَتْهَا فَكَيْفَ فَكُّ الرِّهَانِ

كَيْفَ أَغْصِي الْإِلَهَ وَهُوَ بَرَانِي
أَفْأَعِصِيهِ وَهُوَ مَالِكُ أَمْرِي
أَفْأَعِصِي بِأَنْعُمٍ جَادَ فِيهَا
وَإِذَا مِتُّ عَاصِيًا كَيْفَ أُلْقَى
أَنَا فَوْقَ التُّرَابِ أَسْمَى تُرَاباً
مَدَّنِي بِالْحَيَاةِ وَالْعَقْلِ حَتَّى
وَأُودِّيهِ وَاجِبَ الشُّكْرِ كَيْمَا
وَيَقِينِي بِأَنَّهُ سَيَقِينِي
هُوَ رَبِّي أَلْقَى الرَّجَاءَ بِقَلْبِي
حَسْبِيَ اللَّهُ حَافِظاً وَمُعِيناً
يَا إلهي يَا غَافِرَ الذَّنْبِ جُدْ لِي
لَا تُمَكِّنْ وَسَاوِسَ النَّفْسِ مِنِّي
أَنَا عَبْدٌ أَسَأْتُ طَوْلَ حَيَاتِي
كُلُّ نَفْسٍ رَهِينَةٌ بِذُنُوبٍ

١ كَتَبَ لَهَا فِي الْمَصْدَرِ الثَّالِثِ مُطْلَعاً هُوَ :

قَدْ كَفَّتَنِي وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ

أَيُّهَا النَّفْسُ وَالْهَوَىٰ خَلِّيَانِي

وَبِتَّقُواكَ خَالِقِي أَتَقْوَى	فَأَنْزِرْ بِالتَّقَى كُھُوفَ جَنَانِي
وَلَعَلِّي أَفْوزُ يَوْمَ التَّلَاقِي	يَوْمَ تَعْنُو الوجوهَ لِلرَّحْمَنِ
وَتَلَطَّفَ بِحَقِّ خَيْرِ رُسُولٍ	وَقِنِّي حَرَّ لَفْحَةِ النَّيرانِ
وَاجْعَلِ الْمُصْطَفَى شَفِيعاً لَعَلِّي	بِوِدَادِي أَعْمُ بِالْإِحْسَانِ
شُكْرُهُ وَاجِبٌ عَلَى مَا هَدَانَا	وَجَزَاءُ الْإِحْسَانِ بِالْإِحْسَانِ
صَلَوَاتُ تَتْرَى وَأَزْكَى سَلَامٍ	مِنْ إلهي عَلَيْهِ فِي كُلِّ آنٍ
أَبْدَلاً لَا أَكُونُ مِثْلَ لُئِيمٍ	بِالْ بَعْدَ الطَّعَامِ فَوْقَ الْخَوَانِ
أَوْ يُعَلِّي سَيْفَهُ بِوَجْهِهِ كَرِيمٍ	قَلَدَ السَّيْفِ خَيْفَةَ الْعُدْوَانِ

١٤٧ - زَيْنِ الدِّينِ بِالْحِجَابِ

لَا تَسَاوِي مَصَالِحُ الْأَبْدَانِ	فِي اعْتِقَادِي شَرَائِعَ الْأَدْيَانِ
كَيْفَ وَالشَّرْعُ مِنْ صَحَائِفِ عَرْشٍ	وَفُرُوجِ مَخَارِجِ الْأَبْدَانِ
حَافِظُ الشَّرْعِ رَبُّنَا جَلَّ ذِكْرُ	وَمَالُ الْأَجْسَامِ لِلدِّيْدَانِ
فَزَيْنِ الدِّينِ بِالْحِجَابِ طِبُّ	فَكَمَالِ الْإِنْسَانِ بِالْمِيزَانِ
تَحِيدِ الدِّينَ رَاجِحاً وَهُوَ طِبُّ	طِبُّ حُبِّ لِلرُّوحِ وَالْجُثْمَانِ
لَمْ يَدْعُ مَصْرَعاً مِنَ السُّوءِ إِلَّا	وَنَهَى عَنْهُ مُنْزِلُ الْقُرْآنِ
قَدْ سَقَى سَائِعِ الدَّوَاءِ إِذَا سَأَنَا	وَأَبَانَ الْأَدْوَاءَ لِلْإِنْسَانِ

١ المقارنة بين علمي الأبدان والأديان. [المصدر الرابع]

رَامَ مِنَّا الصَّلَاةَ فِي كُلِّ يَوْمٍ
وَكَلَا الْوَاجِبِينَ طِبُّ عَمِيقٌ
سَاسَ إِذْ عَلَّمَ السِّيَاسَةَ وَاللُّطُ
حَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْغَزْوِ جَمْعًا
فَضَّلَ الْجَمْعَ وَالتَّعَاوُنَ لَمَّا
إِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنَابَاتُ قُصَاةً
أَوْجَبَ السَّمْعَ وَالْإِطَاعَةَ لِلرَّأِ
فَكَّرُوا فِي الصُّفُوفِ خَلْفَ إِمَامٍ
يَتَّبِعُونَ الْإِمَامَ فِي كُلِّ فِعْلٍ
وَإِذَا نَابَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ
أَوْجَبَ الْخُطْبَتَيْنِ فِي كُلِّ سَبْعٍ
لَمْ يُجَزْ فِيهِمَا الصَّلَاةُ فَرَادَى
مَنْ يَفْتُهُ الصَّيَامُ وَالْحُجُّ عُذْرًا
أَمَرَ الْكُلَّ بِالْمُؤَاسَاةِ عَدْلًا
أَرْشَدَ الْمُعْزِزِينَ لِلصَّبْرِ أَجْرًا
جَلَّ مَنْ قَسَمَ الْمَعَاشَ لِلنَّاسِ
فَغَنِيٌّ وَبَائِسٌ وَضَعِيفٌ
وَعَبِيٌّ وَعَاقِلٌ وَطَوِيلٌ
وَهَلَالُ الضِّيَا وَأَسْوَدُ فَحْمٍ
وَجَمِيلٌ فِي خَلْقِهِ وَقَبِيحٌ
وَبَصِيرٌ عُمْرٍ وَنُصْفٌ بَصِيرٍ

وَأَمَرْنَا بِالصَّوْمِ فِي رَمَضَانَ
وَحَيَّى مِنْ مَهَامِهِ الطُّغْيَانَ
سَفَّ مَعٍ وَضَوَّحَ الْمَعَانِي
كُلَّ عَامٍ كَحَجَّتِهِمْ لِمَكَانٍ
شَبَّهَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبُيُوتِ
سَاءَ قَرْنًا مُقَارِنُ الشَّيْطَانِ
عَيَّ وَإِنْ كَانَ أَحَقَرَ السُّودَانِ
كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا بِكُلِّ أَوَانٍ
لَيْسَ وَهْنًا بَلْ طَاعَةُ الدِّيَّانِ
خَطَبَ الْقَوْمَ فِي رِيَاضِ الْجَنَانِ
قَبْلَ ظَهْرِ لِكِنِّهَا رَكَعَتَانِ
أَوْ هَوَى لَا لِحَاجَةِ مَسْجِدَانِ
لَمْ تَقْتَهُ الصَّلَاةُ وَالْعِيدَانِ
وَجَزَاءُ الْإِحْسَانِ بِالْإِحْسَانِ
سَيُوقَوْنَهُ بِأَلْحُسْبَانِ
سِ كَقَسَمِ الْعُقُولِ وَالْأَلْوَانِ
وَبَيْسٌ مِنْ أَعْظَمِ الشُّجْعَانِ
وَحَقِيرُ السَّاقِينَ لِلْأَرْضِ دَانٍ
وَأَصْفَرُ فَاقِعٍ وَأَحْمَرُ قَانٍ
وَعَبِيٌّ وَذَا عَلِيمُ اللِّسَانِ
وَذَكِيٌّ لَكِنْ مِنَ الْعُمَيَّانِ

كُلُّ هَذَا الْخِلَافِ فِي النَّاسِ مَوْجُودٌ
 مَا هُوَ الظُّلْمُ مَا هُوَ الْعَدْلُ فِينَا
 مَنَعُ حَقٌّ مِنْ مُسْتَحِقِّهِ بِالْكَسْبِ
 فَاضْطِرَّافُ السَّوَى بِمِلْكٍ سِوَاهُ
 أَفَلَيْلَهُ يُنْسَبُ الظُّلْمُ حَاشَا
 حَرَّمَ الظُّلْمَ إِذْ دَعَا يَا عِبَادِي
 خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ابْتِلَاءً
 ذَرَأَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِلصَّبْرِ
 لَيْسَ لِلْهَمِّ وَالْأَسَى كَاضْطِرَّافٍ
 مَنْ يَقْتُلُهُ السُّلُوءُ عَنْ كُلِّ ضَرٍّ
 إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ بِأَمْرٍ بِالصَّبْرِ
 فَإِذَا آمَنَ الْخَلَائِقُ طُورًا
 كُلُّ شَيْءٍ أَتَى بِهِ الدِّينُ فَالْحُكْمُ
 هَلْ يَفِي الدِّينَ بَعْضُ آيَاتِ شَعْرِ
 شَهِدَ الْكَافِرُونَ لِلدِّينِ بِالْفَضْلِ
 إِنَّمَا الْفَضْلُ مَا أَقَرَّتْ بِهِ الْأَعْيُنُ
 أَوْلَيْسَ الْجَدِيرُ بِالْشَّرْعِ أَنْ يَعْرِ
 يَوْمَ يَبْقَى إِلَهُهُ وَالِدَيْنِ لِلْفَضْلِ
 مَنْ حَمِيمٌ مَنْ شَافِعٌ وَمُجِيرٌ
 ثَبَّتِ الْقُلُوبَ يَا رَحِيمٌ عَلَى الدِّينِ

دَمِنَ الْعَدْلُ أَمْ مِنْ الْعُدْوَانِ
 إِنَّمَا الظُّلْمُ عِنْدَنَا قِسْمَانِ
 سَبِّ فَذَا وَاحِدٌ وَأَمَّا الثَّانِي
 دُونَ حَقٍّ كَمَا بَغَى الْخَصْمَانِ
 وَهُوَ الْعَدْلُ مُنْشِئُ الْأَكْوَانِ
 مِنْ زَمَانٍ وَكَانَ قَبْلَ الزَّمَانِ
 فَحَيَاتَانِ قَبْلَهَا مَوْتَتَانِ
 رَأَوْا الشُّكْرَ تَلَكُّمَا نُسُكَانِ
 فَهُوَ عِنْدِي مِنْ أَحْسَنِ السُّلُوكِ
 قَتَلَتْهُ طَوَارِقُ الْأَحْزَانِ
 رِجْزٍ وَمُجْزِي بِأَعْظَمِ الْغُفْرَانِ
 زَالَ هَمُّ الْمُكْدَى وَهَمُّ الْمُعَانِي
 مَمَّةٌ فِيهِ بَدَتْ بِخَيْرِ بَيَانِ
 حَقُّهُ أَمْ يَفِي بِذَاكَ لِسَانِي
 لَمْ يَنْتَطِعْ بِهِ عَنْزَانِ
 دَاءٌ حَتْمًا لِشُقَّةِ النُّكْرَانِ
 لَوْ وَيُقْدَى بِالرُّوحِ وَالْأَثْمَانِ
 لَمْ يُقْضَى وَكُلُّ شَيْءٍ فَإِنْ
 لِدَوِي الظُّلْمِ مُنْكَرِي الْإِيمَانِ
 نَبْجَاهِ الْمُخْتَارِ مِنْ عَدْنَانِ

١٤٨ - أَيُّهَا الْبَادِئُونَ بِالْعِشْقِ

فَارَغَ الْبَالِ مُشْبِهَ الرِّيمِ دَغْنِي	صَدَنِي الشَّيْبُ وَالرَّحِيلُ وَسَنِي
أَتَمَّنَّى عَوْدَ الشَّبَابِ وَلَكِنْ	لَا يُعِيدُ الشَّبَابَ حَرْفُ التَّمَنِّي
قَدْ مَسَحْتُ الْأَغْيَارَ مِنْ لَوْحِ فِكْرِي	لَا تُخَادِعْ عَوَاطِفِي بِالتَّشْنِي
إِنَّ ظَنِّي بِاللَّهِ ظَنٌّْ جَمِيلٌ	أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحَقِّقَ ظَنِّي
غَافِرِ الذَّنْبِ قَابِلِ التَّوْبِ عَفْوًا	عَنْ ذُنُوبِي وَكُلِّ مَا كَانَ مِنِّي
قَدْ تَشَبَّعْتُ فِي الْغَرَامِ نَحْوَلًا	صَارَ جِسْمِي مِنَ التُّحُولِ كَشَنٍّ
وَمَضَتْ فِتْرَةُ الْهَوَى بِوَعُودِي	لَمْ تُؤَكِّدْ بِحِلْفَةٍ أَوْ بِلَانِي
كَانَ عُرْقُوبٌ فِي الْوَعُودِ مِثَالًا	فِي غُرُورٍ وَبَيْنَ لِي وَمَنْ ^١
كُلَّ يَوْمٍ أَقُولُ قَدْ جَدَّ جِدِّي	وَدَنَا الْوَعْدُ بِاللِّقَا وَكَأَنِّي
فَإِذَا وَعْدُهُ كَالِ بَعِيدٍ	وَإِذَا مَا أَتَيْتُهُ فَرَّ مِنِّي ^٢
أَيُّهَا الْبَادِئُونَ بِالْعِشْقِ كَفُّوا	وَتَلَقَّوْا دَرَسَ الْمَجْرَبِ عَنِّي
مَنْ هَدَاهُ بُلُوعَى سِوَاهُ سَعِيدٌ	مُبْصِرٌ قَلْبُهُ وَوَقَّادُ ذَهْنٍ
حَارَ مَا بَيْنَ سَالِمٍ وَسَلِيمٍ	سِيمَ بِاللَّدَغِ فِي عَوِيلٍ وَأَنَّ

١ عرقوب أكذب أهل زمانه، يضرب به المثل في إخلاف المواعيد، قال كعب بن مالك رضي الله عنه في البردة "بانت سعاد":

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

٢ الآل: السراب.

مَهْمَهُ الْحُبِّ شَائِكٌ وَطَوِيلٌ
وَجَمِيعُ الْفَنُونِ مِنْهُ جُنُونٌ
لَوْ تَرَى الصَّبَّ هَائِئاً فِي اضْطِرَابٍ
لَتَنَكَّبْتَ سُبُلَهُ فِي اعْتِبَارٍ
وَهُوَ يُمْلِي عَلَيْكَ لَيْتِي أَسِيفاً
كَمْ أَقْضَى الدُّجَى بِصَفْعِ جَبِينٍ
وَزَفِيرِي عِنْدِي كَرَنَةً عُودٍ
أَسْفاً لِلْحَيَاةِ تَمْضِي ضِياعاً
إِنَّ نَفْسَ الْعُصَاةِ تَشْكُو أَسَاها
تَسْتَلِذُ الْعَذَابَ كَالْجُرْبِ فِيمَا
رُبَّ غَمْرٍ قَدْ عَاشَ دَهْرًا رَغِيداً
لَا تَرَى وَجْهَهُ نَقِيّاً بَلَوْنِ
وَإِذَا مَا جَلَسْتَ يَوْماً إِلَيْهِ
يُشْبِهُ الْمَضَلَّ وَدُّهُ مِنْ حَلِيبٍ
صَيِّتُهُ فِي الْأَنَامِ صَوْتُ غُرَابٍ
وَهُوَ كَالدُّبِّ فِي سَهَابَةِ طَبْعٍ
إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ حُظُوظٌ

وَفُنُونُ الْهَوَى مَلَائِيْنُ فَنٍّ
فَاجْتَزَعَتْ عَنْ غِنَائِهِ بِالتَّغْنِي
كَصَرِيحٍ قَدْ مَسَّهُ أَلْفُ جَنِّي
وَلَحْيَاكَ مِنْ بُلِيٍّ بِالتَّهْنِي
ضَلَّ سَعْيِي يَا حُسْرَتِي وَلَوْ أَنِّي
وَأَرْوُمُ الشِّفَاءِ فِي قَرْعِ سِنٍّ
وَبِكَائِي وَالنُّوْحِ أَطِيبُ لَحْنٍ
بَيْنَ لَهْوٍ وَصَوْتِ دُفٍّ وَرَنٍّ
فِي عَنَاءٍ وَطَوْلِ هَمٍّ وَسُجْنٍ
تَبْتَغِيهِ بِالْحُكِّ وَهِيَ بِحَيْنٍ
قَدْ أَدَارَتْ دُنْيَاهُ ظَهَرَ الْمَجَنِّ
بَلْ تَرَاهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بَلَوْنِ
قَطَعَ الْوَقْتَ فِي عِتَابٍ وَمَنْ
وَسَوَاهُ شَبِيهُ زُبْدٍ وَسَمْنٍ
بَيْنَ ذَمٍّ وَهَتِكٍ عَرَضٍ وَلَعْنٍ
يَتَلَقَّى مَعَ الْغَزَالِ الْأَغْنِ
كَمْ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ نَحْسٍ وَيُمْنٍ

١ الْجُرْبُ: جَمْعُ أَجْرَبٍ، مَنْ بِهِ جَرَبٌ، وَالْحَيْنُ: الْهَلَاكُ وَالْمُخَنَةُ.

ما كلامي عن العيوبِ احتِقَارُ
خيرِ صَحبِي مَنْ كان مِرآةَ عِيبي
من أطاع الإله يحيا سعيداً
حَسْبُهُ أَنْ حَضَنَهُ بِتَقَاهُ
صرتُ بينَ الرَّجاءِ والخوفِ ممَّا
قلتُ لي يا غافلاً في سُباتٍ
جدِّدِ التَّوبَ وانوِ خيراً وسارع
وبتوبي مهما تعاظَمَ ذنبي
وإذا كُنْتُ بالخطايا رهيناً
نَظَرُ اللهِ للقلوبِ وفِعْلُ
أَوْ بَتَعْرِضِ جُبَّةٍ واغْتِمَامِ
ليسَ يُغْنِي عِنْدَ الإلهِ ثِراءُ
وخطابُ مَنْ ذي بيانٍ ظَرِيفِ
لا ولا جُودُ مَنْ يُجودُ بِإِمالِ
قلتُ هذا في القلبِ مِنْ غيرِ لَفْظِ
إنَّما الشَّعْرُ ناشِئٌ عَنْ شُعُورِ

لستُ أحشو الفؤادَ مِنِّي بِضَغْنِ
مَنْ يُسوِّي أمتي فأخلَصُ خَدَنِي^١
مطمئنّاً لأوي إلى خيرِ رُكنِ
إِنَّ حِصْنَ التَّقْوَى لأوثَقُ حِصْنِ
قالَ ربي نَبِّئْ عبادي أَنِّي
دونَ أَنْ أَسْمَعَ المقالةَ أَذني
فهذا لا يُستباحُ التَّانِي
يَمْسَحُ اللهُ عن فؤادي رِئَني
فَبِحُسْنِ السُّلُوكِ يَنْفَكُ رَهْنِي
يرتضيه لا لحيَةٍ تحتَ دَفْنِ
واحتِمَالِ العصا وتوسيعِ رُذْنِ^٢
واختِراعِ مَنْ عبقري مَفَنِّ
وجمالِ وصوتِ شادٍ يُغْنِي
لم تَمَلْ نَفْسُهُ بِحالِ لِضَنِّ
ولساني يشوي غياهِبَ سِجْنِ
لا عنِ الضربِ والعروضِ وَوزْنِ

١ الأمتُ: العوج، والخِذْنُ: الصَّدِيق .

٢ الرُّذْنُ: الكُفُّ، والجمعُ أردان .

وَجَمِيعُ اللُّغَاتِ فِيهِ سَوَاءٌ
وَالكَلَامُ الْحَقِيقِيُّ سَبْكُ الْمَعَانِي
فَإِذَا كَانَ مَا عَنْهُ بَلِيغاً
يَا رَفِيقِي تَعَالَ نَسْرِي بَلِيلٍ
نَعْبُدُ اللَّهَ لَا إِلَهَ سِوَاهُ
عَلَّنَا يَوْمَ التَّغَابُنِ نَسْكُنُ
فَهُوَ سُبْحَانَهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ
رَحْمَةُ الْغَافِرِ الذُّنُوبِ قَرِيبٌ
بَيْنَمَا الْأَرْضُ مَيْتَةٌ فِي فُحُولٍ
فَتَرَاهَا تَهْتَزُّ مِنْهُ وَتَرْبُو
أَخِي قَلْبِي يَا مُنْبِعَ الصَّخْرِ مَاءً
إِنَّ لِي فِي سُورَةِ الْعَصْرِ وَعُظٌّ
فَعَلَيْ الْمَسْمُوعِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ
يَا مُجِيبَ الدَّاعِينَ أَحْسَنَ خِتَامِي
فِي نَعِيمِ الْفِرْدَوْسِ أَشْهَدُ فِيهِ
لَيْسَ أَمْرُ الْمَعَادِ ظَنٌّ وَرَيْبٌ

لُغَةُ الْعَرَبِ فِي الْفَصِيحِ وَرَطْنٌ^١
بَحْرُوفٍ تُفِيدُ مَا الْمَرْءُ يَعْنِي
فَبَلِيغٌ بِمُعَرَّبٍ أَوْ بِمَبْنِي
فِي دُرُوبِ الْهُدَى وَنَأْيٍ يُكِنُّ
وَسِوَانَا مَا بَيْنَ حَانٍ وَدَنٍ
بِرِضَاءِ الْغُفُورِ جَنَاتٍ عَدْنٍ
يُنْتِجُ الْحُلُومَ مِنْ تَفَاهَةِ غُصْنٍ
يُخْرِجُ الْوَدَقَ مِنْ سَحَابَةِ مُزْنٍ
فَإِذَا الْغَيْمُ فَوْقَهَا مِثْلُ عَهْنٍ
وَهُوَ يَحْيِي الْقُلُوبَ مِنْ بَعْدِ عَيْنٍ
قَبْلَ أَنْ تُخْتِمَ الْحَيَاةُ بِغَبْنٍ
وَبِهَا حِفْظُ مُحَدَّثَاتِي وَصَوْنِي
وَالْهِيَ هُوَ الْحَفِيطُ وَعَوْنِي
كِي بَدَارِ التَّقَى أَرَاكَ بَعَيْنِي
وَجْهَ مَوْلَايَ غَايَةَ التَّمَنِّي
فَهُوَ يَوْمَ الْجَزَاءِ وَالْأَمْرِ إِنِّي^٢

١ الرَّطْنُ وَالرَّطَانَةُ: الْكَلَامُ بِالْأَعْجَمِيَّةِ، أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ.

٢ أَي: مُحَقَّقٌ.

١٤٩ - أَيُّهَا الصَّبْرُ وَالرِّضَا سَاعِدَانِي^١

أَيُّهَا الصَّبْرُ وَالرِّضَا سَاعِدَانِي
كُنْتُ مَعَهَا فِي رَاحَةٍ وَهَنَاءٍ
أَيْنَ مَنِّي السُّلُوكُ قَدْ تَرَكْتُ لِي
كَيْفَ أَنْسَى اهْتِمَامَهَا بِشُؤُونِي
لَيْسَ كُلُّ الْأَزْوَاجِ تُشَبِّهُ زَوْجِي
يَوْمَ كَانَتْ كَانَتْ تُحِبُّ سُرُورِي
لَا تُحِبُّ الْجِدَالَ فَهِيَ سَلَامٌ
يَشْهَدُ الْكُلُّ فِي صَحِيحِ تَقَاهَا
فِي صَالِحٍ وَعِفَّةٍ وَوَدَادٍ
اسْأَلُ اللَّهَ أَنْ أَكُونَ وَزَوْجِي
شَظَفُ الْعَيْشِ عِنْدَهَا إِنْ تَوَالَى
فَهِيَ فِي كُلِّ حَالَةٍ ذَاتُ صَبْرٍ
كَانَ صَعْبًا تَرْكِي لَدَيْهَا وَلَكِنْ
يَا إِلَهِي أَنْتَ الْعَلِيمُ بِحَالِي
أَنَا عَبْدٌ مُقْصَرٌّ بَلْ مُسِيءٌ

إِنَّ فُقْدَانَ زَوْجَتِي قَدْ شَجَانِي
فَتَوَالَتْ مِنْ بَعْدِهَا أَحْزَانِي
ذِكْرِيَاتٍ تَطُوحُ بِالسَّلْوَانِ
يَوْمَ كَانَتْ مَطْوَاعَةً لِبَنَانِي
فَهِيَ لَا تَعْرِفُ الْعَنَا وَالتَّوَانِي
وَعَلَيْهَا كَانَتْ يَعْزُّ هَوَانِي
لَمْ أَشَاهِدْ نَظِيرَهَا بِزَمَانِي
قَدْ تَجَلَّتْ بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ
وَانْقِيَادٍ فَاقَتْ عَلَى الْأَقْرَانِ
يَوْمَ حَشَرَ مُنَعَمًا فِي الْجَنَانِ
وَهَنَاهُ وَلَيْنُهُ سَيَّانِي
وَانْسِاطٍ حَلِيفَةُ الرِّضْوَانِ
تَرَكَتْنِي بِحِكْمَةِ الدِّيَانِ
لَا تَدْعُنِي لِلْيَأْسِ وَالْخِذْلَانِ
فَأَجِرْنِي بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ

١ في رثاء زوجته، أم أولاده.

يَعْتَرِينِي التَّسْلِيمُ حِيناً وَأَنَا
أَهْلَكْتَنِي الْفَاطُ لَوْ وَالتَّمَنِّي
لَسْتُ أَنْسَى مُصِيبَتِي ضَلَّ سَعْيِي
أَنَا فِي الْيَمِّ رَاكِبٌ فِي مَنَامِي
وَأَرَاهَا سَفِينَتِي فِي اضْطِرَابِ
إِنَّ نَفْسِي الْجُمُوحُ قَدْ أَهْلَكْتَنِي
مَعَ أَنِّي جَلَدٌ وَلَسْتُ جَزُوعاً
لَيْسَ هَذَا جَمِيعُهُ مِنْ وَلُوعِي
بَلْ لِفَقْدِي شَيْخاً شَرِيكَةَ عُمْرِي
لَا تَحَاوِلْ يَا لَائِمِي لَسْتُ أَنْسَى
أَرْجَحِي أَنْ يَكُونَ أَنْسَى بِرَبِّي
فَهَوَّ رَبِّي إِلَيْهِ مَرْجِعُ أَمْرِي
إِنَّ صَفَا الْقَلْبُ فَالْحَيَاةُ صَفَاءُ
قُدِّرَ الْخُلْدُ لِلنَّفُوسِ لِتُجْزَى
كَمْ أُرِيدُ التَّقَى وَأَنْوِي صَاحاً
غَيْرَ أَنَّ التَّسْوِيفَ ضَيَّعَ عُمْرِي
قَدْ مَدَدْتُ الْخَوَانَ تَحْتَ قِصَاعِ
فَإِذَا بِالْخَوَانِ يُطْوَى سَرِيعاً

تَعْتَرِينِي وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ
وَقَضَاءُ الْمَوْلَى عَلَى الْإِنْسَانِ
مَعَ أَنِّي ابْتُلَيْتُ بِالنَّسِيَانِ
بَيْنَ تِلْكَ الْأَمْوَاجِ وَالْحَيْثَانِ
وَعَسَاهَا مِنْ غَفْلَةِ الرُّبَّانِ
مَعَ أَنِّي مُسْتَمْسِكٌ بِالْعِنَانِ
وَتَرَانِي أَهْنِي كَالنَّشْوَانِ
وَعَرَامِي بِرِقَّةِ النَّشْوَانِ
ضَاعَ نَضْفِي فِي الثُّرْبِ وَالْأُطْيَانِ
ذَكَرَهَا مَا تَعَاقَبَ الْمُلُوكُ
مُغْنِياً عَنْ مَحَبَّتِي لِلْغَوَانِ
وَحَيَاتِي بِالرُّوحِ لَا الْجُثْمَانِ
لَا أَبَالِي بِكَذَرَةِ الْأَبْدَانِ
إِنَّمَا الْجِسْمُ مَطْعَمُ الدَّيْدَانِ
ثُمَّ أُعْطِيَ الْعُهُودَ لِلْمَنَانِ
فَتَرَى الْآنَ مُسْتَحْجِراً بَانَ
نَاطِراً مِلءَ تِلْكَ الْأَوَانِ
وَيَنَادُونَنِي بِقَوْتِ الْأَوَانِ

سَوْءَةٌ لِي فَقَدْ بَدَتِ سَوَاتَانِ
 مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى وَأَصْلَحَ جَنَانِي
 بِفُؤَادِي وَاجْعَلْهُ شُغْلَ لِسَانِي
 بِالرِّضَا لَا مِنْ أُولَى الشَّانِ
 وَبِدُونِ الْأَذْكَارِ كَالصَّفْوَانِ ١
 وَكَذَا الْفَرْقَدَانِ وَالنَّيِّرَانِ ٢
 وَجَمِيعُ الْأَكْوَانِ مَاضٍ وَفَانِي
 كُلُّهَا فَارِغٌ كَصَوْتِ الشَّانِ ٣

ضَيْعَةُ الْعُمْرِ سَوْءَةٌ وَخَسَارِي
 أَشْبَلِ السَّيْرِ يَا إِلَهِي بِثَوْبِ
 وَاجْعَلِ الذِّكْرَ عُدَّتِي وَأُنَيْسِي
 فَلَعَلِّي أَكُونُ مِنْ أَهْلِ فَوْزِ
 بِنَدَى الذِّكْرِ يُصْبِحُ الْقَلْبُ رَطْبًا
 كُلُّ خَلٍّ مُفَارِقٌ لِأَخِيهِ
 لَيْسَ يَبْقَى إِلَّا إِلَهُ تَعَالَى
 لَا تَدُومُ الظُّلَالُ وَالشَّمْسُ تَحْبُو

١٥٠ - أَمْسِيَتْ نَهَبَ الْغَوَانِي

مِنْ بَعْدِ فَوْتِ الْأَوَانِ
 بِالرَّمْزِ أَوْ بِاللِّسَانِ
 وَالْقَلْبُ عَافَ الْغَوَانِي
 مِنَ الْبَلَابِلِ وَايَ
 مِنْ فَادِحٍ قَدْ عَرَانِي

أَمْسِيَتْ نَهَبَ الْغَوَانِي
 الْكُلُّ يَخْطُبُ وَدِّي
 أَجَامِلُ الْكُلَّ لَفْظًا
 وَالْجِسْمُ خَاوٍ وَفَكْرِي
 وَاهْلَهُمْ أَطْفَاءُ ذَهْنِي

١ الصَّفْوَان: الْحَجَر.

٢ الْفَرْقَدَان: نَجْمُ الْقُطْبِ، وَنَجْمٌ يُشَبِّهُهُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ، وَالنَّيِّرَان: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.

٣ الشَّان: جَمْعُ الشَّن: الْجِلْدُ الْبَالِي، وَالْقَرَبَةُ الْمَصْنُوعَةُ مِنْهُ.

عَمَّرتُ سَبْعِينَ عَاماً
مِنْ غَيْرِ عَامِينَ فَاتَتْ
قَدْ أَغْذَرَ اللَّهُ عَبْداً
بَيْنَ الْأَصْلِيلِ لِعُمْرِي
شُغْلِي بَتَهْيِيءِ زَادِي
أَرْجُوا إِلَهِي عَفْواً
وَأَنْ يُبَدِّلَ بَعْدِي
عَلَيَّ بِفَضْلِ إلهِي
فِيهَا النِّعِيمُ مُقِيمٌ
لَا شَأْنَ لِي غَيْرُ هَذَا
مَنْ أَثْقَلَتْهُ الْخَطَايَا
إِنْ يُتِّبَ مِنْ ذُنُوبٍ
مِنْ قَلْبِهِ بِخُشُوعٍ
النَّفْسُ مُهَرَّرٌ جَمُوحٌ
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ ضَعْفِي
مُسْتَشْفِعاً بِرُسُولِ
كِتَابِ رَبِّي تَعَالَى
مُعَاجِزٌ بِالتَّحَدِّي
فِيهِ الْهُدَى وَالتَّغْنِي

مَقْرُونَةً بـثَانِي
بِغَفْلَةٍ وَتَوَانِي
قَدْ عَاشَهَا بِأَمَانٍ
وَبَيْنَ لَحْدِي ثَوَانِي
يُفَوِّقُ كُلَّ الْأَمَانِي
عَنِّْي فَلِإِنِّي جَانِي
عَنْ بَابِهِ بِالتَّوَدَانِي
أَوْيَ لِرُحْبِ الْجَنَانِ
وَيَسْتَحِقُّ التَّهَانِي
فَإِنَّهُ خَيْرُ شَانِ
فَقَدْ أَصِيبَ بِرَانِ
وَمِنْ غُرُورِ الْحَسَانِ
لَا مِثْلَ صَوْتِ الشَّانِ
يَحْتَاجُ شَدَّ الْعِنَانِ
وَذِلَّتِي وَهَوَانِي
قَدْ جَاءَنَا بِالْبَيَانِ
هَادٍ جَلِيٍّ الْمَعَانِي
وَمُعْجِزٌ بِالْمَبَانِي
عَنِ الْغِنَى وَالْأَغَانِي

١٥١ - حيي الأسود^١

فَضْلًا بَمَا جَاهَدُوا بِالمَالِ وَالبَدَنِ	حَيِّىَ الأَسْوَدَ أَبَا الضَّيِّمِ إِنَّ لَهُم
بِأَنَّهُمْ هُمْ مُحَمَّاهُ الدِّينِ وَالمُوطَنِ	وَحُسْبُهُمْ شَرَفًا أَنْ يَأْخُذُوا لِقَبًا
وَفِي سَبِيلِ العُلَمَاءِ مِنْ أَرْخَصِ الثَّمَنِ	بَاعُوا نَفُوسَهُمْ وَالنَّفْسُ غَالِيَةٌ
أَثَارُهُ بَيْنَ أَهْلِ الرِّيفِ وَالمَدَنِ	لَا سِوَا أَحْمَدُ العَشِي الَّذِي اشْتَهَرَتْ
بِمَا يَجُودُ بِهِ مِنْ طَيِّبِ المَنَنِ	شَهْمُ شَجَاعٍ كَرِيمٍ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ
مَهْذَبُونَ بِمَا كَبُرَ ذَوُوهُ فِطْنِ ^٢	أَبْنَاؤُهُ الغُرُّ أَشْبَالُ غَطَارِفَةٍ
طُؤْلَ الحَيَاةِ وَأَنْجَاهُ مِنْ الفِتَنِ	أَدَامَ رَبِّى لَهُمْ عِزًّا وَأَسْعَدَهُمْ

١٥٢ - سَمِيَّ لَا تَكُنْ مِثْلِي^٣

فَقَدْ ضَاعَتْ حَيَاتِي بِالتَّوَانِي	سَمِيَّى لَا تَكُنْ مِثْلِي كَسُولًا
بِأَنَّ العُمَرَ يُجْمَعُ مِنْ ثَوَانِي	أَصَادِقُ مَهْمَا طَالَ العُمُرُ فَاعْلَمْ
ضَنَى التَّسْوِيفِ مِنْ أَنِ لَانَ	وَأَكْبَرَ آفَةٍ لِلْعُمُرِ فَتَكَأْ
عَلَى الأَيَّامِ مِنْ شَانٍ لَشَانٍ	وَخَيْرُ البرِّ عَاجِلُهُ وَإِنَّا

١ بمناسبة إصدار قانون التقاعد للمحاربين القدماء. [المصدر الثاني]

٢ الغطارفة: جمع غطريف: السيد الشريف، والفطن: جمع فطنة، الحذق والمهارة.

٣ موجهة إلى الحفيد صادق وابن ولدي البكر محمد أيمن. [المصدر الرابع]

فَحَصَّصْ كُلَّ يَوْمٍ بِالتَّزَامِ
وَكُنْ رَجُلًا بِحَزْمٍ غَيْرِ غِرِ
وَإِنْ مَا كُنْتَ فِي أَمْرِ عَمُولًا
وَمَنْ يَحْزُمُ بِحِدٍّ وَاضْطِبَارِ
وَقُزْ بِالطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَعَانِي
فَإِنَّ الْمَرْءَ لَمْ يَفْضُلْ بِأَكْلِ
كَذَا الشَّهَوَاتِ مَبْلَغُ كُلِّ حَيٍّ
فَإِنْ مَا نَالَ مِنْهَا مُبْتَغَاهُ
وَمَنْ خُمِقَ الْغَبِيِّ يَظُنُّ جَهْلًا
أَلَا إِنَّ الْمَفَازَ بِيَوْمٍ حَشَرِ
نَعَمْ إِنَّ الْكِتَابَ أَتَى بِنُصْحِ
فَبَادِرْ يَا حَفِيدِي بَعْدَ هَذَا
وَسِرْ تَوًّا فَإِنَّ الْعُمَرَ مُهَرٌّ
وَإِنْ تَحَفَظَ كِتَابَ اللَّهِ تَفْلِحْ
وَلَا تَهْلُ فَإِنَّ الْوَقْتَ سَيْفٌ
سَتَذْكُرُ مَا أَقُولُ وَأَنْتَ شَيْخٌ
وَلَكِنَّ التَّذَكُّرَ لَيْسَ يُجِدِي
فَأَرْجُو اللَّهَ تَوْفِيقًا وَحِفْظًا

وَنَجِّزْهُ وَلَا تُشْغَلْ بِثَانِي
وَلَا تَعْبَأْ بِقَعَقَعَةِ الشُّنَانِ
فَقُلْ لِسِوَاهُ شَأْنُكَ مَا عَنَانِي
عَلَا مِقْدَارُهُ فَوْقَ الْعَنَانِ
وَلَا يَصْرُفُكَ مَا فَوْقَ الْخَوَانِ
وَلَكِنْ قَدْ تَمَيَّزَ بِالْمَعَانِي
وَمِنْ جَرَائِهَا دَوْمًا يُعَانِي
كَمَا يَبْغِيهِ أَصْبَحَ فِي أَمَانِ
إِذَا مَا نَاهَا نَالَ الْأَمَانِي
إِذَا مَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِنَانِ
وَأَوْضَحَ كُلَّ ذَلِكَ بِالْبَيَانِ
بِحِدٍّ وَاعْتَنِمْ صَفْوَ الزَّمَانِ
فَقُدِّهِ ثُمَّ أَمْسِكْ بِالْعَنَانِ
وَإِنْ تَنْجَحْ فَأَبْشِرْ بِالتَّهْنَانِ
سَيَمْضِي الْعُمَرُ إِنَّ الْكُلَّ فَانِي
نَصَحْتُكَ لَا تَقُلْ حَظِّي رَمَانِي
سَوَى أَسْفٍ لَدَى فَوْتِ الْأَوَانِ
مِنَ الزَّلَّاتِ أَسْبَابُ الْهَوَانِ

١٥٣ - عافت الغمض جفوني

عَافَتِ الْغَمْضُ جَفُونِي	مِنْ هَوَى سُودِ الْعُيُونِ
ذَكَرُهُمْ دَوْمًا بِيَالِي	يَا تُرَى هَلْ يَذْكُرُونِي
لَوْ يَذُوقُوا مَا أَلَا قِي	سَكَبُوا مَاءَ الشُّؤُونِ ^١
أَتَمَّنَّيْ أَنْ يَذُوقُوا	عَلَّهِمْ أَنْ يَرْحُمُونِي
لَمْ أَنْلْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	ظَلُّهُمْ بَيْنَ جَفُونِي
ضَمَقْتُ ذَرْعًا بِهِمْ	يَا لَ وَدِّي سَاعِدُونِي
أَحْسَنَ الْمَوْلَى خِتَامِي	إِنْ أَتَى وَقْتُ الْمُنُونِ
لَا أَبَالِي بَعْدَ هَذَا	وَصَلُّوا أَوْ هَجَرُونِي
لَيْسَ فِي الدُّنْيَا صَفَاءٌ	وَالْهَوَى بَعْضُ الْجُنُونِ
فِي رِضَا الْمَوْلَى تَعَالَى	شَرَفٌ مِنْ غَيْرِ هُونِ
يَا مَلِيكَ الْمَلِكِ أَصْلِحْ	بِالرِّضَا كُلَّ شُؤُونِي

١ الشؤون: جمع شأن: مجرى الدمع، يقال: شؤن العين: مجاريها الدمعية.

١٥٤ - وليلى ما كفاها الهجر (تخميس)

أُمُورِي فِي سَبِيلِ الْحُبِّ شَتَّى وَكَمْ لَا قَيْتُ إِعْرَاضاً وَكَبْتَا
وَقَدْ شِمْتُ الْعَذُولَ وَقَالَ بُهْتَا وَلَيْلَى مَا كَفَاها الْهَجْرُ حَتَّى
إِلَى قَاضِي الْمَحَبَّةِ تَشْتَكِينِي

لَقَدْ غَالَيْتُ فِي حُبِّي فْغَالَتْ وَلَمَّا جِئْتُ أَرْضِيهَا اسْتَطَالَتْ
وَمَا بَجْرَاحَتِي وَضَنَائِي بَالَتْ فَقُلْتُ لَهَا أَرْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ
وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي أَرْحَمِينِي

* * *

كَأَنِّي أَكَلْتُ فِي الْحُبِّ سُحْتَا فَلَا أَرْجُو لِنَارِ الْهَجْرِ فَوْتَا
وَأُضْحَى الْعَاذِلُونَ بِذَاكَ شَمْتَا وَلَيْلَى مَا كَفَاها الْهَجْرُ حَتَّى
إِلَى قَاضِي الْمَحَبَّةِ تَشْتَكِينِي

نَضَّتْ سَيْفِي حَوَاجِبُهَا وَصَالَتْ وَبَيْنَ كَتَائِبِ الْعُشَّاقِ جَالَتْ^١
وَهَزَّتْ بَانَ قَامَتِهَا وَمَالَتْ فَقُلْتُ لَهَا أَرْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ
وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي أَرْحَمِينِي

١ نَضَى السَّيْفُ : أَخْرَجَهُ مِنْ غِمْدِهِ .

هيا تعالوا إلى النادي^١

هَيَّا تَعَالُوا إِلَى النَّادِي أَحَدْتُكُمْ
لَقَدْ رَأَيْتُ مَنَاماً أَرْتَقِي صُعْداً
رَأَيْتُنِي وَأَنَا بَيْنَ الْجُنُودِ وَلَا
حَدَّثْتُ زَوْجِي بِهَذَا ثُمَّ قُلْتُ إِذَا
عَلَيَّ بِسَجْنِي أَسْلَوْهُمْ وَأَغْفَلُهُمْ
أَوْصَيْتُ عَائِلَتِي بِالصَّبْرِ عَنْ سَكَنِ
حَوَادِثِ الدَّهْرِ تَتَرَى جَلَّ مُحَدِّثُهَا
فَمَنْ أَطَاعَ وَلَمْ يَسْخَطْ فَإِنَّ لَهُ
وَمَنْ نَأَى وَعَصَى يُبِيدِي تَسْخُطَهُ
مَخَايِلُ السَّجْنِ حَقّاً كُنْتُ أَرْمُقُهَا
وَقَفْتُ فِي السُّوقِ مَذْهُولاً وَقَدْ مَرَجَتْ
ذَهَبْتُ لِلْبَيْتِ وَدَعْتُ الْبَنِينَ وَقَدْ

عَمَّا جَرَى فَحَدِيثُ النَّفْسِ أَضْنَانِي
مَتَنَ الْكُھُوفِ وَعَنْ جَنْبِي بَحْرَانِ
أَكَادُ أَفْلِتُ إِلَّا الْجُنْدُ يَلْقَانِي
سُحِنْتُ لَا تُرْسِلِي لِي رَسْمَ وَلَدَانِي
فَفِي سُلُوكِهِمْ تَخْفِيفُ أَحْزَانِي
فَلَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ لِإِنْسَانِ
وَرُبُّنَا كُلَّ يَوْمٍ وَهُوَ فِي شَانِ
مِنْ كُلِّ حَادِثَةٍ خَيْرٌ بِإِحْسَانِ
فَإِنَّهُ سَوْفَ يَلْقَى حَرَّ نِيرَانِ
وَحِرْتُ فِي الْأَمْرِ هَلْ رَأَيْتُ لِحِيرَانِ
عُهُودُ قَوْمٍ وَكَادُوا كَيْدَ فِتْنَانِ
أَوْصَيْتُ لَا تَخْرُجُوا لِلسُّوقِ مِنْ شَانِي

١ من وحي السجْن.

وَعُدْتُ أَحْرُسُ مَنْ أَخْشَى عَلَيْهِ وَمَا
وَصَرْتُ فِي السُّوقِ أَمْشِي مَشْيَ مُضْطَرِبٍ
وَجُلْتُ مَعَ قَادَةِ الْأَمْنِ الَّذِينَ أَتَوْا
نَقُولُ يَا نَاسُ فَوْضَاكُمْ تَضُرُّ بِنَا
أَرْسَلْتُ لِلشَّيْخِ أَنْ يَأْوِي لِمَسْكَنِهِ
لِحَقَّتْهُ بَعْدَ هَذَا فِي بُلْهَيْنِيَّةٍ
فَمَا مَضَتْ فِتْرَةٌ إِلَّا وَعَادَ إِلَى
رَحْبَتِي إِذْ أَظْهَرَ صَفْوَةَ الْمَوَدَّةِ لِي
وَجَاءَنَا مُنْذِرُ أَسْمَاءَ وَالِدُهُ
وَرَاغَ إِنَّ وَزِيرَ الْأَمْنِ يَطْلُبُكُمْ
وَرَاغَ يُقْسِمُ إِنَّ الْقَصْدَ لَيْسَ أَذَى
وَمَنْعَ الشَّيْخِ جِدًّا وَاسْتَخَارَ فَلَمْ
فَقُلْتُ دَعْنِي أَوْافِيهِ وَكَانَ مَعِيَ
ثُمَّ اضْطَحَبْنَا وَجَادَلْنَا وَمَا وَهَنْتَ
يَقُولُ لَا بُدَّ أَنْ أَلْقَاهُ عَنْ كَتَبٍ
عُدْنَا بِخَفْيِ حُنَيْنٍ وَالسَّبِيلُ إِلَى
فَالْهَمَّ الشَّيْخُ مَا حُمَّ الْقَضَاءُ بِهِ

أَغْنَاهُ عَنْ حَارِسٍ يُؤْوِي لِسَجَّانٍ^١
أَفَرَّقُ الْجَمْعَ، وَالتَّفْرِيقُ أَغْيَانِي
أَسْعَى لِأَرْحَضَ عَنَّا تَهْمَةَ الْجَانِي
عُودُوا جَمِيعاً إِلَى بَيْتٍ وَدُكَّانٍ
مِنَ الرِّزْقِ وَلَا يَرْكُزْ لَهُيَّانِ
مِنَ السَّكِينَةِ وَالْإِرْجَافُ جَافَانِي
مَقَرَّنَا مِنْ رِجَالِ الْأَمْنِ ضَيْفَانِ
وَصَرْتُ أَخِي بِنَفْسِي مَا يُرِيدَانِ
جَهْلًا بِشِيرٍ وَأَبْدَى وَدَّ خَلَّانِ
وَسَاءَهُ مَا رَأَى مِنْ حَيِّ مَيْدَانِ
وَأِنَّمَا الْقَصْدُ إِرْضَاءٌ لَذِي شَانِ
يَرِ انْشِرَاحاً وَلَمْ يَرْضَخْ لِأَذْعَانِ
أَخِي أَبُو الْخَيْرِ، هَلْ يَجْزِيهِ هَذَانِ؟
عَزِيمَةُ الْحُكْمِ أَوْ لَانَتْ لِرَجْوَانِ
أُنَاقِشُ الْأَمْرَ مَعَهُ بَحْثَ إِخْوَانِ
أَمْنِ الْخِلَاصِ مَشُوكٌ شُوكَ سَعْدَانِ
وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ كَرْبٍ وَأَحْزَانِ

١ يقصد به: "من أخشى عليه" أخاه الشيخ حسن رحمهما الله تعالى.

١٥٦ - يا خليلي في الغرام

ما الذي قد أذابني وسلاني
وبطول الجفاء قد أفناني
وزراني في مُتتدى الأعْيَانِ
كان ذاك الإطلال قد أحياني
أبتغيه ولو وراء العنانِ
هكذا شاهدتها بالعيانِ
وهي ترنو لحالتي وتراني^١
هكذا فعل حُبَّ الغواني
وبعشتي أدؤقهُ كلَّ آنٍ^٢
مُسْتَعِيدًا بِخَالِقٍ قد براني
صرتُ في شدَّتي وعزمي كواني^٣

يا خَلِيلِي في الغرامِ سلاني
ذاتُ قَدِّ ميسر كالأفنانِ
إنَّ ذاكَ الجفاء قد أعْيَانِي
لو أطلت عليَّ في أحياني
وصلها يا آل وُدِّي عَنَانِي
ذاتُ شَكْلٍ فوقَ الحسانِ العِيَانِ
يا سميري عيناها قد وتراني
مَنْ هُدايَ جاهلًا قد عَوَانِي
إنَّ حرَّ الأشواقِ في القلبِ آني
لذتُ لما جفاؤهُ قد براني
وبنارِ الهجرانِ لما كواني

١ وترهُ - في الشَّطْرِ الأوَّل - ألحقَ بِهِ مَكْرُوهًا.

٢ الآني، اسم فاعِلٍ مِنْ: أنى، يُقالُ: أنى الحميمُ: انتهى حرُّهُ، فهو آنٍ، ومنه قوله تعالى {... وبين حميمٍ آنٍ}.

٣ الواني: المتعب الضَّعيف.

حرف الهاء

١٥٧ - إذا ما كنت في كرب

وَبُلِّغْتَ الشَّدَائِدُ مُتَتَهَاها	إذا ما كُنْتَ في كَرْبٍ شَدِيدٍ
فإنَّكَ لَسْتَ تَذْري ما وِراها	فلا تَطْلُبْ زوالَ الحالِ جَهْلًا
وَسَلُّهُ اللُّطْفَ في حالِ قضاها	وسَلِّمَ للعَليمِ بِكُلِّ شَيءٍ
يُسامِحُ بالحِسابِ بِما جَناها	وَمَنْ صَبَرَ احتِسابًا وَهُوَ راضٍ
فقد ظَفَرَ النُّفوسُ بِمُبتِغاهَا	إذا كانَ الجِزاءُ جِنانَ خُلْدٍ

١٥٨ - ما أطول الليل

لَمْ يَرْفَعْ الجِزْمَ بالهِجْرانِ رَجَواها	ما أَطوَلَ الليلَ والأفكارُ ناصِبَةً
مَنْ الهُمومِ فَتَنَسَى أَمْرَ شَكْواها	يَذْكُرُ النَّفْسَ بِالماضي مَضارِعُهُ
وحالُهُ صِفَةُ التَّنْكِيرِ فَحَواها	لا تَحْقِرُنْ نِسْبَةَ التَّمييزِ في دَنِفٍ
لا يَسْتَطِيعُ لَيفٌ حَمَلَ بَلْواها	جَرَّتْ صِروْفُ اللَّيالي نَحْوَهُ عِلًّا

١ تعريض ببعض متعلقات النحو والصرف. [المصدر الثاني]

أَمَا تَعَدَّتْ عَلَيْهِ وَهِيَ لَا زِمَةً
هَلْ عَادَ مُسْتَتِرًا مِنْهُ الضَّمِيرُ إِذَا
يَضِلُّ عَائِدُهُ لَوْلَا تَأْوُهُهُ
ظُرُوفُهُ فِي مَكَانِ الْكَرْبِ جَامِدَةً
وَنَاصِصُ الْعَيْشِ عَنْهُ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ
زَمَانُهُ وَبَلَا اسْتِثْنَاءٍ ثَانِيَةٍ
تَرَاهُ مِنْ عِلَلِ التَّصْرِيفِ وَاهِيَةً
لَوْلَا مَنَاعَةُ أَمَالٍ مُلَفَّفَةٍ
لَكِنَّهُ قَدَرٌ مَا حَلَّ مَوْعِدُهُ
وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الْقَلْبَ مُنْكَسِرٌ
أَلَيْسَ مَا مَسَّهُ مُغْنِي الْلِيبِ فَهَلْ
ذَكَرَى الْقَنَاءَ وَذَكَرَى الْحِشْرَ كَافِيَةً
وَخَشْيَةَ الْمَنْعِمِ الْقَهَّارِ شَافِيَةً
مَا إِنْ بَغَى سَاعَةَ التَّفْرِيجِ مَلْتَحِيٌّ
فَقَدَّرَ الْخَيْرَ وَامْتَنَحَ حُسْنَ خَاتِمَةٍ
يَا رَبُّ إِنْ لَطَى مَاوَى الْمَسِيءِ غَدًا

فَكَيْفَ يَسْمَعُ قَاضِي الْحُبِّ دَعْوَاهَا
يُمْسِي عَلَى صَلَةِ الْمَوْصُولِ أَوَّاهَا
يَمَّا سَلَّتَهُ الَّتِي مَا رَامَ سَلَّوَاهَا
أَفْعَالُهُ أَغْرَبَتْ عَنْ حَرْفِ أَسْمَاهَا
فِي صُحُورَةِ الشَّمْسِ أَوْ فِي اللَّيْلِ يَغْشَاهَا
غَنَاؤُهُ فِيهِ آهَاتٌ تَلِي آهَهَا
يُمْسِي وَيُصْبِحُ دِيَارًا وَتِيَّاهَا
لَكَانَ جَذْوَةً بَاقِي الرُّوحِ أَطْفَاهَا
وَمَنْ لَهُ مَدَّةٌ فِي الْعَيْشِ قَضَاهَا
وَالْحُبُّ يَفْتَحُ لِلْعُدَّالِ أَفْوَاهَهَا
لِنَفْسِهِ عَنْ هَوَاهَا كَانَ يَنْهَاهَا
لِتَسْلُكَ النَّفْسِ فَوْرًا دَرَبَ تَقْوَاهَا
مِنْ صَبَوَةٍ فِي سَبِيلِ الْعِشْقِ يَلْقَاهَا
إِلَّا وَمُسْتَجِيبٌ دُعَا الْمَضْطَرِّ جَلَّاهَا
قَدْ أَفْلَحَ الْعَبْدُ إِنْ لِلنَّفْسِ زَكَّاهَا
فَنَحَ عَنْهَا الَّذِي قَدْ كَانَ يُخْشَاهَا

١٥٩ - يا حسن أغصان^١

يا حُسْنَ أَغْصَانٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ قَدْ
وَجَعَلْتَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ حَرْثَهَا
إِنِّي هَزَزْتُ جَذُوعَ نَخْلِكَ قَاصِداً
فَتَسَاقَطَ الرُّطْبُ الْجَنِيِّ عَلَيَّ مِنْ
فَإِنِ اسْتَطَبْتُمْ ذَاكَ مِنْ أَغْرَاسِكُمْ
وَإِذَا رَأَيْتُمْ بَعْضَ نَقْصٍ شَائِنٍ
إِنِّي قَرَأْتُ هُوَيَّةً لِرِاعِكُمْ
حَقَّقْتُ أَسْمَاءَ لَهُ وَشَمَائِلًا
أَمَّا صَنَائِعُهُ فَنَلَّكَ كَثِيرَةٌ
هُوَ صَائِعٌ دُرَّرَ الْكَلَامِ وَصَائِدٌ
وَمُتَرَجِمٌ مَا فِي الْفُؤَادِ وَسَائِحٌ
الْعِلْمُ بِحَرٍّ وَالْيَرَاعُ سَفِينَةٌ

أُنَبِّهَهَا فَتَزَيَّنْتَ بِخِبَاهَا^٢
وَبِذَا اسْتَطَابَتْ جُمْلَتِي مَرْعَاهَا
شُكْرَ الْهَدِيَّةِ دَامَ مَنْ أَهْدَاهَا
تِلْكَ الْجَذُوعِ فَهَاكُهَا بِإِنَاهَا
فَفَضَّلِ يَمْنٍ يَمِينِكُمْ نِلْنَاهَا
فَالْعَيْبُ مِنْ أَرْضِي وَمِنْ سُقْيَاهَا
مَنْ بَعْدِ مَا كَفُ النَّدَى أَذَاهَا
وَسُلَالَةٌ مِنْ سَلْسَلٍ مَجْرَاهَا
مَنْ أَجَلَ شَمْسٍ دِهَائِهِ وَضُحَاهَا
عَيْنِ الرَّامِ بِسُخْرِهِ وَهَوَاهَا^٣
فِي أَبْحَرِ الْأَلْفَاظِ أَوْ مَعْنَاهَا
تَنْجِي إِذَا خَفَّتْ وَدَقَّ شَبَاهَا^٤

١ جواب لشاعر يسمى عمر حمّور، بعث إليّ بخمسة أبياتٍ وطلب الجواب. [المصدر الثاني]

٢ الحِبَاءُ: بكسر الحاء، غِشَاءُ البُرَّةِ و الشَّعِيرَةُ فِي السُّنْبُلَةِ، وَتَطْلُقُ عَلَى كَيَامِ النَّوْرِ.

٣ كَأَنَّهُ أَرَادَ جَمْعَ الرُّثْمِ، الظُّبِي، وَالْمَشْهُورُ: الْأَرَامُ وَالْأَرَامُ: الظُّبَاءُ، قَالَ فِي أُسَاسِ الْبَلَاغَةِ: وَمَرَّتْ بَنَاءُ الْأَرَامِ: تَرِيدُ النِّسَاءَ الْمَلَاةَ.

٤ الشُّبَا جَمْعُ الشُّبَاةِ، وَهِيَ حُدُّ الشَّيْءِ وَطَرَفُهُ، وَدَقُّ الشَّيْءِ يَدُقُّ: صَارَ دَقِيقًا، بِعَكْسِ الْغَلِيطِ، أَيْ صَارَتْ أَطْرَافُهَا دَقِيقَةً رَقِيقَةً.

فَارَكِبْ بِخَمْسٍ أَنَامِلٍ وَاسْبَحْ بِبَسْمِ
هُوَ مُنْشِئٌ هُوَ حَاسِبٌ هُوَ خَاطِبٌ
هُوَ شَاعِرٌ كَمْ قَالَ خَيْرَ قَصِيدَةٍ
وهو الخطيبُ فكم له من خطبة
أَسْمَاؤُهُ كَالطَّيْسِ ذَاكَ عَدِيدُهَا
قَيْدُ الْأَوْبِدِ فَارَسُ الْجَوْلَاتِ فِي
فَتْرَاهُ يَخْتَرِقُ الصُّفُوفَ كَأَنَّهُ
يَغْدُو إِلَى ذَاكَ الْقَلِيبِ وَيَسْتَقِي
تِلْكَ الْيِرَاعَةَ ذَاتُ قَدِّ مَائِسٍ
مَا إِنْ هَرَفْتَ بِعَقْدٍ مَدْحِكَ بَعْدَمَا
حَقًّا مَدَحْتَ شَمَائِلًا مَوْصُوفَةً
لَمَّا بِأَذْنِكَ قَدْ سَمِعْتَ شَمَائِلِي
أَمَّا بَعِينُكَ لَوْ رَأَيْتَ حَقِيقَتِي
لَا تَنْسَ قَوْلَ الْعَرَبِ اخْبِرْ تَقْلَهُ
لَكِنِّي أَرْجُو الْقَرِيبَ هَدَايَةً
حَقَّقْ إِلَهِي حُسْنَ ظَنٍّ مَقَارِضِي

سَمِ اللَّهُ مَجْرِيهَا كَذَا مُرْسَاهَا
كَمْ بِنْتُ فِكْرٍ فَضَّهَا وَعَلَاهَا
لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا وَرَوَاهَا
هَزَّ الْعَوَاطِفَ حِينَ إِذْ أَلْقَاهَا
دَلَّتْ عَلَى شَرَفٍ إِلَى مُسَاهَا^١
صَفَّ السُّطُورِ مُلَطَّخٌ بِدِمَاهَا
مَا خَافَ سُودَ الصُّحُفِ أَنْ يَقْرَاهَا
وَيَقُولُ شَاهَتِ أَوْجَهَا وَجِبَاهَا^٢
جَلَّ الَّذِي قَدْ شَقَّهَا وَبَرَاهَا
اسْتَوْصَفْتَ ذَاتِي مِنْ أُولَى قُرْبَاهَا
يَا لَيْتَ مَوْصُوفًا بِهَا وَفَاهَا
قَلَّدْتَ عَقِيَانِ الثَّنَا مَوْلَاهَا
لَقَرَأْتُ لِي قَدْ خَابَ مِنْ دَسَاهَا
ذَاتُ الْمَعِيدِ عَابَهَا مَرَاهَا^٣
خَيْرُ الْأُمُورِ مَغْبَةً أَوْلَاهَا
مَدَحًا وَالْهَمُّ نَفْسَنَا تَقْوَاهَا

١ الطَّيْسُ: الرَّمْلُ، أَيْ تُشَبِّهُ الرَّمْلَ فِي كَثَرَتِهَا.

٢ شَاهَتِ الْوَجُوهَ: قُبِحَتْ، قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ بَدْرِ، وَفِي خُنَيْنٍ، وَذِكْرُ الْقَلِيبِ (البئر) تعريضٌ بهزيمة المشركين في غزوة بدر، على أَنَّ المراد به هنا: الدَّوَاةُ.

٣ قَالَتِ الْعَرَبُ فِي أَمْثَالِهَا - وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " اخْبِرْ تَقْلَهُ " أَي تَكْرَهُ، وَ" تَسْمَعُ بِالْمَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ " .

١٦٠ - طوى الدهر أحبابي

طوى الدهرُ أحبابي وصرتُ مُجَرِّدًا
 عسى أن ربي اختارَ تفرُّغَ فِكْرَتِي
 عليّ إذا بالذِّكْرِ أتْلُوهُ خاشِعًا
 فليس كآي الله للمرءِ مؤنَّسٍ
 كتابٌ كريمٌ فيه حُكْمٌ وحِكْمَةٌ
 يسوقُ لك الأخبارَ أخبارَ مَنْ مضى
 ويسبُرُ غُورَ العِلْمِ قبلَ انْكِشافِهِ
 فأنشأهُ مِنْ ماءٍ مهينٍ ملوَّثٍ
 تباركَ خيرُ الخالقينَ إلهنا
 إلهي لك الرُّجْعى فنَرَجُوكَ رَحْمَةً
 مضى العمرُ يا ربِّ بلهوى وغفلةٍ
 وكان حريًّا بي اجتهدًا بواجبي
 فعاملني يا مولاي بالعفوِ إنَّني
 ولكنَّ ظنِّي فيكَ أنَّكَ غافِرٌ
 فكُنْ عِنْدَ ظنِّي هكذا قد وَعَدْتَنَا
 كديكِ بلا ريشٍ وقد هِيَضَ جُنْحَاهُ^١
 مِنَ الغيرِ كي ألْقَى صَفَاءَ بَنَجْوَاهُ
 وقد فازَ من يتلو ويهوى مُصَلَّاهُ
 فأشرفَ بِمَمْلُوكٍ يُنَاجِيهِ مَوْلَاهُ
 يلذُّ لتاليهٍ ويا طيِّبَ رِيَّاهُ
 بأبْلَغِ أسلوبٍ وما سوفَ تلقاهُ
 ويذكرُ كيفَ اللهُ لِلْعَبْدِ أنْشأهُ
 وعدَّلهُ خَلْقًا كريماً وسَوَّاهُ
 وتَبَّالَمِنْ دُنْيَاهُ تُنْسِيهِ أُخْرَاهُ
 وغُفْرانَ ما لم نُحْصِ مِمَّا جَنَيْتَاهُ
 فأخسِرَ بِعَبْدٍ لم يقدِّمَ لِعُقْبَاهُ
 وبُعْدِي عَمَّا أَنْتَ لِلْعَبْدِ تَنْهَاهُ
 أبوءُ بِإِفْلَاسِي بِمَا أَنْتَ تَرْضَاهُ
 غنِّي عن الإنسانِ إنْ خَابَ مَسْعَاهُ
 بتبليغنا عن صادقِ القولِ إِيَّاهُ

١ هِيَضَ جُنْحَاهُ: يقال هاضَ العظمُ أي كسره بعدما كاد ينحبر، وهاضه النوم: كسره وأضعفه، والجُنْحُ: الجانب، والمعنى: كسرتُ جناحاهُ فَضَعُفَ عن الحركةِ وذَلَّ.

١٦١ - يا الله

يا ربُّ يا مَنْ لا يُغَيِّثُ سِوَاهُ
 يا مَنْ تَبَارَكَ ذَاتُهُ وَتَقَدَّسَتْ
 يَا فَالِقَ الْإِصْبَاحِ نَوَّرَ مُهْجَتِي
 رَبَّاهُ إِنِّي مُذْنِبٌ وَمُقْصِرٌ
 وَلَقَدْ وَنَيْتُ عَنِ التَّذَكُّرِ فِتْرَةً
 سِتُونَ عَامًا قَدْ مَضَتْ قَضَائُهَا
 وَلَقَدْ صَحَوْتُ وَكَانَ صَحْوِي بَعْدَمَا
 وَجَعَلْتُ أَذْكَرُ مَا مَضَى وَكَأَنِّي
 مَهْمَا أَفَاضَ اللَّهُ مِنْ خَيْرَاتِهِ
 وَمَضَى بِلا زَادِ التَّقَى لِمَعَادِهِ
 يَا رَبُّ أَنْتَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الَّذِي
 مَالِي سِوَاكَ خَلَقْتَنِي مِنْ نُطْفَةٍ
 هَبْنِي الْمَتَابَ إِلَيْكَ وَأَقْبَلْ تَوْبَتِي
 يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا اللَّهُ
 أَسْأَلُكَ الْحُسْنَى وَجَلَّ عُلَاهُ
 طُوبَى لِمَنْ أَلْهَمْتَهُ تَقْوَاهُ
 مُسْتَعْتَبٌ مَسْتَرْحِمٌ أَوَّاهُ
 وَالْغُرُّ تُنْسِيهِ غَدًا ذُنْيَاهُ
 بِالْزُّهَاتِ وَتَهْتُ مَعَ مَنْ تَاهُوا
 وَلَى الشَّابَابُ وَلَمْ أَنْلِ جَدْوَاهُ
 مُسْتَيْقِظٌ يَرُوي لَنَا رُؤْيَاهُ
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ أَعْطَاهُ
 لَمْ يَسْتَفِدْ فَالْفُورُ فِي أَخْرَاهُ
 يَشْكُو إِلَيْكَ الْمُبْتَلَى بَلَوَاهُ
 وَالْعَبْدُ مَفْتَقِرٌ إِلَى مَوْلَاهُ
 مَنْ دَقَّ بَابَ الْعَفْوِ نَالَ مُنَاهُ

١٦٢ - يا قَابِلَ التَّوْبِ^١

وَهَلْ لِعَبْدٍ مُسِيٍّ غَيْرَ مَوْلَاهُ	يا قَابِلَ التَّوْبِ إِنَّ الْعَبْدَ أَوَّاهُ
وضاع في التَّيِّهِ مَعَ مَنْ بِأَهْوَى تَاهُوا	قد أَثْقَلَتْهُ المعاصي في مسيرَتِهِ
ودافعُ الخِيرِ يَهْدِيهِ بِذِكْرَاهُ ^٢	أَمَّارَةُ السَّوِّءِ تَصْأَى في مَسَامِعِهِ
بِفَضْلِ جُودِكَ فَاقْبَلْ مِنْهُ نَجْوَاهُ	ناجَاكَ مُسْتَحِيًّا لَكِنْ لَهُ طَمَعٌ
وَامْسَحْ بِمَغْفِرَةٍ عَنْهُ خَطَايَاهُ	وداوِهِ بِمَتَابٍ مِنْ ضَنْى سَرَفٍ
واكْبَحْ جِمَاحَ الْهَوَى يَا مَنْ هُوَ اللهُ	إِنِّي أَنَا الْعَبْدُ يَا رَبِّي فَخُذْ بِيَدِي
يُبَلِّغُ الْحَقَّ وَهَاجَأَ فَأَذَاهُ	أَرْسَلْتَ فِينَا رَسُولًا بِالْهُدَايَةِ كَي
مَنْ يَعْتَصِمُ فِيهِ فَالْفِرْدَوْسُ مَأْوَاهُ	وجاءَنَا بِكِتَابٍ فِيهِ مَوْعِظَةٌ
بحقِّ هَادٍ لَهُ يَوْمَ الْجَزَا جَاهُ	فاجْعَلْ شَفِيعِي خَضُوعِي لِلْقَبُولِ وَجُدْ
قد أَطْمَعْتَ كُلَّ مَنْ يَهْوَاهُ بُشْرَاهُ	عسى مُحِبَّتُهُ في الحُشْرِ تَنْفَعُنِي
في مَنْزِلِ كُلِّ ذِي شَوْقٍ تَمْنَاهُ	فاشْفَعْ رَسُولَ الْهُدَى واقْبَلْ مُصَاحِبَتِي
مَعَ أَلْفِ أَلْفِ سَلامٍ طَابَ رِيَّاهُ	عليكَ أَلْفُ صَلَاةٍ لَا انْقِطَاعَ لَهَا

١ [مناجاة].

٢ تصأى: تصيح.

حرف الواو

١٦٣ - كأس النوى^١

مِنْ بَعْدِ شَرْبِ الْمُرِّ مِنْ كَأْسِ النَّوَى
مَا حَالُ ظَمَآنِ الْفَوَادِ إِذَا ارْتَوَى
فَأَدِمْ وَصَالِكَ فَهُوَ لِي نِعَمَ الدَّوَا
وَإِذَا طَعَنْتُ فَتَحَوْ مُنْعَرَجِ اللَّوَى
مِنْ حُبِّكُمْ وَلِكُلِّ صَبٍّ مَا نَوَى
شَتَّى الْمَحَاسِنِ فَاحْكُمُوا أَهْلَ الْهَوَى
لَيْنٌ وَلَكِنْ لَا يَمِيلُ مَعَ الْهَوَى
جَبَلُ الْعُلُومِ وَقَلْبُهُ وَادِي طُوى
فَلَنِعَمَ جَامِعُهَا وَنِعَمَتْ مُحْتَوَى
وَرِعَايَةٌ يَمُنُّ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى
بِالْحُسْنِ كَسْبًا دُونَ تَقْدِيرِ هَوَى
لِرِشَادِهِ فَغْنَى لَذَلِكَ وَانْضَوَى
أَوْ رَاحَ يَنْقُلُ فَهُوَ أَصْدَقُ مَنْ رَوَى

لِلَّهِ مَا أَحْلَى التَّدَانِي وَاللِّقَا
بِاللَّهِ يَا قَوْمِي صَفُّوا وَلْتَنْصِفُوا
جَسْمِي نَحِيلٌ وَالْبِعَادُ أَكْذَنِي
أَنَا إِنْ حَضَرْتُ فَتَحْتُ رَايَةَ مَا جِدِ
اللَّهُ أَذْرَى بِاللَّذِي أَكُنْتُتُهُ
لَمْ لَا أَحِبُّ وَفِي حَبِيبِي جُمِعَتْ
حِلْمٌ أَنَاةٌ حِكْمَةٌ وَفَصَاحَةٌ
جُودٌ ذِكَاءٌ فِطْنَةٌ وَرَجَاحَةٌ
فَهُمْ ثَبَاتٌ نَجْدَةٌ وَسَمَاحَةٌ
ظَنَّنِي يَقِينِي أَنَّ ذَاكَ عَنَايَةٌ
مَنْ رَامَ جَمْعَ شَمَائِلٍ مَنُوعَتَةٍ
طُوبَى لِمَنْ سَاقَتُهُ أَيْدِي هَدْيِهِ
إِنْ قَامَ يَخْطُبُ فَهُوَ أَخْطَبُ قَائِلٍ

١ بمناسبة عودة شقيقي وأستاذي من الحج والزيارة. [المصدر الأول]

أَوْ هَزَّ جَذَعَ الْقَوْلِ سَاقَطَ مُحْسِنًا
هُوَ لِلْأُمُورِ مُجَرَّبٌ وَمَدْرَبٌ
نَشَرَ الْمَعَارِفَ وَالْفَضِيلَةَ بَعْدَ أَنْ
كَمَّ مُنْكَرٍ عَادَاهُ ثُمَّ أَزَالَهُ
هَذَا الْإِمَامُ الْفَذُّ فَارِعُوا وَدَّهْ
فَأَوُوا إِلَى جَبَلٍ سَيَنْشُرُ رَبُّكُمْ
سَعِدَتِ مَحَلَّتُهُ بِهِ وَبَوَّعَظُهُ
فَمُنَعَمٌ أَهْلَ التَّقَى فِي رَوْضَةٍ
حَقًّا أَقُولُ بِمِثْلِهَا مُتَمَثِّلًا

رَطْبًا جَنِيًّا عَابَهُ عَدَمُ النَّوَى
وَمَدْبَرٌ وَمَقْوَمٌ لِمَنِ التَّوَى
كَادُوا يَقُولُونَ: الْهُدَى لَقَدْ انْطَوَى
مُسْتَنْصَرًا بِالْمُؤْمِنِينَ وَذِي الْقُوَى
يَا سَعْدَ مَنْ هُدَى مُعَلِّمِهِ أَوَى
إِنْ خَفْتُمْ كَيْدَ اللَّعِينِ وَمَنْ غَوَى
وَبَزَجَرِهِ أَهْلَ الضَّلَالَةِ قَدْ كَوَى
مِنْهَا وَأَصْحَابُ الشَّقَاوَةِ فِي جَوَى
وَمُضْمِنًا لَا قَيْتَ خَيْرًا يَا نَوَى

١٦٤ - سَلَّمَ فَوَادَكَ

سَلَّمَ فَوَادَكَ يَا خَلِيًّا مِنَ الْهَوَى
كَمْ شَامِخٍ بِالْأَنْفِ يُظْهِرُ عِزَّةً
أَحْفَظَ نَصِيحَةَ عَارِفٍ وَمُجَرَّبٍ
قَدْ كَانَ يَغْذُلُ مَنْ يَرَاهُ مَتِيًّا
صَادَتْهُ صَيْدُ الْجِيدِ فِي لَفْتَاتِهَا
قَدْ رَامَ ضَرْبَ الصَّفْحِ عَنْ صُحُفِ الْهَوَى
يَا لَيْتَ مَاءَ الْوَصْلِ بَلَّ أَوَامَهُ
لَيْسَ الْعَلِيلُ الْمُسْتَهَامُ بِحُبِّهِ

فَإِذَا ابْتُلِيَتْ بِهِ فَلَنْ تَجِدَ الدَّوَى
وَمَنَاعَةً مُذْ شَيْكَ بِالْأَهْوَا هَوَى
خَارَتْ قِوَاهُ وَكَانَ مُشْتَدَّ الْقُوَى
حَتَّى لَوْنُهُ يَدُ الصَّبَابَةِ فَالْتَوَى
وَلِحَاطُهَا سِحْرَ الْمَدَائِنِ قَدْ حَوَى
وَطَوَى كِتَابَ الْعَاشِقِينَ فَمَا انْطَوَى
لَكِنَّ حَرَّ الشَّوْقِ يُذَكِّهِ النَّوَى^١
وَالْمُسْتَبِدُّ بِمَا يُنَاسِبُهُ سَاوَى

١ الأوام: حرارة العطش.

حرف الياء

١٦٥ - أذرفت عيني عليها^١

أُذِرْفَتُ عَيْنِي عَلَيْهَا	صُفْرَةٌ فِي قَدَمَيْهَا
سَكَنَتِ وَالْقَلْبُ مِنِّي	وَاجِفٌ يَأْسَى عَلَيْهَا
خَلَفَتْ زَوْجاً أَسِيفاً	رُوحُهُ فِي رَاحَتَيْهَا
مَا هَا إِذْ وَدَعْتُنَا	صُورَةً أَخْنُؤَ إِلَيْهَا
بَرَقَ الطَّرْفُ وَلَكِنْ	صُورَتِي فِي مُقْلَتَيْهَا
لَوْ تُقَادِي لَبَدَلْنَا	كُلَّ مَا نَحْوِي لَدَيْهَا
كَمْ تَمَنَيْتُ وَفَاتِي	سَلَفاً بَيْنَ يَدَيْهَا

١ لزوجته الحاجة نوره رحمها الله.

١٦٦ - أشرقت شمس المحيا

وَهِيَ تَسْقِينِي الْحَمِيَّاءَ	أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْمُحْيَا
أَيُّهَا الْمَشْتَاقُ هَيَّا	نَظَرْتَ نَحْوِي وَقَالْتَ
وَرَدَّهَا مِنْ وَجْتِي	إِحْذِرِ الشُّوْكَةَ وَاشْمُ
نِي جَنْبِي مِنْ جَنْبِي	وَاقْطِفِ التُّفَّاحَ مِنْ دَا
بِكِلْتَنِي رَاحَتِي	فَأَخَذْتُ الرَّاحَ بِالْكَأْسِ
لَمْ أَحْرُكْ شَيْئاً	قُلْتُ فِي نَفْسِي مَقَالاً
مُحَرِّمَ مَا رُمْتُ غِيَّاءَ	أَنَا فِي الْحَجِّ إِلَيْهَا
مَطْلَعِ الشَّمْسِ نَجِيَّاءَ	فَارَكَبِ الْجُرْأَةَ وَأَبْلُغْ
حَيَّالَ الطَّيْفِ إِلَيَّ	يَا تُرَى هَذَا مِنْ أَمَامِ
قُرَّةٍ مِنْ مَقْلَتِي	هَبْهُ حُلْماً إِنْ فِيهِ
الدَّهْرَ مَا كَانَ عَلَيَّ؟!	أَهْ لَو دَامَ مِنْ أَمَامِي

والحمد لله أولاً وآخراً